نحو تأصيل إسلامي للتاريخ

الأمة المسلمة

قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم

أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ

جزيرة العرب

الجزء الأول

سيرة هود وصالح وشعيب وسليمان عليهم السلام
وأصحاب الأخدود وأصحاب الفيل

الدكتور جمال عبد الهادي محمد مسعود
الدكتورة وفاء محمد رفعت جمعة

الوفاء للطباعة والنشر

جَزِيرَةُ العَرَب

الجُزْء الأوَّل

الطبعة الثانية ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م

الطبعة الثالثة ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - المنصورة . ش.م.م

الإدارة والمطابع : المنصورة ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب
ت : ٣٤٢٧٢١ / ٣٥٦٢٢٠ / ٣٥٦٢٣٠
المكتبة : أمام كلية الطب ت : ٣٤٧٤٢٣ ص . ب : ٢٣٠ تلكس DWFA UN 24004

جزيرة العرب

الجزء الأول

سيرة هود وصالح وشعيب وسليمان عليهم السلام
وأصحاب الأخدود وأصحاب الفيل

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - المنصورة . ش . م . م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديــــم

بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على محمد خاتم الأنبياء والمرسلين . ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له القائل : ﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيماً ﴾ « صدق الله العظيم » . ونشهد أن محمداً عبد الله ورسوله ، بلّغ الرسالة وأدَّى الأمانة ونصح الأمة فجزاه الله عن الأمة الإسلامية خير ما جازى نبياً عن أمته .

أما بعـــد :

فإن تاريخ الأمة المسلمة تاريخ عريق يضرب بجذوره في أعماق الزمن ، ويمتد لبضعة آلاف من السنين على الأقل ، وعلى أرض الجزيرة العربية التى حرص رسول الله محمد ﷺ أن تتطهر من رجس اليهود والنصارى(١) – عاشت أجيال كثيرة من أبناء هذه الأمة المسلمة .

وعلى أرض الجزيرة العربية ، درج رسل كرام : هود وصالح وشعيب وإبراهيم وإسماعيل – عليهم السلام – وعلى أرض الجزيرة بعثوا ؛ وعليها كان يتنزل جبريل من السماء إلى الأرض ، يحمل التكليف الإلهى لهؤلاء الرسل لدعوة الناس إلى دين الإسلام .

---

(١) قال رسول الله ﷺ : « أخرجوا المشركين من جزيرة العرب » ، رواه البخارى « باب الجزية » ومسلم الوصية . وأبو داود .
المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى ، جـ ٢ ، مطبعة بريل ١٩٤٣ ، ص ٢٢ ؛ وفى رواية لمسلم عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع إلا مسلما » ، مختصر صحيح مسلم ، ص ٣٠٨ حديث رقم ١١٥٣ .

وعلى أرض الجزيرة قام الرسل جميعا يدعون إلى عقيدة واحدة : « اعبدوا الله ما لكم من إله غيره » ويدعون إلى إخضاع الحياة برمتها لنظام الله – عز وجل – وشرعه ، فاستجاب من استجاب ... وكفر من كفر ، وهلك من هلك عن بينة ، ونجا من نجا عن بينة .

هذه الأرض الطيبة – أرض الجزيرة العربية – قد اختصها الله – سبحانه وتعالى – بفضله دون بقاع الأرض جميعا ، فجعل فيها حرمه الآمن وبيته العتيق ، ومكة المكرمة – أحب بقاع الأرض إلى الله – التى جعلها الله مناسك لعباده ، وأوجب عليهم الإتيان إليها من القرب ومن البعد ، من كل فج عميق ؛ فلا يدخلونها إلا متواضعين متخشعين متذللين كاشفى رؤوسهم ، متجردين عن لباس أهل الدنيا . وجعلها حرما آمنا ، لا يسفك فيه دم ولا تعضد به شجرة ولا ينفر له صيد ، ولا يختلى خلاءٍ ولا يلتقط لقطته إلا للتعريف ، وجعل الله سبحانه وتعالى قصده مكفرا لما سلف من الذنوب ، ما حيا للأوزار ، حاطا للخطايا ، كما بين ذلك محمد ﷺ : « من أتى هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه ، ولم يرض لقاصده من الثواب دون الجنة »[(١)] .

ولقد تعرض تاريخ الجزيرة العربية للتشويه والتزييف والتحريف على أيدى المستشرقين اليهود والنصارى والملحدين ، يعاونهم عدد كبير من أبناء العرب والمسلمين ، فحرفوا تاريخ الأنبياء والرسل الذين كان لهم شرف البعثة على أرضها .

كما تعرض تاريخ الدعاة – الذين كان لهم شرف رفع راية التوحيد على أرض الجزيرة – وصحابة محمد ﷺ ، للتزييف والتشويه ، وقبل ذلك كله نال تاريخ الدين الإسلامى القسط الأكبر من التجاهل والتجهيل والتزييف والتشويه . فإذا أراد الدارس المسلم وغير المسلم ، أن يتعرف على التاريخ الحقيقى للأمة المسلمة التى عاشت على أرض الجزيرة العربية ، فلا يكاد يجد مرجعا واحدا من المراجع التى كتبت فى القرن الأخير يعينه على تحقيق رغبته فى الدرس والتحصيل .

---

(١) رواه الشيخان .

ولا يعنى ذلك أنه ليس هنالك مراجع مكتوبة عن الجزيرة العربية ؛ على العكس ما كتب شيء كثير ، لكنه ليس من التاريخ الحقيقى فى شيء .

فإذا استفتى الدارس ، مرجعا عن تاريخ هود وصالح وشعيب ، فسيقرأ أنه خرافة وأسطورة تسبق التاريخ الحقيقى للجزيرة العربية(١) .

وإذا أراد الدارس أن يحصل على معلومات عن مكة المكرمة يجد أنها تاريخ خرافى أسطورى(٢) ، غير صحيح .

وإذا أراد أن يحصل على معلومات عن إبراهيم وإسماعيل ، فإنه يجد أنهما – فى مرجع – شخصيتين غير حقيقيتين(٣) ، وفى مرجع آخر هو شخصية حقيقية ولكنه أبو اليهود ، وعن دينه انبثقت اليهودية والنصرانية(٤) .

وإذا أراد الدارس أن يعرف شيئا عن وصول هاجر وإسماعيل وإبراهيم إلى جوار بيت الله العتيق ، فسيقرأ بأنه ليس من المعقول أن يترك إبراهيم زوجه وابنه بواد غير ذى زرع(٥) .

وإذا أراد القارىء أن يعرف شيئا عن تاريخ الحج فسيقرأ أنه عادة عربية قديمة وثنية(٦) ، لعلها ظاهرة عن عبادة الشمس أخذها محمد ﷺ وجعلها من العبادات فى الإسلام .

وإذا أراد القارىء أن يعرف شيئا عن زمزم فسيقرأ : أن هاجر قد

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ، جـ ١٥ ، ص ٤٥٢ – ٤٥٤ .

(٢) تاريخ العرب عصر ما قبل الإسلام ، ص ١٢٣ ، ١٢٩ ؛ الاتجاهات الوطنية ، جـ ٢ ، ص ٢٩٨ ، ٢٩٩ .

(٣) الاتجاهات الوطنية ، ص ٢٩٩ .

(٤) سياسة الاستعمار والصهيونية ، جـ ١ ؛ دراسات تاريخية من القرآن الكريم ، ص ٦٢ .

(٥) دائرة معارف القرن العشرين ، جـ ، ص ٣٤٣ ، ص ٣٦٠ – ٣٦٢ ؛ ولقد أفردنا رسالة خاصة لسيرة إبراهيم عليه السلام .

(٦) الدعوة إلى الإسلام ، ص ٤٧ ؛ تاريخ العرب المطول ، ص ١٨٥ .

اكتشفت زمزم[١] ، وأن كثرة الشرب من مائها يؤذى شاربه[٢] ، وأن ماءها غليظ كان يخلط باللبن والعسل لتخفيفه[٣] .

وإذا أراد الدارس أن يعرف شيئا عن حقيقة الدين الذى دعا إليه الرسل الكرام فسيقرأ أنه عبارة عن خليط من اليهودية والنصرانية ، والعقائد الجاهلية[٤] ، وأنه من اختراع العقل البشرى .

وإذا أراد الدارس أن يعرف من هم الأحناف[٥] ، ويتتبَّع أخبارهم فسيجد من يقول أنهم المنحرفون عن العبادة العامة[٥] .

وإذا أراد الدارس أن يعرف حقيقة العلاقة التى كانت بين ملكة سبأ وسليمان – عليه السلام – فسيقرأ أنها كانت علاقات غرامية[٦] .

وإذا أراد الدارس أن يعرف شيئا عن حقيقة الأوضاع الفكرية والعقيدية قبل دعوة الرسول، فسوف يقرأ أن الأوضاع الجاهلية تشكل الركيزة التى قام عليها الإسلام[٧] .

وإذا أراد الدارس أن يعرف شيئا عن أصحاب الأخدود مثلا وموقف الدولة الحميرية منهم فسوف يقرأ أنهم كانوا مسيحيين[٨] ، وأنهم كانوا حريصين على قلب نظام الحكم لدولة حمير ولهذا كانت مذبحتهم .

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين ، جـ ٩ ، ط ٣ ، ص ٣٥٤ .

(٢) تاريخ العرب ، عصر ما قبل الإسلام ، ص ٢٠ .

(٣) تاريخ العرب عصر ما قبل الإسلام ، ص ٢١٩ .

(٤) موسكاتى ، الحضارات السامية القديمة ، ص ٢٠٨ ؛ حضارة العرب ؛ ص ١٨ ؛ قصة الحضارة ، جـ ٢ ، م ٤ ، ط ٢ ، ص ٢٣ – ٢٤ ؛ الدعوة إلى الإسلام ، ص ٥٢ ؛ تاريخ العرب العام ، ص ١٣ ؛ تاريخ العرب المطول ، جـ ١ ، ط ٣ ، ص ٨١ ، ١٧٦ .

(٥) دائرة المعارف الإسلامية ؛لفظة حنيف .

(٦) سليمان الحكيم تأليف توفيق الحكيم ؛

(٧) محاضرات فى تاريخ العرب ، ص ١٢٢ – ١٢٤ ، تاريخ العرب قبل الإسلام ، ص ٥ .

(٨) تاريخ العرب قبل الإسلام ، ص ٦١ – ٦٢ .

وإذا أردت أن تعرف شيئا عن محمد ﷺ ، قرأت أنه مصلح ، مدعى نبوة ، مؤسس دين[١] ، متهوس[٢] ، غدار[٣] ... إلى غير ذلك .

وإذا أردت أن تعرف شيئا عن القرآن الذى أنزل عليه أجابوك أنه من تأليف محمد أخذاً عن التوراة والأناجيل المحرفة والأمثال السامية القديمة والأخبار العربية[٤] . وأنه تاريخ مقلوب[٥] .

وإذا بحثت عن الإسلام فى كتبهم ، لا تجد له وجودا قبل بعثة محمد ﷺ ، وإذا سألتهم عن أصل الإنسان قالوا لك : أنه من سلالة الحيوان[٦] ، وإذا سألتهم عن الدين قالوا لك : أنه من اختراع العقل البشرى[٧] ، إلى غير ذلك من الأباطيل التى تمتلىء بها المراجع التاريخية التى تمتلىء بها المكتبات فى بلاد المسلمين .

وقد نجم عن هذا أن أصبحت البشرية عامة والأمة الإسلامية على وجه الخصوص تنظر إلى نفسها وسواها بعدسة صنعتها أيد أجنبية عنها ، أجنبية عن عقيدتها وتاريخها ... ، أجنبية عن مشاعرها وإدراكها ... أجنبية عن اهتمامها بالأمور وإحساسها بالحياة وتقدير الأشياء ، ثم هى بعد ذلك كله مغرضة – فى الغالب – تبغى لها الشر لا الخير ... لأن مطامحها ومطامعها ومصالحها الخاصة وأهدافها القومية ، كلها تدفع بها دفعا لأن تبغى الشر للأمة المسلمة ، لأن خير الأمة المسلمة لا يتفق مع أطماعها ، ولأن استقامة الأمة المسلمة ، تحول بينها وبين التسلط على بنى البشر[٨] .

---

(١) حضارة العرب ، ص ١٨ ؛ تاريخ العرب العام ، ص ١٣ .
(٢) حضارة العرب ، ص ٢٧ .
(٣) قصة الحضارة ، م ٤ ، جـ ٢ ، ط ٢ ، ٤٥ .
(٤) تاريخ العرب المطول ، ص ١٧١ – ١٧٣ .
(٥) قصة الحضارة ، جـ ٢ م ٤ ، ط ٢ ، ص ٥٠ – ٥٢ .
(٦) معالم تاريخ الإنسانية ، المجلد الأول ؛ تاريخ العالم ، المجلد الأول ؛ موسوعة تاريخ العالم ، المجلد الأول .
(٧) نفس المراجع السابقة ، تطور الفكر والدين ؛ ديانة مصر القديمة ، ص ٤ .
(٨) فى التاريخ ، فكرة ومنهاج .

كما أن أخطاء المنهج غير الإسلامى ، الذى اتبع فى كتابة تاريخ البشرية وتاريخ الأمة المسلمة ، كانت كفيلة ، بأن تشوه الحقائق التاريخية - وخاصة من ناحية العقيدة السليمة والدين الصحيح الذى ارتضاه الله للبشرية - فى غير صالح الأمة المسلمة .

وهذه جريمة ترتكب فى حق الأمة المسلمة ، التى من صالحها أن ترى حقيقة دورها فى تاريخ البشرية ، وأن تعرف مكانتها فى خط سير التاريخ ، وأن تتبين قيمتها فى العالم الإنسانى . وليست فائدة هذا فائدة نظرية فكرية مجردة ، بل إنَّها أكبر من ذلك وأشمل ، فعلى ضوئها يمكن للأمة المسلمة أن تحدد موقعها الحاضر ودورها فى المستقبل ، وأن تسير فى أداء هذا الدور على هدى ومعرفة بالظروف والعوامل العالمية المحيطة بها ، بعد ما تتخذ من الوسائل والأسباب اللازمة لمواجهة هذه الظروف وتلك العوامل .

والمؤسف حقا ، أن دور العلم ، التى أنشئت أساسا ، لتربية الشباب المسلم ، الأساس الضرورى لبناء الأمة المسلمة ، دأبت على تلقين الأجيال تاريخا إسلاميا مشوها ، وتاريخا جاهليا ضخما ، لا عن مجرد خطأ غير مقصود ، ولكن عن نية خبيثة من الاستعمار الغربى والصليبية والصهيونية العالمية التى يهمها أن لا تجد الأمة المسلمة فى تاريخها ما تعتز به ، وأن ترى أوروبا - كنموذج للجاهليات - على العكس ، هى صاحبة الدور الأول فى التاريخ الإنسانى . فإذا يئست الأمة المسلمة من ماضيها بعد أن استعرضت دورها فى حياة البشرية . وامتلأت نفوسها إعجابا بالدور الذى قامت به أوروبا ، وإكبارا وإجلالا للرجل الأبيض ، سهل قيادها على الاستعمار وذلت رقابها له .

ولذلك فإنه وضعا للأمور فى نصابها ، لابد من عرض تاريخ الجزيرة العربية بعد تنقيته من الأخطاء التى ألحقها به كتاب التاريخ من المستشرقين ومن سار على نهجهم .

لإثبات الدور الذى أداه الإسلام والأمة المسلمة منذ رسالة نوح عليه السلام إلى زمن رسالة محمد ﷺ والدور الذى لعبته الجاهليات ومنها الجاهلية العربية بعد ما يصور طبيعة الدين الإسلامى وطبيعة النظام الذى ينبثق منه ومدى

ما منح البشرية من الخير والتقدم . وضخامة الدور الذى أداه لبنى الإنسان .

وسوف يكون لهذا التصحيح قيمة فى حساب المصلحة الإنسانية العامة ، فكم لأخطاء التاريخ من أثر فى إقامة الحواجز بين بعض الأمم وبعض العناصر وبعض الكتل ، وكم لها من أثر فى سوء تقدير الجماعات للجماعات والأجناس للأجناس والأفراد للأفراد والعقيدة والمبادىء والحضارات ، وكل هذا يؤذى البشرية فى حاضرها ويؤذيها فى مستقبلها .

كما أنَّه من حق البشرية الضالة اليوم أن تحصل على صورة صحيحة لتاريخ البشر على الأرض ومن الإجرام فى حقها تزوير ذلك التاريخ ، وإعطائها معلومات مضللة وخاصة فى مجال العقيدة . ومن الأمانة العلمية أن يمتنع من يسمون بالعلماء ، وخاصة الذين يرسمون للناس صورة القرون الخوالى ، عن تقديم كتابات يعلمون أنها غير صحيحة ، كما أنه من واجب القادرين إزالة أخطاء التاريخ وإزالة آثارها وتصحيحها التصحيح الواجب لأنه ليس من مصلحة الإنسانية أن ترى الحياة كلها من زاوية واحدة لا تكشف عن كل جوانبها . وأن تسودها فكرة خاطئة عن ماضيها وحاضرها ، وأن تجهل الدوافع الكاملة لسيرها وتحركها ، والقيم الأساسية لحياتها وحضارتها ، لأن هذا الجهل لينشىء أخطاء عميقة الأثر لا فى التصور والتفكير فحسب ، ولكن فى علاقات الأمم بعضها ببعض ، وفى علاقات الكتل الدولية بعضها ببعض ، كما ينشىء أخطاء بعيدة المدى فى تكييف سياسة كل أمة وتوجيهها ، هذه الأخطاء ينشأ معظمها عن سوء دراسة التاريخ البشرى وسوء تقدير الدور الذى قام به الإسلام والذى يمثله العالم الإسلامى ، هذا العالم الذى يمثل وحدة إنسانية شاملة لها كل خصائصها المستقلة ويمثل قوة إنسانية ثابتة لا يؤثر ضعفها العسكرى الطارىء إلا تأثيرا عارضا فى وزنها الحقيقى .

على أن يوضع فى الاعتبار أن التصحيح لا يمكن أن يطلب إلا من باحث مسلم صاحب عقيدة سليمة ، أى أن يكون له عقلية إسلامية فى صميمها ، مشربة بالروح الإسلامية ، لكى تدرك العناصر الأساسية فى الحياة وتحسها وتتجاوب معها ، فتستكمل كل عناصر التفسير والتقدير للحكم على هذه

الحياة ... وبذلك يمكن للحياة الإسلامية أن تعطى كل أسرارها وأشعاعاتها ، وتتكشف بكل عناصرها ومقوماتها .

إن التصحيح لا يمكن أن يطلب إلا من باحث مسلم يعيش بعقله وروحه وحسه فى جو الإسلام كعقيدة وفكرة ونظام ؛ .... حتى يستطيع إدراك الحياة البشرية فى ظل العقيدة الإسلامية ، إدراكا حقيقيا داخليا متجاوبا معها بكل ذاتيته ، عائشا فى جوها بكامل مؤثراتها وإيحاءاتها ....

إن التصحيح لا يمكن أن يطلب إلا من باحث مسلم درس الحياة الإسلامية ، وأدرك إدراكا كاملا روح العقيدة الإسلامية وطبيعة الفكرة الإسلامية عن الكون والحياة والإنسان ، وأدرك أيضا طبيعة استجابة المسلم لتلك العقيدة بل وطريقته فى الاستجابة للحياة كلها فى ظل العقيدة .

* * *

الفصــل الأول

المصادر والمراجع التى يمكن الاعتماد عليها فى دراسة وكتابة أخبار القرون الأولى من حياة الجزيرة العربية :

أولا : مصادر أساسية :

(أ) القرآن الكريم ، وما يتصل به من كتب التفسير مثل :

١ - جامع البيان عن تأويل آى القرآن[١] ، تأليف أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى (ت ٣١٠ هـ) .

٢ - الجامع لأحكام القرآن ، تأليف أبى عبدالله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى ، دار إحياء التراث العربى بيروت (ت ٦٧١ هـ) .

٣ - تفسير القرآن العظيم ، تأليف إسماعيل بن كثير القرشى الدمشقى (ت ٧٧٤ هـ) .

٤ - ويدخل فى ذلك الكتب التى تبحث فى أسباب نزول السور والآيات ، مثال :

- أسباب النزول ، تأليف أبى الحسن على بن أحمد الواحدى النيسابورى (ت ٤٦٨هـ) ؛ والكتب التى تذكر الآيات الناسخة والمنسوخة ، مثال : الناسخ والمنسوخ ، تأليف ابن حزم الأندلسى (ت ٤٥٦ هـ) .

(ب) حديث النبى محمد ﷺ وما يتصل به من شروح[٢]، ومجاميع الحديث كثيرة منها :

---

(١) وهو تفسير تاريخى يفسر الآيات بذكر الأحوال التاريخية والاجتماعية التى رافقت نزول الآيات ، وقد نحى الطبرى المؤرخ فى التفسير منحى يتلخص فى استقراء جميع روايات الحديث وروايات التاريخ وروايات الآداب التى وردت فى تفسير الآيات ، ثم يفاضل بين تلك الروايات ويرجح ما يراه فى نظره أقرب إلى الواقع ، مما لا يعارض نص القرآن . وابن جرير يسلك فى التفسير مسلكا سلفيا .

(٢) والحديث هو الأقوال التى رويت عن محمد ﷺ. وقد وصل الحديث إلينا نقلا عن رسول الله،=

- صحيح أبى عبد الله البخارى (١٩٤ - ٢٥٦ هـ) .
- صحيح مسلم (٢٠٤ - ٢٦٨ هـ) .
- سنن أبى داود (٢٠٢ - ٢٧٥ هـ) .
- والموطأ للإمام مالك (ت ١٧٩ هـ) .
- ومسند الإمام أحمد بن حنبل .
- سنن الدارمى (ت ٢٢٥ هـ) .
- سنن الترمذى (٢٠٩ - ٢٧٩ هـ)
- سنن النسائى (٢١٥ - ٣٠٣ هـ) .
- سنن ابن ماجه (٢٠٩ - ٢٧٣ هـ) .
- صحيح الجامع الصغير وزيادته تأليف محمد ناصر الدين الألبانى ، ط ٣ بيروت ١٤٠٢ .
- سلسلة الأحاديث الصحيحة تأليف محمد ناصر الدين الألبانى . ط ٣ ، المكتب الإسلامى ، بيروت ، ١٤٠٣ هـ .

ومن الشروح :

- فتح البارى بشرح صحيح البخارى ، تأليف أحمد بن على بن حجر العسقلانى (ت ٨٥٢ هـ) .

=نقله أصحابه عنه، ثم أدوه إلى الجيل الذى خلفهم، وأهل هذا الجيل أدوه إلى من تلاهم ، جيلا بعد جيل ، حتى وصل إلى الذين دونوه . وللحديث سند يجب أن يكون متصلا وأن يكون كل راو قد عرف الذين روى عنهم . كما يجب أن يكون جميع رجال السند (جميع هؤلاء الرواة) ثقاتا مشهودا لهم بالإيمان والصدق والعلم والنزاهة .. على أن الاستيثاق فى رواية الحديث ، بصحة الرواية وحدها لا يكفى ، يجب أن يكون للمحدث ، أى للعالم الذى يحفظ الحديث ويحدث به الناس دراية (وهى علم بالأحاديث المروية عن رسول الله ﷺ فيما يتعلق بمعناها ، وألفاظها وبالأحوال التى قيلت فيها ، وبالغرض المقصود منها يوم قولها) . وقد يكون الحديث صحيحا ثابتا عن رسول الله ﷺ ولكنه منسوخ - أى أبطل العمل به فى زمن رسول الله ﷺ نفسه - فعلى المحدث إذن أن يكون جامعا بين صحة الرواية فى الحديث وبين سعة الدراية به وبالأحوال الملابسة له . هذه الأصول فى الاستيثاق من صحة الحديث تُعرف عند العلماء المسلمين باسم « مصطلح الحديث » (انظر علوم الحديث ومصطلحاته ، تأليف د. صبحى الصالح ، ط ١٠ ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٣٩٨ .

- صحيح مسلم بشرح النووى ، تأليف يحيى بن شرف النووى .

وللحديث الشريف أيضا ناسخ ومنسوخ منها :

- الاعتبار فى بيان الناسخ والمنْسوخ من الآثار ، تأليف محمد بن موسى الحازمى (٨٥٤ هـ) ، حيدر آباد .

ثانيا : المصادر الثانوية :

(أ) كتب التاريخ عند العرب منها :

١ - تاريخ الرسل والملوك ، لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى ، دار المعارف ، القاهرة .

٢ - البداية والنهاية ، لإسماعيل بن كثير القرشى .

٣ - الكامل فى التاريخ لابن الأثير .

٤ - العبر ، لابن خلدون .

(ب) كتب الجغرافية ، منها :

- صفة جزيرة العرب للهَمْدانى .
- معجم البلدان لياقوت الحموى .

(جـ) الأدب العربى قبل بعثة محمد ﷺ ، ويشمل الشعر والنثر الذى وصل إلينا مرويا عن ذلك العصر ، وقد تأخر تدوينه ، كما أن رواته لم يحرصوا على ضبطه وصحته .

١ - من دواوين الشعراء الجاهليين المطبوعة : ديوان أمية بن أبى الصلت .

٢ - من مجاميع النثر :

- أمثال العرب للضبِّى .
- المستقصى فى أمثال العرب للزمخشرى .
- جمهرة خطب العرب لأحمد زكى صفوت .

(د) كتب اللغة العربية :

١ - القواميس العربية ، والقاموس العربى ليس للمفردات اللغوية فحسب بل هو

فى الحقيقة يجمع المفردات اللغوية والمعارف الجغرافية والتاريخية والعلمية والعملية والفنية . ومن أجل ذلك كانت كتب اللغة العربية ومعاجم اللغة خاصة مصادر مهمة للحياة لعصر ما قبل رسالة محمد ﷺ . ومنها :

(أ) تاج العروس للمرتضى الزبيدى .

(ب) لسان العرب لابن منظور .

(جـ) القاموس المحيط للفيروز آبادى .

٢ - كتب فى اللغة ، تجمع بين مفردات اللغة وسائر المعارف اللغوية ، مع الاستطراد إلى الأدب والجغرافية والتاريخ والاجتماع منها :

(أ) المزهر فى علوم اللغة للسيوطى .

(ب) أنساب الخيل فى الجاهلية والإسلام لأبى المنذر هشام بن أحمد الكلبى.

٣ - كتب النحو . مثال :

- المفصل للزمخشرى .

* * *

الفصـــل الثانى

الجــزء الأول

قـــوم عـــاد
وسيرة هود عليه الســـلام

من هم عاد ؟ ومن هو هود ؟ – عليه السلام – وإلى من ينتسبون ؟ وأين كانت منازلهم ؟ ومن أين أتوا ؟ ما مدى التمكين الذى تحقق لهم فى أرض الله ؟ وهل قامت لهم دولة ؟ وما هى الحدود التى كانت عليها ؟ وهل يمكن تحديد زمن تقريبى لها ؟ هل يمكن التعرف على جوانب من تاريخهم الفكرى والعقدى والسياسى والاجتماعى والاقتصادى ؟.

ما هى مصادر[1] ومراجع معلوماتنا، عن هود عليه السلام وقومه عاد ؟ وما هى الاستفادة التى يمكن أن تعود على الدارس لتاريخ عاد وسيرة نبيهم هود عليه السلام ؟

أسئلة كثيرة تدور فى ذهن الراغب فى التعرف على تاريخ العاديين وسيرة النبى الذى بعث فيهم وهو هود عليه السلام .

وسنحاول – بإذن الله – اعتمادا على الله ثم على ما بين أيدينا ، من مصادر موثقة الإجابة على هذه الأسئلة بقدر الاستطاعة ، دون أن نتطرق إلى محاولة إدراج أى من الافتراضات التى لا تعتمد على وثائق صحيحة ، توفيرا لجهد القارىء والباحث ، حتى ينصرف إلى ما يفيده فى دنياه وأخراه .

---

(١) القرآن الكريم ، الأعراف ٦٥ – ٧٢ ؛ هود ٥٠ – ٦٠ ؛ الشعراء ١٢٣ – ١٤٠ ؛ فصلت ١٥ – ١٦ ، الأحقاف ٢١ – ٢٦ ؛ الذاريات ٤١ – ٤٢ ؛ القمر ١٧ – ٢١ ؛ جامع البيان عن تأويل أى القرآن ؛ تفسير القرآن العظيم ؛ البداية والنهاية .

حرص المستشرقون « اليهود والنصارى » ومن سار على نهجهم ، وهم يعرضون تاريخ بنى آدم ، على تجاهل سيرة النبيين هود وصالح عليهما السلام ، واعتبروهما من التاريخ الأسطورى الذى يسبق التاريخ الحقيقى للجزيرة العربية ، وهم بذلك يتبنون المنهج التوراتى اليهودى - المزيف - الذى يتجاهل سيرة هذين النبيين الكريمين .

وانطلاقا من هذا المبدأ فقد ذهب الكتاب إلى التشكيك فى كون « عاد » و « ثمود »[1] قد وجدوا أصلا فى الجزيرة العربية ، كما ذهب بعض أولئك الكتاب إلى التشكيك أيضا فى كون « عاد »[2] عاشوا فى جنوب الجزيرة العربية ، وكون ثمود قد عاشوا فى شمال الجزيرة العربية ، متجاهلين بذلك ما ورد عن عاد وثمود فى المصادر الإسلامية ؛ وخاصة القرآن الكريم .

---

(١) يعتبر محمد مبروك نافع فى كتابه « تاريخ العرب » ، عصر ما قبل الإسلام ، القاهرة ١٩٥٢ م ص ٣٠ - ٣١ عادا وثمود من العرب البائدة «الذين بادوا وانطمست معالم أخبارهم منذ ما قبل الإسلام»، ويقول : « وإن جمهرة المستشرقين يعتقدون أن ما يسمى العرب البائدة (ومنهم « عاد » و « ثمود ») ليس من التاريخ الحقيقى فى شىء ، إنَّما هو جزء من الميتولوجيا العربية أو التاريخ الأسطورى الذى يسبق عادة التاريخ الحقيقى لكل أمة ، وهم إذا عالجوا تاريخ بعض قبائل العرب البائدة فى كتبهم فإنَّما يعالجونها على هذا الأساس فحسب » . ويذهب نفس المذهب ، ل . أ . سيديو فى كتابه تاريخ العرب العام ، القاهرة ١٣٨٩ هـ ، ص ٣١ ؛ و ول . ديورانت فى كتابه قصة الحضارة ، جـ ٢ ، م ١ ، ٣ ، القاهرة ١٩٦١ م ، ص١٧١، وجورجى زيدان ، العرب قبل الإسلام ، القاهرة ، ص ٧٢، ٧٥ - ٧٦؛. وكذلك دائرة المعارف الإسلامية ، المجلد ١٥ ، ص ٤٥٢ - ٤٥٤ التى تقول نصا : « هل وجدت حقا أمة تسمى عاد وفى أى مكان عاشت ؟ فلا تزال بلا حل . وأنساب قوم عاد التى قال بها العرب لا قيمة لها بطبيعة الحال وكذلك قولهم بأن هؤلاء كانوا ينزلون الصحراء البلقع ، بين عمان وحضرموت » ، « ويعتبر فلهاوزن عاداً أمة أسطورية » .

(٢) زعم بعض المستشرقين أن قوم عاد كانوا يسكنون شمال غرب شبه الجزيرة العربية ومن هؤلاء « إشبرنجر » A. Sprenger فى كتابه « جغرافية (جزيرة) العرب القديمة ، ص ٢٠٧ ؛ وفورستر C. Forster فى كتابه الجغرافية التاريخية لجزيرة العرب جـ ٢ ، ص ٣٢ . وهذا ما زعمه الأثريون نتيجة الحفائر التى أجروها هورسفيلد ، سافينياك ، وجليدن ، فزعموا أن مكان عاد كان فى جبل « رم » على بعد ٢٥ ميل إلى الشرق من العقبة . انظر دراسات تاريخية من القرآن الكريم (١) فى بلاد العرب تأليف د . محمد بيومى مهران ، ص ٢٤٣ - ٢٤٩ ؛

كما حرص كتاب التاريخ المحدثين على ترديد التقسيمات التى وردت فى التوراة وكتب بعض الإخباريين ، والتى تجعل العرب طبقات ، وتجعل عادا وثمودا من القبائل العربية البائدة :

وطبقات العرب كما ترددها كتب التاريخ :

(أ) عرب بائدة ومنها عاد وثمود . وإن كان ابن كثير يعتبرهم من العرب العاربة ، (البداية والنهاية ، جـ ١ ، ص ١٢٠ - ١٣٠) .

(ب) وعرب باقية ، وتنقسم إلى قسمين :

أولا: عرب الجنوب (اليمن) وهم العرب العاربة أو العرباء أو القحطانية نسبة إلى يعرب بن قحطان بن عابد من سلالة نوح عليه السلام .

ثانيا: عرب الشمال (الحجاز ، وتسمى العرب المستعربة أو المتعربة أو العدنانية نسبة إلى معد بن عدنان[١] من سلالة إسماعيل بن إبراهيم - عليهما السلام -. ثم يتبعون هذه التقسيمات[٢] بعض التحليلات والتفسيرات لخدمة المخطط الاستشراقى ؛ منها : ما قاله محمد مبروك نافع ، ترديدا لأقوال المستشرقين تفسيرا لكلمة « بائدة » : « بأنهم (بادوا) وانطمست أخبارهم » . مع العلم ، بأن القرآن الكريم قد حفظ لنا أخبار عاد وثمود تفصيلا - أى أن أخبارهم لم تطمس . والمستشرقون يهدفون بذلك إلى التشكيك فى القرآن معجزة الإسلام ، على اعتباره أنه المصدر الوحيد لمعلوماتنا عن هؤلاء الأقوام .

ومنها أيضا التشكيك فى عروبة إسماعيل ففى زعمهم ، أن إسماعيل ليس عربيا أصيلا ، ولكنه من العرب المستعربة أو المتعربة ، الذين اكتسبوا اللسان العربى ، وبالتالى فإنهم يريدون أن يصلوا من وراء ذلك إلى أن محمدا ﷺ ليس عربيا خالصا ، فهو غريب عن العروبة .

---

(١) سلسلة النسب من عدنان إلى إسماعيل محل خلاف بين المؤرخين ، مع الاتفاق على أن عدنان ينتهى نسبه إلى إسماعيل . ويروى أن النبى ﷺ إذا انتسب لم يتجاوز عدنان .

(٢) جواد على ، المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ، جـ ١ ، جورجى زيدان ، العرب قبل الإسلام .

والإخباريون لم يقصدوا بتقسيماتهم ما زعمه المستشرقون ومن سار على نهجهم من تفسيرات ، فالدارس المسلم له أن يرفض هذه التفسيرات الاستشراقية ، خاصة أنها تخدم الباطل الذى يهرف به الكتاب الذين يمقتون الإسلام وأهله ، ويمكننا بإذن الله فى نفس الوقت أن نقدم تفسيرا لتقسيمات الإخباريين ، لن يكون مجافيا للصواب ، ولا تأباه معانى اللغة العربية ، وبه قال المفسرون ، فكون المؤرخين قد ذكروا عن عاد وثمود أنهم من العرب البائدة فهذا صحيح ، ولكنهم لا يقصدون المعنى الذى ذهب إليه المستشرقون وأعوانهم ، بل يقصدون أن الله عز وجل لم يجعل للكفار منهم خلفا وأبادهم عن آخرهم لكونهم كفروا بالله – عز وجل – ولأنهم لا يلدوا إلّا فاجرا كفارا ؛ ولكن ظلت أخبارهم عالقة بأذهان العرب ، كما أن الله قد حفظها لنا فى قرآن يتلى إلى يوم الدين . والدليل على ما نذهب إليه قوله تعالى : ﴿ كذبت ثمود وعاد بالقارعة . فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية . وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية . سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما ، فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ، فهل ترى لهم من باقية ﴾[1] . يقول المفسرون : أى هل تحس منهم من أحد من بقاياهم أو ممن ينتسب إليهم ؟ بل بادوا عن آخرهم ، ولم يجعل الله لهم خلفا[2] . كما أن أخبار عاد وثمود التى وردت فى القرآن تؤكد هذا المعنى ، وتأبى التفسير الاستشراقى ، أى أن الذين بادوا هم الذي كفروا ، أما الذين آمنوا فقد شملهم الله برحمته ، أى أن الإبادة الكاملة لم تحدث إلا للكافرين من قوم عاد : ﴿ ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ، ونجيناهم من عذاب غليظ ﴾ .

أما مسألة التشكيك فى عروبة إسماعيل عليه السلام ، فليس من المتصور أن الإخباريين المسلمين يقصدون إلى ذلك ، وهم يعلمون أن كل من تحدث بالعربية فهو عربى[3] .

---

(١) الحاقة : ٤ – ٨ .
(٢) تفسير القرآن العظيم ، جـ ٤ ، ص ٤١٢ .
(٣) عن أبى هريرة – يرفعه– قال « من تكلم العربية فهو عربى . ومن أدرك له اثنان فى الإسلام فهو عربى » . =

كما أن أصول الإسلام تأبى هذا التفسير الذى أعطاه كتاب التاريخ المستشرقين ومن سار على نهجهم من أبناء العرب والمسلمين كما سنبين فيما بعد .

إذن يمكن القول بيقين :

بأن أخبار عاد ورسالة هود – عليه السلام – فيهم ، وأخبار ثمود ورسالة صالح – عليه السلام – فيهم ، هى من التاريخ الحقيقى ،وليست من التاريخ الأسطورى ، وإنكار هذه الأخبار وتلك الرسالات من المسلمين يمس الاعتقاد الصحيح لهم ، لأن المسلمين مطالبون بالإيمان بكل الأنبياء والمرسلين : ﴿ كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله ﴾[1] . كما أن إنكار أخبار تلك الأمم والرسل الذين بعثوا فيهم يقوم على منهج معاد للإسلام يهدف إلى تشكيك الأمة المسلمة فى دينها وقرآنها .

إذن أين كانت تسكن عاد وهود عليه السلام ؟ ومن أين أتوا ؟ وإلى من ينتسبون ؟ :

لقد تبين لنا أن نواة المجتمع البشرى المسلم الأول تمثلت فى آدم وزوجه وبنيه الذين تناسلوا وتكاثروا وواصلوا تعميرهم للأرض التى استخلفهم[2] الله فيها ، وفى هذه الأثناء كان الشيطان وحزبه يباشرون نشاطهم لاجتيال آدم وبنيه عن دينهم ، واستمر الصراع بين حزب الشيطان وحزب الرحمن ، حتى جاء الوقت الذى نجح فيه حزب الشيطان من اجتيال عدد كبير من أبناء آدم عن دينهم وهو الإسلام ، فأرسل الله – سبحانه وتعالى – نوحا إلى الناس يدعوهم

= وعن رسول الله ﷺ : أيها الناس ، إنَّ الربَّ ربّ واحد ، والأبَّ أبّ واحد ، والدين واحد ، وإن العربية ليست لأحدكم بأب ولا أم . إنما هى لسان . فمن تكلم بالعربية فهو عربى » (انظر اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم ، تأليف شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى (٦٦١ – ٧٢٨ هـ) ، مطابع المجد التجارية ، ص ١٦٨ – ١٦٩ .

(١) البقرة : ٢٨٥ .

(٢) تاريخ الأمة الواحدة المسلمة ، للمؤلفين (تحت الطبع) دار الوفاء .

إلى العودة إلى دينهم وربهم[١] ﴿ واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله ، فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلى ولا تنظرون . فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجرى إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾[١] .

وقد استجاب لنوح بعد تسعة قرون ونصف من الدعوة إلى الله ، عدد قليل من قومه ، أعلنوا إسلامهم لله – عز وجل – بينما كفرت الغالبية العظمى من أفراد الأمة ، فأرسل الله الطوفان ، واستأصل شأفة الكافرين من قوم نوح من على وجه الأرض المعمورة فى ذلك الزمان ، وهى المنطقة – وهذا احتمال – التى تقع فى إيران والعراق حاليا[٢] .

وبعد إهلاك الكافرين من قوم نوح – عليه السلام – صدرت الأوامر الربانية إلى الأرض والسماء : ﴿ وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى ، وغيض الماء وقُضِـىَ الأمر واستوت على الجودى ، وقيل بعدا للقوم الظالمين ﴾ .

ونزل نوح ومن معه من المؤمنين فى أرض السواد والجزيرة « أرض سومر » ، وأقاموا بها ما شاء الله لهم أن يقيموا ، وكانوا على الإسلام .

وكان لنوح – عليه السلام – بالمدينة أبناء هم : سام وحام ويافث ، تفرقوا فى الأرض بعد الطوفان ، فذهب الأول إلى جنوب جزيرة العرب

---

(١) يونس : ٧١ – ٧٢ وقد قدر المؤرخون المسلمون الفترة الزمنية التى كانت تفصل بين آدم ونوح بعدة آلاف من السنين ، (كانت عشرة أجيال على الأقل) كلهم على الإسلام كما بينا اعتمادا على الحديث الصحيح عن محمد رسول الله ﷺ (قال الحافظ أبو حاتم بن حبان فى صحيحه حدثنا محمد بن عمر بن يوسف حدثنا محمد بن عبدالملك بن زنجوبة حدثنا معاوية بن سلام عن أخيه زيد بن سلام سمعت أبا سلام سمعت أبا أمامة أن رجلا قال يا رسول الله أنبى كان آدم ؟ قال : نعم مكلَّم. قال فكم كان بينه وبين نوح ؟ قال : (عشرة قرون) . يقول الحافظ ابن كثير . وهذا على شرط مسلم ولم يخرجه . وفى صحيح البخارى عن ابن عباس رضى الله عنه قال كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام (البداية والنهاية ، جـ ١ ، ص ١٠١).

(٢) والتى كانت تسمى قديما مركز إقليم عيلام (أرض السوس) وأرض الجزيرة والسواد ، دلتا دجلة والفرات ، على اعتبار أنه قد عثر فى أرض السوس على أقدم حضارة إنسانية متقدمة على سطح الأرض عمرها – حسب تقدير المشتغلين بالأبحاث الأثرية – عشرون ألف عام .

(اليمن) ، وذهب الثانى إلى أفريقية واستقر فيها ، وذهب الثالث إلى أوروبا وعاش فيها[1] .

---

(١) نخلص إلى هذه النتيجة من حديث رسول الله ﷺ ، صحيح ابن حبان عن أبى ذر فى حديثه الطويل فى ذكر الأنبياء والمرسلين قال فيه : « منهم أربعة من العرب هود وصالح وشعيب ونبيك يا أبا ذر (البداية والنهاية ، جـ ١ ، ص ١٢١) .

والحديث الآخر لرسول الله ﷺ . قال الإمام أحمد حدثنا عبدالوهاب ، عن سعيد عن قتادة عن الحسن عن سمرة أن النبى ﷺ قال : « سام أبو العرب وحام أبو الحبش ويافث أبو الروم » ، (البداية والنهاية ، جـ ١ ، ص ١١٥) كما أن المؤرخين المسلمين دائما يرجعون نسب عاد وثمود إلى نوح عليه السلام . ولقد أقام المستشرقون اليهود والنصارى ومن سار على نهجهم ، دراسات عرقية وجنسية تستغل هذا التقسيم ، اعتمادا على التوراة المزيفة ، وتجعل الأفضلية لسام على حام ، وتجعل الأخير وأبناءه عبيدا للأول ، لخدمة قضايا اليهود التى تجعلهم شعبا لله مختارا ، وتجعل من دونهم حميرا . هذه الدراسات تدخل تحت اسم الأنثروبولوجى والأثنولوجى (انظر : تاريخ العالم بالمجلد الأول ، معالم تاريخ الإنسانية ؛ موجز تاريخ العالم ؛ الموسوعة الأثرية العالمية) .

والمنهج الإسلامى للدراسات التاريخية لا يعرف تفاضلا بين أبناء آدم على أساس الجنس أو العرق ، فالكل أصله واحد ، ولا تفاضل بينهم إلا بالعمل الصالح ، إلا بالتقوى . والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام . إنَّ الله كان عليكم رقيبا ﴾ . (النساء : ١) ؛ وقوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس إنَّا خَلَقْنَاكُم مِنْ ذَكَر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم ، إنَّ الله عليم خبير ﴾ . (الحجرات : ١٣) .

وقول رسول الله محمد ﷺ : « يا معشر قريش إنَّ الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية ، وتعظيمها بالآباء ، الناس من آدم وآدم من تراب » ؛ وقوله ﷺ : « الناس فى الإسلام سواء ، الناس طف الصاع لآدم وحواء ، لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى إلا بتقوى الله ، ألا هل بلغت ، قالوا نعم ، قال : اللهم فاشهد » ، انظر أيضا اقتضاء الصراط المستقيم ، ص ١٤٤ .

كما أن الأمة الشاهدة لا تنتمى إلى الجنس السامى أو الحامى أو اليافثى ، وإنَّما الأمة الشاهدة هى الأمة المسلمة بدليل قول الله تعالى : ﴿ وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير ﴾ ، (الحج : ٧٨) .

وبهذا يمكن القول أن المنهج الإسلامى للدراسات التاريخية لا يهتم بقضية الجنس أو اللون ، وإنَّما الذى يهمه بالدرجة الأولى قضية الدين والإيمان والتقوى ، وهى مقياس المفاضلة الحقيقى والصحيح بين بنى آدم عليه السلام .

إذن سام بن نوح قد نزح إلى جزيرة العرب بعد الطوفان . وقد استقر فى جنوبها (اليمن) بأرض يقال لها « الشِّحْر » تشرف على البحر[1] ». قادما ومن معه من أرض السواد والجزيرة (دلتا دجلة والفرات). ومما لا شك فيه أن سام بن نوح كان مسلما موحدا ، وربى أبناءه وأحفاده على الإسلام الذى تلقاه عن أبيه نوح – عليه السلام – عن الوحى عن الله – عزّ وجل – وذلك يعنى ، أن سام ابن نوح هو أبو العرب ، ويعنى أن أول دين عرفته جزيرة العرب هو الإسلام . واستمرت أجيال لا يعلمها إلا الله – فى الجزيرة العربية وغيرها – على الإسلام ، إلى أن نجح الشيطان مرة أخرى فى اجتيال « عاد » أحفاد سام بن نوح عن دينهم (وهو الإسلام) فكانوا أول من عبد الأصنام بعد الطوفان ، وكانت أصنامهم ثلاثا ، صدا وصمود وهباء . فأرسل الله لهم رسولا منهم هو هود – عليه السلام – يدعوهم إلى العودة إلى دينهم وتوحيد ربهم وإلههم، ولا يعنى ذلك أن صورة الشرك والوحيدة فى حياة « عاد » هى عبادة الأصنام ، وإنَّما كان له مظهر آخر يتمثل فى التلقى عن غير الله فى شئون حياتهم ، وصد الناس عن دين الله عز وجل .

ونحن حين نقول : أن عادا كانوا يقيمون فى جنوب الجزيرة العربية فإنَّما يأتى ذلك اعتمادا على النص القرآنى الذى يقول : ﴿ واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف ، وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا إلَّا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾[2] . يقول ابن كثير فى البداية والنهاية ، جـ ١ ، ص ١٢٠ : « كانوا عربا يسكنون الأحقاف ، وهى جبال الرمل ، وكانت باليمن : من عمان وحضرموت بأرض مطلة على البحر يقال لها الشِّحْر ، واسم واديهم مغيث » .

ولا يعنى ذلك أن وجودهم كان محصورا فى هذه البقعة من الأرض ، وهى

---

(١) الأحقاف ٢١ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ٤ ، ص ١٦٠ ، ١٦١ ؛ البداية والنهاية ، جـ ١ ، ص ١٢٠ ؛

(٢) الأحقاف : ٢١ .

ليست بالمكان الصغير ، بل ربما امتدت دولتهم لتشمل جنوب وشرق وشمال الجزيرة العربية ، وجنوب فلسطين حيث عثرت على آثار معينية هناك ، إن كان ما ذهب إليه البعض صحيحا من أن دولة معين كانت تقوم على أكتاف العاديين .

ونقولُ ذلك أيضا اعتمادا على ما قاله أبو الدرداء والذى رواه ابن أبى حاتم وفيه أن « عادا ملكت ما بين عدن وعمان خيلا وركابا »[1] .

سيرة هـود عليه السـلام

ترد سيرة هود – عليه السلام – فى القرآن الكريم ، وهو مصدر معلوماتنا الوحيد والصحيح عن عاد ورسولهم هود – عليه السلام – أثناء استعراض موكب الإيمان من لدن آدم – عليه السلام – إلى محمد ﷺ . فنرى هودا فى هذا الموكب الكريم يحمل دعوة لا إله إلا الله إلى قومه « عاد » ، يدعوهم وقد التوت بهم الطريق ، وانحرفوا عن صراط الله المستقيم ، وتفرقت بهم السبل تحت ضغط الشهوات ، التى يقودهم الشيطان إليها ، محاولا أن يرضى حقده ، وأن ينفذ وعيده ، وأن يمضى ببنى آدم من خطام هذه الشهوات إلى جهنم .

فإذا بهود – عليه السلام – يواجه قومه بالهدى ، ويلوح لهم بالنُّور ، ويستروح بهم ريح الجنة ، ويحذرهم لفحات السموم ، ونزغات الشيطان الرجيم ، عدوهم القديم . إن هودا – عليه السلام – حاول إنقاذ قومه « عاد » من الهاوية التى يقودهم إليها الشيطان وأعوانه من شياطين الإنس ، المستكبرين عن الحق . وخلال هذه المحاولة نلمح الصراع بين الهدى والضلال ، وبين الحق والباطل ، بين الرسول الكريم وشياطين الجن والإنس ، ثم نشهد مصارع المكذبين فى النهاية ، ونجاة المؤمنين الموحدين بعد الإنذار والتذكير .

وعاد ، أمة هود عليه السلام كما عرفنا ، من القبائل العربية التى استخلفت فى جنوب الجزيرة العربية بعد قوم نوح المسلمين الذين نجوا من الطوفان ، بل

---

(١) تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ٣٤١ .

وكانوا من ذراريهم – أى أنهم كانوا من أبناء وأحفاد المسلمين الذين نجوا مع نوح عليه السلام .

هذه الأمة قد مكن الله لها فى الأرض تمكينا كبيرا يتمثل فى الحضارة المادية الكبيرة التى تعكسها لنا المدينة ذات العمد[1] ، التى يقول عنها المولى عز وجل أنها كانت فريدة فى عالمها وعصرها ، ﴿ التى لم يخلق مثلها فى البلاد ﴾ . وتتمثل أيضا فى النعم الكثيرة التى من الله بها عليهم ، سواء البنين والأنعام والجنات والعيون ، وكلها مقومات الحياة المادية فى كل عصر ومكان . كما تتمثل أيضا فى إقامة البروج المشيدة ، والمبانى الضخمة ذات المعالم البارزة على الأكمة المرتفعة ، أملا فى الخلود[2] : ﴿ وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ﴾ .

ولكن مع تقدم قوم عاد فى مجال الحياة المادية ، نجد أنهم قد ارتكسوا فى مجال الحياة الروحية ، لقد نسوا عهدهم مع آبائهم وأجدادهم ، بل وعهدهم مع ربهم ، أن يكونوا مسلمين قولا وعملا ، وأن يكونوا موحدين للواحد القهار ...

فأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وعبّدوا أنفسهم لرغباتهم وشهواتهم الخبيثة ، ونحّوا شريعة الله عن حياتهم ، وكفروا بآيات ربهم ، وأنكروا البعث والحساب ، والعقاب والثواب واستكبروا فى الأرض بغير الحق ، ونسوا أن الكبر يحرمهم من هداية الله عز وجل : ﴿ سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون

---

(١) ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد ، إرم ذات العماد ﴾ ، إرم : بيت مملكة عاد ، العماد : أى الأعمدة التى تحمل الخيام . يقول ابن كثير : « من زعم إن إرم مدينة من ذهب وفضة وهى تنتقل بالبلاد فقد غلط وأخطأ وقال ما لادليل عليه ؛ القمر : ٦ – ٨ ؛ البداية والنهاية جـ ١ ، ص ١٢٥ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ٤ ، ص ٥٠٧ ، ٥٠٨ .

(٢) يؤكد ذلك ما أخرجه ابن أبى حاتم من أن أبا الدرداء رضى الله عنه لما رأى ما أحدث المسلمون فى الغوطة من البنيان ونصب الشجر ، قام فى مسجدهم فنادى : « يا أهل دمشق ، فاجتمعوا إليه ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « ألا تستحيون ، ألا تستحيون ، تجمعون ما لا تأكلون، وتبنون ما لا تسكنون ، وتأملون ما لا تدركون . إنّه قد كانت قبلكم قرون يجمعون فيوعون ، ويبنون فيوثقون ، ويأملون فيطيلون . فأصبح أملهم غرورا ، وأصبح جمعهم بورا . وأصبحت مساكنهم قبورا ، إلا أن عادا ملكت ما بين عدن وعمان خيلا وركابا فمن يشترى منى ميراث عاد بدرهمين ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ٣٤١ .

فى الأرض بغير الحق ﴾[١] ونسوا أن الكبرياء رداء الله[٢] - عز وجل - وأنه من نازع الله المتكبر - سبحانه وتعالى - كبرياءه قصمه ولا يبالى ...

ولم يقف طغيان الطبقة المترفة « الملأ من القوم أصحاب الجاه والسلطان والأمر » فى أمة عاد عند هذا الحد ، بل تعداه إلى البطش بالآخرين بطش الجبارين ، بل وتبجحوا بتصورهم أنه لا يوجد من هو أشد منهم قوة ، ونسوا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة ؛ أى أن أمة عاد كانت ترى نفسها مطلقة اليد فى هذا العالم ، الذى كانت تعيش فيه ، وهذا من باب الغرور والاستعلاء ، وهو أيضا من باب الجهل ، بسبب الطمس على قلوبهم وحجبها عن الهداية نتيجة كفرهم ، واستكبارهم فى الأرض بغير الحق .

فى تلك الظروف ، والحالة هكذا ، أرسل الله سبحانه وتعالى هودا - عليه السلام - فى قومه عاد يدعوهم إلى عبادة الله وحده دون شريك : ﴿ اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ ؛ وأن يخضعوا حياتهم لنظام الله وشرعه ، وأن يقلعوا عن المعاصى ، والاستعلاء فى الأرض بغير الحق ، وأن يشكروا نعم الله عليهم ، بتصريفها فى مصارفها التى شرعها الله عز وجل ، وأداء حق الله فيها : ﴿ واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون . أمدكم بأنعام وبنين ، وجنات وعيون ، إنِّى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾[٣] . وأن يكثروا من الاستغفار والتوبة إلى الله عز وجل ، حتى يزدهم الله قوة إلى قوتهم ، وينعم عليهم بالمزيد من النعم : ﴿ ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه ، يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويزدكم قوة إلى قوتكم ، ولا تتولوا مجرمين ﴾[٤] . فالذنوب توجب غضب العظيم الجبار

---

(١) الأعراف : ١٤٦ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ٢ ، ص ٢٤٧ ، « أى أمنع فهم الحجج والأدلة الدالة على عظمتى وشريعتى وأحكامى قلوب المتكبرين عن طاعتى ويتكبرون على الناس بغير حق أى كما استكبروا بغير حق أذلهم الله بالجهل » .

(٢) كما ورد فى الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « قال الله عز وجل ، العز إزارى ، والكبرياء ردائى ، فمن ينازعنى فى واحد منهما فقد عذبته » . رواه مسلم .

(٣) الشعراء : ١٣٢ - ١٣٣ .

(٤) هود : ٥٢ .

المتكبر ، وتؤدى إلى محق النعم وسلبها : ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ﴾[١] .

كما حذرهم هود عليه السلام ، مغبة قطع الطرق على الناس ، والسطو عليهم ، وسلب تجارتهم والبطش بهم : ﴿ أتبنون بكل ريع آية تعبثون . وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون . وإذا بطشتم بطشتم جبارين . فاتقوا الله وأطيعون ﴾[٢] ولكن القوم ، قوم عاد « وخاصة العلية منهم ، رفضوا هذه الدعوة دعوة الخير ، لخيرى الدنيا والآخرة ، ولم يكتفوا بهذا ، بل تعدوه إلى الوقوف فى وجه الدعوة وصاحبها باللسان وباليد ؛ فاتهموا هودا بالسفاهة والكذب والجنون : ﴿ قال الملأ الذين كفروا من قومه : إنَّا لنراك فى سفاهة ، وإنَّا لنظنك من الكاذبين ﴾[٣] ؛ ﴿ قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين ، إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ﴾[٤] ، واتهموه بالبشرية : ﴿ ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنَّكم إذاً لخاسرون ﴾[٥] ؛ وذهبوا كل مذهب يشككون فى الدعوة ذاتها : ﴿ أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون ، هيهات هيهات لما توعدون ، إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين ، إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا وما نحن له بمؤمنين ﴾[٦] .

لقد استكثرت عاد أن يدعوهم هود إلى عبادة الله وترك عبادة الآباء

---

(١) طـه : ١٣٤ .

(٢) الشعراء : ١٢٨ . أى يبتنون القصور الفخمة ونحوها ، يعبثون ببنائها (لأنه لا حاجة لهم فيها) باتخاذها أماكن للهو والفساد ، وما ذاك إلا لأنهم كانوا يسكنون الخيام ، التى تحملها الأعمدة . وقد تكون علامات يضللون بها المسافرين عن الطريق ليعبثوا بهم . وكلها كناية عن العتو عن أمر الله والاعتداء على حرماته (البداية والنهاية ، جـ ١ ، ص ١٢٥) .

(٣) الأعراف : ٦٦ .

(٤) هود : ٥٤ .

(٥) المؤمنون : ٣٤ .

(٦) المؤمنون : ٣٥ – ٣٧ .

الضالين : ﴿ قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا ؟ ﴾(١) وهذا مشهد بائس لاستعباد الواقع المألوف للقلوب والعقول

ولكن رغم هذا الصد عن سبيل الله ، والهجوم على الدعوة وصاحبها ، فإن الدعوة كانت تكتسب أنصارا جددا من بين صفوف عاد ؛ ولذلك فقد استمرت حملة التشكيك فى الرسالة وصاحبها ؛ وكان موقف هود عليه السلام ، موقف الناصح الأمين الذى لا يجهل حين يجهل الناس ، ولا يفقد صبره ، إذا استعجل الناس ، فنراه طورا يدفع السيئة بالحسنة ، ويدعو إلى ربه بالحكمة والموعظة الحسنة : ﴿ يا قوم ليس بى سفاهة ولكنِّى رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين ، أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ؟؟ ﴾(٢) .

وكان هود عليه السلام – كغيره من الرسل عليهم السلام – حريصا على أن يبلغ دعوة ربه – رغم كل الظروف والعقبات ، بلاغا كاملا ؛ يتمثل ذلك الحرص فى وقوف هود عليه السلام موقف المربى المسلم الذى يذكر قومه بتاريخ الأمم السابقة ، ومصائرهم : ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ﴾(٣) ، قوم نوح الناجين من الطوفان نتيجة إسلامهم لله رب العالمين ؛ وقوم نوح الذين أغرقوا بالطوفان نتيجة تكذيبهم لرسولهم ورفض الدخول فى دين الله عز وجل ... وكان هذا العرض من جانب هود عليه السلام – لتاريخ السابقين كافيا ، أن يهز مشاعر قومه « عاد » ، ويردهم إلى دينهم وربهم – ولكنهم كانوا طغاة متجبرين رافضين . ﴿ قالوا سواءٌ علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين . إن هذا إلا خلق الأولين . وما نحن بمعذبين ﴾(٤) .

ولا يجد الرسول أمامه من سبيل بعد أداء واجب البلاغ كاملا ،

---

(١) الأعراف : ٧٠ .
(٢) الأعراف : ٦٧ – ٦٩ .
(٣) الأعراف : ٦٩ .
(٤) الشعراء : ١٣٦ .

إلا أن يفاصل قومه ، ويبرأ من الشرك الذى يزاولونه ، مع التوكل على الله عز وجل ، مع بيان أن عدم الاستجابة لداعى الله ، يعنى ، استبدال قوم عاد بغيرهم واستئصال شأفتهم :

﴿ قال إنى أشهد الله واشهدوا أنّى برىء مما تشركون ، من دونه فكيدونى جميعا ثم لا تُنظرون . إنّى توكلت على الله ربى وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم ، فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ويستخلف ربى قوما غيركم ولا تضرونه شيئا إن ربى على كل شيء حفيظ ﴾(1) .

وجاء الرد الإلهى متناسبا مع الظلم الذى ارتكبته عاد ، فى حق ربها ، ودينها ورسولها وشخصها .

﴿ وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين ﴾(2) – ﴿ وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم ، وعصوا رسله ، واتبعوا أمر كل جبار عنيد . وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ، ألا إن عادا كفروا ربهم ألا بعدا لعاد قوم هود ﴾(3) .

فها هى حيثيات الحكم الربانى العادل غير الظالم ، الذى جاء متناسبا مع الجرم الذى ارتكبته عاد :

الجحود بآيات الله ، وعصيان الرسل ، واتباع أمر كل جبار عنيد ، هو الذى استحقوا بسببه لعنة الله فى الدنيا والآخرة ، لأنهم كفروا بربهم ، وكذبوا رسولهم : ﴿ فكذبوه فأهلكناهم إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾(4) ، ﴿ فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق ، وقالوا من أشد منا قوة ، أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة ، وكانوا بآياتنا يجحدون ، فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا

(1) هود : ٥٤ – ٥٧ .
(2) الأعراف : ٧٢ .
(3) هود : ٥٩ – ٦٠ .
(4) الشعراء : ١٣٩ .

ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون ﴾[١] .

وهذه إضافة أخرى لحيثيات الحكم الربانى ، تبين لنا سنة من سنن الله الثابتة فى أخذ الظالمين :

– الاستكبار فى الأرض بغير الحق .
– الغرور ، والاستعلاء على الله والناس بالقوة .
– الجحود بآيات الله .

وكان التدمير لقوم عاد الكافرين :

﴿ فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا ، بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم . تدمر كل شيء بأمر ربها ، فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجْزى القوم المجرمين ﴾[٢] ؛ فعذابٌ مشابهٌ جاهز لكل مجرم يسلك مسلكهم .

﴿ وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم . ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ﴾[٣] .

﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر . كذبت عادٌ فكيف كان عذابى ونُذُر ، إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصراً فى يوم نحس مستمر ، تنزع الناس كأنهم أعجاز نخلٍ منقعر فكيف كان عذابى ونذر ﴾[٤] .

وعلى الجانب الآخر ، كانت النجاة من الله عز وجل لهود ومن معه من المسلمين ، ﴿ فأنجيناه والذين معه برحمة منا ، وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين ﴾ .

ثم يأتى البيان الإلهى العام فى أعقاب المعركة التى قامت فى حياة أمة عاد بين

---

(١) فصلت : ١٥ – ١٦ .
(٢) الأحقاف : ٢٤ – ٢٥ .
(٣) الذاريات : ٤١ – ٤٢ .
(٤) القمر : ١٧ – ٢١ .

حزب الله وحزب الشيطان ، وما أسفرت عنه : ﴿ وما أرسلنا فى قرية من نبى إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضَّرعون . ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا ، وقالوا : قد مس آباءنا الضراء والسراء ، فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون . ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون . أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون ، أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون ؟ أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون . أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ، ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون .. تلك القرى نقص عليك من أنبائها ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات ، فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل ، كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين ، وما وجدنا لأكثرهم من عهد ، وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين ﴾[1] .

الزمن التقريبى لقيام دولة عاد ﴿ إرم ذات العماد ﴾ فى جنوب الجزيرة العربية وعلاقتها بدولة معين :

إن أقدم ما تحكيه المصادر الإسلامية من أخبار القرون الأولى للجزيرة العربية هو ما رواه القرآن الكريم عن « أمة عاد » . والقرآن الكريم يقدم لنا قرينة تؤكد أن « أمة عاد » هى الجيل الذى استخلفه الله عز وجل بعد جيل نوح عليه السلام الذى نجاه الله من الطوفان ، هذه القرينة نلمحها فى قوله تعالى على لسان هود عليه السلام لقومه عاد مذكرا بأخبار السابقين :

﴿ أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة . فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون ﴾[2] .

---

(١) الأعراف : ٩٤ – ١٠٢ .
(٢) الأعراف : ٦٩ . وقد وضع المشتغلون بالدراسات الأثرية تاريخا تقريبا للطوفان القرن الأربعين قبل الميلاد .

كما يقدم القرآن الكريم قرينة أخرى تؤكد أن عادا كانوا يعيشون فى عصر سابق لعصر موسى عليه السلام . يتضح ذلك من قوله سبحانه وتعالى على لسان مؤمن آل فرعون وهو يعظ قومه مذكرا بأخبار السابقين : ﴿ وقال الذى آمن يا قوم إنّى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب . مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلما للعباد ﴾[1] . ومن غير المعقول أن يُذَكِّرَ مؤمنُ آلِ فرعونَ قومَهُ بتاريخِ أقوام لم يسبقوهم إلى هذا الوجود .

وقد حدد المشتغلون بالتاريخ ، القرن الثالث عشر قبل الميلاد تاريخا تقريبا لخروج موسى وقومه من مصر (أى فى عهد الفرعون مرنبتاح ؟). وبهذا نصل إلى تحديد يؤكد أن « عادا » عاشوا بعد جيل المسلمين الذين نجوا مع نوح عليه السلام ، وقبل رسالة موسى عليه السلام إلى شعب مصر والتى دعاهم فيها إلى الإسلام .

وبناء على ذلك يمكن أن نضع افتراضا مضمونه أن عادا قد عاشوا فى فترة ما بين القرنين الأربعين والثالث عشر قبل الميلاد تقريبا .

وحيث أن المشتغلين بالتاريخ من المحدثين قد وضعُوا فى هذه الحقبة الزمنية (ما بين القرنين الأربعين والثالث عشر قبل الميلاد) أقدم « حضارة مادية عثر عليها فى الجزيرة العربية ، وهى ما تسمى بحضارة معين »[2] ، فيمكن لنا اعتمادا على ما سبق ، أن نفترض أن ما تسمى بحضارة معين قد قامت على أكتاف العاديين قوم هود عليه السلام ؛ ويقوى هذا الافتراض فى ظننا ما يأتى :

أولا : الآثار التى عثر عليها فى منطقة جوف أرحب بين نجران

---

(١) غافر : ٣٠ – ٣١ ؛ ويتضح ذلك من قوله تعالى على لسان موسى وهو يدعو الفراعنة إلى الدخول فى دين الله عز وجل : ﴿ وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن فى الأرض جميعا ، فإن الله لغنى حميد . ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود ، والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم فى أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنَّا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب ﴾ (إبراهيم ٨ – ٩) .

(٢) إسم حصن ، أو قرية من قرى اليمن فى مخلاف سنحان (معجم البلدان ، المجلد الثامن ، ص ١٠٢) .

وحضرموت ، وهى نفس المنطقة التى كان يتركز فيها وجود قوم « عاد » .

ثانيا : ما ذهب إليه المشتغلون بالتاريخ القدامى (اليونانيون والمسيحيون) من نسبة قوم عاد إلى عمالقة العراق وأنّهم هاجروا إلى جنوب الجزيرة العربية ونزلوا بإقليم الجوف وشيدوا القصور على مثال ما شهدوه فى بابل . والأصول الإسلامية تؤكد كما بينا أن قوم « عاد » هم من ذرية الناجين مع نوح « عليه السلام » من الطوفان والذين كانوا قد استقروا فى منطقة بلاد النهرين مع إقليم عيلام والمصادر الإسلامية تؤكد أيضا أن عاداً ينسبون إلى سام الذى هاجر وقومه من العراق واستقروا فى جنوب الجزيرة العربية .

وإذا صح هذا الافتراض فيمكن أن ننظر إلى مخلفات الدولة المعينية على أنها من مخلفات قوم عاد ، التى يمكن أن تلقى المزيد من الضوء على هؤلاء الأقوام ، وإن كان ذلك المزيد لا قيمة له فى تحقيق الهدف من دراسة سيرة هود وقومه فى ضوء التصور الإسلامى . من هذا المزيد :

(أ) نظام الحكم داخل المجتمع العادى كان حكما ملكيا وراثيا ، وكان المجتمع طبقيا ، ويشتمل على طبقات الأشراف والفلاحين والعبيد وأصحاب الحرف وهذا السمت الأخير يدل على بعد المجتمع عن شرع الله ونظامه سبحانه وتعالى .

(ب) أنّ الدولة العادية المعينية قد امتد سلطانها ليشمل الجزيرة العربية كلها مع جنوب فلسطين ، فقد كان لهم مراكز تجارية ومراكز للسلطة فى معان[1] ، وكذلك العلا . وأن اقتصاد الدولة كان يقوم على التجارة ونقل البضائع وتحصيل الضرائب من القوافل[2] التى تمر بأرض الجزيرة .

---

(١) مدينة فى طرف بادية الشام تلقاء الحجاز من نواحى البلقاء .

(٢) كان يحد الجزيرة العربية طريقان أساسيان على حافة الصحراء ، تنقل عليهما السلع من المحيط الهندى إلى موانى فلسطين وسورية – فكان أحد هذه الطرق يمتد من اليمن إلى جنوب فلسطين . والثانى يمتد من الخليج العربى ويدخل وادى الرافدين (دجلة والفرات) ثم ينحرف إلى سورية قاصدا دمشق . وعلى هذين الطرفين قامت حاميات الحدود والطرق العربية . وكان استعمالهما وإغلاقهما (الطرق) يقرر مصير تلك الدول .

(جـ) كانت عاصمة هذه الدولة السياسية فى بلدة تسمى « قرناو »[1] أو القرن حاليا .

بالإضافة إلى ما سبق ، سواء أكانت التسمية التى أطلقتها النصوص المصرية القديمة ، « بُنْط » تنطبق على اليمن ، أو على المنطقة الواقعة حول بوغاز باب المندب والصومال وأريتريا وجنوب جزيرة العرب ، فإن فراعنة مصر كانوا يرسلون البعثات التجارية إلى هناك ، - كما فعل ساحورع أحد فراعنة الأسرة الخامسة (٢٦٠٠ ق . م) - لاحضار المواد التى يحتاجونها من هناك .. وهذا يدل أن الدولة العادية كانت لها علاقات تجارية واسعة مع الشعوب المعاصرة ، ومنها مصر ، بل إن مصر فى تلك الفترة قد تأثرت بعقيدة التوحيد التى حمل لواءها هود عليه السلام .

* * *

(١) شمال شرق صنعاء (انظر معجم البلدان ، المجلد السابع ، ص ٦٥ - ٦٦) .

الجـــزء الثـــانى

قـوم ثمــود
وسيــرة صالح عليه الســلام

من هم ثمــود ؟ ومن هو صالح عليه السلام ؟ وإلى من ينتسبون ؟ ومن أين أتوا ؟ وأين نزلوا من جزيرة العرب ؟؟ .

هل قامت لهم دولة ؟ .. وهل يمكن تحديد زمن تقريبى لها ؟ .. هل يمكن بيان الحدود التى كانت عليها دولة ثمود ؟؟ هل يمكن التعرف على جوانب من تاريخهم العقدى والاجتماعى والسياسى والاقتصادى ؟ .... إلى غير ذلك من الأسئلة التى يمكن أن تخطر على ذهن الدارس لتاريخ الثموديين وسيرة نبيهم صالح عليه السلام .

مـا هـى الفائدة التى تعود على البشرية عامة وعلى الأمة المسلمة على وجه الخصوص نتيجة التعرف على سيرة صالح عليه السلام وقومه ثمود ؟.

ثمود أمة مشهورة من العرب(١) ، وكانوا يسكنون الحجر(٢) بوادى القرى

---

(١) البداية والنهاية ، جـ ١ ، ص ١٣٠ .

(٢) سورة الحجر آية ٨٠ ؛ (ذكرت بعض المراجع القديمة غير العربية الأصل وجود اسم ثمود وقوم ثمود . ومن ذلك نقش للملك الأشورى سرجون ، ويرجع تاريخه إلى عام ٧١٥ ق . م . ذكر اسم ثمود فيما ذكر من أقوام شرق جزيرة العرب ووسطها الذين أخضعهم الأشوريون . كما ورد اسم ثمود Thamudenes فى مؤلفات أرسطو وبطليموس وبليناس ، وقد ذكر بليناس من منازل ثمود : رُمَسّه وهكره (الحجر) Hegra . وفى تصورنا أن الثموديين الذين ورد ذكرهم هنا هم من بقايا الثموديين الذين نجوا مع صالح عليه السلام من العذاب نتيجة إسلامهم .. ولعل من المفيد هنا أن نذكر أن ورود اسم ثمود فى =

بين الحجاز وتبوك من جزيرة العرب ، وهم فى الأصل من سلالة[1] المسلمين الذين نجوا من العذاب من القبائل العادية مع هود عليه السلام ، أى أنهم ينتسبون فى النهاية إلى سام بن نوح عليه السلام . وبمضى الوقت نجح الشيطان فى اجتيالهم عن دينهم فانحرفوا عن دين الله وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا . ومن رحمة الله بالعباد وثمود ، فقد اصطفى سبحانه وتعالى رسولا منهم هو صالح عليه السلام لكى يدعوهم إلى العودة إلى ربهم ودينهم : ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحا قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، قد جاءتكم بينة من ربكم . هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسُّوها بسوءٍ فيأخذكُمْ عذابٌ أليمٌ . واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تَعْثَوْا فى الأرض مفسدين ﴾[2]

ومن تذكير صالح عليه السلام لقومه ثمود ، نلمح أثر النعمة والتمكين لهم فى الأرض ، كما نلمح طبيعة المكان الذى كانوا يعيشون فيه (الحجر) فهو سهل وجبل ، وقد كانوا يتخذون فى السهل القصور وينحتون من الجبال البيوت فهى حضارة عمرانية واضحة المعالم .. وصالح هنا يذكرهم باستخلاف الله لهم من بعد عاد (ولذلك يطلق عليهم المفسرون اسم عاد الثانية) وإن لم يكونوا فى أرضهم ذاتها ، ولكنهم يبدو أنهم كانوا أصحاب الحضارة العمرانية التالية فى التاريخ لحضارة عاد ، وأن سلطانهم امتد خارج الحجر أيضا . وبذلك صاروا خلفاء ممكنين فى الأرض ، محكمين فيها ، وصالح ينهاهم عن الانطلاق فى الأرض بالفساد اغترارا بالقوة والتمكين ، وأمامهم العبرة ماثلة فى عاد الغابرين (الأولى) .

= المصادر القديمة دليل على الوجود الحقيقى لثمود ، أى أنهم لم يبيدوا ولم تنطمس أخبارهم كما زعم المستشرقون ؛ وليسوا أسطورة كما تزعم دائرة المعارف الإسلامية ، جـ ٦ ، « عاد وثمود » ويؤكد ذلك الوجود أن الشعراء قبل بعثة محمد ﷺ قد ذكروا ثموداً وعاداً فى معرض الاستشهاد بزوال المتاع الدنيا على سبيل العظة والعبرة ومن هؤلاء الشعراء الأعشى وأمية بن أبى الصلت .

(١) ولذلك فهم ينتسبون إلى إرم بن سام بن نوح عليه السلام : وكانوا مسلمين على اعتبار أن جميع الرسل قد دعوا إلى الإسلام كما قدمنا .

(٢) الأعراف : ٧٣ - ٧٤ .

فمع وصول ثمود إلى القمة فى مجال التقدم الحضارى المادى ، فقد كان هنالك هبوط إلى المستنقع الآسن فيما يتصل بقضية الإيمان بالله ، لقد نسوا عهد آبائهم وأجدادهم وعهدهم مع الله ، أن يكونوا مسلمين ، أى مستسلمين لله بالكلية . لقد نسوا ما حل بقوم عاد الذين كفروا برسالة هود عليه السلام ، لقد نسوا أن الله الذى أرسل على قوم عاد المكذبين ، ﴿ ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر ﴾ ، قادر على أن يهلكهم ويهلك غيرهم إن لم يثوبوا إلى رشدهم ويوحدوا ربهم وخالقهم . لقد عميت القلوب ، والأبصار ، ونضب معين الخير فى نفوسهم ، لا نقول كل النفوس وإنَّما غالبية النفوس ؛ فقد آمنت قلة مستضعفة من ثمود بدعوة صالح ودخلوا فى الإسلام ؛ وكفرت الغالبية وهم الملأ ، أصحاب السلطان والجاه والمال ، المتكبرون ، الذين صرف الله قلوبهم عن تدبر آياتِهِ ، بسبب إصرارهم على كبرهم وكفرهم ، وشركهم بالله عز وجل ، ويا ليتهم وقفوا عند هذا الحد ولكنهم مدُّوا أيديهم وألسنتهم بالإيذاء إلى المؤمنين يحاولون فتنتهم عن دينهم . لماذا ؟ لأن المؤمنين قد خَلعُو ارُبْقَةَ الطاغوت من أعناقهم بعبوديتهم لله وحده ، وتحرروا بذلك من العبودية للعبيد ومنهم الملأ أصحاب السلطان ، والملأ لا يطيقون دعوة تجردهم من السلطان فى الأرض وترده إلى إله واحد هو الله رب العالمين .

– والمستغرب من الملأ ، هذا الموقف ، بعد أن أرسل الله لهم بينة طلبوها من نبيهم عليه السلام : « وهى الناقة » : ﴿ قد جاءتكم بَيِّنةٌ من ربكم ، هذه ناقة الله لكم آية ، فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم ﴾[١] .

﴿ قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم . ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم ﴾[٢] .

﴿ إنَّا مرسلو الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر ، ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر ﴾[٣] .

---

(١) الأعراف : ٧٣ . (٢) الشعراء : ١٥٥ – ١٥٦ . (٣) القمر : ٢٧ – ٢٨ .

وحاول الملأ الذين كفروا صرف المؤمنين بدعوة صالح عن دينهم : ﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا – لمن آمن منهم – أتعلمون أنَّ صالحا مرسل من ربه ؟ ﴾[1] .

وواضح أنه سؤال للتهديد والتخويف ، ولكن الضعاف لم يعودوا ضعافا لقد سكب الإيمانُ باللهِ القوةَّ فى قلوبهم ، والثقة فى نفوسهم ، والاطمئنان فى منطقهم ، : ﴿ قالوا إنَّا بِمَا أُرسل به مؤمنون ﴾[2] . وهنا أسقط فى أيدى الملأ الطغاة من قوم ثمود فذهبوا يتوعدون : ﴿ إنَّا بالذى أرسلتم به كافرون ﴾[3] ؛ على الرغم من البينة التى جاءهم بها صالح والتى لا تدع ريبة لمستريب .. إنَّه ليست البينة التى تنقص الملأ للتصديق ولكنه السلطان المهدد بالدينونة للرب الواحد ، إنَّها عقدة الحاكمية والسلطان ، إنَّها شهوة الملك العميقة فى الإنسان .. إنَّه الشيطان الذى يقود الضالين من هذا الخطام .

ولكن النبى المسلم صالح عليه السلام لم يفقد صبره ، فاستمر يبلغ دعوة ربه ، وهو واجبٌ عليه مستخدما كلَّ أساليب الدعوة المتاحة فى عصره .

فها هو صالح عليه السلام يذكر قومه بنعم الله عليهم : ﴿ هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ، فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربى قريب مجيب ﴾[4] ، أى هو الذى خلقكم وأنشأكم من الأرض وجعلكم عمارها أى أعطاكموها بما فيها من الزروع والثمار ، فهو الخالق الرازق الذى يستحق العبادة وحده دون سواه . ولابد من الاستغفار الدائم والتوبة لضمان استمرار تدفق نعمه وعدم زوالها .

وفى موضع آخر من القرآن يقول صالح عليه السلام لقومه ثمود : ﴿ أتتركون فى ما هاهنا آمنين . فى جنات وعيون . وزروع ونخل طلعها هضيم ، وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين . فاتقوا الله وأطيعون ﴾[5] فَتَذَكّرِ النعمةَ يستوجبُ شكر المنعم عز وجل وتوحيده بعد معرفة قدره ، وهذا دليل على الثراء

---

(١) الأعراف : ٧٥ .
(٢) الأعراف : ٧٥ .
(٣) الأعراف : ٧٦ .
(٤) هود : ٦١ .
(٥) الشعراء : ١٤٧ – ١٥٠ .

والنعمة التى كانت ترفل فيها القبائل الثمودية .

واستمر الملأ الذين كفروا من قوم ثمود فى عنادهم يتربصون بالدعوة والداعية وأتباعهم ، يمدون إليهم ألسنتهم بالسوء ؛ وكان النصيب الأكبر من بذاءتهم يصل إلى صالح عليه السلام . فاتهموه بالكذب : ﴿ أءلقى الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر ﴾[١] ؛ ﴿ وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب ﴾[٢] .. واتهموه أيضا بالسحر وبأنه بشر ولا يجوز لبشر أن يُصْطَفى للرسالة : ﴿ قالوا إنّما أنتَ من المُسَحَّرين ﴾ ؛ ﴿ ما أنْتَ إلّا بَشَرٌ مِثْلنا فَأْتِ بِآيةٍ إنْ كُنْتَ من الصادقين ﴾ ؛ بل واتهموه ومن معه أنهم وجه شؤم : ﴿ قالوا اطيرنا بك وبمن معك ﴾[٣] .

ورغم هذا فإن صالح عليه السلام ، لم يفقد صبره ، ولم يجهل عليهم كما جهلوا عليه ، وإنّما كان دائما كأصحاب الدعوات ، رحيما ، مهذبا ، عف اللسان فى تذكير قومه بين الحين والحين : ﴿ يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون ﴾[٤] .

ولكن ثمود استحبوا العمى على الهدى ، وقابلوا دعوة الخير والنَّجاة ، بالإساءة والطغيان ، فها هم يتآمرون لقتل الناقة .

إنَّهم لا يطيقون أن يروا الداعية إلى دين الله ، متحركا ، يكسب من الشيطان وحزبه ، مؤمنا جديدا ؛ إنَّهم لا يطيقون أن يعيشوا فى مجتمع مسلم يمكن أن يقوم لو تركت الدعوة وشأنها وخلّى بين الناس وربهم ، إن صالحا لم يرفع سيْفاً فى وجوه قومه ثمود ، ولم يتآمر عليهم ؛ إنَّه يدعو إلى الله بلسانه فقط . كذلك من كان معه ؛ ومن المؤكد أنه لو تركت الدعوة إلى الله حرة وخلّى بينها وبين الناس ، لا كتسبت كل يوم أنصارا جددا .

---

(١) القمر : ٢٥ .
(٢) هود : ٦١ .
(٣) النمل : ٤٧ .
(٤) النمل : ٤٦ .

ولكن الملأ ، الطغاة ، لا يطيقون ولا يقبلون ، لا يطيقون أن يقوم حكم الله فى الأرض ويسقط حكم الطاغوت ، ولا يقبلون أن يكونوا عبيدا لله الواحد القهار ، ونسوا أن فى ذلك تكريماً لهم أى تكريم .

ولذلك كان التآمر على قتل الناقة ، تصورا منهم أنه بقتل الناقة يحرمون الدعوة من أتباع جدد يمكن أن يزداد عددهم بمضى الوقت ، فعقروها ، وكذلك كان التآمر على قتل صالح ، تصورا منهم أنه بقتل الداعية ، ستموت الدعوة إلى الله رب العالمين : ﴿ وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ، قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنَّا لصادقون ﴾[1] .

وهكذا كان موقف قريش من محمد ﷺ ودعوته : ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ﴾[2] .

إنهم لا يعرفون إلا الغدر والخيانة والتربص بأصحاب الدعوات ، بعد أن أفلسوا وأفلست أنظمتهم ، ليس لديهم حجة يدفعون بها الدعوة إلى الله ، ليس لديهم مبرر مقبول يمنع من قبول دعوة الله سبحانه وتعالى ، إنما هى الرغبة فى النكول عن دين الله ﴿ لأنهم استحبوا العمى على الهدى ﴾ . إذن اتركوا صالحا وشأنه ، ولننظر النتيجة فى النهاية ؛ ولكنهم لا يطيقون أن يرتفع صوت بلا إله إلا الله أمامهم ، فكان التآمر على قتل صالح بعد قتل الناقة .

ولكن هل الكون متروك للظلمة يظلمون ويفتكون دون ردع أو عقاب ؟ كلاَّ فعين الله على كل شيء ﴿ ما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴾[3] .

ولكن هل يسلم الله سبحانه وتعالى عبده ونبيه ومصطفاه « صالحا عليه

---

(١) النمل : ٤٨ - ٤٩ .
(٢) الأنفال : ٣٠ .
(٣) الأنعام : ٥٩ .

السلام » لأعدائه ؟ كلاَّ ، فالله يقول فى الحديث القدسى : « من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب »(١) .

فعين الله تراقب ، وقدرة الله سبحانه وتعالى محيطة ، فهو الحى القيوم الذى لا تأخذه سنة ولا نوم ، يقول الله عز وجل : ﴿ ومكروا مكرا ، ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِيْن . فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خاوِيةٌ بِمَا ظَلَموا إنَّ فى ذلك لآيةً لقوم يعلمون ﴾(٢) .

لقد كان التدمير متناسبا مع حجم الجرم الذى ارتكبه المشركون من ثمود ، لقد أشركوا بالله رغم أنه هو الذى خلقهم وهو الذى رزقهم وهو الذى مكن لهم : « أخلق ويعبد غيرى وأرزق ويشكر سواى ، خيرى إلى العباد نازل وشرهم إلى صاعد » . لقد كان التدمير متوائما مع تآمرهم على الصف المسلم وفتنته ومحاولة صرفه عن دينه : ﴿ فكيف كان عذابى ونذر . إنَّا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر ﴾(٣) .

أين الذين كانوا ملء الأعين والنفوس ؛ أين الجبارون ؛ أين المتكبرون ؛ أين أعداء الإسلام ؛ أصبحوا فى ديارهم جاثمين لا حراك فيهم(٤) .

ومرت قرون وقرون ، ومرّ رسول الله ﷺ وصحبه على ديار ثمود فى طريقه إلى غزوة تبوك ، فقنع رسول الله ﷺ رأسه وأسرع راحلته ونهى

---

(١) فى حديث لأبى هريرة عن رسول الله ﷺ عن الله عز وجل رواه البخارى . آذنته : أعلمته بأنى محارب له .

(٢) النمل : ٥٠ .

(٣) القمر : ٣٠ – ٣١ ؛ البداية والنهاية ، جـ ١ ، ص ١٣٨ .

(٤) يحاول بعض الكتاب تصوير إهلاك قوم صالح على أنَّه نتيجة انفجار بركان : « إن هلاك ثمود قد اقترن بانفجار بركان ، كون حقولا من الحمم مختلفة السعة تعرف فى بلاد العرب ، بالحرة وإلى الغرب من الحجر حرّة من أكبر هذه الحرار (دائرة المعارف الإسلامية ، جـ ٦ ، عاد وثمود) ؛ ويقول د . محمد مهران . وهناك من يرى أن ثمودا ، إنما أصيبوا بكارثة عظمى ، من ثوران براكين ، أو من هزات أرضية ، معتمدا فى ذلك على ما ورد فى القرآن الكريم من كلمات رجفة وصحبة وربما كان الأمر كذلك ، فمنطقة إقامتهم إنما هى واحدة من مناطق الحرار فى شبه الجزيرة العربية (دراسات تاريخية من القرآن ، جـ ١ ، ص ٢٧٩) .

أصحابه عن دخول منازل ثمود إلا أن يكونوا باكين أو متباكين خشية أن يصيب المسلمون ما أصاب الكافرين . قنع رأسه لئلا يرى ما خلفه الظالمون ، مجرد رؤية المكان الذى كانوا يعيشون فيه أو الدخول عليهم نهى عنه رسول الله ﷺ إلا أن يكون الداخل باكيا أو متباكيا خشية أن يصيبه ما أصابهم .

الزمن التقريبى لرسالة صالح عليه السلام وقيام دولة ثمود (عاد الثانية) :

من المؤكد أن رسالة صالح عليه السلام وقعت قبل عصر موسى عليه السلام (أى قبل القرن الثالث عشر قبل الميلاد تقريبا) . يؤكد ذلك آية من كتاب الله فى قول الله عز وجل على لسان موسى وهو يعظ فرعون والملأ من قومه مذكراً بتاريخ الأمم السابقة ومنهم ثمود قوم صالح . ﴿ وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن فى الأرض جميعا فإنَّ الله لغنى حميد . ألم يأتكم نبأُ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم فى أفواههم وقالوا إنَّا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفى شكٍّ مما تدعوننا إليه مريب ﴾[١] .

* * *

---

(١) إبراهيم : ٨ - ٩ .

الجـــزء الثـــالث
قوم مدين
وسيرة شعيب عليه السلام

من هو شعيب عليه السلام ؟؟ ومن هم مدين ؟؟ وإلى من ينتسبون ؟؟ وأين كانوا ينزلون ؟؟ ومن أين أتوا ؟؟ ما مدى التمكين الذى تحقق لهم فى أرض الله ؟؟ وهل قامت لهم دولة ؟؟ وما هى الحدود التى كانت عليها ؟؟ وهل يمكن تحديد زمن تقريبى لها ؟؟ هل يمكن التعرف على جوانب من تاريخهم العقائدى والسياسى والاقتصادى والاجتماعى ؟؟ وما هى الدروس التى تعود على البشرية عامة وعلى الأمة المسلمة على وجه الخصوص نتيجة معرفة أخبار شعيب عليه السلام وقومه مدين ؟؟ .

تمهيـــد :

إذا حاولنا الإجابة على هذه الأسئلة ، ليس أمامنا من مصدر سوى القرآن الكريم وما ورد فى سنة النبى محمد ﷺ ؛ أما ما عدا هذين المصدرين ، فما ورد فيها لا يعتدّ به كثيرا ، ولكن لابد وأن نضع فى الاعتبار ، أن القرآن نزل بلغة العرب وقد خاطب أول ما خاطب العرب الذين عاشوا فى الجزيرة العربية ؛ وذلك يعنى أننا إذا أردنا أن نفهم هذا القرآن فليس أمامنا إلا اللسان العربى ، وما ورد فى المصادر العربية التى نزل القرآن بلغة أهلها .

وثمة شىء آخر ، أن القرآن وهو يحدث العرب بلغتهم ويذكر لهم أخبار السابقين الذين عاشوا فى الجزيرة العربية ، لا يخاطب بهذا الأمر أقواماً خالى الذهن عن هؤلاء السابقين ، ولكن لابد وأنه كان لديهم علما عنهم بما فى ذلك مواقع

إقامتهم ؛ وبالتالى فإن ما قاله المؤرخون العرب والجغرافيون عن مواطن هذه القبائل العربية ، صحيح إلى حد كبير ، وليس من المعقول أن نلهث وراء تخبطات اليونان أو الروم أو المستشرقين عن مواطن هذه القبائل العربية ، وهم ليسوا أصلا من سكان الجزيرة ، ولا يعرفون لغة أهلها ، وهم يكتبون عنها ، فى وقت اختلفت مصالحُ بلادهم مع مصالح أهل الجزيرة العربية . ثم لماذا نتلمس خبرا صحيحا فقط عند أولئك ؟ ولا نتلمس الخبر الصحيح عند أهل تلك البلاد من العرب .

بالإضافة إلى ما سبق نود أن نذكر شيئاً على جانب كبير من الأهمية ، نستشعره من خلال العرض القرآنى لأخبار السابقين .

إن المعلومات الواردة فى القرآن الكريم والحديث عن الأخبار السابقين بوضعها الذى هى عليه كافية تماما لتحقيق الهدف الذى من أجله قصّ الله سبحانه وتعالى أخبار هؤلاء الأقوام على رسوله محمد ﷺ ، وعلى الأمة المسلمة وعلى البشرية فى كل زمان ومكان ؛ ولو كان قد سبق فى علم الله سبحانه وتعالى أن هذه المعلومات عن السابقين التى أنزلها فى القرآن غيرُ كافية ، وأنه سيأتى زمان كزماننا يحتاج الناس فيه إلى قدر أكبر من المعلومات ، لأنزلها سبحانه وتعالى .

إن ما أنزله الله من المعلومات عن أخبار السابقين كاف وبه حصل المقصود ، ولله الحمد والمنة . ونصل من ذلك إلى بيان حقيقة يجب ألا تغيب عن ذهن المسلم : ليس هناك أعظم من الهدف الذى من أجله قص الله سبحانه وتعالى أخبار السابقين ومنهم مدين قوم شعيب ؛ هذه عقيدة يجب أن يؤمن بها المسلم ﴿ قل ءأنتم أعلَم أمِ الله ؟ ﴾ . وذلك يعنى أن ما يخبط فيه الذين يحترفون صناعة التاريخ جريا على نهج المستشرقين لن يؤدى بهم إلى خير ، وأن ما يتبنونه لن يزيد البشرية إلّا حيرة وضلالا ، بالإضافة إلى أنها تستهلك جهد ووقت أبناء آدم فيما لا يعود عليهم بخير فى الدنيا أو الآخرة .

شعيب عليه السلام نبى كريم من العرب ، اصطفاه الله سبحانه وتعالى برسالة إلى قومه مدين . ومدين من القبائل العربية الذين كانوا ينزلون مدينة مدين القريبة من أرض معان من أطراف الشام مما يلى ناحية الحجاز قريبا من بحيرة

لوط[1] (البحر الميت) . وينسبهم المفسرون إلى إبراهيم عليه السلام ، وإن كانوا لا يملكون دليلا على نسبتهم هذه . وكانت مدين تقع على أهم الطرق التجارية التى تبدأ من جنوب الجزيرة العربية (المحيط الهندى) مرورا بمكة والمدينة وتبوك ونهاية بالشام (سورية وفلسطين) . أى أن اقتصاد أهل مدين كان يقوم على التجارة ؛ ولكن لا نستطيع أن نقرر بيقين هل كانت لهم دولة ، وما هى الحدود التى كانت عليها وإن كان من المؤكد أنه كانت لهم سطوة وجبروت على غيرهم ، وكانو كثرة .

هؤلاء القوم « مدين » أشركوا بالله عز وجل ، كغيرهم من الطواغيت ، ومن مظاهر هذا الشرك عبادتهم لشجرة الأيكة التى حولها غيضة ملتفة بها ؛ وأيضا عدم إخضاع تعاملاتهم لنظام الله عز وجل وشرعه ، فكانوا أسوأ الناس معاملة ، يبخسون المكيال والميزان ويطففون فيهما يأخذون بالزائد ويدفعون بالناقص . فبعث الله فيهم رجلا منهم ، معروف فضله وأمانته ، وهو رسول الله شعيب عليه السلام فدعاهم أول ما دعاهم إلى عبادة الله وحده دون شريك ونهاهم عن تعاطى هذه الأفاعيل القبيحة من بَخْسِ الناس أشياءهم وإخافتهم لهم فى سبلهم ، وطرقاتهم ؛ فآمن به بعضُهم وكفر أكثرهم حتى أحل الله بهم البأس الشديد :

﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبا . قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلهٍ غيره قد جاءتكم بَيِّنَةٌ مِنْ ربِّكُم ﴾ أى دلالة وحجة واضحة وبرهان قاطع[1] على صدق ما جئتكم به وأنه أرسلنى . ﴿ فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس

---

(١) تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ١٩٦ . وفى معجم البلدان ، جـ ٧ ، ص ٤١٧ - ٤١٨ ، « مدين على بحر القلزم (الأحمر) محاذية لتبوك على نحو ست مراحل وهى أكبر من تبوك وبها البئر الذى استقى منها موسى عليه السلام لسائمة شعيب » ؛ انظر أيضا ، فى ظلال القرآن ، جـ ٣ ، ص ١٣٠٦ - ١٣٢٢ ؛ وأورد أبو العباس أحمد بن القلقشندى (٨٢١ هـ - ١٤١٨ م) فى كتابه صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء ، القاهرة ١٩٨٣ : « مدين وهم بنو مدين بن إبراهيم عليه السلام ، وكانت ديارهم ديار عاد ، وأرض معان من أطراف الشام مما يلى الحجاز قريبا من عشيرة قوم لوط ، بعث لهم شعيب فلم يؤمنوا » .

أشياءهم ، ولا تُفْسِدُوا فى الأرض بعد إِصْلَاحِهَا ، ذلِكُمْ خيرٌ لكمْ إِنْ كُنْتُم مُؤمِنين.. ولا تَقْعُدوا بكل صراط ﴾ أى طريق ﴿توعدون ﴾[1] أى تتوعدون الناس بأخذ أموالهم من مكوس وغير ذلك ، وتخيفون السبل . كما نهاهم نبيهم عليه السلام عن صد النَّاس عن الهدى رغبة فى أن يسود الضلال والكفر بدلا من الإيمان بالله رب العالمين : ﴿ وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا ﴾[2] . ولكن الملأ من القوم صمّوا آذانهم عن قبول الهدى ، والاستجابة إلى داعى الله عز وجل ، ومع هذا فإن الرسول الكريم صاحب الدعوة لم ييأس ، واستمر يُذّكرُ قومه بنعم الله عليهم : ﴿ واذكُروا إذْ كنتم قليلاً فَكَثَّرَكُم ﴾[2] ، أى تكثيرهم بعد القلة ، كما حذرهم نقمة الله بهم إن خالفوا ما أرشدهم إليه ، ودلهم عليه ﴿ وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين ﴾[3] . ﴿ ولا تنقصوا المكيال والميزان إنِّى أراكم بخير ، وإنِّى أخاف عليكم عذاب يوم محيط ﴾[4] . ﴿ ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين . بقيت الله خير لكم إنْ كُنْتُم مؤمنين ، وما أنا عليكم بحفيظ . قالوا : يا شعيب أصلوتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء ، إنَّك لأنْتَ الحليم الرشيد . قال : يا قوم أرأيتم إنْ كُنْتُ على بينة من ربى ، ورزقنى منه رزقا حسنا ، وما أريد أن أخالفكم إِلَى مَا أَنْهَاكم عنه ، إنْ أُريدُ إلّا الإصلاح ما استطعت ، وما توفيقى إلّا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب . ويا قوم لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقاقِى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح ، وما قوم لوط منكم ببعيد . واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه ، إنّ ربِّى رحيم ودود ﴾[5] .

---

(١) الأعراف : ٨٥ - ٨٦ .
(٢) الأعراف : ٨٦ .
(٣) الأعراف : ٨٦ .
(٤) هود : ٨٤ .
(٥) هود : ٨٥ - ٩٠ .

ولكن أنّى للقلوب القاسية أن تستجيب ، وأنّى لها أن تقف موقف الانتظار والتريث تاركة الفرصة لغيرها لقبول الدعوة أو رفضها، لقد وقف القوم موقفا يدعو إلى الدهشة وإن كان هو نفس موقف الجاهلية من الدعوة إلى الله عز وجل على مدار تاريخ البشرية ؛ فها هم القوم يهددون شعيبا بالقتل ﴿ قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول وإنَّا لنراك فينا ضعيفا ، ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز ﴾(١) أى لولا قبيلتك وعشيرتك فينا لرجمناك ..

﴿ قال يا قوم أَرَهْطِى أعزُّ عليكُمْ من الله ﴾ أى تخافون قبيلتى وعشيرتى وتراعونى لأجلهم ولا تخافون الله ولا تراعونى لأنى رسول الله ﴿ واتخذتموه وراءكم ظهريا ﴾ أى جانب الله وراء ظهوركم ﴿ إن ربى بما تعملون محيط . ويا قوم اعملوا على مكانتكم إنِّى عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا إنِّى معكم رقيب ﴾(٢) . أى سوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار ومن يحل عليه الهلاك والبوار . وفى موضع آخر قال لهم : ﴿ وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين ﴾(٣) .

ولكن القلوب الكافرة ، ولكن الملأ ، أصحاب الجاه والسلطان والمال الذين استكبروا فصرف الله قلوبهم عن الهداية ، هددوا الرسول الكريم الداعية إلى الله ، وهو موقف مكرر فى تاريخ البشرية ، هددوه والمؤمنين معه بالإخراج من قريتهم إن لم يرتدوا عن دينهم ﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه لَنُخْرِجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا قال أو لو كنا كارهين ﴾(٤) .

ولكن هل للقلوب التى خالطتهابشاشة الإيمان أن تستجيب تحت ضغط الوعيد لمطالب الكفر ؟، لقد جاء الرد حاسما واضحا ، ﴿ قد افترينا على الله

---

(١) هود : ٩١ .
(٢) هود : ٩٢ - ٩٣ .
(٣) الأعراف : ٨٧ .
(٤) الأعراف : ٨٨ .

كذبا إن عُدْنَا فى ملَّتِكُمْ بَعْدَ إذْ نَجَّانَا الله مِنْهَا وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربُّنا وَسعَ ربَّنا كل شيء علما ، على الله توكلنا ، ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ﴾[1] .

إنَّه رفض لتهديدات الجاهلية ، وتمسك بالحق الذى أكرمهم الله به ، وتوكل على الله عز وجل واعتصام به ، ثم طلب النصرة منه .

ومع هذا لم يرتدع الكفَّار وصمموا على ما هم عليه واستمروا يشككون فى الدعوة وصاحبها ، محاولين صرف الناس عنها :

﴿ وقال الملأ الذين كفروا من قومه ، لئن اتبعتم شعيبا إنَّكم إذاً لخاسرون ، فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين ﴾[2] .

يقول ابن كثير رحمه الله : « وقد جمع الله عليهم أنواعا من العقوبات وصنوفا من المثلات وأشكالا من البليات ، وذلك لما اتصفوا به من قبيح الصفات ، سلط الله عليهم رجفة شديدة ، أسكنت الحركات ، وصيحة عظيمة أخمدت الأصوات ، وظلة أرسل عليهم منها شرر النار من سائر أرجائها والجهات ، ولكنه تعالى أخبر عنهم فى كل سورة بما يناسب سياقها ، ويوافق طبقاتها . فى سياق قصة الأعراف أرجفوا نبى الله وأصحابه وتوعدوهم بالإخراج من قريتهم أو ليعودن فى ملتهم راجفين فقال تعالى : ﴿ فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين ﴾[3] . فقابل الإرجاف بالرجفة والإخافة بالخيفة وهذا مناسب لهذا السياق ومتعلق بما تقدمه من السياق . وأما فى سورة هود فذكر أنهم أخذتهم الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين وذلك لأنهم قالوا لنبى الله على سبيل التهكم والاستهزاء والتنقص ﴿ أصلواتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء إنَّك لأنت الحليم الرشيد ﴾[4] فناسب أن يذكر الصيحة التى

---

(١) الأعراف : ٨٩ .

(٢) يزعم البعض أن أصحاب الأيكة غير أهل مدين ، يقول ابن كثير « قول ضعيف » ، الأعراف : ٩٠ - ٩١ .

(٣) الأعراف : ٩١ .

(٤) هود ٨٧ .

هى كالزجر عن تعاطى هذا الكلام القبيح الذى واجهوا به هذا الرسول الكريم الأمين الناصح ، فجاءت صيحةٌ أسكتتهم مع رجفة أسكنتهم . وأما فى سورة الشعراء فذكر أنه أخذهم عذاب يوم الظلة ، وكان ذلك إجابة لما طلبوا . وتقريبا إلى ما إليه رغبوا ، فإنهم قالوا : ﴿ إنما أنت من المُسَحَّرين . وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نَظُنُّكَ لمن الكاذبين . فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً من السماءِ إنْ كُنْتَ من الصادقين . قال : رب أعلم بما تعملون ﴾(١) قال الله تعالى وهو السميع العليم : ﴿فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم ﴾(٢).

---

(١) الشعراء : ١٨٥ – ١٨٨ .
(٢) الشعراء : ١٨٩ .

الجـــزء الرابع
الدروس المستفادة والمعالم التى ترسيها
سيرة هود وصالح وشعيب عليهم السلام
فى حياة الأمة المسلمة على وجه الخصوص وفى حياة البشرية على وجه العموم

من أجل أن يعبد الله وحده أرسل الله هودا إلى قومه عاد ، وأرسل صالحا إلى قومه ثمود ، وأرسل شعيبا إلى قومه مدين ، وأرسل سليمان إلى دولة سبأ ، ومن أجل أن يعبد الله وحده ، أُرْسِلَ إسماعيل عليه السلام إلَى أهل الحرم ، ومن أجل توحيد الله ، أقام الله سبحانه وتعالى الحجة بأصحاب الأخدود على أهل عصرهم .

﴿ وإلى عاد أخاهم هودا ، قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، أفلا تعقلون ﴾ .

﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحا ، قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، قد جاءتكم بينة من ربكم ، هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم ﴾ .

﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبا ، قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، قد جاءتكم بينة من ربكم ، فأوفوا الكيل والميزان ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تفسدوا فى الأرض ، بعد إصلاحها ، ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين ﴾ .

﴿ إنَّه من سليمان ، وإنَّه بسم الله الرحمن الرحيم ، ألا تعلو عليَّ وَأْتُونِى مسلمين ﴾ .

إنَّها رحلة طويلة ، فى طريق مرسوم ، ملامحه واضحة ، ومعالمه قائمة ، ومبدؤه معلوم ، ونهايته مرسومة ، والبشرية تخطو عليه بمجموعها الحاشد ثم تقطعه راجعة .

ولقد وضح لنا القرآن الكريم الذى نزل به الوحى الأمين على قلب محمد ﷺ ، كيف استقبلت البشرية موكب الرسل الكرام وما معهم من الهدى كيف خاطبها هذا الموكب وكيف جاوبته ، كيف وقف الملأ لهذا الموكب بالمرصاد ، وكيف تخطى هذا الموكب أرصادها ومضى فى طريقه إلى الله ، وكيف كان عاقبة المكذبين وعاقبة المؤمنين فى الدنيا والآخرة .

إن القرآن الكريم وهو يروى لنا هذا الجزء الحقيقى من تاريخ الأمة المسلمة ، يعرض للمعارك التى وقعت وتقع بين الحق والباطل ، معارك الهدى والضلال ، معارك الرهط الكريم من الرسل والموكب الكريم من المؤمنين ، مع الملأ ، أصحاب الجاه والسلطان المستكبرين ، والأتباع المستخفين ، ويعرض الصراع المتكرر ، والمصائر المتشابهة ، وتتجلى صحائف الإيمان فى إشراقها ووضاءتها ، وصحائف الضلال فى انطماسها وعتامتها ، ويعرض مصارع المكذبين بين الحين والحين ، ويقف عليها مذكرا ومحذرا .

إن أخبار السابقين تعكس لنا أن الرسل عليهم السلام ، وأصحاب الدعوات كانوا يستهدفون أمرا ضخما شاقا عسيرا ، لا يمكن أن يدركه اليوم إلّا الذى يعيش فى الجاهلية وهو يدعو إلى الإسلام ويعلم أنه إنَّما يستهدف أمرا هائلا ثقيلا ، دونه صعاب جسام ، يَسْتَهْدِفُ إنشاءَ عقيدةٍ وتصورٍ ، وقيم وموازين ، وأوضاع وأحوال مغايرة تماما لما هو كائن فى دنيا الناس ، ويجد من رواسب(١) الجاهلية فى النفوس ، ومن تصورات الجاهلية فى العقول ومن قيم

---

(١) فى ظلال القرآن ، المجلد الثالث ، ص ١٢٤٦ ؛ ونظرا لأن طريقة وأسلوب عرض الأحداث التاريخية يشكل جزءا من المنهج الإسلامى لكتابة التاريخ ، حتى يمكن للحدث التاريخى أن يؤدى دوره فى تربية الفرد المسلم ، فقد نقلنا هنا وفى مواضع أخرى نقولا بكاملها عن « فى ظلال القرآن » ، لسيد قطب رحمه الله ، لأنه ليس بإمكاننا أن نعرضها كما عرضها ذلك الكاتب الإسلامى رحمه الله ، لكى تؤدى الدور المناط بها .

الجاهلية فى الحياة ، ومن ضغوطها فى الأوضاع والأعصاب ، ما يحس معه أن كلمة الحقيقة التى يحملها غريبة على البيئة ، ثقيلة على النفوس ، مُسْتَنْكَرَةٌ فى القلوب ، كلمة ذات تكاليف بقدر ما تعنيه من الانقلاب الكامل لكل ما يعهده الناس فى جاهليتهم من التصورات والأفكار والقيم والموازين ، والشرائع والقوانين والعادات والتقاليد والأوضاع والارتباطات .

ومن خلال دعوة الرسل إلى أقوامهم **نلمح العديد من التوجيهات** : أن الرسول دائما واحد من القوم الذين بعث فيهم ، يعرفون دينه وأمانته وصدقه ﴿ وإلى عاد أخاهم هودا ﴾ – ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحا ﴾ – ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبا ﴾ . ومن هنا تأتى **أهمية كون الداعية إلى الله معروفا فى قومه ، يعلمون صدقه وأمانته ودينه** . وبهذا دعا إبراهيم عليه السلام : ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم ﴾ ، واستجاب الله سبحانه وتعالى : ﴿ هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم ﴾ .

ونلمح أيضا موقف الأقوام من دعوة الخير التى حملها إليهم الرسل ، وتهدف إلى إخراجهم من الظلمات إلى النور ، وتحبب إليهم الإيمان وتزينه فى قلوبهم ، وتكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان .

أولا : عــاد قوم هــود :

رفض الملأ أن يكونوا عبيدا لله عز وجل ، كما رفضوا الخضوع لنظامه وشرعه ، وراحوا يكيلون الاتهام للرسول وهو واحد منهم . لقد اتهموا الرسول بالسفاهة والكذب : ﴿ قال الملأ الذين كفروا من قومه : إنَّا لنراك فى سفاهة وإنَّا لنَظُنُّك من الكاذبين . قال : يا قوم ليس بى سفاهة ولكنِّى رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين . أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ؟ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ، وزادكم فى الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون . قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا ؟ فَأْتِنَا بما تَعِدُنَا إن كنت من الصادقين﴾ .

وهنا تبدو جملة من المواقف التى يجب أن يتملاها أصحاب الدعوات :

• **وجوب الدعوة إلى الله ، وهى أشرف الوظائف** لأنها وظيفة الرسل ، ويدخل فى هذه الدعوة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والتواصى بالحق والتواصى بالصبر . فلا يمكن أن تستقيم الحياة فى مجتمع ، يعبث فيه المفسدون فى الأرض ، دون أن تكون هنالك فئة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؛ والمعروف الأكبر أن يعبد الله وحده ، وتكون كلمة الله هى العليا فى حياة المجتمع . والمنكر الأكبر ، أن يُشرك بالله عز وجل ، وأن يُتحاكم إلى غيره .

● **أعـداء الرسل** ، أعداء دين الله عز وجل ، هم الذين رفضوا أن يكونوا عبيدا لله عز وجل ، ورفضوا أن تَخْضَعَ حياتُهم لنظامه وشرعه ؛ هم الملأ ، أصحاب الجاه والسلطان الذين لا يطيقون أن تسير الحياة على منهج الله . ولهذا شاهدناهم يخططون ويتآمرون من أجل : صرف صاحب الدعوة عن دعوته . ويدخل فى هذا ، تشكيك القوم فى الداعى ، ولهذا فقد وصموا هودا بالسفاهة ، والكذب ... وكيف يتبع الناس رجلا موصوما بالسفاهة والكذب ؟

ولكن ما هو موقف الرسول ، الذى يدعو إلى دين الله ، فى مواجهة حملة التشكيك التى أرادت النيل من سمعته وصرف الناس عن دعوته ؟ لو قال لهم : أنتم السفهاء ، وأنتم الكذابون ، لصدق . ولكنه من أصحاب الدعوات ، وأصحاب الدعوات لا يجهلون على الناس إذا جهلوا عليهم : ﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ﴾ لقد كان الرد متناسبا مع مقام صاحبه :

﴿ قال يا قوم ليس بى سَفَاهَة ولكنِّى رسولٌ من رب العالمين ، أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّى وأَنَا لَكُمْ ناصح أمين ﴾ . لقد أفهمهم أنه ليس سفيها ولَا كَذابا ، وإنَّما هو من عند الله ، لا يبغى لهم إلا الخير ، وأنه ناصح أمين . ثم حاول أن يستثير فيهم مشاعر الخير ، فذكرهم أنه واحد منهم ، فهل من المستغرب أن يختار الله واحدا منهم لهذا الشأن . ثم وقف موقفا يذكرهم بأخبار القرون الأولى ، بأن الله قد استخلفهم بعد قوم نوح عليه السلام ، لكى يدركوا أنهم مستخلفون فى الأرض : ﴿ لننظر كيف تعملون ﴾ ، وأن الاستخلاف نعمة من الله ، وإدراك فضل الله يستلزم التوجه إليه بالشكر ، ومن مصارف الشكر ،

تصريف النعمة فى المصارف الشرعية التى بَيَّنها الله سبحانه وتعالى .

إن الرسول قد ذكرهم بنعمة الاستخلاف بعد قوم نوح ليذكرهم مصير الغابرين من قوم نوح ، الذين رفضوا أن يكونوا عبيدا لله عز وجل وكذبوا رسله ، فاستأصل الله شأفتهم ؛ عَلَّهُمْ يُفِيقُون ويستسلمون لله الواحد القهار .

لقد ذكرهم الرسول بنعمة الاستخلاف عَلَّهُمْ يتذكرون عهدهم مع آبائهم وأجدادهم ، أن يعيشوا على الإسلام وبالإسلام وأن يموتوا على الإسلام .

ومن هذا العرض تبدو أهمية أن يكون للداعى إلى الله ، ثقافة تاريخية صحيحة تعينه على أداء واجب الدعوة إلى الله ، عن طريق تذكير المدعو بأخبار السابقين .

وذكرهم هود عليه السلام ، بنعمة الإسلام التى تتمثل فى كونهم أقوياء ، أشداء زادهم الله بسطة فى الجسم ، ولعل فى هذا إشارة من طرف خفى ، إنه بدلا من أن تستخدموا قوتكم التى متعكم الله بها فى الصد عن دين الله ، والبطش بأولياء الله ، عليكم أن تستخدموها لنصرة دين الله فى الأرض ، وقتال أعداء الله الذين يبغونها عوجا .

وكان من الواجب أن يستجيب الملأ ، لعلهم يفلحون ،. لأن طاعة الله تقترن بالفلاح . وهنا تبدو سنة من سنن الله الكونية الثابتة فى حياة الأمم :

ذكْرُ نعمة الله بالمعنى الذى يعرضه القرآن الكريم ، يؤدى إلى الفلاح ، الفلاح بمعناه الشامل فى الدنيا والآخرة : ﴿ فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون ﴾ .

ولكن النفوس الملتوية ، التى استحوذ عليها الشيطان فأنساها ذكر لله ، رفضت أن تكون عبيدا لله عز وجل ، فى الوقت الذى جعلوا أنفسهم عبيدا لبشر أمثالهم ، وعبيدا لعاداتهم وتقاليدهم .

ولم يقف تمردهم وعصيانهم عند هذا الحد ، بل تعداه إلى استعجال العذاب : ﴿ فَأْتِنَا بما تعدنا إنْ كُنْتَ من الصادقين ﴾ .

ماذا يفعل الرسول ، صاحب الدعوة فى مواجهة هذا التمرد على الله عز وجل : ﴿ قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب ، أتجادلوننى فى أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أنتم وآباؤكم ما نـزل الله بها من سلطان ؟ فانتظروا إنِّى معكم من الْمُنتَظِرِين ﴾ .

إن الرسول عليه السلام قد بين لهم أن ما يعبدون مع الله ليس شيئا ذا حقيقة ، إنّها مجرد أسماء أطلقوها وآباؤهم ، من عند أنفسهم لم يشرعها الله ولم يأذن بها ، فما لها إذن من سلطان ، ولا لهم عليها من برهان . والتعبير القرآنى ﴿ ما نَـزَّل الله بها من سلطان ﴾ تعبير موح عن حقيقة أصيلة ... إن كل كلمة أو شرع أو عرف أو تصور لم ينزله الله ، خفيف الوزن قليل الأثر ، سريع الزوال ... إن الفطرة تتلقى هذا كله فى استخفاف ، فإذا جاءت الكلمة من الله ثقلت واستقرت ونفذت إلى الأعماق ، بما فيها من سلطان الله الذى يودعها إياه .

وكم من كلمات براقة ، وكم من مذاهب ونظريات ، وكم من تصورات مزوقة ، وكم من أوضاع حشدت لها كل قوى التزيين والتمكين .... ولكنها تتذاوب أمام كلمة من الله ، فيها من سلطانه - سبحانه - سلطان .

ونلمح هنا أيضا هودا واثقا مطمئنا قويا يواجه قومه بالتحدى : ﴿ فانتظروا ، إنِّى معكم من المنتظرين ﴾ .

إن هذه الثقة هى مناط القوة التى يستشعرها صاحب الدعوة إلى الله ، إنّه على يقين من هزال الباطل وضعفه وخفة وزنه مهما انتفش ومهما استطال ، كما أنه على يقين من سلطان الحق الذى معه وقوته بما فيه من سلطان الله .

وفى موضع آخر من القرآن الكريم نقرأ عرضا آخر لموقف عاد من دعوة هود عليه السلام : ﴿ وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلَهٍ غيره ، إن أنتم إلّا مُفْتَرُون يا قوم لا أسألكم عليه أَجْراً ، إن أَجْرِىَ إلّا عَلَى الذى فَطَرِنى أَفَلَا تَعْقِلُونْ . ويا قوم استغفروا ربكم ثُمّ تُوبُوا إليه يُرْسِلِ السماءَ عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين . قالوا : يا هود ما جئتنا ببينة

وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين . إنْ نَقُولُ إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إنِّى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون ، إنِّى توكلت على الله ربى وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ، إنّ ربى على صراط مستقيم ، فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ويستخلف ربى قوما غيركم ولا تضرونه شيئا ، إن ربى على كل شىء حفيظ ، ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ ، وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد ، وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ألا إنّ عادا كفروا ربهم ألا بعدا لعاد قوم هود ﴾(١) .

ومن هذا العرض نلمح جملة من الحقائق : أن هودا عليه السلام استخدم أسلوبا آخر فى الدعوة يقوم على التعنيف الذى يتناسب مع الموقف العدائى للقوم من دعوة الله عز وجل ، ويتناسب مع عنادهم ، فقال لهم : ﴿ إنْ أنْتُم إلّا مُفْتَرُونْ ﴾ – ﴿ ولا تتولوا مجرمين ﴾ – ﴿ أفلا تعقلون ﴾ ومن هنا يظهر ضرورة مراعاة حال المدعو ، المخاطب بدين الله عز وجل ، فتارة يخاطب باللين ، وتارة يخاطب بحزم .

ومن العرض القرآنى ، يبدو أهمية الإخلاص فى العمل ، وأن يقصد الإنسان بعمله وجه الله عز وجل ﴿ يا قوم لا أسألكم عليه أجرا ، إن أجرى إلا على الذى فطرنى ﴾ .

وهنا نلمح رسول الله عليه السلام يعرض **منهجا ربانيا إصلاحيا** :

﴿ ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويزدكم قوة إلى قوتكم ﴾ .

---

(١) وهنا يعرض لنا القرآن الكريم مواقف الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وهم يتلقون الإعراض والتكذيب والسخرية والاستهزاء والتهديد والإيذاء بالصبر والثقة واليقين بما معهم من الحق وفى نصر الله لهم الذى لا شك آت ... ثم تصديق العواقب فى الدنيا – وفى الآخرة كذلك – بثقة الرسل الكرام بوليهم القادر العظيم بالتدمير على المكذبين ، وبالنجاة للمؤمنين .

- أى توحيد الله وعبادته وحده وطلب المغفرة منه سبحانه وتعالى .

- التوبة مع الاعتراف بالذنب بين يديه ، مع الشعور بالندم ، مع العزم على عدم العودة إلى ارتكاب هذا الذنب مرة أخرى .

وهنا نلمح سنة من سنن الله الكونية الثابتة فى حياة الأمم :

إن عبادة الله وحده ، والاستقامة على نظامه وشرعه مع طلب المغفرة منه سبحانه ، والتوبة من الذنوب والمعاصى ، تؤدى إلى فتح أبواب السماء بالرزق والخير والبركة : ﴿ فقلت استغفروا ربكم إنَّه كان غفارا ، يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا ﴾ .

ويقابل ذلك سنة ربانية كونية أخرى :

إن الشرك بالله ، وارتكاب الذنوب والمعاصى يعزل القوم عن رحمة الله عز وجل ، ويؤدى إلى محق الرزق ، ومحق البركة ، ويمنع نزول الغيث ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ﴾ ﴿ وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا وعذبناها عذابا نكرا ، فذاقت وبال أمرها ، وكان عاقبة أمرها خسرا أعد الله لهم عذابا شديدا ، فاتقوا الله يا أولى الألباب الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكرا ﴾ (الطلاق : ٨ - ١٠) .

ولا تعارض مطلقا بين هذه السنة الكونية ، وبين السنة الكونية الربانية التى تفتح أبواب الرزق على مصراعيها للمشركين الملحدين ، وهذا من قبيل الاستدراج . يَبَيِّنُ ذلك قوله تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا إلى أُمَمٍ من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون . فلولا إذ جاءهم بَأْسُنَا تَضَرّعُوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون . فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذْناهم بغتة فإذا هم مبلسون فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴾، (الأنعام : ٤٢ - ٤٥) .

وللأسف أن كثيرا من الأمم المعاصرة التى أصابها القحط ، وعصف بها الجفاف ، وأصبحت تتسول رغيف الخبز من على موائد أعداء الإسلام ، وتعيش معيشة ضنكا ، لا تحاول أن تنتفع بهذا المنهج الإصلاحى الربانى ، وبدلا من أن

تستمع إلى الناصحين المسلمين من أبنائها ، وتعود إلى ربها ودينها ، حتى تزول الغُمَّة ، وينزل فضل الله سخيا .

بدلا من ذلك تذهب تستفتى أعداء الله ، لماذا القحط ، لماذا لا ينزل الغيث ، لماذا الفقر ؟ لماذا المعيشة الضنك ؟ فتأتى النصائح المدمرة :

السبب زيادة النسل !!! إذن فلنحارب النسل ؟ ولنعقم الرجال والنساء .

السبب فشل خطة التنمية !!! إذا فلنقترض لاستكمال خطة التنمية ؟

السبب قلة الضرائب !!! إذا فلنأخذ الضرائب على كل شيء حتى على الخمور ، وعلى موائد الميسر ؟

ماذا تكون النتيجة ، خراب ، تدمير ، ضياع ، مزيد من المعيشة الضنك .

وليس أدل على ذلك من أن روسيا ، التى كانت الغلال تفيض عندها على عهد حكم القياصرة ، أصبحت تستورد الآن رغيف الخبر من أمريكا ، بعد أن قل الإنتاج ، نتيجة إلحادهم وكفرهم بالرزاق ذى القوة المتين .

بل إن بلاد العالم الإسلامى التى كانت تفيض منها الخيرات والمحاصيل الغذائية على غيرها من الأمم أصبحت تعتمد فى رغيف الخبز على صدقات الآخرين .

ثم أتبع الرسولُ الكريمُ (هود عليه السلام) البرنامجَ الربانّى الإصلاحى بكلمة تؤكد أن الذين يُعرِضُون عن هذا البرنامج الإصلاحى هم مجرمون .. مجرمون فى حق أنفسهم ، وفى حق أمتهم ، لأنهم ضيعوها وضللوها عن طريق الحق والخير والرخاء .

ومن خلال هذا العرض الربانى لسيرة هود عليه السلام نلمح : القوم يتهمون هودا بالجنون مع إصرارهم على الكفر بالله عز وجل ، والإيمان بالطاغوت ﴿ وما نحن لك بمؤمنين ﴾ . ونلمح أيضا تآمرهم على صاحب الدين ﴿ فكيدُونى جميعا ﴾ .

ونلمح هودا يفاصل قومه ، هذه المفاصلة تتمثل فى :

* البراءة من الشرك والمشركين .

* التوكل على الله .

* ويجىء ذلك بعد البلاغ الكامل غير المنقوص : ﴿ فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ﴾ ومن خلال هذا البيان تبدو حقيقة هامة ليستعرضها أصحاب الدعوات : ﴿ ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ، إن ربى على صراط مستقيم ﴾ . أى أن الخلق جميعا فى قبضة الله عز وجل ، فالله هو القاهر ، والله غالب على أمره ، وهو المهيمن . فإذا كان الدواب ومنهم القوم الغلاظ الأشداء فى قبضة الله عز وجل ، والله آخذ بناصيتها ، ويقهرها بقوته قهرا ، فما الخوف من هذه الدواب ، وما الاحتفال بها ، وهى لا تسلط على أحد – إن سلطت – إلا بإذن الله !! إنها حقيقة الألوهية كما تتجلى فى قلوب الصفوة المؤمنة أبدا .

ونلمح أيضا :

أن القوم إذ لم يستجيبوا لدعوة الرسل أهلكهم الله ، واستخلف غيرهم : ﴿ ويستخلف ربِّى قوما غيركم ﴾ ، فليحذر الذين يخالفون عن أمر الله ، وإلَّا : ﴿ وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ، ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ . وهذه سنة كونية أخرى .

ونلمح أيضا :

أن الله يحْفَظ دينه ، وأولياءه وسنته من الأذى والضياع ، ويقوم على الظلمة فلا يفلتون ، ولا يعجزونه هربا ﴿ إنّ ربى على كل شىء حفيظ ﴾ .

وذلك يعنى أن الرزق والموت والحياة بيد الله ، وأنه ليس فى إمكان أحد أن ينفع إنْسَاناً بشىء لم يكتبه الله له ، ولا يسْتَطيع أن يضره بشىء لم يكتبه الله عليه .

﴿ ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منّا ، ونجيناهم من عذاب غليظ ﴾ .

هذه هى عاقبة الإيمان وجنده فى الدنيا ، نجاة من العذاب الشديد ، بل وتمكين لهم فى الأرض ، إمضاء لسنة ربانية كونية :

﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ، ليستخلفنهم فى الأرض

كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم آمنا ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ﴾[1] .

أما الكفر فله شأن آخر :

﴿ وتلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رسُلَه واتَّبَعُوا أمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ . وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ، ألا إن عادا كفروا ربهم ألا بُعْداً لِعَادٍ قومِ هُودْ ﴾

ثانيا : ثمود قــوم صالح :

لقد رفض الملأ من القوم أن يكونوا عبيدا لله الواحد القهار ، ورفضوا إخضاع حياتهم لنظام الله وشرعه ، رغم البينة التى شاهدوها وعاينوها :

﴿ هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم ﴾ .

ورغم أن صالحا عليه السلام نصح قومه بالتدبر والتذكر ، والنظر فى مصائر الغابرين ، والشكر على نعمة الاستخلاف بعد هؤلاء الغابرين :
﴿ واذكروا إذ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عادٍ ، وبوَّأكم فى الأرض ، تتخذون من سهولها قصورا ، وتنحتون الجبال بيوتا . فاذكُرْوا آلاء الله ، ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ﴾ .

ولكن لماذا رفض الملأ أن يكونوا عبيدا لله ؟ وَفضَّلُوا أن يكونوا عبيدا لعبيد أمثالهم ؟ إنَّه الخوفُ على السلطان ، إنهم لا يؤمنون بدعوة تجردهم من السلطان فى الأرض وترده إلى إله واحد هو رب العالمين . ولابد أن يحاولوا فتنة المؤمنين الذين خلعوا ربقة الطاغوت من أعناقهم بعبوديتهم لله وحده ، وتحرروا بذلك من العبودية للعبيد .

موقف عجيب للملأ من القوم ، إنَّهم لم يؤمنوا ، وكان من الواجب عليهم

---

(١) النور : ٥٥ .

أن يؤمنوا ، ولما لم يستجيبوا ، كان من الواجب أن يُخَلّوا بين الناس وربهم ليختاروا دينهم ؛ ولكن أنَّى للقلوب المريضة أن تعرف واجبها . لقد اتجهوا إلى من آمن من الضعفاء بالفتنة والتهديد ، لأنَّهُم لا يطيقون أن يروا الحق أمامهم متحركا ، لأنَّه يذكرهم بباطلهم وشركهم ، إنَّهم لا يطيقون أن يروا الحياة مستقيمة على أمر الله لأن ذلك يحول بينهم وبين تحقيق شهواتهم ورذائلهم : ﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا ، لمن آمن منهم ، أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه ، قالوا : إنَّا بما أرسل به مؤمنون . قال الذين استكبروا إنا بالذى آمنتم به كافرون ﴾ .

وهنا نشاهد ، أن الضعاف لم يعودوا ضعافا ، لقد سكب الإيمان بالله القوة فى قلوبهم والثقة فى نفوسهم ، والاطمئنان فى منطقهم ، إنهم على يقين من أمرهم ، فماذا يجدى التهديد والتخويف ، وماذا تجدى السخرية والاستنكار من الملأ المستكبرين .

وهكذا تبدوا أهمية الإيمان بالله ، إنه يصنع المعجزات ، وهو الذى يعصم صاحبه من أن يقع فى ربقة الطاغوت .

وفى موضع آخر من القرآن الكريم (سورة هود ٦١ : ٦٨) نلمح صالحا يسلك طريق أصحاب الدعوات فى دعوة قومه ، تماما كما فعل هود عليه السلام وغيرُه ، فذكر قومه نعمة الاستخلاف والتمكين فى الأرض ممثلا فى :

الجنات والعيون والزروع والنخل ، وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا فارهين ، كما قدم لهم برنامجا ربانيا إصلاحيا يحقق لهم السعادة فى الحياة الدنيا والآخرة ، كما نصحهم بأن لا يتبعوا الفئة المفسدة ، التى تبغى أن لا تستقيم الحياة على منهج الله عز وجل : ﴿ ولا تطيعوا أمر المسرفين ، الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ﴾ .

ولكن النفوس المريضة ، قد استعصت على العلاج ، فإذا هم يتهمون صالحا بأنه ساحر وأنه وجه شؤم ، ويتهمونه بأنه بشر ، ولا يجوز لبشر مثلهم أن يُصْطَفَى للرسالة ، ونسوا أن الله ﴿ يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس ﴾

﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ﴾ . ونسوا أن هذا الذى يعترضون على بعثته ، هو الذى كان مَرْجُواً فيهم ، ﴿ قد كنت فينا مَرْجُواً قبل هذا ﴾ . إن هؤلاء المتمردين ، عاداتهم وتقاليدهم أعز عليهم من إسلامهم ، أعز عليهم من ربهم خالقهم ورازقهم : ﴿ أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب ﴾ .

ورغم البيان ، والبلاغ الكامل ، ورغم البينة فإنهم بقوا على موقفهم ، وتمردهم . إذن ليس الدليل هو الذى ينقص الملأ للتصديق ، ولكن الإصرار على أن لا تسير الحياة كلها على منهج الله عز وجل .

ولم يقف صد الكافرين عن دين الله عند حد النيل بألسنتهم من النبى الكريم ودعوته بل تعداه إلى التخطيط لقتل رسول الله ، متصورين أنه بقتل صاحب الدعوة سينتهى أمر هذا الدين . وهذا من باب الوهم ، وأيضا من باب الاستدراج ، ﴿ وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يصلحون قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه : ما شهدنا مهلك أهله ، وإنَّا لصادقون ﴾ .

تسعة يخططون لأمة ، يخططون لها بالفساد ، يضللون أمة بأسرها ، والمدينة من ورائهم ، يسوقونها إلى مصيرها المحتم ، وكان عاقبة الانقياد ، انقياد هذه الأمة وراء القلة المفسدة التى تخطط ضد الأمة ورسولها صالح عليه السلام والذين آمنوا معه ، أن شملهم عذاب الله ، أرسل عليهم الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين .

وفى هذا درس حقيقى رادع لكل أمة ، وكل شعب ، وكل تجمع ، بل وكل أسرة تنقاد وراء المفسدين ، وهم قلة فى الغالب ، قلة تقود الكثرة إلى الهاوية(١) .

---

(١) ويوم القيامة يتبرأ الذين كفروا من أتباعهم : ﴿ إذ تبرأ الذين أُتبِعُوا من الذين اتَّبَعُوا ورأوا العذاب ، وتقطعت بهم الأسباب ، وقال الذين اتَّبَعُوا لو أن لنا كَرَّةً فَنَتَبَرَأَ مِنْهم كَما تَبَرَّأوا مِنَّا ، كذلك يريهم الله أعمالهم حسراتٍ عليهم وما هم بِخَارِجِينَ من النار ﴾ .

وفى هذا درس للشياطين الخرس الذين يشاهدون التآمر لذبح الحق وأهله ، ثم لا يحركون ساكنا .

وفى هذا درس للشياطين الخرس الذين وقفوا موقف المتفرج على هذه الفئة المُضِلّة وتركوها تتآمر دون أن تفعل شيئا .

وفى هذا درس لمن يتآمرون على أصحاب الدعوات ، وعلى جند الإسلام متصورين أن الله لا يراهم ، ولا يدرك كيدهم وتآمرهم ، وأنه محيط بهم .

لقد خطط قوم صالح لقتل صالح وأهله من المسلمين الموحدين ،فماذا كانت نتيجة التخطيط ؟ يقول الحق الحى القيوم الذى لا تأخذه سنة ولا نوم : ﴿ ومكروا مكرا ، ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون ، فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنَّا دمرناهم وقومهم أجمعين . فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إنّ فى ذلك لآية لقوم يعلمون ﴾.

ويورد الله سبحانه وتعالى الأسباب التى استحق بسببها هؤلاء القوم الخزى والعذاب فى الدنيا وعذاب النار فى الآخرة .

﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبُّوا العمى على الهدى ﴾ .. سبحان الله !!! قوم تُعْرَضُ عليهم الهداية فيرفضونَهَا ، إنَّه يعرض عليهم الخروج من الظلمات إلى النور ، من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد ، ولكنهم يرفضون ، ويفضلون العمى على الهدى ، يفضلون الظلمات على النور ، وهذا واقع الضالين فى عالمنا المعاصر . وصدق الله إذ يقول : ﴿ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات ﴾ .

وماذا كانت النتيجة :

﴿ فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ﴾ . يعنى أن الله لم يظلمهم ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ .

ثالثا : مديــن قوم شعــيب :

لقد سلك شعيب عليه السلام نفس الطريق الذى سلكه هود وصالح عليهما السلام ، وواجه نفس المواقف التى واجهها الرسولان الكريمان ، فالرسول الكريم عرض على قومه نفس القضية التى عرضها هود وصالح : ﴿ اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ .

كما أفهمهم أن شهادة أن لا إله إلا الله لها مقتضيات : ﴿ ولا تنقصوا المكيال والميزان ﴾ ، ﴿ أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تعثوا فى الأرض مفسدين . بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء ، إنك لأنت الحليم الرشيد . قال : يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ، ورزقنى منه رزقا حسنا وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ، وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت ، وإليه أنيب ﴾ .

لقد رفض القوم أن يكونوا عبيدا لله عز وجل – كما رفضوا الخضوع لنظامه وشرعه . تماما كما فعل عاد وثمود . فاستغلوا تحكمهم فى طرق التجارة والسلع التجارية فى تطفيف الكيل والميزان ، وبخس الناس أشياءهم ، والإفساد فى الأرض ، كما كانوا يصدون الناس عن دين الله .

لقد كان القوم ظلمة ، يفتنون المؤمنين عن دينهم ، ويصدونهم عن سبيل الله ، لقد كان القوم يكرهون للحياة أن تكون مستقيمة على منهج الله . لماذا ؟ لأن ذلك يذكرهم بجرائمهم ويذكرهم بانحرافهم ، ويذكرهم بعبوديتهم لشهواتهم وشياطينهم كما أن قيام حياة المجتمع المسلم على منهج الله ، يحول بين الظلمة والانحراف ، إذ كيف ينحرفون ، والمجتمع المسلم يجتث الرذيلة ، ويحول بين الناس وبين ارتكاب المحرمات ، ولو فرض أن ظالما أو فاسقا قد ارتكب جرما أو محرما ، أقيم عليه الحد . ففى المجتمع المسلم ، دين الله مصان ، وأعراض الناس وأموالهم مصانة ، وهذا ما لا يطيقه المنحرفون إذ كيف يحال بينهم وبين الرتع فى أموال الناس وأعراضهم ودمائهم ؟؟ **لقد كان أهل مدين فسقة فجرة والفسق**

والفجور لا يعيش فى مجتمع يقوم على نظام الله وشرعه ، ولكنه يقوم فى مجتمع معوج متمرد على دين الله عز وجل . وفى مثل هذا المجتمع لا يأمن الناس على أموالهم وأعراضهم ودينهم .

لهذا جند الكفار والمشركون ، من قوم شعيب إمكانيات العصر التى مكن الله لهم بها فى الأرض ، من مال وبنين وجنات وعيون ، وكثرة فى العدد فى سبيل الصد عن دين الله .... لقد جند هؤلاء المشركون كل أجهزتهم الإلحادية لمطاردة الحق على أرضهم والترويج لباطلهم ، والحيلولة بين الناس وبين الدخول فى دين الله .، بل ومحاولة فتنة الناس عن دينهم .

وهى صورة مكررة فى كل زمان ، فالجاهلية تستخدم كل إمكانياتها لصرف الناس عن الدين الحق ، واجتيالهم عن إسلامهم ، سواء عن طريق الإذاعة المرئية أو المسموعة ، أو عن طريق المجلة أو الجريدة ، أو عن طريق المنهج التعليمى المعوج والعجيب أن هؤلاء الكافرين حريصون دواما على التخطيط لإفساد المجتمع وجعله مجتمعا معوجا بعد أن كان صالحا ، لأن المجتمع المعوج يكون من السهل السيطرة عليه ، فالناس يقادون فيه من شهواتهم : ﴿ ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين . ولا تقعدوا بكل صراط توعدون ، وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا ﴾ .

لقد حاربوا المنادين بالعودة إلى المنهج الربانى ، لقد حاربوا كل محاولة للإصلاح وترصدوا كل حركة تدعو إلى نظافة المجتمع ونظافة معاملاته . وقطعوا الطريق على كل من يقيم معاملاته على الأمانة ونظافة اليد والعدل وإعطاء الناس حقوقهم . وكانوا يعلمون أن الفئة المؤمنة التى تنادى بالأمانة والعدل فى المعاملات ، قامت بذلك نتيجة إيمانها بالله ، فجندوا الطاقات والإمكانيات المادية للصد عن سبيل الله ، ومحاربة أتباع الرسل ، بإشاعة الأكاذيب حولهم .

وهنا يبدو القوم وقد أبوا أن تستقيم الحياة على منهج الله ، ليس هذا فحسب ، إنَّما ذهبوا يشككون فى كون الإسلام نظام حياة اقتصادى وسياسى واجتماعى .... لقد نسى القوم أن القضية هنا هى قضية الأمانة والعدالة بعد قضية

العقيدة والدينونة . أو هى قضية الشريعة والمعاملات التى تنبثق من قاعدة العقيدة والدينونة .

كان أهل مدين وبلادهم تقع فى الطريق من الحجاز إلى الشام – ينقصون المكيال – وهى رذيلة تمس نظافة القلب واليد ، كما تمس المروءة والشرف كما كانوا بحكم موقع بلادهم يملكون أن يقطعوا الطريق على القوافل الذاهبة والآيبة بين شمال الجزيرة وجنوبها ، ويتحكموا فى طريق القوافل ، ويفرضوا ما يشاءون من المعاملات الجائرة التى وصفها الله فى سورة هود (آية ٨٤ – ٩٥) . ومن ثم تبدو علاقة التوحيد والدينونة لله ، بالأمانة والنظافة وعدالة المعاملة وشرف الأخذ والعطاء ، ومكافحة السرقة الخفية سواء قام بها الأفراد أم قامت بها الدول . فهى بذلك ضمانة لحياة إنسانية أفضل ، وضمانة للعدل والسلام فى الأرض بين الناس . وهى الضمانة الوحيدة التى تستند إلى الخوف من الله وطلب رضاه ، فتستند إلى أصل ثابت ، لا يتأرجح مع المصالح والأهواء ...

إن المعاملات والأخلاق لابد أن تستند إلى أصل ثابت لا يتعلق بعوامل متقلبة ... هذه هى نظرة الإسلام . وهى تختلف من الجذور مع سائر النظريات الاجتماعية والأخلاقية التى ترتكن إلى تفكيرات البشر وتصوراتهم وأوضاعهم ومصالحهم الظاهرة لهم .

وهى تستند إلى ذلك الأصل الثابت فينعدم تأثرها بالمصالح المادية القريبة ، كما ينعدم تأثرها بالبيئة والعوامل السائدة فيها . فلا يكون المتحكم فى أخلاق الناس وقواعد تعاملهم من الناحية الأخلاقية هو كونهم يعيشون على الرعى أو يعيشون على الصناعة . إن هذه العوامل المتغيرة تفقد تأثيرها فى التصور الأخلاقى وفى قواعد المعاملات الأخلاقية . حين يصبح مصدر التشريع للحياة كلها هو شريعة الله ، وحيث تصبح قاعدة الأخلاق هى إرضاء الله وانتظار ثوابه وتوقى عقابه ، وكل ما يَهْرِفُ به أصحاب المذاهب الوضعية من تبعية الأخلاق للعلاقات الاقتصادية وللتطور الاجتماعى للأمة يصبح لغوا فى ظل النظرة الأخلاقية الإسلامية[1] ....

(١) فى ظلال القرآن ، المجلد الرابع ، ص ١٩١٧ ، ١٩١٨ .

وواصل المشركون عنادهم وتحديهم لرسولهم : ﴿ قالوا يا شعيب أصلواتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد ﴾ .

وهو رد واضح التهكم ، فهم لا يدركون أو لا يريدون أن يدركوا - أن الصلاة هى من مقتضيات العقيدة ، ومن صور العبودية والدينونة ، وأن العقيدة لا تقوم بغير توحيد الله ، ونبذ ما يعبدونه من دونه هم وآباؤهم ، كما أنها لا تقوم إلا بتنفيذ شرائع الله فى التجارة ، وفى تداول الأموال وفى كل شأن من شئون الحياة والتعامل . فهى لحمة واحدة لا يفترق فيها الاعتقاد عن الصلاة عن شرائع الحياة وعن أوضاع الحياة .

وقبل تسفيه هذا التصور من أهل مدين قبل ألوف السنين ، يحسن أن نذكر أن الناس اليوم - إلا من رحم ربى - لا يفترقون فى تصورهم ولا فى أفكارهم لمثل هذه الدعوة عن قوم شعيب . وأن الجاهلية التى تعيشها البشرية اليوم ليست أفضل ولا أكثر إدراكا من الجاهلية الأولى . وأن الشرك الذى كان يزاوله قوم شعيب هو ذاته الشرك الذى تزاوله البشرية بما فيها أولئك الذين يقولون أنهم يهود أو نصارى .. الخ ، فكلهم يفصل بين العقيدة والشعائر ، والشريعة والتعامل ، فيجعل العقيدة والشعائر لله ووفق أمره ، ويجعل الشريعة والتعامل لغير الله ، ووفق أمر غيره .. وهذا هو الشرك فى حقيقته وأصله .

إن بيننا اليوم - ممن يقولون ، أنهم مسلمون من يستنكرون وجود صلة بين العقيدة والأخلاق ، وبخاصة أخلاق المعاملات المادية . وحاصلون على الشهادات العليا من جامعات العالم يتساءلون أولا فى استنكار : وما للإسلام وسلوكنا الشخصى ؟ ما للإسلام والعرى فى الشواطى ؟ ما للإسلام وزى المرأة فى الطريق ؟ ما للإسلام وتصريف الطاقة الجنسية بأى سبيل ؟ وما للإسلام وتناول كأس من الخمر لإصلاح المزاج ؟ ما للإسلام وهذا الذى يفعله المتحضرون ؟ ... فأى فرق بين هذا السؤال وبين سؤال أهل مدين : ﴿أصلواتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا ﴾ .

وهم يتساءلون ثانيا . بل ينكرون بشدة وعنف أن يتدخل الدين فى الاقتصاد ، وأن تتصل المعاملات بالاعتقاد ، أو حتى بالأخلاق من غير اعتقاد . فما للدين والمعاملات الربوية ؟ وما للدين والمهارة فى الغش والسرقة ما لم يقعا تحت طائلة القانون الوضعى ؟ لا بل إنهم يتبجحون بأن الأخلاق إذا تدخلت فى الاقتصاد تفسده ، وينكرون على بعض أصحاب النظريات الاقتصادية الغربية - النظرية الأخلاقية مثلا - ويعدونها تخليطا من أيام زمان .

فلا يذهب بنا الترفع كثيرا عن أهل مدين فى تلك الجاهلية الأولى . والبشرية اليوم فى جاهلية أشد جهالة ، ولكنها تدعى العلم والمعرفة والحضارة ، وتتهم الذين يربطون بين العقيدة فى الله ، والسلوك الشخصى فى الحياة والمعاملات المادية فى السوق ... تتهمهم بالرجعية والتعصب والجمود .

وما تستقيم عقيدة التوحيد ، توحيد الله فى القلب ، ثم تترك شريعة الله المتعلقة بالسلوك والمعاملة إلى غيرها من قوانين الأرض ، فما يمكن أن يجتمع التوحيد والشرك فى قلب واحد .

ويبدو أيضا الحقيقة الناصعة الواضحة :

(أ) أن الرزق بيد الله .

(ب) وأن الداعية لابد وأن يكون صورة حية من الإسلام الذى يدعو إليه : ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ﴾ .

(جـ) وأن التوفيق بيد الله عز وجل .

(د) ومن هنا تأتى أهمية التوكل عليه والإنابة إليه .

واستمر الرسول الكريم فى دعوته ، فها هو يقف موقف الناصح الأمين :

(أ) يذكرهم بأخبار السابقين علهم يتذكرون ويفيقون ويرجعون : ﴿ ويا قوم لا يجرمنكم شقاق أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح ، وما قوم لوط منكم ببعيد ﴾ .

(ب) ويقدم لهم برنامجا ربانيا إصلاحيا يكفل لهم العيش الطيب فى الدنيا ، والسعادة فى الآخرة : ﴿ واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربى رحيم ودود ﴾ .

ولكن كان قد ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ، وهذا طبيعى لأن الفتن تعرض على القلوب كأعواد الحصير ، فأيما قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء حتى يصبح كالكوز مجخيا ، لا أثر فيه للخير ، وهكذا كانت قلوب الملأ من قوم شعيب عليه السلام : ﴿ قالوا : يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول ، وإنَّا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك ، وما أنت علينا بعزيز ﴾ .

وهنا نلمح طغيان الطاغوت ، إنَّهم لا يعرفون المنطق ، ولا يعرفون الوقوف عند الحدود ، لا يعرفون إلا منطق البطش والقتل والإرهاب ، إن شعيبا لم يرفع سيفا فى وجوههم ، ولم يتآمر عليهم ، ولم يقاتلهم حتى يقاتلوه بهذا التآمر على حياته وحياة الصف المؤمن .

إن الطغاة يلجئون إلى كل الأساليب الخسيسة لإسكات صوت الحق ، ولصرف الداعية عن دعوته ، فإذا عجزوا عن ذلك باللسان ، استخدموا أيديهم ؛ لقد هددوا شعيبا بالقتل رجما ، لأنه ضعيف فى تصورهم :

وهذا دليل على أن الطريق ، طريق أصحاب الدعوات ، ليس مفروشا بالورود ... إنه ليس سهلا ، إنه طريق طويل ملىء بالمشاق والابتلاءات ، ولكن فى نهايته جنة عرضها السموات والأرض .

وكان الرد الذى ينم عن خلق عال ، وأدب رفيع ، وثقة فى الله لا حد لها : ﴿ قال يا قوم ، أرهطى أعز عليكم من الله ، واتخذتموه وراءكم ظهريا ، إنَّ ربى بما تعملون محيط ﴾ .

﴿ وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا ، فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين ﴾ .

إنه يطلب منهم انْتِظار حكم الله بين الفريقين ، الفريق المؤمن والفريق الكافر .

ولكن الطاغوت لا يقبل أبدا بالتعايش مع الإيمان فى مكان واحد ، حتى لو قبل أنصاره وجنده ذلك ، حتى لو انعزل جُندُ الإيمان وتركوا الكفر لحكم الله عز وجل ... لماذا ؟؟ لأن وجود جماعة مسلمة – فى الأرض – تكفر بالطاغوت

وتؤمن بالله ولا تتحاكم إلا إلى شرع الله يزعج الطاغوت ....

ومن هنا فإن الطاغوت يفرض المعركة فرضا على الجماعة المسلمة ، حتى لو آثرت هى ألا تخوض معه المعركة ، إن وجود الحق فى ذاته يزعج الباطل ، وهذا الوجود ذاته هو الذى يفرض عليها المعركة مع الباطل ... إنها سنة الله لابد أن تجرى : ﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه : لَنُخْرِجَنَّكَ يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا ، أو لتعودن فى ملتنا ﴾.

هكذا فى تبجح سافر ، وفى إصرار على المعركة ، لا يقبل المهادنة والتعايش .

إلا أن قوة العقيدة لا تتلعثم ولا تتزعزع أمام التهديد والوعيد ... لقد وقف شعيب عليه السلام عند النقطة التى لا يملك أن يتزحزح وراءها خطوة . نقطة المسالمة والتعايش – على أن يترك لمن شاء أن يدخل فى العقيدة التى يشاء ، وأن يدين للسلطان الذى يشاء : فى انتظار فتح الله وحكمه بين الفريقين – وما يملك صاحب دعوة أن يتراجع خطوة واحدة وراء هذه النقطة ، تحت أى ضغط أو أى تهديد من الطواغيت ... وإلاتنازل كلية عن الحق الذى يمثله وخانه ..... فلما أن تلقى الملأ المستكبرون عرضه هذا بالتهديد بالإخراج من قريتهم أو العودة فى ملتهم ، صدع شعيب بالحق ، مستمسكاً بملته ، كارها أن يعود فى الملة الخاسرة التى أنجاه الله منها ، واتجه إلى ربه وملجئه ومولاه يدعوه ويستنصره ، ويسأله وعده بنصرة الحق وأهله :

﴿ قال : أو لو كُنَّا كارهين ؟ قد افترينا على الله كذبا إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجَّانا الله منها . وما يكون لنا أن نعود فيها – إلا أن يشاء الله ربنا ، وسع ربنا كل شيء علما على الله توكلنا . ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ﴾ ..

وفى هذه الكلمات القلائل تتجلى طبيعة الإيمان ومذاقه فى نفوس أهله ، كما تتجلى طبيعة الجاهلية ومذاقها الكريه ، كذلك نشهد فى قلب الرسول ذلك المشهد الرائع . مشهد الحقيقة الإلهية فى ذلك القلب وكيف تتجلى فيه .

﴿ قال : أو لو كنا كارهين ؟ ﴾ ..

يستنكر تلك القولة الفاجرة : ﴿ لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا ، أو لتعودن فى ملتنا ﴾ .. يقول لهم : أتجبروننا على ما نكره من ملتكم التى نجانا الله منها ؟!

﴿ قد افترينا على الله كذبا إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها ﴾ .

إن الذى يعود إلى ملة الطاغوت والجاهلية التى لا يخلص فيها الناس الدينونة والطاعة لله وحده ، والتى يتخذ الناس فيها أربابا من دون الله يقرون لهم بسلطان الله ... إن الذى يعود إلى هذه الملة – بعد إذ قسم الله له الخير وكشف له الطريق ، وهداه إلى الحق ، وأنقذه من العبودية للعبيد – إنما يؤدى شهادة كاذبة على الله ودينه . شهادة مؤداها أنه لم يجد فى ملة الله خيرا فتركها وعاد إلى ملة الطاغوت !! أو مؤداها – على الأقل – أن لملة الطاغوت حقا فى الوجود ، وشرعية فى السلطان وأن وجودها لا يتنافى مع الإيمان بالله . فهو يعود إليها ويعترف بها بعد أن آمن بالله ... وهى شهادة خطيرة أخطر من شهادة من لم يعرف الهدى ، ولم يرفع راية الإسلام ، شهادة الاعتراف براية الطغيان ، ولا طغيان وراء اغتصاب سلطان الله فى الحياة .

كذلك يستنكر شعيب – عليه السلام – ما يتهدده به الطغاة من إعادته هو والذين آمنوا معه إلى الملة التى أنجاهم الله منها :

﴿ وما يكون لنا أن نعود فيها ﴾ ..

وما من شأننا أصلا ، وما ينبغى لنا قطعا أن نعود فيها ... يقولها وأمامه التهديد الذى يزاوله الطاغوت فى كل أرض مع الجماعة المسلمة التى تعلن خروجها عن سلطانها ، ودينونتها لله وحده بلا شريك معه أو من دونه .

إن تكاليف الخروج من العبودية للطاغوت والدينونة لله وحده – مهما عظمت وشقت – أقل وأهون من تكاليف العبودية للطواغيت . إن تكاليف العبودية للطواغيت فاحشة – مهما لاح فيها من السلامة والأمن والطمأنينة

على الحياة والمقام والرزق – إنها تكاليف بطيئة طويلة مديدة . تكاليف فى إنسانية الإنسان ذاته ، فهذه الإنسانية لا توجد ، والإنسان عبد للإنسان – وأى عبودية شر من تعلق قلب إنسان بإرادة إنسان آخر به ، ورضاه أو غضبه عليه ؟ ... وأى عبودية شر من أن تتعلق مصائر إنسان بهوى إنسان مثله ورغباته وشهواته ؟ ... وأى عبودية شر من أن يكون للإنسان خطام أو لجام يقوده منه كيفما شاء إنسان ؟ .

على أن الأمر لا يقف عند حد هذه المعانى الرفيعة ... إنه يهبط ويهبط حتى يكلف الناس – فى حكم الطواغيت – أموالهم التى لا يحميها شرع ولا يحوطها سياج – كما يكلفهم أولادهم إذ يُنَشِّئُهم الطاغوت كما شاء على ما شاء من التصورات والأفكار والمفهومات والأخلاق والتقاليد والعادات فوق ما يتحكم فى أرواحهم وفى حياتهم ذاتها ، فيذبحهم على مذبح هواه ، ويقيم من جماجمهم وأشلائهم أعلام المجد لذاته . ثم يكلفهم أعراضهم فى النهاية ... حيث لا يملك أب أن يمنع فتاته من الدعارة التى يريدها بها الطواغيت ، سواء فى صورة الغصب المباشر – كما يقع على نطاق واسع على مدار التاريخ – أو فى صورة تنشئتهن على تصورات ومفاهيم تجعلهن نهبا مباحا للشهوات تحت أى شعار . وتمهد لهن الدعارة والفجور تحت أى ستار ... والذى يتصور أنه ينجو بماله وعرضه وحياته وحياة أبنائه وبناته فى حكم الطواغيت من دون الله ، إنما يعيش فى وهم ، أو يفقد الإحساس بالواقع[(١)] .

إن عبادة الطاغوت عظيمة التكاليف فى النفس والعرض والمال ... ومهما تكن تكاليف العبودية لله ، فهى أربح وأقوم حتى بميزان هذه الحياة فضلا على وزنها فى ميزان الله .

لذلك قالها شعيب عليه السلام مدوية حاسمة : ﴿ قد افترينا على الله كذبا إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها ، وما يكون لنا أن نعود فيها .... ﴾ .

---

(١) فى ظلال القرآن ، المجلد الثالث ، ص ١٣١٩ .

ولكن شعيب بقدر ما يرفع رأسه ، وبقدر ما يرفع صوته ، فى مواجهة طواغيت البشر من الملأ الذين استكبروا من قومه ... بقدر ما يخفض هامته ، ويسلم وجهه فى مواجهة ربه الجليل ، الذى وسع كل شيء علما . فهو فى مواجهة ربه ، لا يتألى عليه ولا يجزم بشيء أمام قدره . ويدع له قياده وزمامه ، ويعلن خضوعه واستسلامه :

و ﴿ إلا أن يشاء الله ربنا ، وسع ربنا كل شيء علما ﴾ ..

إنَّه يفوض الأمر لله ربه ، فى مستقبل ما يكون من أمره وأمر المؤمنين معه ... إنَّه يملك رفض ما يفرض عليه الطواغيت ، من العودة فى ملتهم ، ويعلن تصميمه والمؤمنين معه على عدم العودة ، ويعلن الاستنكار المطلق للمبدأ ذاته ... ولكنه لا يجزم بشيء عن مشيئة الله به وبهم .. فالأمر موكول إلى هذه المشيئة ، وهو والذين آمنوا معه لا يعلمون . وربهم وسع كل شيء علما . فإلى علمه ومشيئته تفويضهم واستسلامهم .

إنه أدب ولى الله مع الله . والأدب الذى يلتزم به أمره ، ثم لا يتألى بعد ذلك على مشيئته وقدره . ولا يتألى على شيء يريده به ويقدره عليه .

وهنا يدع شعيب طواغيت قومه وتهديدهم ووعيدهم ، ويتجه إلى وليه بالتوكيل الواثق ، يدعوه أن يفصل بينه وبين قومه بالحق :

﴿ على الله توكلنا . ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق . وأنت خير الفاتحين ﴾ ... وهنا نشهد ذلك المشهد الباهر : مشهد تجلى الحقيقة ، حقيقة « الألوهية » فى نفس ولى الله ونبيه ..

إنه يعرف مصدر القوة ، وملجأ الأمان . ويعلم أن ربه هو الذى يفصل بالحق بين الإيمان والطغيان ، ويتوكل على ربه وحده فى خوض المعركة المفروضة عليه وعلى المؤمنين معه والتى ليس منها مفر . إلا بفتح من الله ونصر .

عندئذ يتوجه الملأ الكفار من قومه إلى المؤمنين به يخوفونهم ويهددونهم ليفتنوهم عن دينهم : ﴿ وقال الملأ الذين كفروا من قومه : لئن اتبعتم شعيبا إنَّكم إذاً لخاسرون ﴾ .

إنَّها ملامح المعركة التى تتكرر ولا تتغير ... إن الطواغيت يتوجهون أولا إلى الداعية ليكف عن الدعوة . فإذا استعصم بإيمانه وثقته بربه ، واستمسك بأمانة التبليغ وتبعته ، ولم يرهبه التخويف بالذى يملكه الطغاة من الوسائل ... تحولوا إلى الذين اتبعوه يفتنونهم عن دينهم بالوعيد والتهديد ، ثم بالبطش والعذاب ... إنَّهم لا يملكون حجة على باطلهم ، ولكن يملكون أدوات البطش والإرهاب ، ولا يستطيعون إقناع القلوب بجاهليتهم ولكنهم يستطيعون البطش بالمصرين على الإيمان ، الذين أخلصوا الدينونة لله فأخلصوا له السلطان .

ولكنه من سنة الله الجارية أنه عندما يتمخض الحق والباطل . ويقفان وجها لوجه فى مفاصلة كاملة تجرى سنة الله التى لا تتخلف .. وهكذا كان ... ﴿ فأخذتهم الرجفة ، فأصبحوا فى دارهم جاثمين ﴾ ..

الرجفة والجثوم ، جزاء التهديد والاستطالة وبسط الأيدى بالأذى والفتنة ..

ويَرُدُّ السياق على قولتهم : ﴿ لئن اتبعتم شعيبا إنَّكم إذاً لخاسرون ﴾ .. وهى التى قالوها مهددين متوعدين للمؤمنين بالخسارة !! فيقرر فى تهكم واضح – أن الخسران لم يكن من نصيب الذين اتبعوا شعيبا ، إنَّما كان من نصيب قوم آخرين :

﴿ الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها ، الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين ﴾ ..

ففى ومضة ها نحن أولاء نراهم فى دارهم جاثمين . لا حياة ولا حراك . كأن لم يعمروا هذه الدار ، وكأن لم يكن لهم فيها آثار ؟؟

ويطوى صفحتهم مشيعة بالتبكيت والإهمال ، والمفارقة والانفصال . من رسولهم الذى كان أخاهم ، ثم افترق طريقه عن طريقهم ، فافترق مصيره عن مصيرهم ، حتى لم يعد يأسى على مصيرهم الأليم ، وعلى ضيعتهم فى الغابرين :

﴿ فتولى عنهم ، وقال : يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم ، فكيف آسى على قوم كافرين ؟؟ ﴾ ..

إنَّه من مَلة وهم من ملة . فهو أمة وهم أمة . أما ملة الأنساب والأقوام ، فلا اعتبار لها فى هذا الدين ، ولا وزن لها فى ميزان الله ... فالوشيجة الباقية هى وشيجة هذا الدين ، والأرتباط بين الناس إنَّما يكون فى حبل الله المتين ...

* * *

الفصل الثالث
قوم سبأ
وسيرة سليمان عليه السلام

فى فترة ما من الزمان ، قامت فى جنوب الجزيرة العربية ، دولة سماها القرآن الكريم « سبأ »[1] ﴿ وجئتك من سبأ بنبأ يقين ﴾ . وكان يحكمها ملكة ﴿ إنِّى وجدتُ امرأةً تملكهم ﴾ . وكان يعاون الملكة مجلس من أصحاب الجاه والسلطان « الملأ » .

هذه الدولة السبئية ﴿ وأوتيت من كل شىء ﴾ ، بما فى ذلك مقومات القوة المادية ﴿ نحن أولو قوة وأولو بأس شديد ﴾ .

ورغم التقدم المادى والقوة الحربية التى كان عليها أهل سبأ – ورغم أنهم قد يكونون من أحفاد الناجين مع نوح من الطوفان ، أو من أحفاد الناجين مع هود أو مع صالح عليهم السلام ، أى أنَّهم ذرية قوم مسلمين – ومن هنا كان التمكين لهم فى الأصل بسبب إسلامهم لله عز وجل – إلَّا أنَّهم قد ارتكسوا فى الجانب الروحى ، وذلك بأنَّهم أشركوا بالله عز وجل ، وكانوا يسجدون للشمس من دون الله عز وجل .

ومن حسن حظ هؤلاء القوم ، بعثة سليمان عليه السلام فى عصرهم ، ودعوة سليمان عليه السلام لملكة سبأ وقومها للدخول فى دين الله عز وجل ﴿ إنَّه

---

(١) يذهب المشتغلون بالتاريخ من المحدثين إلى أن دولة سبأ قد قامت فى منتصف القرن العاشر وانهارت فى نهاية القرن الثانى قبل ميلاد المسيح . وقسموها إلى قسمين : دولة سبأ الأولى (٩٥٠ – ٦٥٠ ق . م) وكانت عاصمة الدولة « صرواح » . وهى الفترة التى حكمت أثناء جزء منها ملكة سبأ ، وقام أثناءها حكم الدولة الإسلامية التى كانت عاصمتها « بيت المقدس » على عهد داود وسليمان عليهما السلام .

ودولة سبأ الثانية (٦٥٠ – ١١٥ ق . م) ، وكانت عاصمتها فى « مأرب » .

من سليمان وإنَّه بسم الله الرحمن الرحيم ، أَلَّا تَعْلُو عَلَيَّ وأْتُونى مُسْلِمِينْ ﴾ . ولما كان كل نبى قبل محمد ﷺ يبعث فى قومه خاصة – فذاك يعنى أن سليمان عليه السلام كان نبيا عربيا ، وأن الدولة الإسلامية فى عهده قد امتدت لتشمل بلاد الشام وجزيرة العرب .

ولما كانت العلاقة بين ملكة سبأ[1] وسليمان عليه السلام ، قد شوهها المستشرقون اليهود والنصارى ومن سار على نهجهم ، فذلك يوجب علينا إعطاء نموذج لذلك التشويه والتزييف الذى تعرض له تاريخ رسول كريم هو نبى الله سليمان عليه السلام ، وملكة أسلمت لله رب العالمين لكى ينتبه المسلمون إلى ما يدبر لهم ولدينهم ، فينهضوا بالتكليف ويتصدروا لهذه الهجمة الشرسة على دين الله ورسله عليهم السلام .

ثم نقوم بعد ذلك بالتصحيح لهذه الأخطاء التى أوقعها أعداء الإسلام وغيرهم من أبناء المسلمين فى تاريخ الإسلام .

النموذج

عميد مايسمى « الأدب المصرى » توفيق الحكيم .

يكتب مسرحية يسميها « سليمان الحكيم »[2] يصور فيها جانبا من تاريخ سليمان عليه السلام وعلاقته بملكة سبأ ، اعتماداً على ألف ليلة وليلة ، والتوراة المزورة ، دون الاعتماد على القرآن الكريم وحديث النبى محمد ﷺ ، فيقع فى حرمة الاعتداء على الله والنبوة والرسالة ، بل ووقع فى حرمة الطعن فى عقيدة وخلق نبى كريم هو رسول الله سليمان عليه السلام فالكاتب يصور سليمان (بدون عليه السلام) شخصا مغرما بالإيقاع بالنساء ومن هؤلاء ملكة سبأ فأرسل إليها لا ليدعوها إلى الإسلام ولكن لتعرض أمرها عليه[3] ، ويوقع بها وتستجيب الملكة لأمر سليمان ، وفى القصر تصدع الموسيقى ، وترفع الكؤوس ، وترقص الراقصات[4] ، ويصدر سليمان

(١) سبأ : أرض باليمن مدينتها مأرب ، بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام معجم البلدان ، جـ ٥ ، ص ٢٣ — ٢٤ .

(٢) دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ، ط الأولى ١٩٧٤ .

(٣) صفحة ٢٧ من المسرحية « سليمان الحكيم » .

(٤) صفحة ٨٠ .

أمره فينصرف الجميع وينفرد بامرأة أجنبية عنه هى ملكة سبأ (بلقيس) ، ويبثها مشاعره وحبه وبعد قليل من الزيارة ، يدرك سليمان ـــ كما زعم توفيق الحكيم ـــ أن ملكة سبأ تحب شخصاً آخر ، وأنه لا سبيل إلى قلبها ، ومن هنا لجأ سليمان إلى استشارة أعوانه ومنهم الجن ، فأشاروا عليه بحيلة عجيبة لقهر ملكة سبأ وإجبارها على الاستسلام لسليمان وتفشل المحاولة ، ويندم سليمان ، ويموت حزينا مهموما لأنه لم يفلح فى الاستحواذ على قلب امرأة .

وهكذا وقع توفيق الحكيم فى حرمة الاعتداء على دين وخلق نبى كريم ، وامرأة مسلمة ، بل ووقع فى حرمة الاعتداء على دين الله عز وجل . فالكاتب يصور العلاقة بين سليمان عليه السلام وملكة سبأ على أنها علاقة غرامية . ويتناسى رسالة سليمان عليه السلام إلى ملكة سبأ والتى وردت فى القرآن الكريم ﴿ **إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم . ألا تعلوا على وأتونى مسلمين** ﴾ (١) ونسى أو تناسى أن ملكة سبأ وصلت بيت المقدس وقومها لتعلن : ﴿ **وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين** ﴾ (٢) ويصور الكاتب الدين على أنه فن سماوى من صناعة المثالين والمصورين . وهذه هى لقطات من كتاب توفيق الحكيم ، سليمان الحكيم .

ويصور الكاتب مازعم حفل استقبال يقيمه سليمان (بدون عليه السلام) لملكة سبأ ، صفحة ٨٠ [موسيقى رائعة ... وأكواب وشراب ... وجوقة من الراقصات الجميلات يرقصن رقصات غريبة] ، وبعد انتهاء الرقص (يشير الملك بيده فينصرف الجميع ولا يبقى غيره مع بلقيس وحدهما) ، فتقول له ملكة سبأ : أرى أنك تسرع فى الانفراد بى ... فيرد الملك (وهو يرمقها طويلا) لطالما انتظرتك .

وهكذا يصور الكاتب ، سليمان عليه السلام بأنه مغرم بملكة سبأ ، ولا حرج فى أن يخلو بامرأة أجنبية ليس معها محرم(٣) ، ولم يقف الأمر عند هذا ، **فهاهو الكاتب** يخترع كلاما ويدسه على لسان سليمان عليه السلام ، **فيقول سليمان لملكة سبأ وهى** امرأة أجنبية عنه : « دعينى أطالع صفحة وجهك مليا ... أنت يامن **شممت عطرك** وبيننا بحار من رمال .... آه لو استطعت أن أستل بيدى قلبك من بين جنبيك

(١) سورة النمل آية : ٣٠ ، ٣١ . (٢) سورة النمل آية : ٤٤ .

(٣) هذا هو عميد أدبكم يأمة العرب ، اخترع التهم اختراعا ونسبها إلى النبى الكريم وصدق الله القائل ﴿ ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا ﴾ .

وألقى به طعاما إلى الهدهد (صفحة ٨٠ ، ٨١) ويستمر الحوار وترد :

ــ بلقيس : « شكرا لك ياسليمان » .

ــ سليمان : ماأسعدنى الآن بذكرك اسمى هكذا .... (صفحة ٨٤) .

ويصور الكاتب توفيق الحكيم ــ وما هو بموفق وما هو بحكيم ــ سليمان عليه السلام حزينا مهموما يلقى سؤالا على أحد مستشاريه : « هل أحببت يوما ... هل عرفت الحب » (صفحة ٨٧ ، ٨٨) وتُسفر الاستشارة عن سليمان عليه السلام ، وقد أسلم زمامه للجنى لقهر قلب ملكة سبأ ، لتفتحه لسليمان عليه السلام ، ويزعم الكاتب أن سليمان عليه السلام عنده جهاداً وجلاداً (صفحة ٩٥) وفى المنظر الرابع فى المسرحية التى كتبها توفيق الحكيم ، يبدو حوار بين الصياد والجنى .

ــ يقول الصياد : « إن عملنا ومجدنا خليقان أن يُنطقا الجماد تسبيحا بحمدنا » .

وهكذا جعل عميد الأدب المصرى ، المخلوق بمنزلة الخالق وصور عمل الجنى لتهيئة الطريق أمام سليمان لغزو قلب ملكة سبأ ، أنه عمل عظيم (صفحة ١٠١) . ليس هذا فحسب بل يذهب بالحوار إلى حد أن يطلب الجنى من الصياد أن يؤمن به : « آمنت بى الآن ؟ فيرد الصياد : كل الإيمان » (صفحة ١٠٦) ويذهب الجنى إلى أبعد من ذلك : « أومن بى أيها الأحمق ... أسلم أمرك لى وكفى » (صفحة ١٠٦) .

وفى موضع آخر يصور الكاتب سليمان عليه السلام ينفرد بملكة سبأ على بساط الريح (صفحة ١٠٥) وفى القصر يزعم توفيق الحكيم إلى الموقف التالى : (ملكة سبأ تكشف عن ساقيها وكأنها تخاطب نفسها) كيف أجتاز هذه اللجة ؟

ــ سليمان : (ضاحكا) إذا أذنت لى فإنى أحملك .

ــ بلقيس : وأنت ألا تخاف البلل ؟

ــ سليمان : فى سبيلك لا أخاف شيئا .

ــ بلقيس : تريد حملى على ذراعك فوق هذا الماء ؟

ــ سليمان : أرجو ذلك .

ــ بلقيس : كما حملتنى على بساطك فوق هذا الهواء .

ـ سليمان : إنها لسعادة كبرى أن يكون لذراعى حظ بساطى .

.... سليمان (يحملها ويجتاز أرض المكان نحو الفرش ... ويقول : عسى أن تغفر لى هذه الأكذوبة الصغيرة)[1] (صفحة ١٠٧ ـ ١٠٨) .

ـ سليمان : أريد أن أقرأ فى عينيك جريمتى عندك ، (صفحة ١١٠)

ـ بلقيس : يجدر بك أن تقول الصدق ...

ـ سليمان : آه إن الصدق مخيف أحياناً (صفحة ١١١) .

ـ بلقيس : أخبرنى ... أحقا ياسليمان أن لك من النساء ألف زوجة .

ـ سليمان : (شارد الفكر) نعم ، بلقيس : جميلات كلهن ، سليمان : نعم .

ـ بلقيس : من بين نساء كل بلد من بلاد الأرض جاءت إليك أجملهن : نبيات الجمال يفدن إليك برسالة الحسن[2] .

ـ سليمان : أقرأت نشيد إنشادى .

ـ بلقيس : أو نسيت أن يد حكمتك قد حرصت على أن تدسه بين وسائدى ؟

كيف لا أقرؤه ؟ إنى لم أستطع النوم البارحة حتى تلوته مرات ومرات ... آه ماأعذب هذه الكلمات ، أسقنى قبلات فمك ، فحبك أشهى من الخمر ... وعطرك طيب الشذا واسمك ملء الفضاء عطر ... لقد بحثت فى فراشى الليالى الطوال عمن يهواه قلبى ، فما وجدت إليه السبيل . (صفحة ١١٥) .

ـ سليمان ناظرا إليها : ماأجملك ياحبيبتى ... ماأجملك أنت بين النساء ..... (صفحة ١١٦ وما بعدها) .

ـ سليمان (يتأمّل جسمها) : ماأجمل قدميك وساقيك ... إنى أحبك أشهى من الخمر[3] ... (صفحة ١١٧) .

(١) هكذا صور الخيال المريض لعميد الأدب المصرى ، الرسول الكريم سليمان عليه السلام ، بهذه الصورة التى يتنزه عنها . وهذا منهج خطر ، لأن الكاتب اخترع التهم اختراعا ولصقها بنبى الله سليمان عليه السلام . وفى هذا أيضا حض للقارىء على الجريمة ، وتبرير الخلوة بالأجنبيات والسطو على أعراض النساء . وفيها تعويد القارىء على الكذب ، كما يزعم أن النبى اتخذ التمكين الربانى وسيلة للتباهى به أمام بلقيس .

(٢) وهذا كذب وافتراء على دين الله فلا يوجد نبيات فى الإسلام ، إن الخيال المريض للكاتب أوحى إليه بهذا التحريف الذى يلصقه بدين الله .

(٣) إننا نبرأ إلى الله مما قاله توفيق الحكيم ، وكان بودّنا أن لا نورد هذه المقتطفات على صفحات كتابنا ، لولا =

ـ بلقيس : (كأنها تمد شفتيها لشخص وهمى) يسيل سائغا من أجل حبيبى ... ويقطر صافيا بين شفتيه (صفحة ١١٨) .

ـ سليمان : لأنك لا تشعرين بوجودى قربك (صفحة ١٢٠) .

ـ سليمان : وماذا تهمنى قلوب نساء الأرض جميعا مادام هنالك قلب واحد لا يستطيع صوتى أن يبلغ أعتابه . (صفحة ١٢٢) .

حوار بين الجنّى وسليمان :

ـ سليمان : إنك لتزين لى الأفق بأشياء تكاد تعمى بصرى . فلا أميز مما ينبغى مما لا ينبغى .

ـ الجنى : الأمل يامولاى الأمل ... ماضرك لو وضعت فى أملك ، وتركتنى أعمل حتى آكل ...

ـ سليمان : حقا ... لست أملك من الأمر غير ذلك ، رضيت أم كرهت ... افعل بى ماشئت وسأنتظر ... مشاهدا لما تستطيعه قدرتك ... متربعا بما تأتى به عبقريتك[1] (صفحة ١٣ ـ ١٣١) .

ملكة ؟

ـ شهباء : هذا حقا أمر مروع يامولاتى ... أجل ضحكاته كل مساء ... وهو يشرف عليك من هذا الدهليز ... ويقف ينظر إليك لحظة وأنت تبكين ... ثم ينفجر ضاحكا . ذلك الضحك الراعد القاصف ... (صفحة ١٣٦) .

ـ بلقيس : ماكنت أحسبه يقدم على مثل هذا ...

ـ شهباء : إن الذى فى يده القدرة يقدم على كل شيء وينسى كل شيء . (صفحة ١٣٧) .

ـ سليمان : (ينظر إلى بلقيس ويضحك طويلا ...) [2] .

= ضرورة ، لكى يقرأوا الأدب !!! الذى خلّفه لهم عميدهم الراحل ، ولكى يدرك القارىء إلى أى مدى وصل الاعتداء على حرمة الأنبياء والرسل وتشويه مسيرتهم ، فماذا بقى من حرمة القدوة والأسوة ؟؟ ولكى نقدم للقارىء دليل الاتهام الذى نوجهه إلى الكاتب .

(١) هكذا حول الكاتب نبى الله سليمان شخصا بلا إرادة وقد أسلم زمام أمره إلى أحد الشياطين . فهل هذه هى الأمانة ؟ هل هذا هو الأدب ؟

(٢) هكذا يصور الكاتب سليمان عليه السلام مجرما وغدا . لا حول ولا قوة إلا بالله .

المنظر السادس صفحة ١٥٤ :

(سليمان مطرق حزين ، وأمامه الكاهن صادوق)

ــ صادوق : لا تحزن أيها النبى ولا تلق بالا إلى ماحدث . (صفحة ١٥٤) إنك لم ترتكب خطيئة ... ثق أيها النبى بحقيقة نبوتك المنزهة على الخطايا . (صفحة ١٥٥) .

ــ سليمان : لقد صنعت أمراً لا ينبغى أن يصنعه نبى ...

ــ صادوق : ألأنك أحببت امرأة (صفحة ١٥٥) .

ــ سليمان : أيها الكاهن لماذا تحاول دائما أن تبرر خطئى ؟

ــ صادوق : هذا عملى .

ــ سليمان : مرحى مرحى لنبى تحتاج فعاله إلى دفاع (صفحة ١٥٦) .

ــ صادوق : أوتريد أن يعلم الناس أنك تخطىء مثلهم ...

ــ سليمان : بل أريد أن يعلموا أنى أخطىء أحياناً أكثر منهم ... وأنى لم أمنح نفسا من جوهر نفوسهم ... وإنى لست خيرا منهم فى شيء وفى ذلك الندم الذى يهز كيانى ، وفى التماس التوبة الصادقة والتوجه إلى ربى طالبا المغفرة .

ــ صادوق : إن قولك هذا خطير أيها النبى ؟ إنما النبى هو الصورة المثلى التى لا يجب أن ترى فيها الأعين عوجا .

ــ سليمان : آه لكم أيها الكهنة ... بل أيها الفنانون المثالون المصورون إلى متى تعتبرون النبى تحفة فنية خارجة من بين أياديكم ...

ــ صادوق : مادمت تريد الصدق ياسليمان فلأقل لك أنك قد صدقت ... وأن الدين فن[١]. فن علوى ومن أجل هذا وجب أن ترعى فيه أصول الفن : الجمال والكمال .... (صفحة ٥٩) .

ــ سليمان : كلا ياصادوق ... إن الدين هو حقيقة القلب الإنسانى ... بما فطر عليه من خير وشر ... (صفحة ١٥٩) .

ــ الصياد : أنا الصياد الحقير .

(١) وهكذا بعد أن اخترع الكاتب التهم اختراعاً ونسبها إلى نبى الله سليمان عليه السلام ، يلجأ إلى شيء آخر وهو تبرير الجريمة وهو أن السطو على أعراض النساء وحب المرأة الأجنبية ليست جريمة ...، وأن التوجه إلى الله بطلب المغفرة » قول خطير « ويزعم أن الرسل يخطئون أكثر من الذين لم يختاروا للرسالة ... وهذا يصادم منهج الله الذى يختار الأنبياء فى خيار القوم ويزعم أيضا أن الدين فن سماوى .

ــ سليمان : أنت وحدك الذى تملك محاكمة سليمان العظيم لأنك تحمل قلبا نقيا ؛ (صفحة ١٦٤) .

ــ سليمان : لو كنت أستطيع أن أنزل بنفسى العقاب أمام عينيك قبل ذهابك .

ــ بلقيس : انس ماحدث ياسليمان ... (صفحة ١٦٧) .

ــ سليمان : وماصنعنا شيئا أكثر من أولئك المشعوذين(١) الذين يبهرون الأبصار بما لديهم من خدع وخيالات (صفحة ١٦٨) .

ــ سليمان : ومانفع هذه السماء ... (صفحة ١٦٨) .

وقد علق على هذه المسرحية ، الأستاذ أحمد محمد عبد الله فى مجلة المجتمع الكويتية بقوله :

اتخذ الكاتب توفيق الحكيم من نبى الله مادة للكتابة ، لا لبيان الوجه النافع للدعوة الحقة وإنما قلب الأمور إلى سواد كامل ، وعبارات نازفة لكوامن الشك فى نفسه وبهذا وقع فى منطقة الاعتداء على حرمات أنبياء الله ... فنراه يلج فى السفاهة وهو يستعرض حياة النبى ويأتى بالكلمات الدنيئة وعلى لسان النبى يُجرى مايطيب له من ألفاظ تنزفها نفسه القلقة المريضةالتى يتصاعد منها بخار الشك وبذلك تضع كل مافى الصورة من جمال (٢) .

فالمسرحية ، كما بين الكاتب تعد صارخ على النبى الكريم واتهامه بأشياء باطلة .

صور توفيق الحكيم سليمان عليه السلام : فى صورة رجل جنس تحكمه شهوته فى اقتناء النساء والتحكم فيهن ، لأنه ملك ناحية القدرة ... والعجيب أن الكاتب قد استعاد نشيد الإنشاد الذى يردده اليهود ، وامتنعت عنه الكنائس فى أوربا بعد أن كان يتلى عندهم ، لما يحويه من كلمات نجسة وتعبير حسى قبيح للشهوة العارمة . إن توفيق الحكيم يستعيده ويجعله شعرا لسليمان تردده بلقيس بعد أن دسه سليمان تحت وسادتها ليعبر لها عن حبه ... وناهيك عن كلمات النشيد لما فيها من

(١) وهكذا يعتبر الكاتب أن الأنبياء والرسل الذين اختارهم الله لرسالته لا يختلفون عن المشعوذين ، فهل هذا الكلام يصدر عن كاتب مسلم ؟ اعتداء على الله ورسله والحرائر من النساء .

(٢) العدد ١٨١ / لسنة ١٣٩٣ هـ صـ ٣١ ومابعدها تحت عنوان توفيق الحكيم عندما خذلته باريس افترى على الأنبياء .

خسة وقبح ... وتقرأ بلقيس النشيد وتردده لأجل حبيبها الذى تركته إلى سليمان لترى ما يريد ... ويخترع الحكيم الذنوب والمظالم للنبى وكأنها أمور عادية لا طلال لها . وهناك أيضاً هذه المعجزة ... وما سخره الله لنبيه سليمان عليه السلام ... أتعرف كيف جعله الحكيم ... اتخذه وسيلة للتباهى به أمام بلقيس ليبهر عينيها وليجذب فؤادها حتى يستأثر بها حبيبة مخلصة له ...

ويختم توفيق الحكيم مسرحيته :

إن سليمان قد هزم ... وقد رجعت بلقيس إلى ديارها كسيرة القلب ومات سليمان مهموما عليه الغم والأسى لأن امرأة غلبته ولم يستطع إخضاعها .

التصحيح

سيرة سليمان عليه السلام

من هو سليمان عليه السلام ؟ وإلى من ينتسب ؟ وأين كان ينزل ؟ ومن أين أتى ؟ ما مدى التمكين الذى تحقق له فى أرض الله ؟ وهل قامت له دولة ؟ وما هى الحدود التى كانت عليها ؟ وهل يمكن تحديد زمن تقريبى لها ؟ وهل يمكن التعرف على جوانب من تاريخ تلك الدولة الفكرى والعقدى والسياسى والاقتصادى والاجتماعى ؟ وما هى طبيعة العلاقة التى كانت تربط مملكة سليمان عليه السلام بدولة سبأ ؟

ما هى مصادر ومراجع معلوماتنا عن هذا النبى الكريم وقومه ؟ وما هى الاستفادة التى يمكن أن تعود على الدارس لتاريخ سليمان عليه السلام وقومه ؟

تلك أسئلة كثيرة تدور فى ذهن الراغب فى التعرف على حقيقة تاريخ هذا النبى الكريم ، وتاريخ الدولة التى كان يحكمها ، وطبيعة القوم الذين بعث فيهم .

وسنحاول بإذن الله - اعتمادا على الله ثم على ما بين أيدينا من مصادر صحيحة الإجابة على هذه الأسئلة بقدر الاستطاعة ، دون أن نتطرق إلى محاولة إدراج أى من الافتراضات التى لا تعتمد على وثائق صحيحة توفيرا لجهد القارىء والباحث ، حتى ينصرف بجهده إلى ما يفيده فى دنياه وأخراه .

سليمان - عليه السلام - رسول كريم بعث فى بلاد الشام والبلاد المجاورة يدعو إلى الإسلام[1] ، بعد وفاة والده داود - عليه السلام - وداود عليه السلام

---

(١) العجيب أن الموسوعة العربية الميسرة التى أشرف على تحريرها محمد شفيق غربال ، واشترك فى تأليفها بعض أساتذة الجامعات وهم : د. إبراهيم نصحى ود. أحمد فخرى ، ود. أحمد بدوى ، د. أنيس صايغ ، د. توفيق إسكندر ، زينب عصمت راشد ، د. عبدالرحمن زكى ، د. عبدالمنعم أبو بكر ، د. قسطنطين زريق ، د. محمد يوسف زايد ووديع ، تقول عن سليمان : « ابن داود ، نبى وملك اليهود ، وفى عهده بُنِىَ الهيكل المقدس » ص ١٠٠١ وهذا ما بينا عدم صحته فى رسالتنا أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ ، ذرية إبراهيم عليه السلام » ، دار الوفاء للطباعة والنشر .

ينتهى نسبه إلى إبراهيم الخليل – عليه السلام ، وكانوا جميعا ينزلون بالأرض التى بارك الله فيها للعالمين (بيت المقدس) والتى كان ينزل فيها آباؤهم وأجدادهم يعقوب وإسحاق وإبراهيم عليهم السلام .

وقد مكن الله لداود وأعطاه النبوة والملك والحكمة . كما مكن لابنه سليمان من بعده فأعطاه ملكا لم ولن ينبغى لأحد من بعده كما سنرى .

وسليمان عليه السلام قامت على عهده وعهد أبيه دولة إسلامية عاصمتها بيت المقدس ، وحدودها من المؤكد كانت تشمل بلاد الشام الحالية (سورية وفلسطين) وتشمل الجزيرة العربية كلها .

هذه الدولة كانت تعاصر ما يطلق عليه المشتغلون بالتاريخ فى عصرنا الحاضر ، اسم الدولة السبئية الأولى (٩٥٠ — ٦٥٠ ق . م) . والدولة التى كان يحكمها داود وسليمان كانت دولة عقدية دينها الإسلام وسنعرض لجوانب من تاريخها السياسى والاجتماعى والاقتصادى إن شاء الله .

والتعرف على تاريخ هذه الدولة يستلزم منا التعرض لتاريخ الدولة الإسلامية ، التى قامت على عهد سليمان – عليه السلام – وكانت عاصمتها بيت المقدس ، وعلاقتها بالدولة السبئية قبل إسلامها وبعد إسلامها ، ثم بعد ردتها . مع العلم بأن مصادر معلوماتنا عن هذه الفترة وتاريخها هما القران والسنة وشروح المفسرين والمحدثين ، بالإضافة إلى ما ورد فى بعض كتابات المؤرخين المسلمين كالطبرى وابن كثير .

وسنعرض أولا :

للنصوص القرآنية وتفاسيرها التى يمكن أن نستنبط منها بعض الملامح التاريخية الأساسية لهذه الفترة .

ثانيا : الدروس المستفادة :

أولا : النص القــرآنى[1] :

﴿ ولقد آتينا داود وسليمان علما ، وقالا : الحمد لله الذى فضَّلنا على كثير من عباده المؤمنين . وورث سليمان داود وقال : يا أيّها الناسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطيرِ . وأوتِينا مِنْ كُلِّ شىء ، إنَّ هَذَا لَهُوَ الفضلُ المبينْ . وحُشِرَ لسليمانَ جُنُودُه من الجن والإنس والطير فهم يوزعون . حتى إذا أتَوْا عَلَى وادِ النَّمْل قالت نملة : يـأيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يَحْطِمَنَّكُمْ سليمانُ وَجُنُودُه ، وهم لا يشعرون . فَتَبَسَّمَ ضاحكا من قولها ، وقال : رب أوزعنى[2] أنْ أشكر نِعْمَتَك الّتِى أنْعَمْتَ عليَّ وَعَلَى وَالِدَىّ ، وَأنْ أعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ ، وأدْخِلْنِى برحمتك فى عبادك الصالحين . وتفقد الطير فقال : ما لى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين . لأُعذبنه عَذَاباً شَدِيداً أوْ لأَذْبَحَنَّهُ أو لَيأْتِيَنِّى بِسُلْطَانٍ مُبِينْ ، فمكث غير بعيد فقال : أحطتُ بما لَم تحط به ، وجئتك من سبأٍ بنبأٍ يقين . إنِّى وجدتُ امْرَأةً تَمْلِكُهُمْ ، وأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَىءٍ ، ولَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ . وَجَدْتُهَا وَقومَها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون . ألاّ يَسْجُدُوا لله الذى يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِى السَّمَواتِ والأرض ، ويعلم مَا تُخْفُونْ وَمَا تُعْلِنُونْ . الله لا إله إلاّ هو رب العرش العظيم . قَالَ : سننظر أصَدقْتَ أمْ كُنْتَ مِنَ الكَاذبينْ . اذْهَبْ بكَتابِى هَذَا فَألْقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يَرجِعُون . قالت : يا أَيَّها الملأ ، إنِّى أُلْقِى إلى كتابٌ كريمْ ، إنَّه مِنْ سُلَيْمَانَ ، وإنَّهُ بِسْمِ الله الرَّحْمَـٰنِ الرَّحيـمِ . ألاّ تعلوا على ، وأتونى مسلمين . قالت : يا أيها الملأ ، أفتونى فى أمرى ، ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون . قالوا : نحن أولو قوة ، وأولو بأس شديد ، والأمْرُ إليك فانظرى ماذا تأمرين . قالت : إنَّ الملوك إذَا دَخَلُواْ قَرْيَة أفْسَدُوهَا ، وَجعَلوا أعزَّةَ أهْلِهَا أذِلَّة ، وكذلك

---

(١) النمل : ١٥ – ٤٤ .

(٢) الهمنى وأرشدنى . وقد روى عن النبى ﷺ قال : قالت أم سليمان بن داود : يابنى لا تكثر النوم بالليل فإن كثرة النوم بالليل تدع العبد فقيرا يوم القيامة . رواه ابن ماجه عن أربعة من مشايخه (البداية والنهاية ، جـ ٢ ، ص ٢٠ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ٣٥٨ – ٣٦٦) .

يفعلون . وإنِّى مُرْسلَةٌ إلَيْهم بهدية ، فناظرة بم يرجع المرسلون . فلما جاء سليمان . قال : أتمدونن بمال ، فما آتانى الله خير مِمَّا آتاكم ، بل أنتم بهديتكم تفرحون . ارْجِعْ إليْهمْ فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بِهَا ، ولنخرجنهم مِنْهَا أذلّةً وهم صاغرون . قال : يا أيها الملأ ، أيكم يأتِينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين . قال عفريت من الجن : أنَا آتيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ من مقامِكَ ، وإنِّى عَلَيهْ لَقَوىٌّ أمين . قال الذى عنده علم من الكتاب : أنَا آتيك به قبل أَنْ يَرْتدَّ إلَيْكَ طَرْفُكْ ، فلما رآه مستقرا عنده قال : هذا من فضل ربى ليبلونى ، أأشكر أم أكفر ، ومن شكر فإنَّمَا يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن ربى غنى كريم . قال نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون . فلما جاءت قيل : أهكذا عرشك ؟ قالت : كأنه هو . وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين. وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين . قيل لها : ادخلى الصرح ، فلما رأته حسبته لجة ، وكشفت عن ساقيها ، قال : إنه صرح ممرد من قوارير . قالت : رب إنِّى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾ .

(ب) **التفسير** :

﴿ ولقد آتينا داود وسليمان علما . وقالا : الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين ﴾ .

«هذه هى إشارة البدء فى القصة . وإعلان الافتتاح . خبر تقريرى عن أبرز النعم التى أنعم الله بها على داود وسليمان – عليهما السلام – نعمة العلم . فأما عن داود فقد ورد تفصيل ما آتاه الله من العلم فى سور أخرى . منها تعليمه الترتيل بمقاطع الزبور ، ترتيلا يتجاوب به الكون من حوله ، فتؤوب الجبال معه والطير ، لحلاوة صوته ، وحرارة نبراته ، واستغراقه فى مناجاة ربه ، وتجرده من العوائق والحواجز التى تفصل بينه وبين ذرات هذا الوجود . ومنها تعليمه صناعة الزرد وعدة الحرب ، وتطويع الحديد له ، ليصوغ منه من هذا ما يشاء ، ومنها تعليمه القضاء بين الناس ، مما شاركه فيه سليمان

وأما سليمان ففى هذه السورة تفصيل ما علمه الله من منطق الطير وما إليه ، بالإضافة إلى ما ذكر فى سورة أخرى من تعليمه القضاء ، وتوجيه الرياح المسخرة له بأمر الله .

تبدأ القصة بتلك الإشارة ، ﴿ ولقد آتينا داود وسليمان علما ﴾ وقبل أن تنتهى الآية يجىء شكر داود وسليمان على هذه النعمة ، وإعلان قيمتها وقدرها العظيم ، والحمد لله الذى فضلهما بها على كثير من عباده المؤمنين . فتبرز قيمة العلم ، وعظمة المنة به من الله على العباد ، وتفضيل من يؤتاه على كثير من عباد الله المؤمنين .

ولا يذكر هنا نوع العلم وموضوعه لأن جنس العلم هو المقصود بالإبراز والإظهار وللإيحاء بأن العلم كله هبة من الله ، وبأن اللائق بكل ذى علم أن يعرف مصدره ، وأن يتوجه إلى الله بالحمد عليه ، وأن ينفقه فيما يرضى الله الذى أنعم به وأعطاه . فلا يكون العلم مبعدا لصاحبه عن الله ، ولا منسيا له إياه . وهو بعض مِنّته وعطاياه .

والعلم الذى يبعد القلب عن ربه علم فاسد ، زائغ عن مصدره وعن هدفه ، لا يثمر سعادة لصاحبه ولا للناس ، إنما يثمر الشقاء والخوف والقلق والدمار ، لأنه انقطع عن مصدره ، وانحرف عن وجهته ، وضل طريقه إلى الله ...

ولقد انتهت البشرية اليوم إلى مرحلة جيدة من مراحل العلم ، بتحطيم الذرة واستخدامها . ولكن ماذا جنت البشرية حتى اليوم من مثل هذا العلم الذى لا يذكر أصحابه الله ، ولا يخشونه ، ولا يحمدون له ، ولا يتوجهون بعلمهم إليه ؟ ماذا جنت غير الضحايا الوحشية فى قنبلتى « هيروشيما » و « ناجازاكى » وغير الخوف والقلق الذى يؤرق جفون الشرق والغرب ويتهددها بالتحطيم والدمار والفناء[1] ؟

---

(١) قال البروفيسور (م . ى . أولى فنيت) الأستاذ بجامعة برمنجهام وعضو الهيئة الصناعية فى إعداد القنبلة الذرية . بعد حادثى هيروشيما وناجازاكى :

وبعد تلك الإشارة إلى الإنعام بمنة العلم على داود وسليمان ، وحمدهما لله ربهما على منته وعرفانهما بقدرها وقيمتها يفرد سليمان بالحديث :

﴿ وورث سليمان وداود . وقال : يا أيها الناس علمنا منطق الطير ، وأوتينا من كل شيء . إن هذا لهو الفضل المبين ﴾ ..

وداود أوتى الملك مع النبوة والعلم . ولكن الملك لا يذكر فى صدد الحديث عن نعمة الله عليه وعلى سليمان ، إنما يذكر العلم ، لأن الملك أصغر من أن يذكر فى هذا المجال !

﴿ وورث سليمان داود ﴾ والمفهوم أنها وراثة العلم ، لأنه هو القيمة العليا التى تستأهل الذكر . ويؤكد هذا إعلان سليمان فى الناس : ﴿ قال : يا أيها الناس علمنا منطق الطير ، وأوتينا من كل شيء ﴾ ... فيظهر ما علمه من منطق الطير ويجمل بقية النعم مع إسنادها إلى المصدر الذى علمه منطق الطير . وليس هو داود . فهو لم يرث هذا عن أبيه . وكذلك ما أوتيه من كل شيء إنما جاء من حيث جاءه ذلك التعليم .

﴿ يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء ﴾ ... يذيعها سليمان – عليه السلام – فى الناس تحدثا بنعمة الله ، وإظهارا لفضله ، لا مباهاة ولا تنفجا على الناس . ويعقب عليه ﴿ إن هذا لهو الفضل المبين ﴾ فضل الله الكاشف عن مصدره ، الدال على صاحبه . فما يملك تعليم منطق الطير لبشر

« وأنا على يقين أنه سيظهر فى مدة قصيرة على مسرح العالم قنابل تفوق القنابل الأولى بعشرة آلاف طن فى قوة الانفجار . وستليها قنابل قوتها مليون ، ولا ينفع فى التوق منها دفاع أو احتياط . وأن ست قنابل من هذا القبيل تكفى لتدمير انجلترا على بكرة أبيها » .

وقد صحت نبوءته وأنتجت القنابل الهيدروجينية التى تعد قنبلتا هيروشيما وناجازاكى بالقياس إليها لعبة أطفال !

وبهذه المناسبة نذكر أن قنبلة هيروشيما قد قتلت لفورها من اليابانيين من يتراوح بين عشرة ومائتى ألف وأربعين ومائتى ألف . وذلك غير المشوهين والمعوقين الذين ماتوا بعد ذلك . وهم يعدون بعشرات الألوف !!

إلا الله . وكذلك لا يؤتى أحدا من كل شيء – بهذا التعميم إلا الله .

وللطيور والحيوان والحشرات وسائل للتفاهم – هى لغاتها ومنطقها – فيما بينها . والله سبحانه خالق هذه العوالم يقول : ﴿ وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ﴾ ولا تكون أمما حتى تكون لها روابط معينة تحيا بها ، ووسائل معينة للتفاهم فيما بينها . وذلك ملحوظ فى حياة أنواع كثيرة من الطيور والحيوان والحشرات . ويجتهد علماء هذه الأنواع فى إدراك شيء من لغاتها ووسائل التفاهم بينها عن طريق الحدس والظن لا عن الجزم واليقين . فأما ما وهبه الله لسليمان – عليه السلام – فكان شأنا خاصا به على طريق الخارقة التى تخالف مألوف البشر . لا على طريق المحاولة منه والاجتهاد لتفهم وسائل الطير وغيره فى التفاهم ، على طريق الظن والحدس ، كما هو حال العلماء اليوم ..

أحب أن يتأكد هذا المعنى ويتضح لأن بعض المفسرين المحدثين ممن تبهرهم انتصارات العلم الحديث يحاولون تفسير ما قصه القرآن عن سليمان – عليه السلام – فى هذا الشأن بأنه نوع من إدراك لغات الطير والحيوان والحشرات على طريق المحاولات العلمية الحديثة . وهذا إخراج للخارقة عن طبيعتها ، وأثر من آثار الهزيمة والانبهار بالعلم البشرى القليل .. وأنه لا يسر شيء وأهون شيء على الله ، أن يعلم عبدا من عباده لغات الطير والحيوان والحشرات ، هبة لدنية منه ، بلا محاولة ولا اجتهاد . وإن هى إلا إزاحة لحواجز النوع التى أقامها الله بين الأنواع وهو خالق هذه الأنواع !

على أن هذا كله لم يكن إلا شقا واحدا للخارقة التى أتاحها الله لعبده سليمان . أما الشق الآخر فكان تسخير طائفة من الجن والطير لتكون تحت إمرته ، وطوع أمره ، كجنوده من الإنس سواء بسواء ، والطائفة التى سخرها له من الطير وهبها إدراكا خاصا أعلى من إدراك نظائرها فى أمة الطير .

يبدو ذلك فى قصة الهدهد الذى أدرك من أحوال ملكة سبأ وقومها ما يدركه أعقل الناس وأذكاهم وأتقاهم . وكان ذلك كذلك على طريق الخارقة والإعجاز .

حقيقة أن سنة الله فى الخلق جرت على أن يكون للطير إدراك خاص يتفاوت فيما بينه ، ولكنه لا يصل إلى مستوى إدراك الإنسان ، وأن خلقه الطير على هذا النحو حلقة فى سلسلة التناسق الكونى العام . وأنها خاضعة - كحلقة مفردة - للناموس العام ، الذى يقتضي وجودها على النحو الذى وجدت به .

وحقيقة أن الهدهد الذى يولد اليوم ، هو نسخة من الهدهد الذى وجد منذ ألوف أو ملايين من السنين ، منذ أن وجدت الهداهد . وأن هناك عوامل وراثة خاصة تجعل منه نسخة تكاد تكون طبق الأصل من الهدهد الأول . ومهما بلغ التحوير فيه ، فهو لا يخرج من نوعه ، ليرتقى إلى نوع آخر ، ... وأن هذا - كما يبدو - طرف من سنة الله فى الخلق ، ومن الناموس العام المنسق للكون .

ولكن هاتين الحقيقتين الثابتتين لا تمنعان أن تقع الخارقة عندما يريدها الله خالق السنن والنواميس . وقد تكون الخارقة ذاتها جزءا من الناموس العام ، الذى لا نعرف أطرافه . جزءا يظهر فى موعده الذى لا يعلمه إلا الله ، يخرق المألوف المعهود للبشر ، ويكمل ناموس الله فى الخلق والتناسق العام . وهكذا وجد هدهد سليمان ، وربما كل الطائفة من الطير التى سخرت له فى ذلك الزمان .

ونعود من هذا الاستطراد إلى تفصيل قصة سليمان بعد وراثته لداود وإعلانه ما حباه الله به من علم وتمكين وإفضال ﴿ وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون ﴾ ..

فهذا هو موكب سليمان محشود محشور ، يتألف من الجن والإنس والطير . والإنس معروفون . أما الجن فهم خلق لا نعرف عنهم إلا ما قصه الله علينا من أمرهم فى القرآن . وهو أنه خلقهم من مارج من نار . أى من لهيب متموج من النار . وأنهم يرون البشر والبشر لا يرونهم ﴿ إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ﴾ (الكلام عن إبليس أو الشيطان وإبليس من الجن) وإنهم قادرون على الوسوسة فى صدور الناس بالشر عادة والإيحاء لهم بالمعصية - ولا ندرى كيف - وأن منهم طائفة آمنت برسول الله - ﷺ - ولم يرهم هو أو يعرف منهم إيمانهم ولكن أخبره الله بذلك إخبارا : ﴿ قل : أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا : إنا سمعنا قرآنا عجبا ، يهدى إلى الرشد فآمنا به ،

ولن نشرك بربنا أحدا ﴾ .. ونعرف أن الله سخر طائفة منهم لسليمان يبنون له المحاريب والتماثيل والجفان الكبيرة للطعام ، ويغوصون له فى البحر ، ويأتمرون بأمره بإذن الله . ومنهم هؤلاء الذين يظهرون هنا فى موكبه مع إخوانهم من الإنس والطير .

ونقول : إن الله سخر لسليمان طائفة من الجن وطائفة من الطير كما سخر له طائفة من الإنس . وكما أنه لم يكن كل أهل الأرض من الإنس جندا لسليمان – إذ أن ملكه لم يتجاوز ما يعرف الآن بفلسطين ولبنان وسوريا والعراق إلى ضفة الفرات – فكذلك لم يكن جميع الجن ولا جميع الطير مسخرين له ، إنما كانت طائفة من كل أمة على السواء .

ونستند فى مسألة الجن إلى أن إبليس وذريته من الجن كما قال القرآن .. ﴿ إلا إبليس كان من الجن ﴾ .. وقال فى سورة « الناس » : ﴿ الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس ﴾ . وهؤلاء كانوا يزاولون الإغواء والشر والوسوسة للبشر فى عهد سليمان . وما كانوا ليزاولوا هذا وهم مسخرون له مقيدون بأمره . وهو نبى يدعو إلى الهدى . فالمفهوم إذن أن طائفة من الجن هى التى كانت مسخرة له .

ونستند فى مسألة الطير إلى أن سليمان حين تفقد الطير علم بغيبة الهدهد ولو كانت جميع الطيور مسخرة له ، محشورة فى موكبة ، ومنها جميع الهداهد ، ما استطاع أن يتبين غيبة هدهد واحد من ملايين الهداهد فضلا على بلايين الطير . مالى لا أرى الهدهد ؟ فهو إذن هدهد خاص بشخصه وذاته ، وقد يكون هو الذى سخر لسليمان من أمة الهداهد ، أو يكون صاحب النوبة فى ذلك الموكب من المجموعة المحدودة العدد من جنسه . ويعين على هذا ما ظهر من أن ذلك الهدهد موهوب إدراكا خاصا ليس من نوع إدراك الهداهد ولا الطير بصفة عامة . ولابد أن هذه الهبة كانت للطائفة الخاصة التى سخرت لسليمان ، لا لجميع الهداهد وجميع الطيور . فإن نوع الإدراك الذى ظهر من الهدهد الخاص فى مستوى يعادل مستوى العقلاء الأذكياء الأتقياء من الناس !

حشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير ، وهو موكب عظيم ، وحشد كبير ، يجمع أوله على آخره « فهم يوزعون » حتى لا يتفرقوا وتشيع فيهم الفوضى . فهو حشد عسكرى منظم . يطلق عليه اصطلاح الجنود ، إشارة إلى الحشد والتنظيم .

﴿ حتى إذا أتوا على وادى النمل . قالت نملة : يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون . فتبسم ضاحكا من قولها ، وقال : رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى ، وأن أعمل صالحا ترضاه ، وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين ﴾ ..

لقد سار الموكب . موكب سليمان من الجن والإنس والطير . فى ترتيب ونظام ، يجمع آخره على أوله ، وتضم صفوفه ، وتتلاءم خطاه . حتى إذا أتوا على واد كثير النمل ، حتى لقد أضافه التعبير إلى النمل فسماه « وادى النمل » قالت نملة . لها صفة الإشراف والتنظيم على النمل السارح فى الوادى – ومملكة النمل كمملكة النحل دقيقة التنظيم ، تتنوع فيها الوظائف وتؤدى كلها بنظام عجيب ، يعجز البشر غالبا من اتباع مثله ، على ما أوتوا من عقل راق وإدراك عال –قالت هذه النملة للنمل ، بالوسيلة التى تتفاهم بها أمة النمل ، وباللغة المتعارفة بينها . قالت للنمل . ادخلوا مساكنكم – كى لا يحطمنكم سليمان وجنوده . وهم لا يشعرون بكم .

فأدرك سليمان ما قالت النملة وهش له وانشرح صدره بإدراك ما قالت ، وبمضمون ما قالت . هش لما قالت كما يهش الكبير للصغير الذى يحاول النجاة من أذاه وهو لا يضمر أذاه . وانشرح صدره لإدراكه . فهى نعمة الله عليه تصله بهذه العوالم المحجوبة المعزولةَ عن الناس لاستغلاق التفاهم بينها وقيام الحواجز . وانشرح صدره له لأنه عجيبة من العجائب أن يكون للنملة هذا الإدراك ، وأن يفهم عنها النمل فيطيع !

أدرك سليمان هذا « فتبسم ضاحكا من قوله » .. وسرعان ما هزته هذه المشاهدة ، وردت قلبه إلى ربه الذى أنعم عليه بنعمة المعرفة الخارقة وفتح بينه وبين تلك العوالم المحجوبة المعزولة من خلقه ، واتجه إلى ربه فى إنابة يتوسل إليه :

﴿ رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى ﴾ ..

بهذا النداء القريب المباشر المتصل .. « أوزعنى » اجمعنى كلى . اجمع جوارحى ومشاعرى ولسانى وجنانى وخواطرى وخلجاتى ، وكلماتى وعباراتى ، وأعمالى وتوجهاتى . اجمعنى كلى . اجمع طاقاتى كلها . أولها على آخرها على أولها (وهو المدلول اللغوى لكلمة أوزعنى) لتكون كلها فى شكر نعمتك على وعلى والدى ...

وهذا التعبير يشى بنعمة الله التى مست قلب سليمان - عليه السلام - فى تلك اللحظة ويصور نوع تأثره ، وقوة توجهه ، وارتعاشة وجدانه ، وهو يستشعر فضل الله الجزيل ، ويتمثل يد الله عليه وعلى والديه ، ويحس مس النعمة والرحمة فى ارتياح وابتهال .

﴿ رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى .. وأن أعمل صالحا ترضاه ﴾ .. والعمل الصالح هو كذلك فضل من الله يوفق إليه من يشكر نعمته ، وسليمان الشاكر الذى يستعين ربه ليجمعه ويقفه على شكر نعمته ، يستعين به كذلك ليوفقه إلى عمل صالح يرضاه . وهو يشعر أن العمل الصالح توفيق ونعمة أخرى من الله .

﴿ وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين ﴾ ..

أدخلنى برحمتك .. فهو يعلم أن الدخول فى عبادة الله الصالحين ، رحمة من الله ، تتدارك العبد فتوفقه إلى العمل الصالح ، فيسلك فى عداد الصالحين . يعلم هذا فيضرع إلى ربه أن يكون من المرحومين الموفقين السالكين فى هذا الرعيل . يضرع إلى ربه وهو النبى الذى أنعم الله عليه وسخر له الجن والإنس والطير . غير آمن مكر الله - حتى بعد أن اصطفاه ، خائفا أن يقصر به عمله ، وأن يقصر به سمره .. وليتك تكون الحساسية المرهفة بتقوى الله وخشيته والتشوق إلى رضاه ورحمته فى اللحظة التى تتجلى فيها نعمته كما تجلت والنملة تقول وسليمان يدرك منها ما تقول بتعليم الله له وفضله عليه .

ونقف هنا أمام خارقتين لا حارقة واحدة . خارقة إدراك سليمان لتحذير النملة لقومها . وخارقة إدراك النملة أن هذا سليمان وجنوده . فأما الأولى فهى مما علمه الله لسليمان. وسليمان إنسان ونبى، فالأمر بالقياس إليه أقرب من الخارقة الأخرى البادية فى مقالة النملة . فقد تدرك النملة أن هؤلاء خلق أكبر ، وأنهم يحطمون النمل إذا داسوه . وقد يهرب النمل من الخطر بحكم ما أودع الله فيه من القوى الحافظة للحياة . أما أن تدرك النملة أن هذه الشخوص هى سليمان وجنوده فتلك هى الخارقة الخاصة التى تخرج على المألوف . وتحسب فى عداد الخوارق فى مثل هذه الحالة»[(١)] .

قصة سليمان مع الهدهد وملكة سبأ :

« والآن نأتى إلى قصة سليمان مع الهدهد وملكة سبأ وهى مقطعة إلى ستة مشاهد ، بينها فجوات فنية ، تدرك من المشاهد المعروضة ، وتكمل جمال العرض الفنى فى القصة ، وتتخللها تعقيبات على بعض المشاهد يحمل التوجيه الوجدانى المقصود بعرضها فى السورة ، وتحقق العبرة التى من أجلها يساق القصص فى القرآن الكريم . وتتناسق التعقيبات مع المشاهدة والفجوات تنسيقا بديعا ، من الناحيتين : الفنية الجمالية ، والدينية الوجدانية .

ولما كان افتتاح الحديث عن سليمان قد تضمن الإشارة إلى الجن والإنس والطير ، كما تضمن الإشارة إلى نعمة العلم ، فإن القصة تحتوى دورا لكل من الجن والإنس والطير . فيها دور العلم كذلك . وكأنما كانت تلك المقدمة إشارة إلى أصحاب الأدوار الرئيسية فى القصة .. وهذه سمة فنية دقيقة فى القصص القرآنى .

كذلك تتضح السمات الشخصية والمعالم المميزة لشخصيات القصة . شخصية سليمان ، وشخصية الملكة (ملكة سبأ) وشخصية الهدهد ، وشخصية حاشية الملكة . كما تعرض الانفعالات النفسية لهذه الشخصيات فى شتى مشاهد القصة ومواقفها .

(١) مأخوذ عن سيد قطب فى ظلال القرآن للأسباب التى بينا فى ص ٥٤ الهامش .

يبدأ المشهد الأول فى مشهد العرض العسكرى العام لسليمان وجنوده ، بعد ما أتوا على وادى النمل ، وبعد مقالة النملة ، وتوجه سليمان إلى ربه بالشكر والدعاء والإنابة :

﴿ وتفقد الطير فقال : مالى لا أرى الهدهد ؟ أم كان من الغائبين ؟ لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه ، أو ليأتينى بسلطان مبين ﴾ ..

فها هو ذا الملك النبى . سليمان . فى موكبه الفخم الضخم . ها هو ذا يتفقد الطير فلا يجد الهدهد . ونفهم من هذا أنه هدهد خاص ، معين فى نوبته فى هذا العرض . وليس هدهدا ما من تلك الألوف أو الملايين التى تحويها الأرض من أمة الهداهد . كما ندرك من افتقاد سليمان لهذا الهدهد سمة من سمات شخصيته : سمة اليقظة والدقة والحزم ، فهو لم يغفل عن غيبة جندى من هذا الحشد الضخم من الجن والإنس والطير ، الذى يجمع آخره على أوله كى لا يتفرق وينتكث .

وهو يسأل عنه فى صيغة مترفعة مرنة جامعة : ﴿ مالى لا أرى الهدهد ؟ أم كان من الغائبين ؟ ﴾ .

ويتضح أنه غائب ، ويعلم الجميع من سؤال الملك عنه أنه غائب بغير إذن ! .. وحينئذ يتعين أن يؤخذ الأمر بالحزم ، كى لا تكون فوضى . فالأمر بعد سؤال الملك هذا السؤال لم يعد سرا . وإذا لم يؤخذ بالحزم كان سابقة سيئة لبقية الجند ومن ثم نجد سليمان الملك الحازم يتهدد الجندى الغائب المخالف : ﴿ لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه ﴾ .. ولكن سليمان ليس ملكا جبارا فى الأرض ، إنما هو نبى ، وهو لم يسمع بعد حجة الهدهد الغائب ، فلا ينبغى أن يقضى فى شأنه قضاء نهائيا قبل أن يسمع منه ، ويتبين عذره .. ومن ثم تبرز سمة النبى العادل : ﴿ أوليأتينى بسلطان مبين ﴾ . أى حجة قوية توضح عذره ، وتنفى المؤاخذة عنه .

ويسدل الستار على هذا المشهد الأول فى القصة (أو لعله كان ما يزال قائما) ويحضر الهدهد . ومعه نبأ عظيم ، بل مفاجأة ضخمة لسليمان ، ولنا نحن الذين نشهد أحداث الرواية الآن !

﴿ فمكث غير بعيد فقال : أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبإ بنبإ يقين . إنى وجدت امرأة تملكهم ، وأوتيت من كل شيء ، ولها عرش عظيم وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وزين لهم الشيطان أعمالهم ، فصدهم عن السبيل ، فهم لا يهتدون ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ، ويعلم ما تخفون وما تعلنون ، الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم ﴾ ..

إنه يعرف حزم الملك وشدته . فهو يبدأ حديثه بمفاجأة تطغى على موضوع غيبته ، وتضمن إصغاء الملك له . ﴿ أحطت بما لم تحط به ، وجئتك من سبإ بنبإ يقين ﴾ .. فأى ملك لا يستمع وأحد رعاياه يقول له : ﴿ أحطت بما لم تحط به ﴾ ؟!

فإذا ضمن إصغاء الملك بعد هذه المفاجأة أخذ فى تفصيل النبأ اليقين الذى جاء به من سبأ - ومملكة سبأ تقع فى جنوب الجزيرة باليمن - فذكر أنه وجدهم تحكمهم امرأة ، ﴿ أوتيت من كل شيء ﴾ وهى كناية عن عظمة ملكها وثرائها وتوافر أسباب الحضارة والمتاع . ﴿ ولها عرش عظيم ﴾ . أى سرير ملك فخم ضخم ، يدل على الغنى والترف وارتقاء الصناعة . وذكر أنه وجد الملكة وقومها ﴿ يسجدون للشمس من دون الله ﴾ وهنا يعلل ضلال القوم بأن الشيطان زين لهم أعمالهم ، فأضلهم ، فهم لا يهتدون إلى عبادة الله العليم الخبير الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض . والخبء : المخبوء إجمالا سواء أكان هو مطر السماء ونبات الأرض ، أم كان هو أسرار السموات والأرض . وهى كناية عن كل مخبوء وراء ستار الغيب فى الكون العريض ﴿ ويعلم ما تخفون وما تعلنون ﴾ وهى مقابلة للخبء فى السموات والأرض بالخبء فى أطواء النفس . ما ظهر منه وما بطن .

والهدهد إلى هذه اللحظة يقف موقف المذنب ، الذى لم يقض الملك فى أمره بعد ، فهو يلمح فى ختام النبأ الذى يقصه ، إلى الله الملك القهار ، رب الجميع ، صاحب العرش العظيم ، الذى لا تقاس إليه عروش البشر . ذلك كى يطامن الملك من عظمته الإنسانية أمام هذه العظمة الإلهية :

﴿ الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم ﴾ ..

فيلمس قلب سليمان – فى سياق التعقيب على صنع الملكة وقومها – بهذه الإشارة الخفية ! .

ونجد أنفسنا أمام هدهد عجيب . صاحب إدراك وذكاء وإيمان ، وبراعة فى عرض النبأ ، ويقظة إلى طبيعة موقفه ، وتلميح وإيماء أريب .. فهو يدرك أن هذه ملكة وأن هؤلاء رعية . ويدرك أنهم يسجدون للشمس من دون الله . ويدرك أن السجود لا يكون إلا لله الذى يخرج الخبء فى السماوات والأرض ، وأنه هو رب العرش العظيم .. وما هكذا تدرك الهداهد . إنما هو هدهد خاص أوتى هذا الإدراك الخاص ، على سبيل الخارقة التى تخالف المألوف .

ولا يتسرع سليمان فى تصديقه أو تكذيبه ، ولا يستخفه النبأ العظيم الذى جاءه به . إنما يأخذ فى تجربته ، للتأكد من صحته . شأن النبى العادل والملك الحازم :

﴿ قال : سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين . اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ، ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون ﴾ .

ولا يعلن فى هذا الموقف فحوى الكتاب ، فيظل ما فيه مغلقا كالكتاب نفسه ، حتى يفتح ويعلن هناك وتعرض المفاجأة الغنية فى موعدها المناسب !

ويسدل الستار على هذا المشهد ليرفع فإذا الملكة وقد وصل إليها الكتاب وهى تستشير الملأ من قومها فى هذا الأمر الخطير :

﴿ قالت : يا أيها الملأ إنى ألقى إلى كتاب كريم . إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم . ألا تعلوا على وأتونى مسلمين ﴾ ..

فهى تخبرهم أنه ألقى إليها كتاب . ومن هذا نرجح أنها لم تعلم من ألقى إليها الكتاب ، ولا كيف ألقاه . ولو كانت تعرف أن الهدهد هو الذى جاء به كما تقول التفاسير – لأعلنت هذه العجيبة التى لا تقع كل يوم . ولكنها قالت بصيغة المجهول . مما يجعلنا نرجح أنها لم تعلم كيف أُلْقِىَ إليها ولا من ألقاه .

وهى تصف الكتاب بأنه « كريم » . وهذا الوصف ربما خطر لها من خاتمه أو شكله . أو من محتوياته التى أعلنت عنها للملأ : ﴿ إنه من سليمان ، وإنه بسم الله الرحمن الرحيم . ألا تعلوا على وأتونى مسلمين ﴾ .. وهى كانت لا تعبد الله . ولكن صيت سليمان كان ذائعا فى هذه الرقعة ، ولغة الكتاب التى يحكيها القرآن فيها استعلاء وحزم وجزم . مما قد يوحى إليها بهذا الوصف الذى أعلنته .

وفحوى الكتاب فى غاية البساطة والقوة . فهو مبدوء باسم الله الرحمن الرحيم . ومطلوب فيه أمر واحد :

ألا يستكبروا على مرسله ويستعصوا ، وأن يأتوا إليه مستسلمين لله الذى يخاطبهم باسمه .

ألقت الملكة إلى الملأ من قومها بفحوى الكتاب ، ثم استأنفت الحديث تطلب مشورتهم ، وتعلن إليهم أنها لن تقطع فى الأمر إلا بعد هذه المشورة ، برضاهم وموافقتهم :

﴿ قالت : يا أيها الملأ أفتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون ﴾ ..

وفى هذا تبدو سمة الملكة أريبة ، فواضح منذ اللحظة الأولى أنها أُخِذَتْ بهذا الكتاب الذى ألقى إليها من حيث لا تعلم ، والذى يبدو فيه الحزم والاستعلاء . وقد نقلت هذا الأثر إلى نفوس الملأ من قومها وهى تصف الكتاب بأنه « كريم » وواضح أنها لا تريد المقاومة والخصومة ، ولكنها لا تقول هذا صراحة ، إنما تمهد له بذلك الوصف . ثم تطلب الرأى بعد ذلك والمشورة !

وعلى عادة رجال الحاشية أبدوا استعدادهم للعمل . ولكنهم فوضوا للملكة الرأى :

﴿ قالوا : نحن أولو قوة وأولو بأس شديد . والأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين ﴾ .

وهنا تظهر شخصية « المرأة » من وراء شخصية الملكة . المرأة التى تكره

الحروب والتدمير ، والتى تنضى سلاح الحيلة والملاينة قبل أن تنضى سلاح القوة والمخاشنة :

﴿ قالت : إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ، وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون . وإنى مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون ﴾ .

فهى تعرف أن من طبيعة الملوك أنهم إذا دخلوا قرية (والقرية تطلق على المدينة الكبيرة) أشاعوا فيها الفساد . وأباحوا دمارها ، وانتهكوا حرماتها ، وحطموا القوة المدافعة عنها ، وعلى رأسها رؤساؤها ، وجعلوهم أذلة لأنهم عنصر المقاومة . وأن هذا هو دأبهم الذى يفعلونه .

والهدية تلين القلب ، وتعلن الود ، وقد تفلح فى دفع القتال . وهى تجربة فإن قبلها سليمان فهو إذن أمر الدنيا ، ووسائل الدنيا إذن تجدى . وإن لم يقبلها فهو إذن أمر العقيدة ، الذى لا يصرفه عنه مال ، ولا عرض من أعراض هذه الأرض .

ويسدل الستار على المشهد ، ليرفع ، فإذا مشهد رسل الملكة وهديتهم أمام سليمان . وإذا سليمان ينكر عليهم اتجاههم إلى شرائه بالمال ، أو تحويله عن دعوتهم إلى الإسلام . ويعلن فى قوة وإصرارا تهديده ووعيده الأخير .

﴿ فلما جاء سليمان قال : أتمدونن بمال ؟ فما آتانى الله خير مما آتاكم . بل أنتم بهديتكم تفرحون . ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ، ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون ﴾ ..

وفى الرد استهزاء بالمال ، واستنكار للاتجاه إليه فى مجال غير مجاله . مجال العقيدة والدعوة : ﴿ أتمدونن بمال ﴾ ؟ أتقدمون لى هذا العرض التافه الرخيص ؟ ﴿ فما آتانى الله خير مما آتاكم ﴾ لقد آتانى من المال خيرا مما لديكم ولقد آتانى ما هو خير من المال على الإطلاق ، العلم والنبوة . وتسخير الجن والطير ، فما عاد شىء من عرض الأرض يفرحنى ﴿ بل أنتم بهديتكم تفرحون ﴾ وتهشون لهذا النوع من القيم الرخيصة التى تعنى أهل الأرض ، الذين لا يتصلون بالله ، ولا يتلقون هداياه ! .

ثم يتبع هذا الاستنكار بالتهديد : ﴿ ارجع إليهم ﴾ بالهدية وانتظروا المصير المرهوب ﴿ فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ﴾ جنود لم تسخر للبشر فى أى مكان ، ولا طاقة للملكة وقومها بهم فى نضال : ﴿ ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون ﴾ مدحورون مهزومون .

ويسدل الستار على هذا المشهد العنيف وينصرف الرسل ، ويدعهم السياق لا يشير إليهم بكلمة كأنما قضى الأمر ، وانتهى الكلام فى هذا الشأن .

ثم إذا سليمان – عليه السلام – يدرك أن هذا الرد سينهى الأمر مع ملكة لا تريد العداء – كما يبدو من طريقتها فى مقابلة رسالته القوية بهدية ! ويرجح أنها ستجيب دعوته ، أو يؤكد . وقد كان .

ولكن السياق لا يذكر كيف عاد رسلها إليها ، ولا ماذا قالوا لها ، ولا ماذا اعتزمت بعد . إنما يترك فجوة نعلم مما بعدها أنها قادمة . وأن سليمان يعرف هذا ، وأنه يتذاكر مع جنوده فى استحضار عرشها ، الذى خلفته فى بلادها محروسا مصونا :

﴿ قال : يا أيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين ؟ قال عفريت من الجن : أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك . وإنى عليه لقوى أمين . قال الذى عنده علم من الكتاب : أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ﴾ ..

ترى ما الذى قصد إليه سليمان – عليه السلام – من استحضار عرشها قبل مجيئها مسلمة مع قومها ؟ نرجح أن هذه كانت وسيلة لعرض مظاهر القوة الخارقة التى تؤيده ، لتؤثر فى قلب الملكة وتقودها إلى الإيمان بالله ، والإذعان لدعوته .

وقد عرض عفريت من الجن أن يأتيه به قبل انقضاء جلسته هذه .. وكان يجلس للحكم والقضاء من الصبح إلى الظهر فيما يروى . فاستطول سليمان هذه الفترة واستبطأها – فيما يبدو – فإذا الذى عنده علم من الكتاب « يعرض أن يأتى به فى غمضة عين قبل أن يرتد إليه طرفه ، ولا يذكر اسمه ، ولا الكتاب الذى عنده علم منه . إنما نفهم أنه رجل مؤمن على اتصال به ﷺ ، موهوب سرا

من الله يستمد به من القوة الكبرى التى لا تقف لها الحواجز والأبعاد . وهو أمر يشاهد أحيانا على أيدى بعض المتصلين . ولم يكشف سره ولا تعليله ، لأنه خارج عن مألوف البشر فى حياتهم العادية . وهذا أقصى ما يقال فى الدائرة المأمونة التى لا تخرج إلى عالم الأساطير والخرافات !

ولقد جرى بعض المفسرين وراء قوله : ﴿ عنده علم من الكتاب ﴾ فقال بعضهم : إنه التوراة . وقال بعضهم : إنه كان يعرف اسم الله الأعظم . وقال بعضهم غير هذا وذاك . وليس فيما قيل تفسير ولا تعليل مستيقن . والأمر أيسر من هذا كله حين ننظر إليه بمنظار الواقع ، فكم فى هذا الكون من أسرار لا نعلمها ، وكم فيه من قوى لا نستخدمها وكم فى النفس البشرية من أسرار كذلك وقوى لا نهتدى إليها . فحيثما أراد الله هدى من يريد إلى أحد هذه الأسرار وإلى واحدة من هذه القوى فجاءت الخارقة التى لا تقع فى مألوف الحياة ، وجرت بإذن الله وتدبيره وتسخيره ، حيث لا يملك من لم يرد الله أن يجريها على يديه أن يجريها .

وهذا الذى عنده علم من الكتاب ، كانت نفسه مهيأة بسبب ما عنده من العلم ، أن تتصل ببعض الأسرار والقوى الكونية التى تتم بها تلك الخارقة التى تمت على يده لأن ما عنده من علم الكتاب وصل قلبه بربه على نحو يهيئه للتلقى ، ولاستخدام ما وهبه الله من قوى وأسرار .

وقد ذكر بعض المفسرين أنه هو سليمان نفسه - عليه السلام - ونحن نرجح أنه غيره . فلو كان هو لأظهره السياق باسمه ، ولما أخفاه . والقصة عنه ، ولا داعى لإخفاء اسمه فيها عند هذا الموقف الباهر . وبعضهم قال : ﴿ فلما رآه مستقرا عنده قال : هذا من فضل ربى ، ليبلونى أأشكر أم أكفر ؟ ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن ربى غنى كريم ﴾ .

ولقد لمست هذه المفاجأة الضخمة قلب سليمان - عليه السلام - وراعه أن يحقق الله له مطلبه على هذا النحو المعجز واستشعر أن النعمة - على هذا النحو - ابتلاء ضخم مخيف ، يحتاج إلى يقظة منه ليجتازه ، ويحتاج إلى عون من الله ليتقوى عليه ، ويحتاج إلى معرفة النعمة والشعور بفضل المنعم ، ليعرف

الله منه هذا الشعور فيتولاه ، والله غنى عن شكر الشاكرين ، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ، فينال من الله زيادة النعمة ، وحسن المعونة على اجتياز الابتلاء . ومن كفر فإن الله « غنى » عن الشكر « كريم » يعطى عن كرم لا عن ارتقاب للشكر على العطاء .

وبعد هذه الانتفاضة أمام النعمة والشعور بما وراءها من الابتلاء يمضى سليمان - عليه السلام - فى تهيئة المفاجآت للملكة القادمة عما قليل :

﴿ قال : نكروا لها عرشها . ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون ﴾ غيروا معالمه المميزة له ، لنعرف إن كانت فراستها وفطنتها تهتدى إليه بعد هذا التنكير . أم يلبس عليها الأمر فلا تنفذ إلى معرفته من وراء هذا التغيير .

ولعل هذا كان اختبارا من سليمان لذكائها وتصرفها ، فى أثناء مفاجأتها بعرشها . ثم إذا مشهد الملكة ساعة الحضور :

﴿ **فلما جاءت قيل : أهكذا عرشك ؟ قالت : كأنه هو** ﴾ ..

إنها مفاجأة ضخمة لا تخطر للملكة على بال . فأين عرشها فى مملكتها ، وعليها أقفالها وحراسها .. أين هو من بيت المقدس مقر ملك سليمان ؟ وكيف جىء به ؟ ومن ذا الذى جاء به ؟

ولكن العرش عرشها من وراء هذا التغيير والتنكير !

ترى تنفى أنه هو بناء على تلك الملابسات ؟ أم تراها تقول : إنه هو بناء على ما تراه فيه من أمارات وقد انتهت إلى جواب ذكى أريب : « قالت : كأنه هو » لا تنفى ولا تثبت ، وتدل على فراسة وبديهة فى مواجهة المفاجأة العجيبة .

وهنا فجوة فى السياق . فكأنما أخبرت بسر المفاجأة . فقالت : إنها استعدت للتسليم والإسلام من قبل . أى منذ اعتزمت القدوم على سليمان بعد رد الهدية .

﴿ وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين ﴾ ..

ثم يتدخل السياق القرآنى لبيان ما كان قد منعها قبل ذلك من الإيمان بالله

وصدها عن الإسلام عندما جاءها كتاب سليمان ، فقد نشأت فى قوم كافرين ، فصدها عن عبادة الله عبادتها من دونه من خلقه ، وهى الشمس كما جاء فى أول القصة :

﴿ وصدها ما كانت تعبد من دون الله . إنها كانت من قوم كافرين ﴾ ..

وكان سليمان - عليه السلام - قد أعد للملكة مفاجأة أخرى ، ثم يكشف السياق عنها بعد ، كما كشف عن المفاجأة الأولى قبل ذكر حضورها - وهذه طريقة أخرى فى الأداء القرآنى فى القصة غير الطريقة الأولى :

﴿ قيل لها : ادخلى الصرح . فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها ! قال : إنه صرح ممرد من قوارير ! قالت : رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾ ..

لقد كانت المفاجأة قصرا من البلور ، أقيمت أرضيته فوق الماء ، وظهر كأنه لجة . فلما قيل لها . ادخلى الصرح ، حسبت أنها ستخوض فى تلك اللجة ، فكشفت عن ساقيها ؟ فلما تمت المفاجأة كشف لها سليمان عن سرها : ﴿ قال : إنه صرح ممرد من قوارير ﴾ !

ووقفت الملكة مفجوءة مدهوشة أمام هذه العجائب التى تعجز البشر ، وتدل على أن سليمان مسخر له قوى أكبر من طاقة البشر . فرجعت إلى الله ، وناجته معترفة بظلمها لنفسها فيما سلف من عبادة غيره . معلنة إسلامها ومع سليمان لا لسليمان .. ولكن لله رب العالمين .

لقد اهتدى قلبها واستنار . فعرفت أن الإسلام لله ليس استسلاما لأحد من خلقه ، ولو كان هو سليمان النبى الملك صاحب هذه المعجزات . إنما الإسلام إسلام لله رب العالمين . ومصاحبة للمؤمنين به والداعين إلى طريقه على سنة المساواة .. ﴿ وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾ .

وسجل السياق القرآنى هذه اللفتة وأبرزها ، للكشف عن طبيعة الإيمان بالله ، والإسلام له . فهى العزة التى ترفع المغلوبين إلى صف الغالبين . بل التى يصبح فيها الغالب والمغلوب أخوين فى الله . لا غالب منهما ولا مغلوب وهما

أخوان فى الله .. رب العالمين .. على قدم المساواة .

ولقد كان كبراء قريش يستعصون على دعوة الرسول - ﷺ - وإياهم إلى الإسلام ، وفى نفوسهم الكبر أن ينقادوا إلى محمد بن عبدالله ، فتكون له الرياسة عليهم والاستعلاء . فها هى ذى امرأة فى التاريخ تعلمهم أن الإسلام لله يسوى بين الداعى والمدعوين . بين القائد والتابعين . فإنما يسلمون مع رسول الله لله رب العالمين ! »[١] .

ثانيا : الدروس المستفادة :

● التمكين فى الأرض لمن يعبدون الله ولا يشركون به شيئا، سنة من سنن الله الثابتة فى حياة الأمم يقول الله تعالى : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ﴾[٢] .

فشرط الله لإمضاء وعده بالتمكين للأمم ، هو : أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئا . ووفاء بالوعد فقد مكن الله لداود ، العبد ، الأواب ، المجاهد ، الذى كان على رأس الفئة القليلة المجاهدة التى صمدت فى وجه الفتن داخل الصف المسلم ، وصمدت فى وجه الهجمة الطاغوتية :

﴿ قالوا : ربنا اغفر لنا ذنوبنا ، وإسرافنا فى أمرنا ، وثبت أقدامنا ، وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ .

كانت النتيجة : ﴿ فهزموهم بإذن الله ، وقتل داود جالوت ﴾ ، والتمكين لداود : ﴿ وآتاه الله الملك والحكمة ، وعلمه مما يشاء ﴾[٣] .

واستمر التمكين للمؤمنين الموحدين على عهد سليمان عليه السلام ؛ وقامت

---

(١) عن سيد قطب . فى ظلال القرآن .

(٢) النور : ٥٥ .

(٣) البقرة : ٢٥٠ ــ ٢٥١ .

دولة إسلامية عاصمتها بيت المقدس ، امتدت لتشمل بلاد الشام والجزيرة العربية كلها .

● إنَّ العلم منحة من الله عز وجل : ﴿ ولقد آتينا داود وسليمان علما ﴾ .

والعلم السليم هو الذى يصل الإنْسَانَ بربه ، ويكون وسيلة لتحقيق العبودية الكاملة لواهب ذلك العلم .

وشُكْرُ المُنْعِمِ بهَذَا العِلْمِ على هذه النعمة له أساليب عديدة ؛ منها بذل ذلك العلم ابتغاء مرضات الله ، وتسخيره فى خدمة دين الله ، والدعوة إلى الله ، وابتغاء ثواب الآخرة ، وعدم استعماله فى طلب الدنيا لذاتها ، ولذلك فإن أول الناس يقضي عليه يوم القيامة ، رجال منهم « رجل تعلم العلم وعلمه ، وقرأ القرآن ، فأُتِىَ به فَعَرَّفَهُ الله سبحانه نِعَمَهُ ، فَعرفَهَا ؛ قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمتُ العِلَم وَعلَّمْتَهُ ، وَقَرَأْتُ فِيكَ القُرْأنَ ؛ قال : كذبتَ ، ولكنَّك تعلمت ليقال : عالم وقرأت القرآن ليقال ، قارىء ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار »[1] .

فذاك رجل وهبه الله علما ، ولكنه جعله مطية للدنيا ، فكان وبالا عليه بدلا من أن يكون خيرا له .

ولفضل العلم الذى يصل الإنْسَانَ بربه ، فقد جعل الله سبحانه وتعالى طلبه مما يسهل الله به الطريق إلى الجَّنة : « من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة »[2] .

ولذلك فإن العلم الصحيح يثمر ثمرة طيِّبَةً فى القلب ، تجعلُ الإنسانَ خَاشعاً ذَليلاً متبتلا بين يدى الله عز وجل : ﴿ إنَّما يخشى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العلماءُ ﴾[3] .

---

(١) فقرة من حديث رواه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ ، رواه مسلم (انظر : مختصر صحيح مسلم ص ٢٨٩ ، حديث ١٠٨٩) ، رياض الصالحين ، ص ٥٧٦ ، حديث رقم : ١٦٢٣ .

(٢) رواه مسلم (رياض الصالحين ، ص ٤٨٦) .

(٣) فاطر : ٢٨ .

وداود وسليمان – عليهما السلام – وهبهما الله علما ، فوظَّفَاهُ فى طاعة الله عز وجل ، وهكذا يجب أن يكون المسلمون فى كل زمان ومكان .

إنَّ العلمَ إذَا وَظَّفَهُ الإنْسانُ فى معصية الله عز وجل ، فهو علم فاسد ، وصاحبه مأزور . والعلم الذى لا يثمر عملا فهو حجة على صاحبه وليس حجة له ، والدليل : ﴿ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا ﴾ فالحمار لو حمَّلْنَاه مليون كتاب فى الهندسة لظل حمارا ولو حمَّلْنَاه مليون كتاب فى الطب لظل حمارا .

ولذلك فقد قال الصحابى الجليل معاذ بن جبل : (اعلموا ما شئتم أن تعلموا فلن تؤجروا بعلمكم حتى تعملوا) .

كما أن رسول الله ﷺ قال : « من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله ، لا يتعلمه إلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضَاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة[1] ، يعنى ريحها » .

وخرج الترمذى من حديث كعب بن مالك عن النبى ﷺ : « من طلب العلم ليمارى به السفهاء أو يجارى به العلماء ، أو يصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله النار » .

ومن هنا نرى إدراك نبى الله سليمان لهذا الفضل العظيم ، فيعلن على الملأ : أن الفضل لله ، وأن ما يشاهدونه من النعم هى هبة من رب العالمين : ﴿ الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين ﴾[1] . إنه لم يتطاول بعلمه ، لم يستعل ، لم يتكبر ، لأن هذا العلم الصحيح قد زاده حسنا ، قد زاده تواضعا لله عز وجل ، وهذا هو المعيار الصحيح للعلم السليم ، وبهذا يكون العلم الشرعى هو ذلك الذى

---

(١) خرجه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(١) ورد فى حديث رواه سعيد بن داود عن يوسف بن محمد ابن المنكدر عن أبيه عن جابر عن النبى ﷺ قال : قالت أم سليمان بن داود : يابنى لا تكثر النوم بالليل ، فإن كثرة النوم بالليل تدع العبد فقيرا يوم القيامة . رواه ابن ماجه عن أربعة من مشايخه عنه به نحوه ، (البداية والنهاية ، جـ ٢ ، ص ٢٠) وهذا يدل على أن أم سليمان كانت صالحة عابدة كما كان أبوه عليه السلام .

يصلك بالله ، ويجعلك عبدا حقيقيا لرب العالمين . ولهذا كان علم التوحيد أشرف العلوم الإسلامية على الإطلاق .

● الله يهب سليمان ملكا لا ينبغى لأحد من بعده :

● إن التمكين الربانى لسليمان – عليه السلام – النبى المسلم، بالصورة التى كان عليها ملك سليمان ، لم ولن يتكرر على مدار الزمان ؛ من ملامح هذا التمكين تكلم لغة الطير ، فقد علم الله سبحانه وتعالى سليمان لغة الطير ، كما وهبه من كل شيء : ﴿ وأوتينا من كل شيء ﴾ ولذلك كان لابد مِنْ الشكر : ﴿ إن هذا لهو الفضل المبين ﴾ .

ومن ملامح هذا التمكين تأييد سليمان – عليه السلام – بمقومات القوة المادية : طيرٍ يجوز أجواء الفضاء ، وشياطين يغوصون فى أعماق المحيطات ، وجن يرون الناس والناس لا يرونهم ؛ أى قوات فى البر والبحر والجو ، وهذا ما لم يتحقق ولن يتحقق لأحد من البشر إلا أن يشاء الله – أى أن التمكين للإسلام فى الأرض وتأييده بالقوة المادية سمت للدولة الإسلامية فى كل زمان ، كما كان عليه الأمر على عهد سليمان عليه السلام . فلابد للحق من قوة تحميه وتؤيده .

ومن ملامح هذا التمكين للحق فى الأرض ، إدراك لغة النمل ، فها هو جيش سليمان يتحرك فى طريقه ، ورغم الحركة العارمة ، أُسْمِعَ سليمان عليه السلام نملةٌ تطلب من مملكة النمل ، أن يدخلوا جحورهم حتى لا يسحقهم سليمان وجنوده ، وهم لا يشعرون[1] . وهنا نقف أمام خوارق عديدة .

الأولى :

(أ) نملة تدرك أن الخطر ماثل أمامها ، وقد يتحقق هذا الإدراك لغير

---

(١) وفى هذا التصرف من قبل نملة ، قد تبدو أمام الناظر من أضعف مخلوقات الله ، يظهر حرص الراعى على الرعية ، وحرص الجندى المسلم فى موقعه أن لا يؤتى أحد من قومه من قبله ، وحرص الجندى والراعى على أن يُبعدوا الخطر عن أمتهم . فالنملة بتصرفها ، تبدو يقظة مدركة لمسئولياتها ، وواجباتها ، فقد أدركت أن هنالك خطر على بنى جنسها فانطلقت تنبه وتحذر « ادخلوا مساكنكم » . فهل يتفكر ويتدبر بنو الإنسان الذين ضيعوا رعيتهم وتركوا ثغرات بلادهم أمام الأعداء مفتوحة .

النمل من المخلوقات على اعتبار أن الله قد أودع فى المخلوقات ما تتمكن به من إدراك الخطر الذى يمكن أن تتعرض له ، فتجتنبه ، ولكن كون أن النملة تدرك أن الخطر يمكن أن يحدث من سليمان وجنوده الذين يجوزون بالقرب منهم ، فهذا هو مكمن الإعجاز ، كون أن نملة تدرك أن الذى يمر هو سليمان وجنوده ، فهذه خارقة .

(ب) من الذى أعلم النملة أن المارين هم سليمان وجنوده ، إنه الله رب العالمين ، ولا عجب فالله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وما من دابة فى الأرض ، ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ، ما فرطنا فى الكتاب من شيء ، ثم إلى ربهم يحشرون ﴾[1] .

وفى الحديث قال ﷺ : « إن نملة قرصت نبيا من الأنبياء فأمر بقرية النمل فأحرقت ، فأوحى الله إليه ، أفِى أن قرصتك نملةٌ أهلكت أمة من النَمْل تسبح، وفى رواية : أحرقت أمة من الأمم تسبح الله » .

أى أنها كانت أمة مسلمة طائعة منقادة لله رب العالمين .

الثانية :

سماع سليمان – عليه السلام – لحديث يدور بين نملة وأخرى ، وفهمه لهذا الحديث ؛ فلو افترضنا إن إنساناً قد استطاع أن يسجل الأصوات أو الإشارات المتبادلة بين كائن وآخر ، فهل بإمكانه أن يدرك ماذا يريد أن يقول الكائن للكائن ؟ مستحيل ؛ هذا المستحيل هو الذى تحقق لسليمان – عليه السلام – لأن الله الذى مكن له : ﴿ إنما أمره إذَا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾ . هذا الذى تحقق لسليمان لم يتحقق ولن يَتَحَقّق للبشرية بعد سليمان عليه السلام إلا إذا أراد الله سبحانه وتعالى . فأجهزة التَصَنُّتِ لا تستطيع أن تسجل حركة النمل أو

---

(١) الأنعام : ٣٨ .

(٢) رواه مسلم والبخارى وأبو داود وابن ماجه وأحمد (المعجم ، جـ ٢ ، ص ٣٩١) ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ٣٥٩ .

أصوات النمل أو إشارات النمل ، ولو فرض ونجحت ، فلن تستطيع أن تقول لنا ، ماذا تريد نَمْلَةٌ أن تقول للأخرى .

ماذا فعل سليمان حينما أدرك فضل الله عليه ، بتعليمه لغة النمل : كان كدأبه دائما ، متواضعا لرب العالمين ، لم يتعال ، لم يدع الناس ويقول لهم : انظروا من مثلى فى العالمين ؟؟؟.. العكس هو الصحيح ، التوجه إلى الله : ﴿ رب أوزعنى ﴾ أى وفقنى ﴿ أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه ، وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين ﴾ [1] . وشكر النعمة يستلزم أن يقوم المنعم عليه بالعمل الصالح ، وهو يطلب فى ذلك الإعانة من الله عز وجل : يارب وفقنى لشكر نعمتك ، وأن أعمل صالحا ،ـــ فالتوفيق من الله عز وجل . ولذلك كان محمد ﷺ يقول : « اللهم أعنِّى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك » .

وأن يدخله الله فى عباده الصالحين ، لم يقل فى الأغنياء ، لم يقل فى أصحاب الجاه والسلطان ولكن فى العباد الصالحين .

وهكذا يجب أن يكون المسلم شاكرا لله سبحانه وتعالى فى كل أحواله ، يطلب النصر والمعونة والتوفيق حتى يتمكن من شكر نعمته ، وأن يحرص دائما على أن يكون بين العباد الصالحين فى الدنيا ، ويطلب من الله أن يحشره معهم فى الآخرة .

---

(١) قال عبدالرزاق ، عن معمر ، عن الزهرى : أن سليمان بن داود عليه السلام خرج هو وأصحابه يستسقون فرأى نملة قائمة رافعة إحدى قوائمها تستسقى فقال لأصحابه ارجعوا فقد سقيتم ، إن هذه النملة استسقت فاستجيب لها . قال ابن عساكر ؟ وقد روى مرفوعا ، ولم يذكر فيه سليمان . ثم ساقه عن طريق محمد بن عزيز عن سلامة بن روح بن خالد ، عن عقيل ، عن ابن شباب حدثنى أبو سلمة عن أبى هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : خرج نبى من الأنبياء بالناس يستسقون الله فإذا هم بنملة رافعة بعض قوائمها إلى السماء فقال النبى : ارجعوا فقد استجيب لكم من أجل هذه النملة . قال السرى : أصاب الناس قحط على عهد سليمان عليه السلام فأمر الناس فخرجوا فإذا بنملة قائمة على رجلها باسطة يديها وهى تقول : (اللهُم إنَّا خَلْقٌ مِنْ خَلْقِكَ ولا غِنَاءَ بنا عن فضلك) . قال ، فصب الله عليهم المطر . (البداية والنهاية ، جـ ٢ ، ص ٢٠ .

● **واجبات الراعى حيال الرعية والصفات التى يجب أن يتصف بها القائد : الحكمة ، العدل ، عدم الاندفاع**

يقول محمد ﷺ : « كلكم[1] راع ، وكلكم مسئول عن رعيته : الإمام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع فى أهل بيته ومسئول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها ، والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته ، وكلكم راع ومسئول عن رعيته » .

وهكذا كان سليمان ، كان راعيا لأمته ، من الإنس والجن والطير ، وغيرها من مخلوقات الله عز وجل ، فهل ضيعها ؟ على العكس ، لقد كان حريصا على تفقد رعيته ، لأنه يعلم أنه سيسأل يوم القيامة عنها : « ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غَاشٌّ لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة »[2] . وفى رواية : « فلم يُحطها بنصحه لم يجد رائحة الجنة » . وفى رواية لمسلم : « ما من أمير يلى أمور المسلمين ثم لا يجهد لهم وينصح لهم إلا لم يدخل معهم الجنة » .

وتفقد الطير ، فقال : ﴿ ما لى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين ﴾ . وهذا دليل على يقظة الراعى والقائد ، ومن هو ؟ إنَّه الملك ؟؟.. فرغم المشاغل العديدة ، ورغم المسئوليات الكبيرة فقد فطن سليمان عليه السلام إلى غياب أحد جنوده عن موقعه .

وغياب جندى من جنود سليمان عن موقعه ، قد يكون فى وقت حرب مع الغير ، أمر خطير ، وتركه دون تنبيه أو محاكمة أو عقاب يمكن أن يؤدى إلى حالة من التسيب داخل الجيش ؛ فلابد من الضبط والربط ؛ وعلى الجانب الآخر لا نرى اندفاعا ، لا نرى عجلة من القائد فى إصدار الحكم ؛ لم يقل دم الهدهد هدر ، وحجته أنه فى الميدان ، وترك الثغرة يعتبر خيانة عظمى ، ولكن نرى الحكمة ، نرى التريث ، نرى العدل فى تصرف سليمان عليه السلام حيال هذا الأمر : ﴿ لأعذبنه عذابا شديدا ، أو لأذبحنه ، أو ليأتينى بسلطان مبين ﴾ . أى

---

(١) متفق عليه .

(٢) متفق عليه .

يقدم لى عذرا مقبولا يبين فيه سبب غيابه عن موقعه فى الجيش ، وإلا تعرض للعقاب .

العبودية الحقيقية لله عز وجل :

وطار الخبر ، وتهامس الجنود ، ولابد أن الخبر قد وصل إلى آذان الهدهد الذى كان غائبا ، لأننا نرى أنفسنا أمام الهدهد يقول لسليمان عليه السلام : ﴿ أحطت بما لم تحط به ﴾ . من الذى يتكلم ؟؟.. إنه جندى من جنود سليمان ، يقول لسليمان عليه السلام الملك النبى الرسول الذى أيده الله وآتاه من كل شيء ؛ عندى معلومة ليست عندك .. لم يَخَفْ ، لم يرْتَعِشْ ، لم يقلها من بعيد ولكن من قريب ، ﴿ فمكث غير بعيد ﴾ يعنى : غير خائف ، وممن يخاف ؟ وهو يعلم أن الأجل بيد الله ، والرزق بيد الله ، فَلِمَ يخاف ؟ ومِمَّنْ يخاف ؟؟.. وهو يعلم أن الجميع فى قبضة الله عز وجل المحيط بهم ؛ إنه الإسلام الذى تربى عليه هذا الجندى ، فأدرك أن الأمر كله بيد الله سبحانه وتعالى ، وأن العبد لا يملك للعبد نفعا ولا ضرا إلا بإذن الله ، حتى لو كان الملك سليمان نفسه (عليه السلام) .

وهذا درس لبنى الإسلام ولبنى البشر فى معنى الاستسلام الكامل لله ، واليقين أن الحياة والموت بيده وحده ، وأن الرزق بيده ، فلم يخنعون ؟ ولم يُسْتَذَلّونْ ؟؟.. موقف شجاع من الهدهد ، ولكن موقف سليمان عليه السلام كان أشجع ، وأقوى ، وأعظم ، وأنبل لم يقل سليمان عليه السلام له : كيف تجرؤ على مخاطبة مَلِيكِكَ بهذه الصورة ، ولم تقلها الحاشية وكان يمكن أن تقلها ، لم يقل سليمان : اقبضوا عليه لأنه لم يركع ولم يسجد فى حضرة مليكه ، إن الهدهد ، وهو خلق من خلق الله كان يحدثه حديث الند للند ، حديثا يتجلى فيه قوة المسلم ، واستعلاء المسلم ، وأدب المسلم . ﴿ أحطت بما لم تحط به ، وجئتك من سبإٍ بنبإٍ يقين . إنّى وجدت امرأة[1] تملكهم ، وأوتيت من كل شيء ، ولها

---

(١) وقد ثبت فى صحيح البخارى من حديث عوف عن الحسن عن أبى بكرة أن رسول الله ﷺ لمّا بلغه أن أهل فارس ملكوا عليهم ابنة كسرى قال : لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة . رواه الترمذى والنسائى من حديث حميد عن الحسن عن أبى بكرة عن النبى ﷺ ، وقال الترمذى : حديث حسن صحيح (البداية والنهاية ، جـ ٢ ، ص ٢٢) .

عرش عظيم ، وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون . ألَّا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ، ويعلم ما تخفون وما تعلنون ، الله لا إله إلا هو رب العرش الكريم ﴾ .

ما هى المعلومات التى وضَعَها الجندُّى بين يدى قائده ؟؟..

هناك مملكة معاصرة لدولة سليمان هى مملكة سبأ (جنوب الجزيرة العربية) ، تحكمها ملكة آتاها الله من كل شيء ، بما فى ذلك العرش العظيم ؛ ولكن مع ذلك التمكين الربانى ، والتقدم فى الجانب المادى ، كان هنالك ارتكاسة فى الجانب الروحى العقدى ، كان هنالك شرك بالله عز وجل ، إنَّهم يتعبدون للشمس من دون الله ، لقد نسوا المنعم ، وما كان يجب عليهم من شكر المنعم عز وجل على نعمته ..

شتان بين نبى أوتى كل شيء فيقول : ﴿ إنَّ هذا لهو الفضل المبين ﴾ ، فيعرف الفضل لصاحبه ، وشتان بين من أوتيت كل شيء ، وتكفر بالمنعم والنعمة ..

● واجب الإمَام المسلم أن يربى رعيته على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

إن موقف أحد جنود سليمان عليه السلام وهو الهدهد ، من إنكار هذا المنكر الأكبر الذى يباشره أهل سبأ وهو الشرك بالله ، يعطينا السمت الذى يجب أن يتصف به كل فرد من أفراد المجتمع المسلم ، وهو إنكار المنكر ، والأمر بالمعروف ...

ولا شك فى أن تصرف الهدهد حيال هذا الأمر ، يعنى أنه قد تربى على ذلك ، بحيث أنَّه كان يدرك جيدا أن الأمة المسلمة ما استحقت الخيرية إلا بأمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر ، ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ . ولهذا كان هو صورة لما يؤمن به ... لقد نقل إلى قائده ومليكه استنكاره لما يفعله أهل سبأ : ﴿ وجدتُّهَا وقَوْمَهَا يسجدون للشمس من دون الله ، وزين لهم الشيطان أعمالهم ، فصدهم عن

السبيل فهم لا يهتدون . ألّا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ، ويعلم ما تخفون وما تعلنون ﴾ .

والهدهد وهو ينقل الخبر كان أمينا ، لم يكن متحاملا على دولة سبأ ، لقد بين أن سبب الشرك الذى وقعت فيه ملكة سبأ وقومها هو الشيطان الذى زين لهم أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون . وذلك يعنى أنهم محتاجون لمن يبين لهم السبيل الصحيح ، يعرض لهم الحق ويحاول أن يستنقذهم من الشيطان ، لأنه إذا خلت الساحة من جند الحق ، أصحاب الدعوات ، أو أنَّهم كانوا مكتوفى الأيدى حيال الباطل فذلك تقصير شديد ، يعطى الفرصة لحزب الشيطان لاجتيال الناس عن دين الله عز وجل .

ولعل فى هذا إشارة من طرف خفى : (أن هنالك واجب ينتظرك يا سليمان ؛ فلا يعقل ، أن تكون هنالك أمة مشركة ، فى عهد سليمان الذى طُويَتْ له الأرض ، ومُكِّنَ له فيها ، وأوتى من كَل شيء .

وهنا نلمح قمَّة التوحيد لله رب العالمين ، وقمة التعنيف للعقول الآدمية التى ارتكست ولم تستطع أن ترق إلى ما رق إليه جندى من جنود الرحمن ، جندى صغير يمكن أن يكون فى قبضة أصحاب الأجسام الضخمة ، والعقول المرتكسة التى لم تعد تعرف أن لهذا الكون إلها خالقاً ، متصفاً بكل صفات الجلال ، يستحق العبادة وحده . .

وهكذا فإن الإنسان المشرك بالله ، الذى لا يعرف ربه ، ولا يعبده حق العبادة يمكن أن يكون فى مرتبة أقل من هؤلاء الذين لم يصلوا إلى ما وصل إليه طائر ضعيف من خلق الله عز وجل ، منّ الله عليه بنعمة الإيمان .

قمة التوحيد فى إدراك الهدهد أن لهذا الكون إلها خالقا ، على كل شيء قدير : ﴿ يعلم السر وأخفى ﴾ [(١)] ؛ ﴿ وما تسقط من ورقة إلاّ يعلمها ، ولا حبة فى ظلمات الأرض ، ولا رطب ولا يابس إلّا فى كتاب مبين﴾ [(٢)] .

---

(١) سورة طه : ٧ .

(٢) الأنعام : ٥٩ .

وبالإضافة إلى ما سبق ، لقد كان موقف سليمان جيدا ، لقد كان يعى قول الله سبحانه وتعالى لأبيه داود : ﴿ ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ﴾ . قال سليمان : ﴿ سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين ﴾ .

اهتمامات القلب المسلم : أن يعبد الله وحده دون شريك .

ما هى اهتمامات القلب المسلم ؟ سواء كان قلب طير ، أو قلب إنْسان ، إنَّها قضية العبادة بمفهومها الشامل ، أن يكون الكون بما فيه طائعا مستسلما لله عز وجل ؛ وهذا هو واجب الإنسان المسلم بالدرجة الأولى ومن أجله يعمل ، ومن أجله يقف حياته كلها . فالهدهد له جناحان يستطيع أن يحلق بهما فى أجواء الفضاء ، يطوف الدنيا كلها ، متفكرا فى خلق الله ؛ وما أجمل الكون ، وما أجمل الخلق ، وفى كلِ هذا جميل صنع الله عز وجل ، وفى ذلك نوع من العبادة ، ولكنها لا تكفى ، إذ إن الإيمان قول وعمل ، والعبادة لابد وأن تقترن بالإيجابية : ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ . لابد من العبادة التى تنشىء الإيجابية فى نفس المسلم . ولهذا فإن الهدهد لم يشغله الكون بما فيه عن الهدف الأصلى ، أن تكون العبادة فى الأرض كلها لله ، لا يجوز أن يكون هنالك شرك بالله يتمثل فى واقع حى ، فى أمة ؛ فى وجود للحق ، وجند للحق لا يبدون حراكا .

إيجابية القائد المسلم غير المتأنِّية فى مواجهة الشرك وأهله :

وانتدبَ سليمانُ عليه السلام الهدهدَ نَفْسَهُ ليحمل رسالَتَهُ إلى ملكة سبأ وقومها يدعوها ويدعوهم إلى الإسلام : ﴿ اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم ، فانظر ماذا يرجعون ﴾ ..

الدعوة إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة :

﴿ إنّه من سليمان ﴾ ، سليمان مجرد من كل لقب .

قمة الأدب ، والتواضع لله عز وجل ، لم يقل من الملك سليمان ، الممكن له فى البر والبحر والجو ، الذى آتاه ملكا لم ينبغ لأحد من بعده ، ولو قالها لصدق .... لم يقل من صاحب الجلالة سليمان ، ولكن من سليمان ...

﴿ وإنَّه بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ فأى عمل لا يبدأ ببسم الله فهو أبتر ، لم يقل باسم الله الجبار القهار المتكبر ، ولكن اختار من أسمائه ما يوحى بالمرحمة ويشعر بها .

﴿ ألا تعلوا علىّ ، وأتونى مسلمين ﴾ ... مسلمين لله ، مستسلمين له ، لم يقل : « لى » (أى لسليمان) ، فالإسلام هو لله عز وجل .

وجمعت الملكة مجلس شوراها ، وعرضت عليهم الأمر ، وقالت : ﴿ إنِّى ألقى إلَىَّ كتاب كريم ﴾ لقد اسْتَشْعَرَتْ من مظهره أنَّه كتاب كريم ، ليس أى كتاب ، إنَّه موصوف بأنه كريم .. وهذا يبين للدعاة ضرورة أن تكون دعوتهم إلى الله متصفة بهذه الصفة ، إن الدعوة ليست كلمة تلقى حيثما اتفق ، ولكنه تجهيز وإعداد ، مع اختيار الأسلوب الأمثل . فالإنسان تأسره الدعوة الكريمة ، ﴿ قالوا : نحن أولو قوة وأولو بأس شديد ، والأمر إليك ، فانظرى ماذا تأمرين . قالت : إنَّ الملوكَ إذا دخلوا قرية أفسدوها ، وجعلوا أعزَّة أهلها أذلة وكذلك يفعلون ﴾ .

إذن لابد من حيلة أخرى لصرف الداعى عن دعوته .

استخدام الهدية لصرف الدعاة عن دعوتهم :

حينما يعجز حزب الشيطان عن صرف الداعى عن دعوته باليد واللسان ، وحينما يعجز الطغاة عن صرف الدعاة عن دعوتهم بالإرهاب الفكرى والمادى ، يلجأون إلى حيلة أخرى وهى التلويح بالمناصب ، التلويح بالدنيا ، الإغراء بالهدايا وهذا من باب الابتلاء الأشد قسوة ، فقد يصمد الداعى تحت سياط التعذيب والإرهاب ، ولكنه يسقط على أعتاب الدنيا ، ومن هنا حذرنا رسول الله ﷺ : « إن مما أخاف عليكم من بعدى ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها »[(١)] .

﴿ وإنى مرسلة إليهم بهدية ، فناظرة بم يرجع المرسلون ﴾ .

ولكن أنى للقلب المسلم الصادق أن ينصرف عن دعوته ، ولو وضعت

---

(١) متفق عليه ، رياض الصالحين ، ص ٢١٣ .

الدنيا كلها تحت قدمه . فلما جاء سليمان قال : ﴿ أتمدونن بمال ، فما آتانى الله خير مما آتاكم ، بل أنتم بهديتكم تفرحون ﴾ .

وحينما لم تجد الكلمة اللينة في إعادة الناس إلى ربهم ودينهم ، ويظلوا على عصيانهم وتمردهم ، هنا لابد من استعمال القوة ، لابد من الجهاد لإزالة سلطان الطاغوت حتى يختار الناس الدين الذى يريدون بمِلْءإرادتهم.... ﴿ ارجع إليهم ، فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ، ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون ﴾ .

إنه إعلان الجهاد فى سبيل الله ، ولمثل هذا اليوم كان إعداد الجيوش ، إنه إعلان النفير العام ، ولمثل هذا اليوم كان إعداد هذه القوة الضاربة فى الأرض فى أعماق المحيطات وأجواز الفضاء .

إن هذه القوة لم يستخدمها سليمان عليه السلام لترويع الآمنين ، أو لتثبيت السلطان ، أو لتحقيق الزعامة ، أو استغلال خيرات الآخرين ، لأنه يعلم أن التمكين له بهذه القوة نعمة ، وشكر النعمة يستلزم تصريفها فى الوجوه التى شرعها الله عز وجل .

وهكذا نرى النبى المسلم يوظف النعمة ، نعمة القوة التى أنعم الله عليه بها فى التمكين لدين الله فى الأرض ، ولم يستخدمها للاستعلاء فى الأرض بغير الحق ، أو فى البطش بالآخرين .

- **سليمان عليه السلام يوظف العلم فى خدمة دين الله عز وجل .**

وأسلوب الداعى إلى الله لابد وأن يتواءم مع شخصية المدعو .

ملكة سبأ ملكة كانت ممكنة فى الأرض ، أوتيت من كل شيء ، لديها تمكين سياسى ، وتمكين مادى اقتصادى ، كلمتها مسموعة ، جيش عظيم ، ﴿ نحن أولو قوة . وأولو بأس شديد ، والأمر إليك ، فانظرى ماذا تأمرين ؟؟ ﴾ .

فكان لابد لسليمان أن يعرف الطريق إلى قلبها ، إلى فطرتها ، وفتح الله على سليمان ، لقد طلب من جنده إحضار عرشها قبل مجيئها وقومها إلى سليمان عليه السلام

مسلمين : ﴿ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين ﴾ . وهنا أمر يحتاج إلى الوقوف والتفكر ، سليمان فى بيت المقدس ، وملكة سبأ فى جنوب الجزيرة العربية ، فكون سليمان يلاحظ ما يجرى هناك ويعلم – وهذا من عند الله – بأن ملكة سبأ قد قررت الدخول فى الإسلام فهذا فى حد ذاته إعجاز ما بعده إعجاز ، قد نقول : إنه يمكن لرسول أن يحمل الخبر بسرعة ، ويأتى به إلى سليمان ، ولكن كون أنه يطلع على ما دار بين الملكة فى مجلسها الخاص وبين مستشاريها فهذا إعجاز آخر الفضل فيه لله عز وجل الذى علم الإنسان ما لم يعلم .

﴿ قال عفريت من الجن : أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك ، وإنِّى عليه لقوى أمين ﴾ .

شيء يؤكد أن الله سبحانه على كل شيء قدير . عرش ملكة سبأ فى غرفة عليها حراسة ، والقصر عليه حراسة ، وحمله من جنوب الجزيرة العربية إلى بيت المقدس – آماد وأبعاد – قبل أن ينفض مجلس سليمان شيء ، التفكير فيه ، يدير العقول ، وإنما هى قدرة الله التى لا تحدها حدود . ورغم هذا فإن سليمان عليه السلام – اعتبر مجيء العرش قبل انفضاض المجلس ، وقت طويل ، ولذلك كان لابد من البحث عن وسيلة أخرى لإحضار العرش فى وقت أقل ، وأحضر العرش فى وقت أقل : ﴿ قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك . فلما رآه مستقرا عنده ، قال : هذا من فضل ربى ، ليبلونى أأشكر أم أكفر ، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن ربى غنى كريم ﴾ .

ولهذا النص موحيات :

(أ) أن سليمان أقر الوسيلة العلمية فى إحضار العرش .

(ب) أن التمكين على هذه الصورة لم يتكرر فى حياة البشرية حتى الآن .

(ج) أن التمكين فى الأرض ابتلاء من الله عز وجل .

(د) أن الإنسان الذى يشكر الله عز وجل ، على نعمه فإنما هو يعمل لمصلحته ، والذى يكفر بنعمة الله إنَّما يعود ذلك عليه : « يا عبادى لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى

ملكى شيئا ؛ يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا ...، يا عبادى إنَّما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه »[1] .

(هـ) تواضع سليمان عليه السلام لله عز وجل ، فهذا الإعجاز الذى وقع لم ينسبه إلى نفسه ، إنَّما هو من الله : ﴿ هذا من فضل ربى ﴾ ، ثم أردف ذلك بقوله : ﴿ إنَّ ربى غنى كريم ﴾ .

(و) إن الله قد يمكن للكفر وأهله فى الأرض ، ولكن تمكين الله للإسلام والمسلمين فى الأرض أكبر وأعظم .

إن الله سبحانه وتعالى قد مكن لسليمان عليه السلام إمضاء لوعد الله فى التمكين للمؤمنين الموحدين ، بصورة لم تتكرر لأحدٍ من بعده أبدا ، وآتاه من كل شىء .

كما أنه مكن لملكة سبأ ، ﴿ وأوتيت من كل شىء ﴾ ، ولكن ليس كما كان الأمر لسليمان عليه السلام ، وبالإضافة إلى ذلك فإن التمكين الذى تحقق لملكة سبأ كان من باب الاستدراج ﴿ وأملى لهم إن كيدى متين ﴾ ، ﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ، وأملى لهم إن كيدى متين ﴾ .

وملكة سبأ قد أعدت نفسها للذهاب إلى بيت المقدس لإعلان إسلامها بين يدى سليمان لله رب العالمين ، ولا شك أنها ستسلك فى ذلك أقصر طريق بأسرع وسيلة ، فكون أنها تصل وتجد عرشها قد سبقها إلى هناك إلى بيت المقدس ، فذلك يعنى أن لسليمان إمكانيات ومؤيدات ربانية ليست لملكة سبأ وهذا فى حد ذاته إعجاز ودليل على صدق سليمان .

﴿ قال : نكروا لها عرشها ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون . فلما جاءت قيل أهكذا عرشك ؟؟ قالت : كأنه هو ، وأوتينا العلم من قبلها ،

---

(١) جزء من حديث قدسى ، رواه مسلم والإمام أحمد ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ٣٦٤

وكنا مسلمين . وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين ﴾ .

وهذا الفضل من الله ، فالمسلم بفضل الله أعلم ، وبفضل الله أقدر .

وكان سليمان قد أعد للملكة مفاجأة أخرى ، لم يكن لها به عهد من قبل :

﴿ قيل لها : ادخلى الصرح ، فلما رأته حسبته لجة ، وكشفت عن ساقيها . قال : إنَّه صرح ممرد من قوارير ، قالت : رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾ .

لقد أدركت الملكة أنها أمام عجائب تعجز البشر ، وتدل على أن سليمان مسخر له قوى أكبر من طاقة البشر ، فرجعت إلى الله ، وناجته معترفة بظلمها لنفسها فيما سلف من عبادة غيره ، معلنة إسلامها مع سليمان ، لا لسليمان ،.. ولكن لله رب العالمين .

وهكذا تبين لنا أن سليمان عليه السلام نبى مسلم ، وابن نبىّ مسلم هو داود عليه السلام ؛ وإلى الإسلام كان يدعو ، وإلى الإسلام دعا ملكة سبأ التى أسلمت بين يدى سليمان لله رب العالمين[(١)] .

---

(١) وفى هذا رد أيضا على هؤلاء الذين زعموا فى كتاباتهم أن سليمان عليه السلام كان يهوديا ، وأنه كان يدعوا إلى اليهودية ، وأنه هو ملك اليهود الذى بنى هيكلا ليتعبد اليهود فيه إلى يهوه : وأن مكان هذا الهيكل أسفل المسجد الأقصى . وهكذا نرى كيف شوه وزيف تاريخ الأمة المسلمة منذ سنوات طويلة ليخدم مخطط اليهود والذى ينفذ بقيته الآن .

وللأسف فإن هذا التاريخ المزيف المشوه لازال يدرس فى دور العلم فى بلاد المسلمين اعتماداً على مراجع ومصادر ثبت عدم صحتها .

دولة سبأ الإسلامية

لله سبحانه وتعالى سنن كونية فى حياة الأمم والشعوب من هذه السنن :

(أولا) : أن الشرك بالله – عز وجل – وعدم إخضاع الحياة لنظام الله وشرعه ، يستوجب غضب الله – عز وجل –، ويحرم الأمم من الرزق والبركة .

﴿ وكأين من قريةٍ عتت عن أمر ربِّها ورُسِلِه فحاسبناها حسابا شديدا وعذَّبْنَاهَا عذاباً نُكْراً ، فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمْرِهَا خُسْرًا ﴾[1] .

﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ، قال : رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا ، قال : كذلك أتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تنسى ﴾[2] .

وفى حديث عن رسول الله ﷺ – ما معناه –: إن الإنسان ليحرم الرزق قد جهز له بالذنب يذنبه .

(ثانيا) : إن عبادة الله وحده ، وعدم الشرك به ، وإخضاع الحياة لنظامه وشرعه ، والتوبة الدائمة ، والاستغفار يؤدى إلى فتح أبواب الخير والبركة .

﴿ فقلت استغفروا ربكم إنَّه كان غَفَّارا يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جَنَّاتٍ ويجعل لكم أنهارا ﴾[3] .

﴿ ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويَزِدْكُم قُوّةً إلَى قُوّتِكُم ، ولا تتولوا مجرمين ﴾[4] .

---

(١) الطلاق : ٨ .
(٢) طه : ١٢٤ – ١٢٦ .
(٣) نوح : ١٠ .
(٤) هود : ٥٢ .

ولما آمنت ملكة سبأ وقومها بالله – سبحانه وتعالى – ورجعوا إلى ربهم ، وأعلنوا إسلامهم لله رب العالمين : ﴿ وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾ . فتح الله عليهم المزيد من أبواب الرزق ، وارتقوا فى سلم الحضارة والمدنية حتى تحكموا فى مياه الأمطار الغزيرة التى كانت تأتيهم من البحر فى الجنوب والشرق ، فأقاموا خزانا طبيعيا يتألف جانباه من جبلين ، وجعلوا على فم الوادى بينهما سدا به عيون تفتح وتغلق وخزنوا الماء بكميات عظيمة وراء السد . وتحكموا فيه وفق حاجتهم ، فكان لهم مورد مائى عظيم ، وقد عرف باسم : (سد مأرب) ، وقد أثمر ذلك جنتين عن يمين وشمال ، وفى هذا يقول رب العزة عز وجل : ﴿ لقد كان لسبإ فى مسكنهم آية ، جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم واشكروا له ، بلدة طيبة ورب غفور ﴾[1] .

وهذه الجنان عن اليمين والشمال رمز لذلك الخصب والوفرة والرخاء والمتاع الجميل ، ومن ثم كانت آية تذكر بالمنعم الوهاب . وقد أمر أن يستمتعوا برزق الله شاكرين ﴿ كلوا من رزق ربكم واشكروا له ﴾ . والنعمة تذكر بالمنعم ، وذكر المنعم يستجوب عبادته وحده دون شريك ، وشكر النعمة يستلزم تصريفها فى طاعة الله عز وجل ، فإذا كانت النعمة مالا ، لزم توجيهها لخدمة دين الله ، وإعانة عباد الله : « من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان له فضل من زاد فليعد به على من لا زاد له »[2] .

وإذا كانت النعمة جاها أو سلطانا ، وظفها فى خدمة عباد الله عز وجل ، وقضاء مصالحهم .

وإذا كانت النعمة قوة مادية استخدمها فى نشر دين الله عز وجل ، إلى غير ذلك من وجوه البر ....

﴿ كلوا من رزق ربكم واشكروا له ، بلدة طيبة ورب غفور ﴾ .

---

(١) سبأ : ١٥ .
(٢) رواه مسلم ، مختصر صحيح مسلم ، ص ٢٩٠ ، حديث ١٠٦٦ .

فالله سبحانه وتعالى أمرهم بالأكل من رزقه وشكره ، فإذا أخطأوا أو أذنبوا ، فليستغفروا الله ، لأنه رب غفور . وهكذا علمهم الله عز وجل كيفية التوبة من الذنوب إذا أذنبوا .

دولة سبـــأ ترتد عن الإســـلام

فماذا كان موقف أهل سبأ من هذا الفتح الربانى ؟ لقد عاشوا فترة مسلمين ملتزمين ، بالمنهج الربانى ، إلى أن بعد عهدهم بالإسلام ، دين الله عز وجل ، فكفروا بالنعمة ، وأشركوا بالله عز وجل ، فأعرضوا – أى أعرضوا عن شكر الله ، وعن العمل الصالح ، والتصرف الحميد فيما أنعم الله عليهم به .

فماذا كانت النتيجة ؟

﴿ فأرسلنا عليهم سيل العرم ، وبدَّلْنَاهُم بجنتيهم جنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خمطٍ وأثلٍ وشىء مِنْ سِدْرٍ قليل ﴾[(١)] فسلبهم سبب هذا الرخاء الجميل الذى يعيشون فيه ، وأرسل السيل الجارف الذى يحمل العرم فى طريقه وهى الحجارة لشدة تدفقه ، فحطم السد ، وانسابت المياه فطغت وأغرقت ، ثم لم يعد الماء يخزن بعد ذلك فجفت واحترقت الجنتان ، وتبدلت تلك الجنان الفيح ، صحراء تتناثر فيها الأشجار البرية .

ثم ترد حيثيات الحكم الربانى ، لماذا دَمَّر الله عليهم :

﴿ ذلك جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا ، وهل نجازى إلَّا الكفور ﴾[(٢)] .

وهذه سنة من سنن الله الثابتة التى نلمح فعلها فى حياة الأمم :

﴿ إنّ الله لا يُغَيّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾[(٣)] ... ﴿ ذلك بأن

---

(١) الخمط : شجر الأراك أو كل شجر ذى شوك ، والأثل شجر يشبه الطرفاء والسدر : النبق ؛ سبأ ١٦ .

(٢) سبأ : ١٧ .

(٣) الرعد : ١١ .

الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾[1] .

فأهل سبأ كانوا كفارا ، فلما أسلموا غير الله ما بهم ، وفتح عليهم أبواب الخير والبركة وحينما ارتدوا عن دينهم ، غير الله ما بهم وضيق عليهم أبواب الرزق ، ليس هذا فحسب ولكن نزل بهم ما كانوا يستحقونه كما سنرى .

لقد كانوا إلى هذا الوقت ما يزالون فى قراهم وبيوتهم ، ضيق الله عليهم فى الرزق ، وبدلهم من الرفاهية والنعماء خشونة وشدة ، ولكن لم يُمَزِّقْهُمْ وَلَمْ يُفَرِّقْهُمُ . وكان العمران ما يزال متصلا بينهم وبين القرى المباركة : مكة فى الجزيرة ، وبيت المقدس فى الشام ، فقد كانت اليمن ما تزال عامرة فى شمال بلاد سبأ ومتصلة بالقدس المباركة ، والطريق بينهما عامر مطروق مسلوك مأمون ، وإن كانوا تحت سطوة غيرهم ، فقد أصبح الغير ظاهرا عليهم ...

﴿ وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة ، وقدرنا فيها السير ، سيروا فيها ليالى وأياما آمنين ﴾[2] .

وقيل كان المسافر يخرج من قرية فيدخل فى الأخرى قبل دخول الظلام ، فكان السفر فيها محدود المسافات ، مأمونا على المسافرين . كما كانت الراحة موفورة لتقارب المنازل وتقارب المحطات فى الطريق .

ونلمح هنا عقابا ربانيا ، وسنة من سنن الله تعمل فى حياة هؤلاء القوم ، فبعد أن كان هؤلاء القوم – سبأ – ممكنين فى الأرض ، وأوتوا من كل شيء ، وكانوا أولى بأس شديد ، وكانوا ظاهرين فى الأرض ، انتهى دورهم ، واستبدلهم الله بغيرهم ، وجعل قرى ظاهرة عليهم :

﴿ وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة ﴾ .

ولعل هذا من باب التذكرة علهم يرجعون .

---

(١) الأنفال : ٥٣ .

(٢) سبأ : ١٨ . التفسير من ظلال القرآن .

وغلبت الشقوة على سبأ ، فلم ينفعهم النذير الأول ، ولم يوجههم إلى التضرع إلى الله ، لعله يرد عليهم ما ذهب من الرخاء ، بل دعوا دعوة الحمق والجهل : ﴿ فقالوا : ربنا بَاعِدْ بين أسفارنا ﴾[١] ...

تطلبوا الأسفار البعيدة المدى ، التى لا تقع إلّا مرَّاتٍ متباعدة على مدار العام . لا تلك السفرات القصيرة المتداخلة المنازل ، والتى لا تُشْبِعُ لذَّةَ الرحلات ، وكان هذا من بطر القلب وظلم النفس :

﴿ وظلموا أنفسهم ﴾[٢] ....

واستجيبت دعوتهم ، ولكن كما ينبغى أن تستجاب دعوة البطر :

﴿ فَجعلناهم أحاديث ، ومزقناهم كل ممزق ﴾[٣] ..

شردوا ومزقوا ، وتفرقوا فى أنحاء الجزيرة مبددى الشمل ، وعادوا أحاديث يرويها الرواة ، وقصة على الألسنة والأفواه . بعد أن كانوا أمة ذات وجود فى الحياة :

﴿ إن فى ذلك لآيات لكل صبَّارٍ شكور ﴾[٤] ...

يذكر الصبر إلى جوار الشكر ... الصبر فى البأساء .... والشكر فى النعماء . وفى قصة سبأ آيات لهؤلاء وهؤلاء .

هذا فهم فى الآية . وهناك فهم آخر : فقد يكون المقصود بقوله : ﴿ وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة ﴾ ... أى قرى غالبة ذات سلطان . بينما تحول سبأ إلى قوم فقراء ، حياتهم صحراوية جافة . وكثرت أسفارهم وانتقالاتهم وراء المراعى ومواضع الماء . فلم يصبروا على الابتلاء . وقالوا : ﴿ ربنا باعد بين أسفارنا ﴾ ... أى قلل من أسفارنا فقد تعبنا ولم

---

(١) سبأ : ١٩ .
(٢) سبأ : ١٩ .
(٣) سبأ : ١٩ .
(٤) سبأ : ١٩ .

يصحبوا هذا الدعاء باستجابة وإنابة لله تستحق استجابته لدعائهم . وكانوا قد بطروا النعمة ، ولم يصبروا للمحنة ، ففعل الله بهم ما فعل ، ومزقهم كل ممزق ، فأصبحوا أثرا بعد عين ، وحديثا يروى ، وقصة تحكى .. ويكون التعقيب : ﴿ إنَّ فى ذلك لآيات لكل صَبَّارٍ شكور ﴾ .... مناسبا لقلة شكرهم على النعمة وقلة صبرهم على المحنة ....

وفى ختام القصة يخرج النص من إطار القصة المحدود ، إلى إطار التدبير الإلهى العام ، والتقدير المحكم الشامل ، وللسنة الإلهية العامة ، ويكشف عن الحكمة المستخلصة من القصة كلها ، وما يكمن فيها وخلفها من تقدير وتدبير :

﴿ ولقد صَدَّقَ عليهم إبْلِيسُ ظَنَّهُ فاتَّبَعُوهْ إلَّا فريقا من المؤمنين . وما كان له عليهم من سلطان إلَّا لِنَعْلَم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها فى شك . وربك على كل شيء حفيظ ﴾[1] ..

لقد سلك القوم هذا المسلك ، الذى انتهى إلى تلك النهاية ، لأن إبليس صدق عليهم ظنه فى قدرته على غوايتهم ، فأغواهم ، ﴿ فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين ﴾ ... كما يقع عادة فى الجماعات فلا تخلوا من قلة مؤمنة تستعصى على الغواية ، وتثبت : إن هنالك حقا ثابتا يعرفه من يطلبه ، ويمكن لكل من أراد أن يجده ويستمسك به ، حتى فى أحلك الظروف . وما كان لإبليس من سلطان قاهر عليهم لا يملكون رفعه . فليس هنالك قهر لهم منه ولا سيطرة عليهم له ، إنَّما هو تسليطه عليهم ليثبت على الحق من يثبت ، وليزيغ منهم من لا يبتغى الحق ويتحراه . وليظهر فى عالم الواقع ﴿ من يؤمن بالآخرة ﴾ فيعصمه إيمانه من الانحراف ﴿ ممن هو منها فى شك ﴾ .. فهو يتأرجح أو يستجيب للغواية . بلا عاصم من رقابة الله ولا تطلع لليوم الآخر .

والله يعلم ما يقع قبل ظهوره للناس . ولكنه سبحانه يرتب الجزاء على ظهوره ووقوعه فعلا فى دنيا الناس .

---

(١) سبأ : ٢٠ - ٢١ .

معالم ترسيها أخبار الدولة السبئية فى حياة البشرية :

- الشرك بالله يؤدى إلى تدمير الأمم ، وتضييق الأرزاق عليها :

يقول الله تعالى : ﴿ ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قَرْنٍ مكَّناهُمْ فى الأرض ما لم نُمَكِّنْ لكم ، وأرسلنَا السماء عليهم مدرارا ، وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم ، وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين ﴾[1] .

وهذا ما تحقق لأهل سبأ ، لقد أسلموا لله عز وجل ، ففتح الله عليهم أبواب الخير والبركة ، ولكن حينما أشركوا ، وأذنبوا وبدَّلوا دَمَّرَ الله عليهم .

أى أن السبب الحقيقى الذى من أجله يدمر الله الأمم ، هو الشرك بالله - سبحانه وتعالى - ﴿ ذلك جزيناهم بما كفروا ، وهل نجازى إلا الكفور ﴾ وقد يسأل سائل : أليست هنالك أمم ممكن لها فى الأرض رغم كفرهم وشركهم بالله - عز وجل - والإجابة بالإيجاب ، نعم هنالك أمم كافرة ممكن لها فى الأرض ، وهذا من قبيل الاستدراج ، ولا يعطل سنة ربانية تعمل فى حياة الأمم وهى :

﴿ ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون . فلولا إذْ جاءهم بَأْسُنا تَضَرَّعُوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون . فلما نسوا ما ذُكِّرُوا به فتحنا عليهم أبواب كلِّ شيء حتى إذَا فَرِحُوا بما أُوتُوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون . فقطع دابر القوم الذين ظلموا ، والحمد لله رب العالمين ﴾[1] .

- إن تتولوا يستبدل قوما غيركم :

وهذا ما حدث من السبئيين ، لقد كفروا ، فمزقهم الله كل ممزق ، واستبدلهم بقوم غيرهم هم الحميريون .

وهذه سنة ربانية تعمل فعلها بإذن الله فى حياة الأمم والشعوب .

---

(١) الأنعام : ٤٢ - ٤٥ .

– إنَّ الإعراض عن ذكر الله عز وجل هو وراء التضييق فى الأرزاق :

لكن كثيرا من الأمم المعاصرة ، قلت أرزاقها وبعد أن كانت يدها تفيض بالخيرات على غيرها ، أصبحت يَدُهَا ممدودةً إلى غيرها ، تقترضُ لتأكل ، وتقترض لتعيش ؛ وقعت تحت طائلة الدائنين اليهود والنصارى نتيجة القروض المركبة الفوائد . وبدلا من أن تعود إلى ربها وتدرك الداء وتستخدم الدواء ، تاهت فى دياجير الظلام ، لأنها أعرضت عن كتاب الله ..

شكلت لجانا تبحث عن السبب ، سبب الفقر سبب الضيق فى الأرزاق ، فالأرض هى الأرض والسماء هى السماء ، والبحر هو البحر ، ولكن لماذا قل الخير ؟؟ لماذا حدث التقتير فى الرزق ؟؟ وجاءت النتائج المجافية للصواب إن السبب هو فشل خطط التنمية !!!.. إن السبب هو زيادة النسل ، وإذن فلابد من تحديد النسل !!

لم يحاولوا أن يقرأوا تاريخ السابقين ، وإذا قرأوا لم يعتبروا ، لم يرجعوا إلى ربهم ولم يستفتوا قرآنهم ، إنَّما استفتوا اليهود والنصارى وكانت النتيجة أن أعمى الله أبصارهم ، عن معرفة أسباب الداء ، وعن تشخيص الدواء ، لقد نسى هؤلاء أن السبب هو الكفر ، الشرك بالله عز وجل ، الإعراض عن نظام الله وشرعه ، المعاصى التى يرتكبونها ، الربا الذى يتعاملون به ، الخمر التى يسمحون ببيعها وبتحصيل الضرائب عليها ، الحدود المعطلة ، فالزانى لا يرجم ، والمخمور لا يجلد ...... بل إنهم يقفون فى وجه الدعوة إلى الإصلاح عن طريق الرجوع إلى الله عز وجل ، بل وينكلون بكل صوت يرتفع ليقول لهم : يا قوم إن سبب ما أنتم فيه من بلاء هو الكفر بالله والإعراض عن ذكر الله ..

إن استعراض تاريخ الدولة السبئية ، يؤكد لنا الآن ، أن العالم الجائع الآن تعمل فيه سنة ربانية ، وهى : ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ﴾ .... ﴿ وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل ، ذلك جزيناهم بما كفروا ، وهل نجازى إلا الكفور ﴾ ..

– الإيمان بالله هو منهج الإصلاح الاقتصادى والاجتماعى والأخلاقى :

إن الله سبحانه وتعالى قد بين للناس على لسان الرسل منهجا إصلاحيا ، هذا المنهج يقوم على ركائز :

– ﴿ اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ .

– ﴿ ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويزدكم قوة إلى قوتكم ﴾ .

– ﴿ ولو أنَّ أهلَ القرى آمنوا واتَّقَوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ﴾ .

ولذلك حينما استقامت أحوال أهل سبأ وأسلموا لله رب العالمين ، وأخضعوا حياتهم لنظام الله وشرعه ، فتح الله عليهم أبواب الرزق :

﴿ لقد كان لسبإ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال ﴾ .

– سيل العرم عقاب من الله – عز وجل – وهو حاضر لكل من يكفر بالله :

إن الذى دمَّر سد مأرب وأحرق الجنتين هو سيل العرم الذى عاقب الله به أهل سبأ : ﴿ فأرسلنا عليهم سيل العرم ، وبدَّلناهُم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل ، ذلك جزيناهم بما كفروا ، وهل نجازى إلَّا الكفور ﴾ .

إن العقاب الربانى لأهل سبأ نتيجة كفرهم بالله سبحانه وتعالى : ﴿ وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل ﴾ شىء يدير الرؤوس ... بالأمس كانوا يجنون الثمار الدانيات : نخيل وأعناب ورمان ... إلى غير ذلك ، واليوم لا يجنون إلا النبق والشوك .

شىء رهيب نلمح نموذجا له الآن فى إفريقيا السوداء أو الخضراء . التى لم يكن الغيث يتوقف فيها صيفا أو شتاء ، وكانت تفيض بالخيرات والثمار ، بل إن الكثير من مصانع أوروبا كانت ولا زالت تعتمد اعتمادا كبيرا على محاصيل إفريقيا

بل إن هذا الخير الذى كانت تفيض به أفريقيا هو الذى دفع بلاد أوروبا إلى اغتصاب أفريقيا لسلب خيراتها وثرواتها ....

ولكن ماذا حدث الآن .... الغيث توقف .... خزانات المياه فى باطن الأرض نضب معينها ، أصبح الماء غَوْراً ، الرمال تزحف على أفريقيا .... تحيط بكل نبتة رطبة ... الشجرة الخضراء تخنقها ، وتُمِيتُهَا ﴿ فأصبحت كالصريم ﴾ .. الغابات الاستوائية تتحول إلى صحراء ، المخزن الذى كان يقتات منه الناس (أصبح كالصريم) .

إنَّ ذلك يذكرنا بقصة أصحاب الجنة الذين ﴿ أقسموا لَيَصْرِمُنَّها مصبحين ولا يستثنون . فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون ، فأصبحت كالصريم ﴾(١) ....

فلتحذر البشرية التى تكفر بربها ، أو أصبحت لا تلوى على شيء ، وانطلقت تعيث فى الأرض فسادا ، وتصد عن سبيل الله ، تبغيها عوجا ، تحارب الله ورسوله أن ينزل بهم ما نزل بغيرهم ﴿ ذلك جزيناهم بما كفروا ، وهل نجازى إلَّا الكفور ﴾ ... والعاقل من اتعظ بغيره ..

وهذا يدحض آراء المستشرقين اليهود والنصارى ومن سار على نهجهم ، والذين ينكرون الخبر القرآنى عن سليمان عليه السلام ودولة سبأ . ويعتبرونه أسطورة وخرافة .. (تاريخ العرب المطول ، تأليف فيليب حتى ، ط ٣ ج ١ ، ص ٧٤) .

والذين يزعمون أن تهدم السد ربما كان بسبب كوارث طبيعية كالزلازل والبراكين .

والذين يزعمون أن من الأسباب التى أدت إلى تصدع السد ، ثم حدوث السيل ، إنما هو ضعف الحكومات ، ثم تحول طرق التجارة ... فألهى ذلك الحكومات عن القيام بواجباتها مما أدى إلى إهمال السد ، ومن ثم فقد تصدعت

---

(١) القلم : ١٧ - ٢٠ .

جوانبه ... (انظر : دراسات تاريخية من القرآن فى بلاد العرب ، تأليف د . محمد بيومى مهران ، ص ٣٥١ . المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ، تأليف جواد على ، ج ١ ، ص ٤٦١ . تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى ، تأليف حسن إبراهيم حسن ، ط ٧ ، القاهرة ١٩٧٤ م ، ص ٢٧ ، ٢٨) .

وهذا إنكار للسبب الأصلى الذى أورده الله عز وجل : وهو سيل العرم الذى أرسله الله على القوم فحطم السد ﴿ ذلك جزيناهم بما كفروا ، وهل نجازى إلّا الكفور ﴾ ..

وإنكار السبب الربانى يهدف المستشرقون من ورائه إلى التشكيك فى القرآن الكريم الذى أورد الخبر الصحيح . وإذا شككوا فى القرآن فقد شككوا فى الإسلام (لا مكنهم الله من ذلك) ..

وإذا نظرنا حوالينا نجد أن كثيرا من أمم الأرض قد أنعم الله عليهم بالجنات والعيون والأموال والبنين ، وبدلا من أن يشكروا المنعم ويعرفوا حقه ، أشركوا به ، وكفروا بنعمته ، وذلك بتصريفها فى تحصيل الملذات والشهوات المحرمة ، بل إنهم وجهوها لصرف الناس عن دين الله ، وتزيين الفاحشة لهم ، هذا الكفر بنعمة الله سيؤدى حتما إلى صرفها إلى غيرهم ، مع إنزال العقاب بهم ، إمضاء لسنة الله الكونية فى حياة الأمم .

– الابتلاء الربانى وسيلة من وسائل إيقاظ الإنسان ، عله يعود إلى الله عز وجل :

وهذا ما وقع لأهل سبأ ، ولكن بدلا من أن يعودوا إلى ربهم ، ويتوبوا إليه ، ويستغفروه مما بدر منهم من ذنوب وآثام ، لَجُّوا فى طغيانهم فبطروا النعمة ، ولم يصبروا للمحنة ، ففعل الله بهم ما فعل ، ومزقهم كل ممزق ، فأصبحوا أثرا بعد عين ، وحديثا يروى ، وقصة تحكى .

ضرورة شكر الله عز وجل فى الرخاء ، وضرورة الصبر على أمر الله فى الضيق والشدة :

﴿ إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ فالمؤمن لابد وأن يشكر الله عندما يمن عليه بالنعمة ، ويصبر إذا ما تعرض لابتلاء من نوع ما .

إن الشيطان مسلط على بنى آدم ، ولكن لا سلطان له على المؤمنين الموحدين :

﴿ ولقد صدَّق عليهم إبليسُ ظَنَّه فاتبعوه إلَّا فريقاً من المؤمنين ﴾ ..

وذلك ليثبت على الحق من يثبت ، ويزيغ منهم من لا يبتغي الحق ويتحراه :
﴿ ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة ، وإن الله لسميع عليم ﴾ .

---

(١) الأنفال : ٤٢ .

الفصـــل الرابـــع

أصحـــاب الأخـــدود

فى القرآن الكريم وحديث النبى محمد ﷺ

تمهيـــد

لقد كتب كثير عن أصحاب الأخدود ، وكل الكتابات تدور حول حقيقتهم :

من هم ؟ وإلى أى عصر ينتمون ؟ بأى دين كانوا يدينون ؟ من الذى قتلهم ؟ وما هو السبب لقتلهم حرقا بالنار ؟ وما هو حقيقة الخبر ؟

وهل كانوا بنجران فعلا ؟ أم لا ؟... وماذا طرأ على المنطقة من أحداث ؟ وهل قرية الأخدود[1] الحالية هى التى وقعت فيها حادثة حرق أصحابها ؟

وبالرغم من أن الذى كتب فى هذا الموضوع برمته جد كثير ، إلا أنه لم يحسم القضية ، ولم يصل إلى أية نتيجة مؤكدة[2] ، ولنا على ما كتب ملاحظات ، أهمها :

أولا : أن الكثيرين ممن كتبوا كانوا يهودا أو نصارى ولذلك فإن كلاًّ منهم كان حريصا على إظهار الوجه المشرق لبنى جنسه ، ولو أدى ذلك إلى طمس الحقيقة ؛ وقد حدث ذلك فعلا ، لأنها قضية إسلامية تعتمد على توحيد الله – عز

---

(١) بنجران من جنوب جزيرة العرب .

(٢) المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج ٣ ، ص ٤٦٢ وما بعدها .

وجل بالدرجة الأولى . وليس من المتصور أن اليهود والنصارى الذين قال الله فيهم : ﴿ ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ﴾[١] ، يكتبون ليخدموا قضية الإسلام . وقصة أصحاب الأخدود هى قضية الإسلام المطارد فى كل زمان ومكان .

ثانيا : إن الذين ناقشوا هذه القضية ، ناقشوها من منطلق فكرى غير سليم ، لأنهم يناقشون قضية الإسلام المضطهد من حاكم كافر يهودى (؟) واضعين فى الاعتبار أن اليهودية والنصرانية ديانتان سماويتان[٢] .

ثالثا : إن الذين كتبوا فى هذا الموضوع لم يرجعوا إلى القرآن والسنة ورجعوا إلى مصادر غير موثقة ، هى المصادر اليونانية والمسيحية ، وكل منها رصدت أخبار القصة بصورة تخدم أهدافها ، ومنها الإعلاء من شأن المسيحية والمسيحيين . ولو أخضعنا المصادر اليونانية والمسيحية للجرح والتعديل ، لم تثبت صحتها[٣] .

رابعا : إن الذين تناولوا الموضوع ، تناول المسائل الفرعية فيه ، وتركوا الموضوع الأصلى ، لقد انشغلوا بفرعيات يجب على المؤرخ المسلم ألا يلقى لها بالا ، لأنها لا تساهم بكثير أو قليل فى تحقيق الهدف الذى يهدف إليه .

وأصحاب الأخدود هم أمة من الناس ، أعلنوا إسلامهم لله – عز وجل –

---

(١) البقرة ٢١٧ .

(٢) دراسات تاريخية من القرآن الكريم (١) فى بلاد العرب تأليف د . محمد بيومى مهران ، ص ٣٦٥ ، ٣٧٩ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٦٧ – ٣٦٩ تزعم ما تسمى دائرة المعارف الإسلامية – أن أصحاب الأخدود كانوا نصارى ، المجلد الثالث ، ص ٤٥١ – ٤٥٣ وتزعم أيضا أن أحداثها قد وقعت عام ٥٢٣ م . انظر أيضا :

Noldeke, Geschichte der Arabek und Persen Zur Zeil der Sasanichen 1879, P. 182-187; Causin de Perseval, Essai Sur L'histoire des Arabes, Bruxelles, 7, P. 128. A. Moberg, The Book of the Himyarites, London 1924, P. 43-47, S6.

وتمسكوا به ، وليسوا مسيحيين[١] أو يهود[٢] ، لأن القرآن يذكر أنهم كانوا موحدين – أى مسلمين – والمسيحية كفر ، واليهودية كفر .

وكانوا يعيشون فى قرية من قرى نجران (إن صحت الرواية التى أوردها ابن كثير)[٣] وأنهم كانوا يعاصرون الدولة الحميرية الثانية (٣٠٠ – ٥٢٥ م تقريبا) وعلى وجه التحديد على عهد مليكها العربى ذى نواس الحميرى الذى أعلنها حربا ضارية على الإسلام والمسلمين ، ومعنى ذلك أن الحادثة ، حادثة حرق المسلمين وهم أحياء وقعت أواخر حكم الدولة الحميرية الثانية ، أى حوالى ٥٢٤ م أو قبل ذلك بعام أو عامين تقريبا .

وفى هذه الفترة – فى أعقاب هذه الحادثة سلط الله على جنوب الجزيرة العربية عدوا أجنبيا ، احتل البلاد ، وملك ناصيتها ، وأذاق أصحابها أسوأ أنواع النكال ، وقتل قادتها ، وأسقط حكمهم بعد أن أزال دولتهم ، وكان ذلك جزاء وفاقا لما اقترفته أيدى حكام حمير ضد الإسلام وأهله .

فمن المؤكد أن استعمار الأحباش لجنوب الجزيرة العربية جرى فى هذه الفترة (٥٢٥ م) ، وهم الذين أسقطوا حكم الحميريين ، أما الأسباب التى دفعت بالأحباش إلى احتلال الجنوب العربى فليس هنالك خبر واحد مؤكد عن سبب غزو الجزيرة ، إلا ما أورده ابن هشام من أن ذلك قد حدث نتيجة استنجاد أحد الناجين من حادث الحرق فى الأخدود بالامبراطور جستنيان الذى وجه المستنجد به إلى ملك الحبشة ، الذى استجاب ، وأرسل حملة هزمت الحميريين . وأسقطت حكمهم وأزالت دولتهم ، وتذكر الرواية أن آخر حكام الحميريين هو ذو نواس الذى انتحر حينما شاهد هزيمة قواته ..

---

(١) يقول د . أحمد شلبى أن أصحاب الأخدود كانوا نصارى ، انظر موسوعة التاريخ والحضارة الإسلامية ج ٧ ، مكتبة النهضة – القاهرة ١٩٧٧ ، ص ١٠٠ .

(٢) ينكر المشتغلون بالتاريخ القصة الواردة فى القرآن الكريم من أساسها ، ويزعمون أن سبب قتل أصحاب الأخدود هو قتلهم لغلامين يهوديين ، فاتخذها ذو نواس ذريعة للقتل بنجران . انظر محمد مبروك نافع ، تاريخ العرب ، عصر ما قبل الإسلام ، ص ٦٩ – ٧٠ .

وعلى كل سواء أكانت قرية الأخدود بنجران هى المعنية ، أم ليست هى ، وسواء أكان الملك الذى أراد رد الناس بعد إيمانهم كفارا هو ذو نواس الحميرى أم ليس هو ، وسواء أكان يهوديا أو مسيحيا ، أو ليس كذلك ، أو سواء أكانت هذه الحادثة هى التى حركت الأحباش لاحتلال جنوب الجزيرة العربية أو ليست كذلك ، فإن الأخبار الواردة فى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة عن أصحاب الأخدود تسعى لتحقيق هدف ربانى قد تحقق ، ولو لم يردنا خبر صحيح واحد عن المسائل السالفة الذكر .

* * *

الخبـــر الصحيـــح
أصحاب الأخـــدود مسلمـــون

فالحديث الشريف المروى عن سيد الخلق محمد ﷺ ، وهو الذى ما ينطق عن الهوى ، ﴿ إن هو إلا وحى يوحى ﴾ ، جاءه من علم الله المحيط ، ولأهمية هذه الواقعة التاريخية المؤكدة فى حياة البشرية عموما ، وحياة الأمة المسلمة على وجه الخصوص ، أنزل الله – سبحانه وتعالى – على سيدنا محمد ﷺ « خبر أصحاب الأخدود » (فالحادثة التاريخية لكى تؤدى دورها لابد وأن تكون صحيحة ، لا يزيد عليها شيء ، ولا ينقص من جوانبها شيء) .

فها هو رسول الله – ﷺ – يعلم أمته درسا فى التاريخ ، تاريخ السابقين : « كان مَلِكٌ فيمن كان قبلكم ، وكان له ساحر ، فلما كبر قال للملك : إنى قد كبرت ، فابعث لى غلاما أعلمه السحر[١] ، فبعث إليه غلاما يعلمه . فكان فى طريقه إذا سلك راهب ، فقعد إليه وسمع كلامه ، فأعجبه . فكان إذا أتى الساحر مرَّ بالراهب وقعد إليه ، فإذا أتى الساحر ضربه ، فشكا ذلك إلى الراهب ، فقال : إذا خشيتَ الساحر فقل : حبسنى أهلى ، وإذا خشيتَ أهلَكَ فقل : حبسنى الساحر . فبينما هو كذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس ، فقال : اليوم أعلم ، الساحر أفضل أم الراهب أفضل[٢] ، فأخذ حجرا فقال : اللهم إن كان

---

(١) وهذا يعنى أن السحر كان له سوق رائجة ، وأن حكم الطغاة يعتمد على السحرة ، وهو إفساد فى الأرض : ﴿ ما جئتم به السحر ، إن الله سيبطله ، إن الله لا يصلح عمل المفسدين ﴾ والسحر لا يغير من طبيعة الأشياء ، ﴿ يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ﴾ ولكنه يأخذ بألباب العامة ﴿ وسحروا أعين الناس ، واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم ﴾ . ولذلك فقد جعل الإسلام عقوبة الساحر ضربة بسيف ، وهذا يعنى أن حكم الطغاة لا يعتمد على الحق ، بقدر ما يعتمد على الغش والخداع .

(٢) فالشاب فى حيرة ، لأن كلام الراهب حق فأعجبه ، وكلام الساحر مزخرف أيضا ﴿ يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ﴾ ولذلك حينما أعجزه المنطق ، ماذا يفعل ؟؟..

أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقْتُلْ هذه الدابة حتى يمضى الناس ، فرماها فقتلها[1] . ومضى الناس ، فأتى الراهِبَ فأخبرَهُ ، فقال له الراهب : أى بنى ، أنت اليوم أفضلُ منى ، قد بلغ من أمرِكَ ما أرى ، وأنك ستبتلى ، فإن ابتليت فلا تدل على[2] ، وكان الغلام يبرىء الأكمه والأبرص ، ويداوى الناس من سائر الأدواء ، فسمع جليس للملك كان قد عمى ، وأتاه بهدايا كثيرة ، فقال : ما ها هنا لك أجمع إن أنت شفيتنى .. قال : أنا[3] لا أشفى أحدا ، إنما يشفى الله فإن آمَنْتَ بالله دعوت الله فشفاك ، فآمن بالله ، فشفاه . فأتى الملكَ فجلس إليه كما كان يجلسُ ، فقال له الملكُ : من رَدّ عليكَ بَصَرَكَ ؟ قال : ربى .

---

(١) حينما أعجزه المنطق عن التفريق بين الحق وغيره ، توجه إلى الله مباشرة بدون وساطة ﴿ وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب ﴾ يسأله البيان الواضح الذى لا لبس فيه ، واستجاب العزيز الرحيم للغلام بسبب إخلاصه لله ، ورغبته فى الوصول إلى الحق ، وهذا درس لبنى الإنسان ، إذا أعجز الإنسانَ شىءٌ ، مشكلةٌ ، موضوعٌ ، عليه بالتوجه إلىَ الله ، فهو الملاذ وهو الحصن وهو المربى والمتعهد بالإصلاح والتربية .

(٢) وهذا يعنى أن الإسلام كان مضطهدا ، وأن الناس كانوا مستخفين بدينهم ، إنهم كانوا يخافون الفتنة ، وكانوا يقولون : ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ، ولكن على الجانب الآخر كان الإيمان موجوداً ، صحيح أنه لا يستطيع أن يعلن عن نفسه ولكنه موجود ، لأن الحق أصيل ، ومن سنة الله أن يكون الحقُ موجوداً « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق » ، فالحق لا يستطيع أن يعلن عن نفسه ولا أن يباشر دعوة عامة ، ولكن مجال الدعوة الفردية متحقق ، ولذلك لم يتوان الراهب عن دعوة الغلام إلى الإسلام ، وعلمه كيف يتحرك لهذا الدين بصورة لا تنم عن وجود راهب يدعو إلى الله .

والشيء الآخر ، التنبيه الذى صدر من الراهب للغلام : « ستبتلى » ، لأن هذه طبيعة الطريق إلى الله ﴿ آلَمّ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ﴾ . ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولّما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم ، مستهم البأساءُ والضراءُ وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ﴾ .

فالدعوة إلى الله تقترن بالابتلاء ، ولذلك فإن جميع الرسل والأنبياء والدعاة إلى الله تعرضوا للابتلاء ، للإيذاء باللسان واليد ، وذلك تحذير وتنبيه أيضا للذين يُنْعِمُ الله عليهم بسلوك طريق الدعوة إلى الله ، أنّكم قد تتعرضون للابتلاء منذ البداية ، دون خلط أو تلبيس : ﴿ لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ، ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا ﴾ ..

فالراهب هنا يحذر الغلام من أن طريق الدعوة إلى الله يقترن بالابتلاء ..

(٣) الغلام يمارس الدعوة ، ويداوى ويطبب ، فعرف كيف يستخدم علمه ومهنته التى مكن الله له بها ، وهذا واجب كل إنسان علمه الله علما أو مهنة أن يجعل ذلك فى خدمة دعوته ، ودينه ، وليس فى خدمة=

قال : ولك رب غيرى[1] ؟؟ قال : ربى وربك الله . فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام ، فجيء بالغلام فقال له الملك : أى بنى قد بلغ من سحرك ما تبرىء الأكمه والأبرص ، وتفعل وتفعل . فقال : إنّى لا أشفى أحدا . إنّما يشفى الله – عز وجل – فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب ؛ فجيء بالراهب فقيل له : ارجع عن دينك . فأبى ؛ فدعا بالمنشار فوُضِعَ المنشار فى مقدمة رأسه فشقه حتى وقع شقاه ، ثم جيء بجليس الملك فقيل له : ارجع عن دينك ، فأبى فوُضِعَ المنشارُ فى مفرق رأسه فشقه حتى وقع شقاه ، ثم جيء بالغلام فقيل له : ارجع عن دينك فأبى ، فدفعه إلى نفر من أصحابه . فقال : اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل فإذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه . فذهبوا به فصعدوا به الجبل ، فقال : الّلهُمْ اكْفِنيِهِمْ بما شئت . فرجف بهم الجبل ، فسقطوا وجاء يمشى إلى الملك ، فقال له الملك : ما فعل أصحابك ؟ فقال : كفانيهم الله فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال : اذهبوا به فاحملوه فى قرقور فتوسطوا به البحر ، فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه . فذهبوا به ، فقال : اللهم اكفنيهم بما شئت ، فانكفأت بهم السفينة ، فغرقوا وجاء يمشى

=الدنياوعرضها الزائل ، لأنه كان فى إمكان الغلام أن يجمع المال وكفى ، ولكنّه لم يفعل .

فالغلام أقر بأنه لا يشفى ، وانتهز الفرصة وعرض قضية التوحيد فى وضوح : « إنَّما يشفى الله » . « فإن آمنتَ دعوتُ الله فشفاك » واستجاب الوزير فآمن ، فشفاه الله » ..

(١) وهنا أسقط فى يد الطاغية ، لقد انكشفت الخدعة ، لقد تبين للوزير أن مليكه ليس بإله ، لقد آمن الوزير بالله رب العالمين ، وكفر بالطاغوت ، وهذه جريمة فى عرف الطاغوت ، لأن معنى ذلك انهيار سلطانه وربوبيته وألوهيته . فإذا أصبح الناس عبيدا لله الواحد القهار ، فلن يجد الطاغوت من يستعبده ، لن يجد من ينفذ أوامره وأنظمته التى تتعارض مع نظام الله وشرعه ، لن يجد من يركع له ، لن ينتشى بتصفيق المصفقين أو تهليل المنافقين ، لأنه لن يكون هنالك من يصفق أو يهلل وهنا نجد أن الطاغوت لا يفكر قليلا أو كثيرا فى العودة إلى الله ، إنَّه من شر الدواب الصم البكم الذين لا يعقلون ، لا مناقشةَ ، لا حِكْمَةَ ، لا موعِظة . ولا يعرف لغةً ، سوى لغةَ البطش : « فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام » ، والنفس لها طاقة محدوَدة واحتمال محدود ، وقد تضعف ولكن ذلك لا يقلل من شأن صاحبها ، إنّه من أصحاب الدعوات . والجدير بالذكر هنا أن الوزير أو جليس الملك حينما خالط قلبه الإيمان بالله انطلق يبلغ دعوة ربه ، كان فى الإمكان أن يكتم إيمانه ، أو أن يترخص . ولكنه يعلم أن الأجل بيد الله ، ويريد أن يكون له شرف البلاغ والتضحية فى سبيل الله .

إلى الملك ، فقال له الملك : ما فعل أصحابك فقال : كفانيهم الله . فقال للملك : إنَّك لست بقاتلى حتى تفعل ما آمرك به . قال : وما هو ؟ قال : تجمع الناس فى صعيد واحد وتصلبنى على جذع ، ثم خذ سهما من كنانتى ، ثم ضَعْ السهم فى كبد القوس ثم قُلْ : (بسم الله رب الغلام) ثم ارمنى ، فإنَّك إن فعلت ذلك قَتَلْتَنى . فجمع الناس فى صعيد واحد وصلبه على جذع ثم أخذ سهما من كنانته ثم وضع السهم فى كبد القوس ، ثم قال : (بسم الله رب الغلام) ثم رماه فوقع السهم فى صدغه ، فوضع يده فى موضع السهم فمات . فقال الناس : آمنَّا برب الغلام ، آمنا بربِّ الغلام ، آمنا برب الغلام . فأتى الملك فقيل له : أرأيتَ ما كنتَ تَحْذَرْ ، قال : والله قد نَزَل بِكَ حَذَرُك ، قد آمن الناس ، فأمر بالأُخْدُود بأفواه السِكَكِ فَحُفِرَتْ وأُضْرِمَ النيران ، وقال : من لم يرجع عن دينه فاحْمُوهُ فيها أو قيل له اِقْتَحِمْ ، ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبى لها فتقاعست أن تقع فيها ، فقال لها الغلام : يا أماه ، اصبرى فإنك على الحق .

وخَلَّدَتْ السماءُ هَذِه الصورة ، من صور الفداء والتضحية فى سبيل الله ، ونزل قرآن يتلى على مدار تاريخ البشرية يذكِّرُهَا بهذه الصفحات المشرقة فى تاريخها ، على قلب محمد ﷺ ، يقول الله عز وجل :

﴿ والسماءِ ذات البُروج ، واليومِ الموعود ، وشاهدٍ ومَشْهُودْ ، قُتِلَ أصحابُ الأُخدود ، النارِ ذاتِ الوقود ، إذْ هم عليها قُعُود ، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ، وما نقموا منهم إلّا أنْ يؤمنوا بالله العزيز الحميد ، الذى له ملك السموات والأرض والله على كل شىء شهيد ﴾(١) .

وهذا دليل على أن هذه الفئة المؤمنة التى جادت بنفسها فى سبيل عقيدتها ودينها ، يعرف الله سبحانه وتعالى قدرها ، وإنَّه لفضل ومَّنة من الله عز وجل أن يجعل لهذه الجماعة المسلمة هذه القيمة العظيمة فيجعلها فى سجل الخالدين .

---

(١) سورة البروج ؛ تفسير القرآن العظيم ، ج ٤ ، ص ٤٩٠ - ٤٩٧ ؛ انظر أيضا تفسير الطبرى ، ج ٣٠ ، القاهرة ١٣٢١ هـ ، ص ٧٢ - ٧٥ .

وهنا نتساءل لماذا تحرص كتب التاريخ على إخفاء هذه الصورة من صور الشهادة فى سبيل هذا الدين ، لماذا تحرص كتب التاريخ على تشويهها وتزييفها ؟؟ إن الإجابة ليست بعيدة ، إنه الحرص على أن لا تجد الأمة المسلمة فى تاريخها ما تعتز به ، أو ما يعلمها كيف تموت من أجل أن تكون كلمة الله هى العليا .

إن هذه الصورة المشرقة من تاريخ الجزيرة العربية ، تعكس لنا صورة من صور الهزيمة ، وصورة من صور النصر .... هزيمة الطاغوت وعجزه عن استخلاص كلمة الكفر من فم الجماهير التى أعلنت إسلامها لله رب العالمين .

وصورة للنصر تتمثل فى ثبات هذه الجماهير على الإسلام ، رغم أنها تعرضت لابتلاءات شديدة تهيض أمامها الجبال الراسيات ، وحصولها على الشهادة فى سبيل الله .

وهذا يعنى أن التمكين ليس له صورة واحدة ولكن له صور متعددة ، ومنها هذه الصورة .

معالم ترسيها أخبار أصحاب الأخدود فى حياة الأمة المسلمة :

- أن الدعوة إلى الله واجبة ، ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى يقيض لها فى كل زمان ومكان من يرفع لواءها .
- أن الدعوة إلى الله لا تتوقف أبدا مهما كان الطغيان عارما ، ولكنها لا تأخذ شكل الدعوة العامة ، ولكن تأخذ شكل الدعوة الفردية ، فالراهب كان يمارس الدعوة الفردية ، وكذلك الغلام وكذلك جليس الملك .
- إن للدعاة نفوس بشرية ، يمكن أن تضعف تحت وطأة التعذيب ، فإذا فرض وحدث هذا فلا يجب على رفقاء الطريق أن يعتبروا لذلك سقوطا ، لا يمكن أن يعذر صاحبه ، ولكن عليهم أن يأخذوا بيد أخيهم ، ولا يعينوا الشيطان عليه ، وهذا التوجيه نستقيه من سياق الخبر الذى قاله محمد ﷺ والذى يشير إلى أن الراهب قد نبه الغلام أنه سيبتلى ، وأنه يجب أن لا يدل عليه ، ولكنه رغم هذا التنبيه ، فإن الغلام قد دل على الراهب تحت وطأة التعذيب . إنه الضعف الذى يمكن أن يصيب الإنسان تحت وطأة التعذيب

الذى تباشره الطواغيت ضد أصحاب الدعوات .

● إن الجاهلية لا تطيق أن ترى الإيمان حيا يتحرك أمامها ، لأنه يذكر الطاغوت بجرائمه وأخطرها الشرك بالله عز وجل ، كما أنه يكسب للدعوة أنصارا جددا ، ويحذر الناس من العبودية للطاغوت ، وهذا يزلزل الأرض من تحت أقدام الطاغية ، ومن هنا رأينا حرص الملك على رد الوزير والراهب والغلام عن دينهم ، نلمح هذا فى قول محمد ﷺ : « ثم جيء بجليس الملك فقيل له : **ارجع عن دينك** » ، وهى نفس الكلمة التى قيلت للراهب والغلام ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ﴾[1] .

وذلك يعنى أن الطواغيت لا يَعْفُونَ عن أصحاب الدعوات إلا أن ينطقوا بكلمة الكفر ، ومن هنا تأتى أهمية الثبات على الحق ، مهما اشتد نكير الجاهلية ، ومهما بلغت قسوة التعذيب ، ففى نهاية هذا الطريق الشهادة ، وجنة عرضها السموات والأرض ، فأرواح الشهداء فى حواصل طير خضر معلقة بقناديل من نور فى عرش الرحمن . وهذا هو الذى حصل للراهب وجليس الملك الذى تعرض لأبشع أنواع التعذيب فقد وضع المنشار فى مقدمة رأسه فشقه حتى وقع شقاه ما رده ذلك عن دين الله عز وجل .

ولقد وعى هذا الدرس رسولنا محمد ﷺ ، وذكّر به أصحابه ، فحينما جاء إليه خَبَّاب بن الأرتّ وهو متوسد بردة له فى ظل الكعبة وقال : ألا تستنصر لنا ، ألا تدعو لنا ؟ فقال ﷺ : « قد كان من قبلكم يُؤْخذ الرجل فيحفر له فى الأرض فيجعل فيها ، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصده ذلك عن دينه »[1] .

وهذا دليل على أهمية التربية بالقدوة ، والتربية بالأسوة .

● إن الأجل بيد الله : ﴿ وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا ﴾ وهو مقدر قبل أن يخرج الإنسانُ من بطن أمه ، وبهذا حدث محمد

---

(١) رواه البخارى ؛ وفى رواية وهو متوسد برده قد لقينا من المشركين شدة .

ﷺ أصحابه . يقول أبو هريرة : حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق : « أن أحدكم يُجْمَعُ خلقه فى بطن أمه أربعين يوما نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات يكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد » .

أى أن الأجل بيد الله والرزق بيد الله ، ولذلك فليس للإنسان عذر بين يدى الله إن هو قصر فى الدعوة لدين الله ، خوفا على أجله أو خوفا على رزقه .

وظاهر الأمر فى قصة أصحاب الأخدود أن الملك هو الذى قتل جليسه وقتل الراهب ، والأمر غير ذلك ، فجليس الملك لو لم يقتل بيد الملك لانتهى أجله فى تلك اللحظة ، وإنَّما أراد الله سبحانه وتعالى بهذا العمل أن يُغَنِّم جليس الملك الشهادة وجنَّةَ عرضها السموات والأرض ، وأن يبوء الملك بإثمه وإثم غيره . والدليل على أن الملك لا يملك لأحد موتا ولا حياة ولا نشورا أنه ما استطاع أن تمتد يده إلى الغلام بسوء .

فالغلام مجرد من كل حول وطول ، محاط به من كل جانب ، وصعدوا به الجبل ، ولكنهم عجزوا عن قتله ... وحملوه فى قرقور وتوسطوا به البحر ولكنهم عجزوا عن قتله أيضا لأن الأجل بيد الله . كما أن الغلام قال للملك : « لستَ بقاتلى » ، لأنهم لا يملكون إماتة أو إحَياءً .

« يا بنى احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، واعلم أنه لو اجتمعت الأمة على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك » .

هذا توجيه محمد ﷺ ، الذى وعى هذا الدرس وأمثاله من كتاب الله عز وجل ، علنا نتدبر ما فيه وندرك أن الأمر جميعه بيد الله عز وجل .

فها هم جنود الطاغوت قد أجمعوا أمرهم بناء على أمر مليكهم – على قتل الغلام ، وها هو الغلام – مجرد من كل حول وطول مادى – قد أحيط به ، فماذا عساه يفعل ، لقد نفض يده من كل الأسباب المادية ، لقد طرق باب الحى القيوم ، الذى لا تأخذه سنة ولا نوم ، لقد خاطب الذى يصمد إليه فى الأمور

كلها ، لقد توجه بالدعاء إلى رب العزة عز وجل قائلا : « اللهم اكفنيهم بما شئت . فرجف بهم الجبل فسقطوا وجاء يمشى إلى الملك ، فقال له الملك : ما فعل أصحابك ؟ فقال : « كفانيهم الله بما شاء » . وصدق الله العظيم القائل : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ﴾ ﴿ ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا ﴾ .

وهذا درس للمسلم ، إذا ضاقت به السبل ، وعز النصير ، وسدت أبواب الخلق أمامه ، فليطرق باب الذى لا توصد أبوابه ، الذى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل . فليتوجه بالدعاء إلى من ينزل إلى السماء الدنيا فى الهزيع الأخير من كل ليلة قائلا : « هل من تائب فأتوب عليه ، هل من مستغفر فأتوب عليه ، هل من صاحب حاجة فأقضيها له » .

هذا درس للمسلم ، ليكون على يقين أن الأجل بيد الله ، وأنه لا يوجد أحد فى الدنيا يستطيع أن يضره بشيء لم يكتبه الله عليه ، وليعلم أيضا أن الفرج مع الكرب ، وأن النصر يتنزل فى اللحظة التى قد ييأس فيها الإنسان : ﴿ حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنَّهم قد كذبوا جاءهم نَصْرُنَا ﴾ والغلام جاءه الفرج فى اللحظة التى هم الأعداء بقتله بعد أن صعدوا به قمة الجبل .

هذا درس للمسلم ، ليوقن أن الأمن والأمان الحقيقى فى جوار الله عز وجل ، وأن الله كاف عبده : ﴿ أليس الله بكاف عبده ، ويخوفونك بالذين من دونه ، ومن يضلل الله فما له من هاد ومن يهد الله فما له من مضل ، أليس الله بعزيز ذى انتقام ﴾[1] .

فالله سبحانه وتعالى هو الذى كفى عبده المؤمن شر تآمر المتآمرين . وعبَّر عنه هذا الغلام بقوله : « كفانيهم الله بما شاء » ، فالله حقيقة هو الذى كفى عبده المجرد من كل إمكانيات القوة المادية الظاهرة فى مواجهة طاغوت يملك كل مقومات البطش والطغيان .

ومن هنا تأتى أهمية التوكل على الله والثقة فى نصره وحمايته ، والتوجه الدائم

---

(١) الزمر : ٣٦ - ٣٧ .

إليه بالدعاء طلبا لفضله ورحمته : ﴿ وإذا سألك عبادى عنى فإنِّى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون ﴾ .

وهذا ما فعله الغلام ، لقد توجه إلى الله بالدعاء ، « اللهم اكفنيهم بما شئت » ، وكانت الاستجابة : « فانكفأت بهم السفينة ، فغرقوا وجاء يمشى إلى الملك ، فقال له الملك : ما فعل أصحابك ؟ فقال : كفانيهم الله » .

● ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا ﴾[1] .

ومن هؤلاء كان الراهب . ومنهم كان جليس الملك ، ومنهم كان هذا الغلام ، ومنهم كان أصحاب الأخدود . لقد آثروا الموت فى سبيل الله على النطق بكلمة الكفر .

ومن هنا تظهر أهمية الوفاء ، أمر الله بالوفاء ، الوفاء بالعقود ، العقود التى أمضوها مع الله عز وجل :

﴿ إنَّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم ﴾[2] .

● يجب على جند الإسلام أن يحرصوا على عدم القيام بأعمال تثير الطغاة، وتثير الجاهلية من حولها دون نتائج حاسمة ، فالطغاة على استعداد أن يقتلوا شعوبا بأكملها ، طالما بقواهم متربعون على عروشهم :

«فأمر بالأخدود بأفواه السكك فحفرت ، وأضرم النيران ، وقال من لم يرجع عن دينه فاحموه فيها ، أو قيل له : اقتحم . ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها

---

(١) الأحزاب : ٢٣ .
(٢) التوبة : ١١١ .

صبى لها فتقاعست أن تقع فقال لها الغلام : يا أماه اصبرى فإنَّك على الحق »[1].

وهكذا رأينا أن الطاغية لم يرحم طفلا أو امرأة كل جريمتهم أنهم آمنوا بالله رب العالمين .

● **الأخذ بالعزيمة :**

إن الغلام قد أخذ بالعزيمة ولم يأخذ بالرخصة ، رغم أنه كان يمكن أن يقدم من المبررات ما تؤيد موقفه . فالدعوة وليدة ، والمؤمنون قلة ، والنصير عزيز ، وكان فى الإمكان أن يقول لابد من التريث والانتظار حتى يكثر أنصار الدعوة ، ولكنه لم يفعل ، لماذا ، لأنه أدرك أن دماء الشهداء لا تضيع هدرا ، وأنها على العكس هى التى تؤجج نور الإيمان فى قلوب بنى آدم . وأدرك أيضا ، أن العبرة بأداء البلاغ ، سواء آمن الناس أم كفروا .

ويبدو أن هذه كانت هى الوسيلة الوحيدة لإبلاغ دعوة الله ، وإقامة الحجة على أهل عصره لأن قبضة الطاغوت كانت شديدة ، ويبدو أن الفرصة لم تكن متاحة للدعوة العامة .

ومن هنا تفتق ذهن الغلام عن هذه الفكرة : « إنَّك لست بقاتلى حتى تفعل ما آمرك به قال : وما هو ؟ قال : تجمع الناس فى صعيد واحد ، وتصلبنى على جزع ، ثم خذ سهما من كنانتى ، ثم ضع السهم فى كبد القوس ثم قل : باسم الله رب الغلام ، ثم ارمنى به فإنَّك إن فعلت ذلك قتلتنى. فجمع الناس فى صعيد واحد وصلبه على جزع ، ثم أخذ سهما من كنانته ، ثم وضع السهم فى كبد القوس ، ثم قال : بسم الله رب الغلام » .

● إن دم الشهداء لا يذهب هدرا ، فهو يؤجج جذوة الإيمان فى قلوب الناس ، والدليل على ذلك حينما خر الغلام شهيدا : « قال الناس : آمنا برب

---

(١) مختصر صحيح مسلم للإمام أبى الحسين مسلم بن الحجاج القشيرى النيسابورى للحافظ زكى الدين عبد العظيم بن عبد القوى بن سلامة المنذرى الدمشقى ، تحقيق محمد ناصر الدين الألبانى ، ط ٣ ، المكتب الإسلامى ، دمشق ، ١٣٩٧ هـ ، ص ٥٥٦ – ٥٥٧ ، حديث رقم ٢٠٩٣ ، وبدايته : عن صهيب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ ، قال : « كان ملك فيمن كان قبلكم » ورواه أحمد والنسائى .

الغلام ، آمنا برب الغلام ، آمنا برب الغلام » .

ومن هنا يجب أن لا يأسى أصحابُ الدعوات على من يسقُطْ من ركب الإيمان شهيدا ، لأن فى هذا خير له ولدعوته .

● ونص كلام الرسول محمد ﷺ : « كان ملك فيمن قبلكم » دون أن يذكر اسمه ولو كان لذكر اسمه أهمية معينة ، لذكره سيد الخلق محمد ﷺ ، وإنّما فى تصورنا – وهذا اجتهاد – أن عدم ذكر الاسم مقصود حتى يظل النص ينسحب على عموم كل حاكم طاغية يستعين بالشعوذة والدجل لخداع جماهير أمته ، ويبطش بجند الإسلام الذين يؤمنون بالله رب العالمين .

● وعلى الطغاة أن يحذروا مكر الله عز وجل ولا يتصوروا أن الله سبحانه وتعالى تاركهم يبطشون ويقتلون جند الحق دون أن ينتصر لهم ، هذا لا يمكن أبدا ، ولكنه الاستدراج : ﴿ سنستدرجهم ﴾ ..

هذا يؤكده ما وقع فى قصة أصحاب الأخدود . لقد تصور الطاغية أنه بإمكانه أن يقضى على الحق ، ويجتث الدعوة وأصحابها بقتل الغلام ، وقتل جليسه والراهب . فإذا مات الغلام توقفت الدعوة إلى دين الله ، وسرى الرعب فى أوصال الناس فما عادوا يقبلون على الإسلام . وهذا وهم وقع فيه ، وهو من باب الاستدراج ﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ، وأملى لهم إنّ كيدى متين ﴾ .

فقتل الغلام لم ينسِ قضية الإيمان أو الدعوة إلى الله ، ولكنه أجّجها فى صدور من لم يعرفوها أو يسمعوا بها .

وبدلا من المؤمن الواحد (وهو الغلام) ، صار كل أهل القرية مؤمنين .

وهذا درس لأصحاب الدعوات ، إن سقوط شهداء منهم على الطريق هو زاد لهذه الدعوة ، وهو نور يجتذب القلوب التى أنعم الله عليها بنور الإيمان .

وليتعلموا عدم العجلة أو اليأس ، ولا يتصوروا أن الله قد ترك الطاغية وشأنه يعيث فى الأرض فسادا ، ويبطش ويدمر ، دون أن يأخذ على يده ،

مطلقا ، فهذا يخالف سنن الله الكونية ، فالله يقول : ﴿ ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون ﴾ .

● درس للمسلمين بعدم الخوف أو الوجل أو التهاون فى نصرة دين الله عز وجل .

ما هو مصير الطاغية الذى حرق المسلمين بالنيران لأنهم آمنوا بالله الواحد القهار ؟ ما هو مصير أعوان الطاغوت الذين صوروا له أن قتل هؤلاء المسلمين الموحدين ، سوف يخمد صوت التوحيد ؟

ما هو مصير بقية أفراد الشعب الذين وقفوا يشاهدون إخوانهم يحترقون ، دون أن يحركوا ساكنا ؟

إن القرآن الكريم يحكى لنا بقية الخبر : فالله سبحانه وتعالى توعد الظلمة والظالمين بعذاب جهنم وعذاب الحريق ، والجزاء من جنس العمل .

لقد سلط الله سبحانه وتعالى على ملوك حمير عدوا أزال دولتهم ، وأنزل بهم أنواع العذاب ، هذا العدو هم الأحباش .

لقد استأصل الله شأفة ملوك حمير ، وأزال ملكهم تماما كما فعل مع فرعون الطاغية ، ومع قوم هود الكافرين ، ومع قوم صالح المشركين .

وذلك لأن الله محيط بهم ، وبكل من يؤذى له وليا من أوليائه ، وبكل من يقف فى وجه الدعوة الإسلامية .

أما الشياطين الخرس ، وهم بقية الشعب الذين شاهدوا إخوانهم يذبحون وهم لا يحركون ساكنا ، فإنهم دفعوا الثمن غاليا ، لقد استباح الأحباش حماهم وأذلوهم ، وكان هذا نتيجة لسلبيتهم وعدم أمرهم بالمعروف أو نهيهم عن المنكر ، لو أخذوا على أيدى الظالم ، لنجوا جميعا ، ولكنهم تركوه فهلك وهلكوا جميعا .

إن الله يقول فى الحديث القدسى ما معناه : « ما من إنسان يقف موقفا ، يضرب فيه أخ له ظُلْمًا وهو قادر على نصره ولم يفعل ، نزلت عليه اللعنة وعلى من حضره » ، وقد كان .

لقد سلط الله عليهم الأحباش فأذاقوهم الذل وأذاقوهم أنكى أنواع الهوان .

وصدق الله إذ يقول : ﴿ هل أتاك حديث الجنود ، فرعون وثمود ، بل الذين كفروا فى تكذيب والله من ورائهم محيط ، بل هو قرآن مجيد ، فى لوح محفوظ ﴾ .

* * *

الفصـــل الخامـــس

أصحـــاب الفيـــل

الله سبحانه وتعالى يرد كيد أصحاب الفيـل

الذين حاولوا غزو مكة لهدم بيت الله العتيـق

ومصادر معلوماتنا عن هذه الحادثة وهى مستفيضة الشهرة فى حياة الجزيرة العربية ، سورة الفيل ، وسورة قريش ، وما ورد بشأنهما فى كتب التفسير .

أولا : سورة الفيل :

الله رب العالمين يرد كيد أصحاب الفيل الذين حاولوا غزو مكة وهدم الكعبة .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل . ألم يجعل كيدهم فى تضليل . وأرسل عليهم طيرا أبابيل . ترميهم بحجارة من سجيل . فجعلهم كعصف مأكول ﴾ .

تشير هذه السورة إلى حادث مستفيض الشهرة فى حياة الجزيرة العربية قبل[1] البعثة عظيم الدلالة على رعاية الله لهذه البقعة المقدسة التى اختارها الله لتكون حرما آمنا ولتكون ملتقى النور الأخير ، ومحضن العقيدة الإسلامية ، والرسالة الخاتمة ، والنقطة التى تبدأ منها زحفها المقدس لمطاردة الجاهلية فى أرجاء الأرض ، وإقرار الهدى والحق والخير ، فيها ...

وجملة ما تشير إليه الروايات المتعددة عن هذا الحادث ، أن الحاكم الحبشى

(١) الشرح مأخوذ عن سيد قطب رحمه الله « فى ظلال القرآن » للأسباب التى أوردناها صفحة ٥٤ بالهامش .

لليمن ـــ فى الفترة التى خضعت فيها اليمن لحكم الحبشة بعد إسقاط الحكم الحميرى العربى ـــ وتسميه الروايات : (أبرهة) ، وكان قد بنى كنيسة فى اليمن باسم ملك الحبشة وجمع لها كل أسباب الفخامة ، على نية أن يصرف العرب عن بيت الله الحرام فى مكة ، وقد رأى مبلغ انجذاب أهل اليمن الذين يحكمهم ، إلى هذا البيت ، شأنهم شأن بقية العرب فى وسط الجزيرة وشماليها كذلك . وكتب إلى ملك الحبشة بهذه النية ....

ولكن العرب لم ينصرفوا عن بيت الله الحرام ، فقد كانوا يعتقدون أنهم أبناء إبراهيم وإسماعيل سادنى هذا البيت ، وكان هذا موضع اعتزازهم على طريقتهم بالفخر بالأنساب وكانت معتقداتهم – على تهافتها – أفضل فى نظرهم من معتقدات أهل الكتاب من حولهم ، وهم يرون ما فيها من خلل واضطراب وتهافت كذلك .

عندئذ صح عزم (أبرهة) على هدم الكعبة ومحو أثرها من الوجود ليصرف الناس عنها ، وقاد جيشا جرارا تصاحبه الفيلة ، وفى مقدمتها فيل عظيم ذو شهرة خاصة عندهم . فتسامع العرب به وبقصده ، وعز عليهم أن يتوجه لهدم كعبتهم . فوقف فى طريقه رجل من أشراف أهل اليمن وملوكهم يقال له (ذو نفر) فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده عن البيت الحرام ، فأجابه إلى ذلك من أجابه . ثم عرض له فقاتله ، ولكنه هزم وأخذه أبرهة أسيرا .

ثم وقف له فى الطريق كذلك نفيل بن حبيب الخثعمى فى قبيلتين من العرب ومعهما عرب كثير ، فهزمهم كذلك وأخذ نفيلا ، الذى قبل أن يكون دليله فى أرض العرب .

حتى إذا مر بالطائف خرج إليه رجال من ثقيف فقالوا له : إن البيت الذى يقصده ليس عندهم إنما هو فى مكة . وذلك ليدفعوه عن بيتهم الذى بنوه للات ، وبعثوا معه من يدله على الكعبة .

فلما كان أبرهة بالمغمس بين الطائف ومكة ، بعث قائدا من قواده حتى انتهى إلى مكة فساق إليه أموال تهامة من قريش وغيرهم فأصاب فيها مائتى بعير لعبد المطلب بن هاشم وهو يومئذ كبير قريش وسيدها . فهمت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بذلك الحرم بقتاله . ثم عرفوا أنهم لا طاقة لهم به فتركوا ذلك .

وبعث أبرهة رسولا إلى مكة يسأل عن سيد هذا البلد ، ويبلغه أن الملك لم يأت لحربهم وإنما جاء لهدم هذا البيت ، فإن لم يتعرضوا له فلا حاجة له فى دمائهم ، فإذا كان سيد البلد لا يريد الحرب جاء به إلى الملك ... فلما كلم عبد المطلب فيما جاء به قال له : والله ما نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة . هذا بيت الله الحرام . ومنزل خليله إبراهيم عليه السلام ... فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمه ، وإن يخل بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه ... فانطلق معه إلى أبرهة .. .

قال ابن إسحاق : وكان عبد المطلب ، أوسم الناس وأجملهم وأعظمهم . فلما رآه أبرهة أجله وأعظمه ، وأكرمه أن يجلسه تحته ، وكره أن تراه الحبشة يجلس معه على سرير ملكه فنزل أبرهة عن سريره ، فجلس على بساطه وأجلسه معه إلى جانبه . ثم قال لترجمانه : قل له : ما حاجتك ؟ فقال : حاجتى أن يرد على الملك مائتى بعير أصابها لى . فلما قال ذلك ، قال أبرهة لترجمانه ، قل له : قد كنت أعجبتنى حين رأيتك ، ثم قد زهدت فيك حين كلمتنى ، أتكلمنى فى مائتى بعير أصبتها لك وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمنى فيه ؟ قال له عبد المطلب : إنى أنا رب الإبل ، وإن للبيت ربا سيمنعه . قال : ما كان ليمتنع منى . قال : أنت وذاك ... فرد عليه إبله .

ثم انصرف عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر ، وأمرهم بالخروج من مكة ، والتحرز فى شعف الجبال ... ثم قام فأخذ بحلقة باب الكعبة ، وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه . وروى عن عبد المطلب أنه أنشد :

لاهم إن العبد يمنع رحله فامنع رحالك
لا يغلبن صليبهم ومحالهم أبدا محالك
إن كنت تاركهم وقبلتنا فأمر ما بدالك

أما أبرهة فوجه جيشه وفيله لما جاء له . فبرك الفيل دون مكة لا يدخلها ، وجهدوا فى حمله على اقتحامها فلم يفلحوا . وهذه الحادثة ثابتة بقول رسول الله ﷺ يوم الحديبية حين بركت ناقته القصواء دون مكة ، فقالوا : خلأت القصواء « أى حرنت » فقال رسول الله ﷺ : « ما خلأت القصواء ، وما ذاك لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل .. » وفى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال يوم فتح مكة : « إن الله حبس عن مكة الفيل وسلط عليها رسوله والمؤمنين ، وأنه قد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس . ألا فليبلغ الشاهد الغائب » . فهى حادثة ثابتة أنه قد حبس الفيل عن مكة فى يوم الفيل .. .

ثم كان ما أراده الله من إهلاك الجيش وقائده ، فأرسل عليهم جماعات من الطير تحصبهم بحجارة من طين وحجر ، فتركتهم كأوراق الشجر الجافة الممزقة . كما يحكى عنهم القرآن الكريم ... وأصيب أبرهة فى جسده :

﴿ ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ﴾ وهو سؤال للتعجيب من الحادث والتنبيه إلى دلالته العظيمة . فالحادث كان معروفا للعرب ومشهورا عندهم ، حتى لقد جعلوه مبدأ تاريخ ويقولون حدث كذا عام الفيل ... وحدث كذا قبل عام الفيل بعامين ، وحدث كذا بعد عام الفيل بعشر سنوات ... والمشهور أن مولد رسول الله ﷺ كان فى عام الفيل ذاته . ولعل ذلك من بدائع الموافقات الإلهية المقدرة .

وإذن فلم تكن السورة للإخبار بقصة يجهلونها إنما كان تذكيرا بأمر يعرفونه ، المقصود به ما وراء هذا التذكير ... .

ثم أكمل القصة بعد هذا المطلع فى صورة الاستفهام التقريرى كذلك : ﴿ ألم يجعل كيدهم فى تضليل ؟ ﴾ .. أى ألم يضل مكرهم فلا يبلغ هدفه وغايته ، شأن من يضل الطريق فلا يصل إلى ما يبتغيه ... ولعله كان بهذا يذكر

قريشا بنعمته عليهم فى حماية هذا البيت وصيانته ، فى الوقت الذى عجزوا هم عن الوقوف فى وجه أصحاب الفيل الأقوياء . لعلهم بهذه الذكرى يستحون من جحود الله الذى تقدمت يده عليهم فى ضعفهم وعجزهم ، كما يطامنون من اغترارهم بقوتهم اليوم فى مواجهة محمد ﷺ والقلة المؤمنة معه . فقد حطم الله الأقوياء حينما شاءوا الاعتداء على بيته وحرمته ، فلعله يحطم الأقوياء الذين يقفون لرسوله ودعوته .

فأما كيف جعل كيدهم فى تضليل ، فقد بينه فى صورة وصفية رائعة : ﴿ وأرسل عليهم طيرا أبابيل . ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول ﴾ .. والأبابيل : الجماعات والعصف الجاف من ورق الشجر . ووصفه بأنه مأكول : أى فتيت طحين ، حين تأكله الحشرات وتمزقه ، أو حين يأكله الحيوان فيمضغه ويطحنه . وهى صورة حسية للتمزيق البدنى بفعل هذه الأحجار التى رمتهم بها جماعات الطير . ولا ضرورة لتأويلها بأنها تصوير لحال هلاكهم بمرض الجدرى أو الحصبة » .

وفى هذا البيان الإلهى ردّ على هؤلاء الذين أرَّخُوا لحملة أبرهة وأرادوا من وراء ذلك التشكيك فى القرآن الكريم والإسلام ، بإيرادهم معلومات غير صحيحة ، بل ويعلم البعض كذبها أمثال براون وجورج زيدان .

لقد زعم جورج زيدان أن أبرهة الحبشى قد هزم أمام مكة نتيجة اتحاد أهل مكة ودفاعهم عنها ، ونتيجة الوباء الذى أصاب جند أبرهة[1] (انظر تاريخ التمدن الإسلامى ، جـ ١ ، ص ٤١ ؛ العرب قبل الإسلام ، ص ٢٧٩) .

وهذا ما قال به دكتور محمد بيومى مهران « فيزعم أن المرض حين تفشى فى جيش أبرهة ارتد عن مكة » (دراسات تاريخية ، ص ٤٠٦) ويزعم أن النصر على أبرهة عله كان إرهاصا بدعوة المصطفى ، (من دراسات تاريخية ، ص ٤٠٨) وأن محاولة أبرهة غزو مكة كانت فاتحة عصر جديد فى تاريخ حياة العرب القومية (دراسات تاريخية ، ص ٤٠٩) .

وسبق الدكتور حسن إبراهيم حسنى الدكتور محمد بيومى مهران فى قوله : « إن عام الفيل يعتبر فاتحة عهد جديد فى تاريخ حياة العرب القومية » ، ثم يضيف « ولا شك أن الحادثة التاريخية كانت فاتحة خير على العرب عامة وعلى قريش خاصة ... فقد مهدت السبيل لقبول الدعوة الإسلامية والقيام بنصرتها ونشر دين توحيد جديد !!! هو دين الحنيفية (تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى ، جـ ١ ، ص ٥١) .

دروس وعبر :

وأول ما توحى به أخبار هذه الحادثة أن الله - سبحانه - لم يرد أن يكل حماية بيته إلى المشركين ، ولو أنهم كانوا يعتزون بهذا البيت ، ويحمونه ويحتمون به . فلما أراد أن يصونه ويحرسه ويعلن حمايته له وغيرته عليه ترك المشركين يهزمون أمام القوة المعتدية وتدخلت القدرة سافرة لتدفع عن بيت الله الحرام ، حتى لا تكون للمشركين يد على بيته ولا سابقة فى حمايته ، بحميتهم الجاهلية . ولعل هذه الملابسة ترجح ترجيحا قويا أن الأمر جرى فى إهلاك المعتدين مجرى السنة الخارقة - لا السنة المألوفة المعهودة - فهذا أنسب وأقرب ... .

ولقد كان من مقتضى هذا التدخل السافر من القدرة الإلهية لحماية البيت الحرام أن تبادر قريش ويبادر العرب إلى الدخول فى دين الله حينما جاءهم به الرسول ﷺ وألا يكون اعتزازهم بالبيت وسدانته وما صاغوا حوله من وثنية هو المانع لهم من الإسلام ، وهذا التذكير بالحادث على هذا النحو هو طرف من الحملة عليهم ، والتعجب من موقفهم العنيد .

كذلك توحى دلالة هذا الحادث بأن الله لم يقدر لأهل الكتاب - أبرهة وجنوده - أن يحطموا البيت الحرام أو يسيطروا على الأرض « المقدسة » حتى والشرك يدنسه ، والمشركون هم سدنته . ليبقى هذا البيت عتيقا من سلطان المتسلطين ، مصونا من كيد الكائدين وليحفظ لهذه الأرض حريتها حتى تنبت فيها العقيدة الجديدة حرة طليقة ، لا يهيمن عليها سلطان ، ولا يطغى فيها طاغية ،

ولا يهيمن على هذا الدين الذى جاء ليهيمن على الأديان وعلى العباد ، ويقود البشرية ولا يقاد . وكان هذا من تدبير الله لبيته ولدينه قبل أن يعلم أحد أن نبى هذا الدين قد ولد فى هذا العام .

ونحن نستبشر بإيحاء هذه الدلالة اليوم ونطمئن ، إزاء ما نعلمه من أطماع فاجرة ماكرة ترف حول الأماكن المقدسة من الصليبية العالمية والصهيونية العالمية ، ولا تنى أو تهدأ فى التمهيد الخفى اللئيم لهذه الأطماع الفاجرة الماكرة . فالله الذى حمى بيته من أهل الكتاب وسدنته مشركون ، سيحفظه إن شاء الله ويحفظ مدينة رسوله من كيد الكائدين ومكر الماكرين .

والإيحاء الثالث هو أن العرب لم يكن لهم دور فى الأرض . بل لم يكن لهم كيان قبل بعثة محمد ﷺ . كانوا فى اليمن تحت حكم الفرس أو الحبشة . وكانت دولتهم حين تقوم هناك أحيانا تقوم تحت حماية الفرس . وفى الشمال كانت الشام تحت حكم الروم إما مباشرة وإما بقيام حكومة عربية تحت حماية الرومان ... ولم ينج إلا قلب الجزيرة من تحكم الأجانب فيه ولكنه ظل فى حالة بداوة أو فى حالة تفكك لا تجعل منه قوة حقيقية فى ميدان القوى العالمية . وكان يمكن أن تقوم الحروب بين القبائل أربعين سنة ، ولكن لم تكن هذه القبائل متفرقة ولا مجتمعة ذات وزن عند الدول القوية المجاورة . وما حدث فى عام الفيل كان مقياسا لحقيقة هذه القوة حين تتعرض لغزو أجنبى .

وتحت راية الإسلام ولأول مرة فى تاريخ العرب أصبح لهم دور عالمى يؤدونه . وأصبحت لهم قوة دولية يحسب لها حساب . قوة جارفة تكتسح الممالك وتحطم العروش وتتولى قيادة البشرية ، بعد أن تزيح القيادات الجاهلية المزيفة الضالة ... ولكن الذى هيأ للعرب هذا لأول مرة فى تاريخهم هو أنهم نسوا أنهم عرب ، نسوا نعرة الجنس ، وعصبية العنصر وذكروا أنهم مسلمون ، ومسلمون فقط . ورفعوا راية الإسلام ، وراية الإسلام وحدها . وحملوا عقيدة ضخمة قوية يهدونها إلى البشرية رحمة وبرا بالبشرية ولم يحملوا قومية ولا عنصرية ولا عصبية . حملوا فكرة سماوية يعلمون الناس بها لا مذهبا أرضيا يخضعون الناس لسلطانه .. وخرجوا من أرضهم جهادا فى سبيل الله وحده ولم يخرجوا ليؤسسوا

امبراطورية عربية ينعمون ويرتعون فى ظلها . ويشمخون ويتكبرون تحت حمايتها . ويخرجون الناس من حكم الروم والفرس إلى حكم العرب وإلى حكم أنفسهم إنما قاموا ليخرجوا الناس من عبادة العباد جميعا إلى عبادة الله وحده . كما قال ربعى بن عامر رسول المسلمين فى مجلس يزدجرد : « الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام » .

عندئذ فقط كان للعرب وجود ، وكانت لهم قوة ، وكانت لهم قيادة ... ولكنها كانت كلها لله وفى سبيل الله . وقد ظلت لهم قوتهم . وظلت لهم قيادتهم ما استقاموا على الطريقة . حتى إذا انحرفوا عنها وذكروا عنصريتهم وعصبيتهم ، وتركوا راية الله ليرفعوا راية العصبية نبذتهم الأرض وداستهم الأمم لأن الله قد تركهم حيثما تركوه ، ونسيهم مثلما نسوه .

وما العرب بغير الإسلام ؟ وما الفكرة التى قدموها للبشرية أو يملكون تقديمها إذا هم تخلوا عن هذه الفكرة ؟ وما قيمة أمة لا تقدم للبشرية فكرة ؟ إن كل أمة قادت البشرية فى فترة من فترات التاريخ كانت تمثل فكرة . والأمم التى لم تكن تمثل فكرة كالتتار الذين اجتاحوا الشرق ، والبرابرة الذين اجتاحوا الدولة الرومانية فى الغرب لم يستطيعوا الحياة طويلا ، إنما ذابوا فى الأمم التى فتحوها ، والفكرة الوحيدة التى تقدم بها العرب للبشرية كانت هى العقيدة الإسلامية ، وهى التى رفعتهم إلى مكان القيادة ، فإذا تخلوا عنها لم تعد لهم فى الأرض وظيفة ، ولم يعد لهم فى التاريخ دور .. وهذا ما يجب أن يذكره العرب جيدا إذا هم أرادوا الحياة ، وأرادوا القوة . وأرادوا القيادة .. والله الهادى من الضلال .

ثانيا : سورة قريش :

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف . فليعبدوا رب هذا البيت ، الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ﴾ .

استجاب الله دعوة خليله إبراهيم ، وهو يتوجه إليه عقب بناء البيت(١)

---

(١) التفسير من ظلال القرآن للأسباب التى أوردناها صفحة ٥٤ الهامش .

وتطهيره : ﴿ رب اجعل هذا بلدا آمنا ، وارزق أهله من الثمرات ﴾ .. فجعل هذا البيت آمنا ، وجعله عتيقا من سلطة المتسلطين وجبروت الجبارين . وجعل من يأوى إليه آمنا ، والمخافة من حوله فى كل مكان ... حتى حين انحرف الناس وأشركوا بربهم وعبدوا معه الأصنام ... لأمر يريده الله سبحانه بهذا البيت الحرام .

ولما توجه أصحاب الفيل لهدمه كان من أمرهم ما كان ، مما فصلته سورة الفيل . وحفظ الله للبيت أمنه . وصان حرمته ، وكان من حوله كما قال الله فيهم : ﴿ أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ، ويتخطف الناس من حولهم ؟ ﴾ .

وقد كان لحادث الفيل أثر مضاعف فى زيادة حرمة البيت عند العرب فى جميع أنحاء الجزيرة ، وزيادة مكانة أهله وسدنته من قريش مما ساعدهم على أن يسيروا فى الأرض آمنين ، حيثما حلوا وجدوا الكرامة والرعاية ، وشجعهم على إنشاء خطين عظيمين من خطوط التجارة – عن طريق القوافل – إلى اليمن فى الجنوب وإلى الشام فى الشمال . وإلى تنظيم رحلتين تجاريتين ضخمتين : إحداهما إلى اليمن فى الشتاء ، والثانية إلى الشام فى الصيف .

ومع ما كانت عليه حالة الأمن فى الجزيرة من سوء ، وعلى ما كان شائعا من غارات السلب والنهب . فإن حرمة البيت فى أنحاء الجزيرة قد كفلت لجيرته الأمن والسلامة فى هذه التجارة المغرية ، وجعلت لقريش بصفة خاصة ميزة ظاهرة ، وفتحت أمامها أبواب الرزق الواسع المكفول ، فى أمان وسلام وطمأنينة . وألفت نفوسهم هاتين الرحلتين الآمنتين الرابحتين . فصارتا لهم عادة وألفا .

هذه هى المنة التى يذكرهم الله بها – بعد البعثة – كما ذكرهم منة حادث الفيل فى السورة السابقة ، منة إيلافهم رحلتى الشتاء والصيف ، ومنة الرزق الذى أفاضه عليهم بهاتين الرحلتين – وبلادهم قفرة جفرة ، وهم طاعمون هانئون من فضل الله . ومنة أمنهم الخوف سواء فى عقر دارهم بجوار بيت الله ، أم فى أسفارهم وترحالهم فى رعاية حرمة البيت التى فرضها الله وحرسها من كل اعتداء .

يذكرهم بهذه المنن ليستحيوا مما هم فيه من عبادة غير الله معه ، وهو رب هذا البيت الذى يعيشون فى جواره آمنين طاعمين ويسيرون باسمه مرعيين ويعودون سالمين .. .

يقول لهم : من أجل إيلاف قريش : رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت الذى كفل لهم الأمن فجعل نفوسهم تألف الرحلة ، وتنال من ورائها ما تنال ﴿ فليعبدوا رب هذا البيت ، الذى أطعمهم من جوع ﴾ .. وكان الأصل - بحسب حالة أرضهم - أن يجوعوا ، فأطعمهم الله وأشبعهم من هذا الجوع ﴿ وآمنهم من خوف ﴾ . وكان الأصل - بحسب ما هم فيه من ضعف ، وبحسب حالة البيئة من حولهم - أن يكونوا فى خوف فآمنهم من هذا الخوف .

وهو تذكير يستجيش الحياء فى النفوس ، ويثير الخجل فى القلوب . وما كانت قريش تجهل قيمة البيت وأثر حرمته فى حياتها وما كانت فى ساعة الشدة والكربة تلجأ إلا إلى رب هذا البيت وحده . وها هو ذا عبد المطلب لا يواجه أبرهة بجيش ولاقوة . إنما يواجهه برب هذا البيت الذى يتولى حماية بيته ، لم يواجهه بصنم ولا وثن ، ولم يقل له ... إن الآلهة ستحمى بيتها . إنما قال له : « أنا رب الإبل وإن للبيت ربا سيمنعه » ... ولكن انحراف الجاهلية لا يقف عند منطق ، ولا يثوب إلى حق ، ولا يرجع إلى معقول .

*

الخاتمـــة

لاحظنا أن أقدم ما تحكيه المصادر الإسلامية من أخبار القرون الأولى من حياة جزيرة العرب ، مارواه القرآن الكريم عن أمة « عاد » وسيرة نبيها هود عليه السلام :

﴿ فما بال القرون الأولى ؟ قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى ﴾[1] وأخبار « عاد » و« ثمود » تُشكِّلُ جُزْءاً من تاريخ البشرية ، وأخبار « هود وصالح » تشكل على وجه التحديد جزءا من تاريخ الأمة المسلمة ، ولقد حفظ لنا الله رب العالمين هذه الأخبار بما يعود بالنفع على البشرية عموما ، وعلى الأمة المسلمة على وجه الخصوص .

فمنذ أربعة عشر قرنا من الزمان ، نزل قرآن على سيدنا « محمد » ﷺ يحوى دروسا عديدة من تاريخ البشرية ، من باب التربية ، والتوجيه ، والعظة والعبرة ، فالله سبحانه وتعالى ، وهو المربى ، وهو المتعهد بالإصلاح والتربية يقول : ﴿ ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا ، وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزى القوم المجرمين . ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون ﴾[2] .

والمقصود بالخطاب هنا ، نحن ، بل البشرية كلها على مدار التاريخ ، وإن كانت الآياتُ قد نزلت على رسولنا محمد ﷺ وصحبه ، وتنسحب عليهم أيضا .

والهدف من هذا الخطاب الربانى هو تربية الفرد المسلم الذى يخاف ربه

---

(١) طه : ٥١ - ٥٢ .

(٢) يونس ١٣ - ١٤ .

ويؤدى فرضه ، ويحفظ عرضه ، من خلال تذكيره بتاريخ الأجيال السابقة التى أهلكها الله سبحانه وتعالى نتيجة لشركها بالله عز وجل : ﴿ لما ظلّموا ﴾ ؛ وإعراضها عن دعوة رسلها وأنبيائها ، ومن خلال تذكير المخاطب أيضا أنّهُ فى الحياة الدنيا ، مستخلف بعد تلك الأجيال التى هلكت : ﴿ لننظر كيف تعملون ﴾[(١)] .

ومن هذه الأجيال التى أهلكها الله سبحانه وتعالى وذكر أخبارها القرآن الكريم ، قوم نوح وقوم هود ، وقوم صالح ، وقوم شعيب ، وقوم لوط ، وقوم موسى الذين أشركوا بالله عز وجل وكذبوا رسله .

وفى هذا الذكر القرآنى ، توجيهات لبنى آدم كلهم ، حكاما ومحكومين ، رعاة ورعية ، أفرادا وجماعات نذكر منها :

– أن أعظم وأشرف قضية فى تاريخ حياة أبناء آدم ، هى توحيد الله سبحانه وتعالى وإفراده وحده بالعبادة ، فلهذا خلقهم ، : ﴿ وما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾[(٢)] والعبادة لا تقف عند حد الشهادتين والقيام بالفروض ، ولكن تمتد لتشمل جنبات الحياة كلها بل الممات : ﴿ قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾[(٣)] . فلابد أن تقوم حياة الإنسان كلها على توحيد الله وطاعته فيما أمر ونهى ، كما يحرص على أن يموت على التوحيد لا يشرك بالله شيئا ﴿ فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾[(٤)] . كما يحرص على أن تكون كلمة الله هى العليا فى شئون الحياة كلها ، وعلى الأرض كلها .

من أجل هذه القضية ، أرسل الله الرسل مبشرين ومنذرين ، وذلك يعنى أن وظيفة الرسل من أشرف الوظائف ، والغاية التى من أجلها بعثوا ، هى أشرف الغايات .

---

(١) يونس : ١٤ .
(٢) الذاريات : ٥٦ .
(٣) الأنعام : ١٦٢ – ١٦٣ .
(٤) البقرة : ١٣٢ .

وتبعا لذلك فإن ذلك يعنى أن هذه هى وظيفتنا وهذه غايتنا ، حكاماً ومحكومين ، أفراداً وجماعات ، ليس لنا أن نحيد عنها ، ولا أن نستبدلها بغيرها ، ولا أن نتجاهلها إلى سواها ، وإلا اعتبر ذلك نكوصا عن حمل دعوة الله التى كُلِّفنَا أمانة حملها ، فتلك كانت القضية التى حمل أمانتها والدعوة إليها هود عليه السلام : ﴿ وإلى عاد أخاهم هودا ، قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾[٤] . وإليها دعا صالح عليه السلام : ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحا ، قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إليه غيره ﴾[٥] ومن قبل دعا إليها نوح ومن بعده دعا إليها إبراهيم ولوط وشعيب وموسى وسليمان وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام .

تلك هى قصة التوحيد ، توحيد الله عز وجل الخالق البارىء ، المصور ، التى يجب أن تأخذ حجمها ووضعها الحقيقى فى حياة البشر كلها ، وحجمها يتمثل فى أن تكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا هى السفلى . من أجل تلك القضية استخلف الله أبناء آدم فى الأرض واستعمرهم فيها ، من أجل تلك القضية عاش الأنبياء والرسل حياتهم يدعون قومهم ليلا ونهارا ، سرا وعلانية ، بالحكمة والموعظة الحسنة أحيانا ، وبالترهيب أحيانا أخرى .

ومن أجلها ، قام ويقوم الصراع بين أنصار هذه القضية وبين المعارضين لها ، بين حزب الله وبين حزب الشيطان .

ومن أجلها كانت المعجزات التى أيد الله بها رسله ، ومن أجلها وفى سبيل نشرها ، تلقى الرسل والصف المؤمن العنت والمشقة من الصف الكافر ، بصدر رحب أملا فى ثواب الآخرة .

من أجل قضية التوحيد سخر الله سبحانه وتعالى القوى الكونية لتهلك الكافرين والمكذبين بها .

من أجل هذه القضية كان يتحرك ، ويجب أن يتحرك الموحدون المخلصون من أبناء آدم ، حكاما ومحكومين ، رعاة ورعية ، فرادى وجماعات .

من أجل هذه القضية ، عاش محمد ﷺ وصحبه ، ومن أجلها عمل محمد ﷺ وصحبه ، وعلى نفس الطريق سار الأنبياء والمرسلون من قبل .

من أجل هذه القضية أرسل رسول الله ﷺ الرسل إلى الأكاسرة والأباطرة وغيرهم : « أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين » من أجلها تحمل رسول الله محمد ﷺ ومن قبله الرسل الأذى ، والتآمر ، والإخراج من بين القوم والعشيرة والوطن ، من أجلها تحمل عمار وسمية وياسر وبلال التعذيب يقولون « أحدٌ أحَدْ » .

من أجل توحيد الله ، أقام الرسول محمد ﷺ دولة الإسلام التى ترفع علم الجهاد على مدار حياتها . ومن أجل توحيد الله ، وأن لا يُعبد على الأرض غيره سبحانه وتعالى ، جيشت الجيوش وأرسلت البعوث والسرايا على عهد محمد ﷺ وأبى بكر وعمر وعثمان وعلى ، بل وعلى عهد الخلافة الأموية والعباسية والعثمانية .

ماذا يعنى ذلك بالنسبة لنا وللبشرية كلها : أو بمعنى آخر ما هو موقفنا نحن من هذه القضية ؟ .

إن من يعمل من أجل هذه القضية فهو فى سبيل الله ، ومن لا يعمل لها فهو مقصر فى نصرة دين الله ؛ من يعمل لتكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا هى السفلى فهو فى دين الله ، ومن لا يعمل لها فهو فى سبيل الشيطان .

من أجل توحيد الله سبحانه وتعالى يجب أن تكون حصيلة كد البشرية وسعيها ، حكاما ومحكومين . هكذا تعلمنا من دراستنا لسير الأنبياء فى جزيرة العرب ، فما هو واقع البشرية الآن ؟ .

إن غالب أبناء آدم لا يعملون من أجل هذه القضية ، إنَّهم يتحركون من أجل تحقيق رغباتهم وشهواتهم ولا يتحركون لتوحيد الله ولا لنصرة دين الله بل إن حصيلة كدهم وسعيهم لغير الله ﴿وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله ﴾ ونسوا ما وقع لغيرهم من الأمم السابقة نتيجة تقصيرها فى القيام لنصرة دين الله عز وجل ، ونتيجة شركهم .

ففى القرآن الكريم يروى الله سبحانه وتعالى لنا ، تاريخ الأمم السابقة التى أهلكها الله عز وجل بسبب ظلمها وإجرامها ، بعد الإعذار إليها ، من هذه الأمم السابقة التى أهلكها الله عز وجل ، قوم نوح ، وقوم عاد ، وقوم ثمود ، وقوم مدين ، وقوم لوط ، الذين كفروا بالله وأشركوا به ولم ينتهوا عن الحرام .

هذه الأقوام – كما يروى الله عز وجل – قد أهلكها الله بسبب ظلمها ، والشرك ظلم عظيم ، رغم أن الله سبحانه وتعالى قد أرسل لهم الرسل ليبينوا لهم أنهم مشركون وأنهم مطالبون بالإيمان بالله عز وجل ، فرفضوا دعوة الرسل وأصروا على شركهم أو ظلمهم ، مما أدى إلى استئصال شأفتهم وإهلاكهم ؛ ثم يعقب الله عز وجل على هذا الخبر قائلا : ﴿ كذلك نجزى القوم المجرمين ﴾ . أى أن الهلاك حاضر لكل مجرم يكفر بالله عز وجل ويرفض دعوة الإسلام فى كل زمان ومكان وبعد عرض أخبار السابقين وما نزل بهم من عذاب الله ، يتوجه الله عز وجل بالحديث لمحمد ﷺ وصحبه رضوان الله عليهم ولنا : ﴿ ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون ﴾ أى أن الأمم فى مرحلة اختبار والله مطلع عليها ، هل تفسد أم تصلح . وأعظم الإفساد الشرك بالله وأعظم الإصلاح توحيد الله عز وجل .

فما هو موقفنا وموقف البشرية اليوم من هذه القضية ؟؟ إن الكثير من بنى البشر قد خرجوا من دين الله ودخلوا فى دين الطاغوت . يتضح ذلك من عقائدهم : ﴿ وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله ﴾(١) . فالكفر له دول تنشره وتنافح عنه « مثل دول المعسكر الشيوعى » ، بل وسعت وتسعى إلى ردّ المسلمين عن دينهم كفاراً حسداً من عند أنفسهم .

يتضح ذلك من أنظمة حكمهم ، التى نحت شريعة الله عن حياتهم ، واستبدلتها بأنظمة غير إسلامية . اشتراكية ، ماركسية ، ديمقراطية ... الخ .

يتضح ذلك من أنظمتهم الاقتصادية ، والثقافية والتعليمية ، والاجتماعية .. وكل ذلك يثبت أنها قد خرجت عن نظام الله وشرعه ، إلى نظام الطاغوت وشرعه .

أن الكثيرين من أبناء المسلمين قد نسوا قضية توحيد الله عز وجل وأشركوا به ما لم ينزل به سلطانا ، يتضح ذلك من أنماط سلوكهم ، وصداقاتهم ، ومآكلهم ومشاربهم . يدلنا على ذلك أنهم أصبحوا غثاء كغثاء السيل ، يدلنا على ذلك أنهم رضوا بالحياة الذليلة نتيجة لحب الدنيا وكراهية الموت ، وتنكيس علم الجهاد .

يدلنا على ذلك موالاتهم للكافرين ، يدلنا على ذلك تقليدهم للطاغوت وأنصاره ﴿ والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت ﴾[1] .

وحتى لا ننسى وتنسى البشرية عهدها مع ربها وميثاقها ﴿ ألست بربكم قالوا بلى ﴾ عرضنا نموذج حكاه القرآن الكريم من علم الله من أخبار القرون الأولى يؤكد لنا أن قضية توحيد الله سبحانه وتعالى ، لتكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ، كانت الشغل الشاغل للحاكم والمحكوم على السواء ، هذا النموذج نلتقطه من سيرة سليمان عليه السلام وعلاقته بدولة سبأ . هذه القضية هى التى من أجلها أرسل الرسل ومنهم هود وصالح وشعيب وغيرهم من الأنبياء عليهم السلام .

ومن خلال استعراضنا لسير هؤلاء الأنبياء وغيرهم نقف على المعالم الهامة المثالية التى يرسى قواعدها القرآن الكريم .

صفات المجتمعات غير الإسلامية « الجاهلية » :

إن الجاهليات التى عاشت على أرض الجزيرة العربية لها صفات مشتركة ، هذه الصفات :

أولا : الشرك بالله سبحانه وتعالى والإيمان بالطاغوت .

ثانيا : رفض إخضاع الحياة لنظام الله وشرعه ، والانصياع لنظام الطاغوت وأوامره .

---

(١) سورة البقرة : ٢٥٧ .

ثالثا : إن الملأ ، أصحاب الجاه والسلطان والمال ، غالبا ، هم أعداء الدعوة إلى الله ، وهم المترفون ، الذين لا يؤمنون بالبعث ولا بالحساب ﴿ وقال الملأ الذين كفروا من قومه وكذّبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا ﴾ [(١)] والسبب فى وقوفهم فى وجه قيام حكم الله فى الأرض ، راجع إلى أن قيام سلطان الله فى الأرض يعنى انهيار سلطانهم ، لأن الناس بدخولهم فى سلطان الله وخضوعهم لنظام الله وشرعه ، سيخرجون من العبودية للطاغوت ، وذلك يعنى أن الملأ الكافرين لن يجدوا من يستعبدونه ، أو يضحون به على مذابح أهوائهم ، لن يجدوا من يركع لهم ، أو يصفق لهم ، أو يكون مطية لرغباتهم وطموحاتهم الآثمة ؛ لأن الناس بإيمانها بالله الواحد القهار ، وإفراده وحده بالعبادة ، يكونون قد تحرروا حرية حقيقية .

بالإضافة إلى ما سبق ، فإن قيام المجتمع المسلم الذى يؤْمر فيه بالمعروف ويُنهى فيه عن المنكر ، يحول بين الملأ وبين الاستمتاع بشهواتهم المحرمة ، فلا يسمح لهم بالتعاملات التى تقوم على الربا ، ولا يسمح لهم ببيع أو شراء السلع المحرمة شرعا كالخمر أو الحشيشة ، ولا يسمح لهم بتطفيف الكيل أو الميزان ، ولا يسمح لهم بغش الناس أو استغلالهم ، ولا يسمح لهم بالزنا ، أو ممارسة الشذوذ بكافة أنواعه ، أى أنه داخل المجتمع لا يسمح للناس أن تغيش دون الخضوع لنظام الله وشرعه .

إن قيام المجتمع المسلم الذى تكون فيه كلمة الله هى العليا ، تجعل ميزان المفاضلة بين الناس قائما على أساس التقوى ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾[(٢)] وأصحاب الجاه والسلطان لا يطيقون أن يقف الفقير المسلم إلى جوار صاحب الجاه والسلطان ، لأن ذلك - كما صوّر لهم الشيطان - ينتقص من قدرهم ، ويجعلهم على قدم المساواة مع غيرهم ، وهذا مالا يطيقونه .

هذا الموقف العدائى للدعوة إلى الله من قبل « الملأ » ، والصفات التى

---

(١) المؤمنون : ٣٣ .

(٢) الحجرات : ١٣ .

يتصفون بها تضع أيدى المسلمين على داء خطير يهدد الحضارات ويهدد القيم والمبادىء **هذا الداء هو الترف** ومن هذا الداء المدمِّر – الذى حجب أصحاب الجاه « الملأ » عن الدخول فى دين الله عز وجل : ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ حذّر رسولنا محمدٌ ﷺ ، الأمة الإسلامية بقوله فى حديث : « فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكنّى أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم »[(١)] وكان هو وأصحابهُ رضى الله عنهم ، صورة حية للبعد عن الترف والزهد فى الدنيا ، يروى ذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « لقد رأيت رسول الله ﷺ يظلّ اليومَ يلتوِى ما يجدُ من الدّقَلِ[(٢)] ما يملأ به بطنه » .

ومن الأدواء المدمرة التى يتصف بها أعداء الإسلام ، الكبر ﴿ فأما عادٌ فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منّا قوة ﴾[(٣)] وما أكثر المتكبرين فى عالمنا المعاصر والذين يقولون بنفس الكلمة الفاجرة التى قالت بها « عاد » لقد نسى هؤلاء الفجرة الفسقة أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة[(٤)] .

إن الكبر يحجب القلب عن الإيمان بالله عز وجل ﴿ سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق ﴾[(٥)] ومن هنا حذَّر رسول الله محمد ﷺ أمته من الكبر : « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقالُ ذرّة من كبر »[(٦)] ، وقال رسول الله ﷺ : قال الله عز وجل : « العِزُّ إزارى ، والكبرياء ردائى فمن يُنازعنى فى واحد منهما فقد عذبتهُ »[(٧)] ، ومن هنا تظهر أهمية التواضع : « وما تواضع أحَدٌ لله إلا رفعه الله »[(٨)] .

ومن الأدواء التى أصيب به الملأ « حب الافتراء » : ﴿ إن أنتم إلا مفترون ﴾[(٩)] ، وعدم القدرة على التفكير المتعقل : ﴿ أفلا تعقلون ﴾[(١٠)] ،

---

(١) متفق عليه .
(٢) الدقل : ردىء التمر ؛ رواه مسلم .
(٣) فصلت : ١٥ .
(٤) فصلت : ١٥ .
(٥) الأعراف : ١٤٦ .
(٦) رواه مسلم .
(٧) رواه مسلم .
(٨) رواه مسلم .
(٩) هود : ٥٠ .
(١٠) هود : ٥١ .

والإجرام : ﴿ولا تتولوا مجرمين﴾ ، والجحود بآيات الله ، وعصيان الرسل ، واتباع أمر كل جبار عنيد ؛ والبطش بجند الحق بطش جبارين ، والجهل ؛ وتعطيل وسائل الإدراك التي أنعم الله بها عليهم : ﴿ولقد مكّنّاهم فيما إن مكّنّاكم فيه ، وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون﴾ .

ومن الأدواء التي ابتلي بها الملأ من القوم الذين يعادون أصحاب الدعوات : « استحباب العمى على الهدى » ﴿وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى﴾[٢] .

وبالإضافة إلى ما سبق فإن الجاهلية تحرص على الوقوف في وجه الدعوة الإسلامية وأصحابها ومحاولة صرف الناس عن الدخول في دين الله بشتى الوسائل ، بل ومحاولة رد الذين أسلموا عن إسلامهم .

فهاهم الملأ من القوم ، قوم صالح عليه السلام يرفضون التخلى عن آلهتهم والكفر بطواغيتهم : ﴿وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك﴾[٣] ، ولم يقف تصرفهم عند هذا الحد ، بل انطلقوا يشككون الناس في الدعوة وأصحابها لصرفهم عنها بما يطلقون من اتهامات وإشاعات باطلة ضد أصحاب الدعوات : فهاهم قوم هود عليه السلام يتهمونه بالسفاهة والكذب : ﴿قال الملأ الذين كفروا من قومه إنّا لنراك في سفاهة ، وإنّا لنظنك من الكاذبين﴾[٤] .

﴿إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء﴾[٥] .

﴿ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون . ولئن

---

(١) الأحقاف : ٢٦ .
(٢) فصلت : ١٧ .
(٣) هود : ٥٣ .
(٤) الأعراف : ٦٦ .
(٥) هود : ٥٤ .

أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون . أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون هيهات هيهات لما توعدون . إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين ، إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا وما نحن له بمؤمنين ﴾[١] .

وهاهم الملأ من قوم صالح يتهمونه بالسحر : ﴿ قالوا إنّما أنت من المسحرين ﴾[٢] ﴿ ما أنت إلا بشر مثلنا ﴾[٣] ﴿ قالوا اطيرنا بك وبمن معك ﴾[٤] ﴿ أءلقى الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر ﴾[٥] .

وهى نفس التهم التى كانت تكيلها الجاهلية لشعيب عليه السلام : ﴿ قالوا إنما أنت من المسحرين وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين ﴾[٦] .

وفى هذا بيان لأصحاب الدعوات ، من أن موقف الجاهلية فى مواجهة الإسلام موقف واحد لم يتغير على مدار التاريخ : ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون . أتواصوا به بل هم قوم طاغون ﴾[٧] .

وهذه التهمة وجهها الملك الطاغية إلى الغلام المسلم فى حادثة أصحاب الأخدود : « أى بنى قد بلغ من سحرك ما تبرىء الأكمه والأبرص »[٨] .

وفى هذه التصرفات تبدو استهانة الجاهلية بعقاب الله عز وجل ، وعدم ازدجارها بالموعظة : ﴿ فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴾[٩] .

---

(١) المؤمنون : ٣٣ .
(٢) الشعراء : ١٥٣ .
(٣) الشعراء : ١٥٤ .
(٤) النمل : ٤٧ .
(٥) القمر : ٢٥ .
(٦) الأعراف : ٦٦ .
(٧) الذاريات : ٥٣ .
(٨) فقرة من حديث رواه مسلم لرسول الله ﷺ .
(٩) الأعراف : ٢٢ .

﴿ قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين إن هذا إلا خلق الأولين ومانحن بمعذبين ﴾[1] .

﴿ وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب ﴾[2] .

كما يبدو أيضا استعجالها لعذاب الله واستخفافها به :

﴿ فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين ﴾[3] .

والجاهلية لا تريد ولا ترغب للحياة أن تستقيم على أمر الله ، بل تحرص على شيوع الفساد ، وتحرص على صدّ المؤمنين عن فعل الخيرات والاستقامة على منهج الله ، توطئة لردهم عن دينهم فهاهو شعيب يكشف عن هذه الحقيقة فى قوله لقومه :

﴿ قد جاءتكم بينة من ربكم ، فأوفوا الكيل والميزان ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ، ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين . ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا ﴾[4] .

رابعا : وللمجتمع الجاهلى سمت بارز فى محاربة الإسلام وأهله ، يظهر هذا فى تهديد المؤمنين وخاصة الضعفاء للارتداد عن دينهم : ﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم ، أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه ؟ قالوا إنّا بما أرسل به مؤمنون . قال الذين استكبروا : إنا بالذى آمنتم به كافرون ﴾[5] .

وهنا تبدو حقيقة ماثلة أمام العيان ، إن الضعفاء لم يعودوا ضعافاً ، لقد

---

(١) الشعراء : ١٣٨ .
(٢) هود : ٦٢ .
(٣) الشعراء : ١٨٧ .
(٤) الأعراف : ٨٥ .
(٥) الأعراف : ٧٥ - ٧٦ .

سكب الإيمان بالله فى قلوبهم طمأنينة وقوة وشجاعة ، لم يعد ينفع معها تهديداً أو وعيد لصرفهم عن إسلامهم .

خامسا : وحينما تفشل الجاهلية فى ردّ الناس عن إسلامهم تلجأ إلى وسائل أخرى من وسائل الكيد ﴿ فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون ﴾(١) من هذه الوسائل :

١ - محاولة قتل الداعية إلى الله ، نلمح ذلك فى تآمر أهل الجاهلية الثمودية لقتل صالح : ﴿ وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يصلحون . قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنّا لصادقون ﴾(٢) .

ونلمح ذلك فى تهديد شعيب عليه السلام بالرجم :

﴿ قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز ﴾(٣) .

ويأتى التهديد بالقتل فى أعقاب تهديد بالإخراج من البلاد هو والذين آمنوا معه ، لو لم يرتدوا عن دينهم ، عن إسلامهم :

﴿ وقال الملأ الذين استكبروا من قومه : لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودُن فى ملتنا ، قال أولو كنا كارهين ؟ ﴾(٤) .

هذا الموقف الذى يصل إلى حد التآمر لاغتيال الدعوة وأصحابها ، موقف مكرور فى تاريخ البشرية ، وهى صورة من صور الصراع بين الحق والباطل ، يدلنا على ذلك موقف الجاهلية العربية من خاتم الأنبياء والرسل محمد ﷺ :

﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ﴾(٥) .

---

(١) هود : ٥٥ .
(٢) النمل : ٤٨ - ٤٩ .
(٣) هود : ٩١ .
(٤) الأعراف : ٨٨ .
(٥) الأنفال : ٣٠ .

وذلك يتكرر كثيراً فى عالمنا المعاصر ، فليكن أصحاب الدعوات على علم بالمدى الذى يصل إليه حقد الجاهلية على الإسلام وأهله . وقد شاهدنا نموذجا لذلك فى حادثة أصحاب الأخدود ، لقد قتلوا الراهب وجليس الملك والغلام وأصحاب الأخدود بطريقة يقشعّر لهولها البدن . لقد نشروا الراهب بالمنشار نصفين ، وأحرقوا أهل القرية ولم يرحموا امرأة أو طفلا .

هذا هى سمت الجاهلية وأسلوبها فى مواجهة الإسلام وأهله حينما تكون الدعوة إلى الله مستضعفة غير ممكن لها فى الأرض .

أما إذا كانت الدعوة ممكن لها فى الأرض ، وكان الإسلام يتمثل فى واقع حى يملك كل مقومات القوة المادية ، يكون للجاهلية أسلوباً آخر يعتمد على استخدام الهدية لتليين قلب الداعية لمحاولة صرفه عن دعوته :

نلمح ذلك فى سيرة سليمان عليه السلام ؛ فقد كانت الدعوة الإسلامية ممكن لها فى الأرض ، وحينما وجه سليمان عليه السلام رسالة إلى ملكة سبأ :

﴿ إنَّه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم أن لا تعلوا علىّ وأتونى مسلمين ﴾ . هنا أسقط فى يد الجاهلية السبئية ، فهى لا تستطيع أن تواجه القوة التى مكن الله بها لسليمان عليه السلام ، ومن هنا لجأت إلى حيلة أخرى لصرف سليمان عن دعوته :

﴿ وإنِّى مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون ﴾ .

وهذا درس لأصحاب الدعوات ، إن الجاهلية – حينما تعجز عن صرف الناس عن إسلامهم تحت ضغط التهديد والإرهاب والوعيد ، تلجأ إلى حيلة أخرى ، وهى التلويح للدعاة بالمناصب ، والإغراءات المادية الدنيوية ، وهذا درب آخر من دروب الابتلاءات التى قد يتعرض لها الداعية إلى الله ، والتى يجب أن يحذرها ويتجاوزها .

سادسا : وللمجتمع غير المسلم صفة بارزة وهى عدم شكر الله على النعمة التى ينعم بها ، وشكر النعمة يستلزم معرفة حق المنعم سبحانه وتعالى وما يليق به ، وتوحيده وإفراده وحده بالعبادة ، فلا يُدعى غيره ، ولا يرجى من

سواه ، وبعد ذلك يأتى تصريف النعم فى الوجهة المشروعة التى بينها الله سبحانه وتعالى ؛ والملأ من القوم فى المجتمع الجاهلى ، لا يفعلون ذلك ، وينفقون أموالهم فى الصد عن سبيل الله سبحانه وتعالى .

سابعا : ومن صفات المجتمع غير المسلم ، فصله بين لا إله إلا الله ومقتضياتها ، فهو يرى أنَّ الإيمان كَلمةٌ تقال باللسان ، وليس لها آثار ومقتضيات فى حياة البشر . نلمح ذلك فى استنكار المجتمع الجاهلى لدعوة شعيب عليه السلام حينما أعلمهم بأن لا إله إلا الله لها مدلول ولها مقتضى ، هذا المقتضى هو خضوع الحياة لنظام الله وشرعه : ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إنِّى أراكم بخير وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط ، ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين . بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ ﴾[(١)] .

فهنا بيان أن من مقتضيات لا إله إلا الله أن تكون المعاملات التجارية والمالية « الاقتصادية » خاضعة لنظام الله وشرعه .

ولكن الجاهلية لا ترى ذلك ، إنها ترى أن الحياة يجب أن تجرى غير مضبوطة بنظام الله وشرعه : ﴿ قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول ﴾ ..

﴿ قالوا يا شعيب أصلواتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد ﴾[(٢)] .

ثامنا : حرص الجاهلية على صد الناس عن دين الله يتضح ذلك من قول شعيب عليه السلام لقومه : ﴿ ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا ، واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم ، وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين ﴾[(٣)] .

---

(١) هود : ٨٥ - ٨٧ .
(٢) هود : ٨٧ .
(٣) الأعراف : ٨٦ .

تاسعا : إن الجاهلية لا ينقصها الدليل أو البينة لكى تؤمن بالله عز وجل ، والقرينة على ذلك نلمحها فى سيرة صالح عليه السلام ، لقد سألوه آية على صدق دعوته ، فاستجاب الله لدعوة رسوله : ﴿ إنّا مرسلو الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر ، ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر ﴾ .

فماذا كانت النتيجة ، هل آمنوا ؟ هل تراجعوا عن عداوتهم بغير وجه حق ؟ .

﴿ فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر ﴾ . لقد تآمروا على البينة ، لقد قتلوا الناقة لأنّها أعانت البعض على إعلان إسلامهم لله رب العالمين ، فخشوا إن تركوا البينة ، وتركوا الدعوة وصاحبها أحراراً ، فسوف يؤدى ذلك فى النهاية إلى قيام المجتمع المسلم ، ومن هنا تصورت الجاهلية أنها بقتلها للناقة سوف توقف نمو الدعوة الإسلامية .

وفى هذا درس لأصحاب الدعوات ، أن الجاهلية حينما تقف فى وجه الإسلام وأهله حتى لا يحكم حياة الناس ، لا يعنى ذلك قصور فى الإسلام ، أو قصور فى الدعاة لأنهم لم يحسنوا عرض إسلامهم ، أو لأنه يعوزِهم البينة للتدليل على صلاحية دينهم ، وإنما ذلك مرجعه إلى انحراف الجاهلية ، ورغبتها فى أن لا تكون شريعة الله حاكمة .

إن الذين يرفضون الخروج من ظلمات الشرك إلى نور الإسلام جهلة بحقيقة هذا الدين : ﴿ ولكنى أراكم قوما تجهلون ﴾[(١)] ، وعطلوا أجهزة الإدراك التى أكرمهم الله بها :

﴿ ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعا وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون ﴾[(٢)] .

---

(١) الأحقاف : ٢٣ .
(٢) الأحقاف : ٢٦ .

وهم لا يحبون أن توجه إليهم النصيحة :

﴿ يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ، ونصحت لكم ، ولكن لا تحبون الناصحين ﴾[1] .

وهم يؤمنون بالطيرة ؛ نلمح هذا فى قول ثمود لنبيهم صالح عليه السلام :

﴿ قالوا اطَّيرنا بك وبمن معك ، قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون ﴾[2] .

ويستحبون العمى على الهدى :

﴿ وأمَّا ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ﴾[3] .

والجاهلية لا تطيق الحق متحركا أمامها ، لأن ذلك يذكرها بجرائمها وانحرافاتها ، ولذلك فهى حريصة على رده إلى ملتها أو إخراجه من بين أظهرها ، ولا تطيق أن تترك الأمر لحكم الله عز وجل وعدله وقضائه ، نلمح ذلك فى سيرة شعيب :

﴿ وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين . قال الملأ الذين استكبروا من قومه : لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملَّتنا ﴾[4] .

وأهل الجاهلية لا يفقهون الحق : ﴿ قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول ﴾ أى أن العيب ليس فى الحق ، ولكن العيب فيمن يرفضونه بسبب جهلهم ، وعدم فقههم إياه . وأهل الجاهلية عاداتهم وتقاليد الآباء أعز عليهم من إسلام الوجه لله رب العالمين : ﴿ قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا ﴾[5] .

---

(١) الأعراف : ٧٩ .
(٢) النمل : ٤٧ .
(٣) فصلت : ١٧ .
(٤) الأعراف : ٨٨ .
(٥) الأعراف : ٧٠ .

موقف الدعاة إلى الله إزاء معاندة الجاهلية ورفضها الاستسلام لله رب العالمين :

إن الداعية ؛ عليه إزاء معاندة الجاهلية وعدائها لدين الله عز وجل ، واجبات مطالب القيام بها :

أولا : البلاغ الكامل : ﴿ وأبلغكم ما أرسلت به ﴾[1] ، ﴿ ولكنى أراكم قوما تجهلون ﴾ ﴿ فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ﴾[2] .

ثانيا : البراءة من الشرك والمشركين : ﴿ قال إنى أشهد الله واشهدوا أنّى برىء مما تشركون من دونه فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون ﴾[3] .

ثالثا : التوكل على الله عز وجل والإنابة إليه ، مع تفويض الأمر إليه : ﴿ إنّى توكلت على الله ربى وربكم ، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم ﴾[4] ؛ ﴿ على الله توكلنا ﴾ ﴿ وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ﴾ .

رابعا : التميز والمفاصلة وطلب النصرة من الله عز وجل : ﴿ قال رب انصرنى بما كذبون ﴾[5] .

خامسا : الصبر والانتظار : ﴿ فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين ﴾[6] ، ﴿ فانتظروا إنّى معكم من المنتظرين ﴾ .

سادسا : الثبات وعدم الرِّدة عن دين الله عز وجل ، مع الاستمرار فى أداء واجب البلاغ ، لقد حاول أهل مدين أن يصرفوا شعيبا عن دعوته ، ويردوه إلى ملتهم . فكان الثبات ؛ وقال شعيب عليه السلام :

---

(١) الأحقاف : ٢٢ .
(٢) هود : ٥٧ .
(٣) هود : ٥٥ .
(٤) هود : ٥٦ .
(٥) المؤمنون : ٢٦ .
(٦) الأعراف : ٨٧ .

﴿ قد افترينا على الله كذبا إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها ﴾ ، ﴿ وما يكون لنا أن نعود فيها ﴾ .

سمت المجتمع المسلم :

للمجتمع المسلم سمات مشتركة :

أولا : الكفر بالطاغوت والإيمان بالله عز وجل .

ثانيا : إخضاع الحياة برمّتها لنظام الله وشرعه .

ثالثا : الحرص على أن تكون كلمة الله هى العليا فى الأرض كلها ، ولذلك فإنهم يدعون إلى الله عز وجل ، دواما على بصيرة وموضوع الدعوة : ﴿ اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ . والعبادة لا تقف عند حد الشهادتين وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والصوم والحج ولكنها العبادة بمفهومها الشامل : ﴿ قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾(١) .

فنلمح ذلك فى عرض شعيب عليه السلام لقضية التوحيد :

﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبا ، قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، ولا تنقصوا المكيال والميزان إنّى أراكم بخير وإنّى أخاف عليكم عذاب يوم محيط . ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تعثوا فى الأرض مفسدين . بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ ﴾(٢) .

فالقضية هنا قضية الأمانة والعدالة بعد قضية العقيدة والدينونة ، أو هى قضية الشريعة والمعاملات التى تنبثق من قاعدة لا إله إلا الله . فلا إله إلا الله لها مقتضيات وهى أن تكون حياة الناس ومعاملاتهم منبثقة عن ذلك الأصل الكبير ، وهى جزء من المفهوم الشامل للعبادة .

---

(١) الأنعام : ١٦٢ .
(٢) هود : ٨٥ .

وهذا هو الذى استنكرته الجاهلية ، أن يكون هنالك علاقة بين شهادة لا إله إلا الله ، وبين المعاملات ولذلك نراهم يعترضون :

﴿ قالوا يا شعيب أصلواتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد ﴾[١] .

فهم يدركون أو لا يريدون أن يدركوا ، أن الصلاة هى من مقتضيات العقيدة ، ومن صور العبودية والدينونة وأن العقيدة لا تقوم بغير توحيد الله ، ونبذ ما يعبدون من دونه هم وآباؤهم ، كما أنها لا تقوم إلا بتنفيذ شرائع الله فى التجارة وفى تداول الأموال وفى كل شأن من شئون الحياة والتعامل . فهى لحمة واحدة لا يفترق فيها الاعتقاد عن الصلاة عن شرائع الحياة وعن أوضاع الحياة الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية أو الثقافية أو التعليمية .

ومن هنا ندرك أن عداء الجاهلية للإسلام وحرصهم على أن لا تقوم حياة الناس على نظام الله وشرعه ، لأن ذلك يعنى انهيار سلطانهم الذى يقوم على عدم الأمانة ، والسرقة ، والغش ، وأكل أموال الناس بالباطل ، والاستخفاف بعقول الجماهير .

ومن هنا نفهم لماذا تقف الجاهلية ذلك المواقف العدائى من أصحاب الدعوات . وقد عرضنا لذلك ، وبقى علينا أن نعرض لأسلوب الدعاة إلى الله ، وطريقهم فى عرض دين الله عز وجل .

إن أصحاب الدعوات يجب أن يحرصوا على أن يعرضوا قضية الإسلام عرضا شاملا ، وأن يكون البلاغ كاملا : ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته والله يعصمك من الناس ﴾[١] .

وعلى صاحب الدعوة أن يدرك أهمية الإخلاص ، أى أن يقصد بعمله هذا رضوان الله وثوابه ، فالعمل لكى يكون مقبولا من الله عز وجل ، لابد وأن يتوفر فيه شرطان : الإخلاص ، وأن يكون صوابا ، لأن الله طيب لا يقبل إلا طيبا .

---

(١) هود : ٨٧ .

يبين لنا ذلك قول الله سبحانه وتعالى على لسان هود عليه السلام وهو يدعو قومه : ﴿ يا قوم لا أسألكم عليه أجراً ، إن أجرى إلا على الذى فطرنى أفلا تعقلون ﴾[١] وهى نفس الحقيقة التى نطق بها صالح عليه السلام[٢] ، وشعيب عليه السلام[٣] .

وعلى الداعية أن لا يجهل على الناس ، إذا جهلوا عليه ، بل يكون مهذبا عف اللسان . نلمح ذلك فى :

موقف هود حينما اتهمه قومه بالسفاهة والكذب :

﴿ قال يا قوم ليس بى سفاهة ، ولكنى رسول من رب العالمين ، أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين ﴾[٤] فهى النصح والأمانة ، والله يدافع عنه من فوق سبع سموات نرى ذلك واضحا فى قول الله عز وجل عن قوم صالح حينما اتهموه بالكذب : ﴿ أءلقى الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر ﴾ ، وجاء الرد الإلهى : ﴿ سيعلمون غدا من الكذاب الأشر ﴾[٥] .

وإبلاغ دعوة الله يستلزم أن يكون للداعية ثقافة تاريخية ، يذكر من خلالها المدعو بمصائر الأمم السابقة :

فهاهو هود عليه السلام يذكر قومه بأخبار قوم نوح :

﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ، وزادكم فى الخلق بسطة ، فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون ﴾[٦] ، وفى هذا العرض ، يبدو العديد من الدروس المستفادة :

---

(١) هود : ٥١ .
(٢) الشعراء
(٣) الشعراء
(٤) الأعراف : ٦٨ .
(٥) القمر : ٢٥ - ٢٦ .
(٦) الأعراف : ٦٩ .

(أ) أن الاستخلاف فى الأرض نعمة من نعم الله عز وجل ، وأثناءها تكُونُ الأمم فى موضع الاختبار .

(ب) أنهم من ذرية الناجين مع نوح من الطوفان ، أى من ذرية قوم مسلمين .

(جـ) ذكر نعمة الله عز وجل ، يستوجب معرفة قدر المنعم سبحانه وتعالى ، وعبادته وحده ، وشكره على هذه النعمة بالإصلاح فى الأرض ، والإصلاح فى الأرض لا يمكن أن يتم إلا إذا كانت كلمة الله هى العليا فى حياة الأمم ، أى أن تكون شريعة الله حاكمة .

(د) أن الفلاح لا يمكن أن يتحقق للأمة المسلمة إلا إذا أدركت واجبها وقامت به على أكمل وجه :

﴿ الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وأتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ﴾(١) .

وهاهو صالح عليه السلام ينهج نفس النهج الذى انتهجه هود عليه السلام ، ذكر قومه بأخبار قوم عاد :

﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد(٢) ، وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً ، فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ﴾ .

فصالح عليه السلام يبين لهم تبعات التمكين ، وهى شكر النعمة التى من مظاهرها عدم الإفساد فى الأرض ، والإفساد فى الأرض له ملامح شتى أخطرها العمل على تنحية شريعة الله عن حكم حياة البشرية ، والوقوف فى وجه الدعوة إلى الله وفى وجه الناس والإقبال على الإسلام ، وصرفهم عن دين الإسلام إلى غيره من العقائد الفاسدة ، وهذا بجملته يمكن أن يندرج تحت العمل على إخراج الناس

---

(١) الحج : ٤١ .
(٢) الأعراف : ٧٤ .

من العبودية لله للعبودية لغيره ، ومن النور إلى الظلمات .

ونَهجَ شعيب عليه السلام نفس الطريقة فى تذكير قومه بتاريخ السابقين :

﴿ ويا قوم لا يجرمنكم شقاق أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد ﴾[1] .

وهنا تذكير بالقوارع ، والعذاب الذى أنزله الله عز وجل بالأمم السابقة ، علهم يفيقون ؛ فهو يذكرهم بالذين أغرقهم الله بالطوفان ، والذين أهلكهم الله سبحانه وتعالى بالريح الصرصر العاتية ، والذين أهلكهم الله بالصيحة ، والذين أهلكهم الله بحجارة من سجيل وهذا أسلوب آخر من الأساليب التى يلجأ إليها **الدعاة لإيقاظ الغافلين من غفلتهم . وعلى الداعية إلى الله أن يقدم إلى المدعوين ، سواء كانوا أمما أم أفرادا ، المنهج الربانى الذى تصلح به حياتهم إذا طبقوه ، وأسوتنا فى ذلك الرسل عليهم الصلاة والسلام ، ومنهم نبى الله هود عليه السلام الذى قدم البرنامج التالى :**

﴿ ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين ﴾[2] .

وهو نفس المنهج الذى قدمه صالح عليه السلام إلى قومه :

﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربى قريب مجيب ﴾[3] ؛ ﴿ لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون ﴾[4] .

وهو نفس المنهج الذى قدمه شعيب عليه السلام لقومه :

﴿ واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربِّى رحيم ودود ﴾[5] .

---

(١) هود : ٨٩ .
(٢) هود : ٥٢ .
(٣) هود : ٦١ .
(٤) النمل : ٤٦ .
(٥) هود : ٩٠ .

وسبق هؤلاء الرسل عليهم السلام رسول كريم هو نوح عليه السلام :

﴿ فقلت استغفروا ربكم إنَّه كان غفّاراً يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً ﴾(1) .

وهذا المنهج صالح لكل زمان ومكان ، ولكل أمة ولكل فرد .

يقابل هذا ، أنَّه ما من فرد أو أمة تترك هذا المنهج إلا وتشقى فى الدنيا والآخرة ، وما الشقاء الذى تعيشه الأمم والأفراد الآن إلا بسبب إعراضها عن منهج الله عز وجل : ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ﴾(2) .

لمّا كان المدعوون لا يستجيبون بسهولة لداعى الله عز وجل ، فعلى الداعية أن يستخدم كل الأساليب والوسائل المتاحة لدعوة ذلك القطيع الضال ويدخل فى ذلك تذكير المدعوين بالنعم التى أنعمها الله عليهم . نتعلم ذلك الأسلوب من هود عليه السلام الذى ذكر قومه عاد بنعم الله عليهم :

﴿ واتقوا الذّى أمدكم بما تعلمون . أمدكم بأنعام وبنين ، وجنات وعيون . إنِّى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾(3) .

وكذلك صالح عليه السلام :

﴿ أتتركون فى ما هاهنا آمنين فى جنات وعيون . وزروع ونخل طلعها هضيم . وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين . فاتقوا الله وأطيعون . ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ﴾(4) . وهنا تبدو نصيحة قيمة يقدمها الرسول لقومه ، وهى عدم الاستجابة للشياطين ، شياطين الإنس الذين يدعون إلى جهنم ، سواء عن طريق الإذاعة المرئية أو المسموعة أو الكلمة المقروءة إلى غير ذلك من وسائل الإفساد الشيطانية .

---

(1) نوح : 10 .
(2) طه : 124 .
(3) الشعراء : 132 .
(4) الشعراء : 152 .

وهنا تظهر أيضا ضرورة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . ولهذا أهمية كبيرة فى المجتمع المسلم ، وهو سمت بارز فى الدولة والمجتمع المسلم يوضح ذلك حديث رسول الله محمد ﷺ : « مثل القائم فى حدود الله والواقع فيها كمثل قوم اسْتَهَمُوا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها وكان الذين فى أسفلها إذا استَقَوْا من الماء مَرُّوا على من فوقهم فقالوا : لو خرقنا فى نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا »[1] .

والمجتمع المسلم يوظف كلّ إمكانياته فى الدعوة إلى الله ؛ يعلمنا رب العزة ذلك من خلال عرض سيرة سليمان عليه السلام ؛ فسليمان عليه السلام حينما علم أن هنالك شرك بالله يزاول على أرض الجزيرة العربية على الفور وجه أحد جنوده برسالة إلى ملكة سبأ ، يدعوها وقومها للكفر بالطاغوت والإيمان بالله رب العالمين : ﴿ إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا على وأتونى مسلمين ﴾[2] ، وحينما حاولت الملكة مراوغته أعلن سليمان عليه السلام حالة النفير العام ، وهدد القوم بتسيير جيوش التوحيد ﴿ اذهب إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ﴾[3] .

فلمثل هذا الأمر تعد الجيوش ، إنها لا تعد لقهر الأمم والشعوب ، أو لتكريس الظلم أو حماية الأشخاص ولكن تعد لنصرة دين الله عز وجل . وهذا درس لأصحاب الدعوات ، أن الدعوة إلى الله واجبة فى حق الحاكم والمحكوم ، وأنه من واجب الحاكم المسلم أن يجيش الجيوش ويعد القوة المانعة لحماية الدولة الإسلامية ولكى تكون كلمة الله هى العليا فى الأرض كلها . فتهديد سليمان عليه السلام بتحريك الجيوش حدث لأنه كانت هنالك أمة تزاول انشرك بالله ، وتخضع

---

(١) رواه البخارى عن النعمان بن بشير . القائم فى حدود الله معناه : المنكر لها القائم فى دفعها وإزالتها والمراد بالحدود ما نهى الله عنه ، واستهموا : اقترعوا .

(٢) النمل : ٣١ .

(٣) النمل : ٣٧ .

حياتها لغير نظام الله وشرعه على أرض الجزيرة العربية ، ولم يحركها لمدّ حدود دولته أو لتحقيق زعامته ولكنه حركها لنصرة دين الله ، ولكى تكون كلمة الله هى العليا .

بالإضافة إلى ما سبق نلاحظ أن سليمان عليه السلام ، حينما علم أن القوَم قد قرروا الدخول فى دين الله ، استخدم العلم الذى علمه الله إياه لإحضار عرش ملكة سبأ ، ولتنكيره لها ، وتمريد الصرح ، حتى يقهر أنفس المدعوين ولكى يبرهن لهم أن التمكين الذى مكن الله لهم به فى الأرض لا يقاس إلى التمكين الربانى لسليمان النبى المسلم ولذلك نرى ملكة سبأ تعلن : ﴿ رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾ .

نموذج آخر لمسلم يوظّف التمكين الذى تحقق له فى الدعوة إلى دين الله عز وجل . إنه الغلام فى حادثة أصحاب الأخدود : لقد كان يبرىء الأكمه والأبرص ويداوى الناس من سائر الأدواء فسمع جليس الملك كان قد عمى فأتاه بهدايا كثيرة فقال ما ها هنا لك أجمع إن أنت شفيتنى قال إنّى لا أشفى أحداً إنما يشفى الله ، فإن أنت آمنت بالله دعوت الله فشفاك ، فآمن بالله فشفاه .

إن الغلام لم يوظف هذه النعمة فى جمع المال ، وإنما استخدمها للدعوة إلى دين الله ، لإخراج الناس من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان . وهكذا يجب أن يفعل الدعاة إلى دين الله عز وجل وكل من مكن الله له فى الأرض بأى نوع من التمكين . تماماً كما فعل الراهب الذى وظف علمه فى الدعوة إلى دين الله .

وفى حادثة أصحاب الأخدود يتعلم المرء أيضا كيف يجود بنفسه لنصرة دين الله عز وجل ، لأنه لا يملك من أمر نفسه شيئا : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله ﴾ .

الصراع بين الحق والباطل نتائجه محددة :

النصر أو الشهادة للمؤمنين الموحدين ، وعذاب الخزى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة للمكذبين المعاندين مثلما حدث لهود عليه السلام وقومه :

﴿ فأنجيناه والذين معه برحمة منّا ، وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا ، وما كانوا مؤمنين ﴾[1] والنجاة هنا للمؤمنين تحققت برحمة الله عز وجل .

وما حدث لصالح عليه السلام وقومه :

﴿ فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزى يومئذ إن ربك هو القوى العزيز . وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ﴾[2] :

وعذاب الله إذا نزل بقوم ، لا يمكن أن يحميهم منه أحدٌ أو شيء لا المال ، ولا القوات ، ولا الأعوان ، ولا الحصون : ﴿ وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ﴾ ؛ ﴿ ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين . وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين . وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين ، فأخذتهم الصيحة مصبحين فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾[3] .

لقد أهلك الله قوم هود الكافرين بالريح الصرصر العاتية التى سخرها الله عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوما ؛ وأهلك قوم صالح الكافرين بالصيحة فأصبحوا كهشيم المحتظر ، وأهلك قوم شعيب بعذاب يوم الظلة إنّه كان عذاب يوم أليم ، وأهلك آخر ملوك الحميريين بتسليط الأحباش عليهم فأسقطوا دولتهم ، وشتتوا ملكهم ، واحتلوا بلادهم ، كما أهلك الأحباش بالطير الأبابيل التى ترميهم بحجارة من سجيل .

– إن الله سبحانه وتعالى محيط بكل شيء ، فهو الحى القيوم الذى لا تأخذه سنة ولا نوم ، ولا شيء يخرج عن دائرة علمه ، وكل شيء فى قبضته ﴿ ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم ﴾[4] ﴿ وسع ربنا كل شيء علما ﴾ .

---

(١) الأعراف : ٧٢ .
(٢) هود : ٦٧ .
(٣) الحجر : ٨٠ – ٨٤ .
(٤) هود

– إن الله سبحانه وتعالى قد بين أن لعنته « أى الإبعاد من رحمة الله عز وجل » تنزل فى الدنيا والآخرة بمن :

« جحدوا آياته ، وعصوا رسله » ﴿ واتبعوا أمر كل جبار عنيد ﴾[1]

– إن عصيان الله عز وجل والتمرد على أوامره وشرعه تؤدى إلى الخسران :

﴿ فمن ينصرنى من الله إن عصيته ، فما تزيدوننى غير تخسير ﴾[2] .

– إن الله سبحانه وتعالى لا يتخلى عن جنده ، ويتركهم للأعداء يتآمرون عليهم ، ويفتنونهم عن دينهم ، كما أنه سبحانه وتعالى خير الماكرين ، والذين يمكرون بالصف المسلم جزاؤهم التدمير فى الدنيا والعذاب فى الآخرة .

فحينما تآمر قوم صالح على قتله وأهله ، وتقاسموا على ذلك ، ماذا كانت النتيجة ؟ يقول الله عز وجل :

﴿ ومكروا مكراً ، ومكرنا مكراً ، وهم لا يشعرون . فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنّا دمرناهم وقومهم أجمعين فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ، إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون . وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾[3] .

– وعصرنا يموج بأمثلة تفوق الحصر ، خير شاهد على هذه الحقيقة ، فما أكثر المتآمرين على الصف المسلم ، وما أكثر تخطيطهم للخلاص من كل مسلم يشهد أن لا إله إلا الله ، فلا ينزعج المسلمون لهذا التخطيط البشرى ، لأن كيد الشيطان كان ضعيفا ، والله موهن كيد الكافرين ، وليعلموا أنهم فى حفظ الله ورعايته ، وأن الله محيط بأعدائهم .

وذلك يعنى أن الله يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ؛ ﴿ فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير ﴾[4] .

---

(١) هود : ٥٩ .
(٢) هود : ٦٣ .
(٣) النمل : ٥٣ .
(٤) الحج : ٤٤ .

– إن الله سبحانه وتعالى هو الذى حمى بيته الحرام وحرمه الآمن من عبث العابثين وهو قادر على حمايته فى كل زمان .

– إن الله سبحانه وتعالى أرسل الرسل مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس حجة على الله ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ وإن لم يستجب الناس لدعوة الله عز وجل استبدلهم الله بأقوام غيرهم ثم لا يكونوا أمثالهم ، وهذا ما بينه هود عليه السلام لقومه : ﴿ فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ويستخلف ربّى قوماً غيركم ولا تضرونه شيئا إن ربى على كل شيء حفيظ ﴾[١] .

تعامل قدر الله مع الناس حينما تجيئهم الرسالة فيكذبون :

هنالك سنة إلهية فى تعامل قدر الله مع الناس حينما تجيئهم الرسالة فيكذبون إذ يأخذهم الله أولا بالضراء والبأساء لعل هذا يهز قلوبهم الغافية فتستيقظ وتستجيب ، فإذا لم تهزهم يد البأس وكلهم إلى الرخاء وهو أشد فتنة من البأس ، حتى تلتبس عليهم سنة الله ولا ينتبهوا لها . ثم يأخذهم بعد ذلك بغتة وهم لا يشعرون :

﴿ وما أرسلنا فى قرية من نبى إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا ، وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء ، فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون ﴾[٢] .

كيف يعامل الدعاة الناس ؟ كيف يمضون بدعوتهم ؟ كيف يستعينون على متاعب الطريق :

كيف يكظمون الغضب وهم يعانون من نفوس الناس وكيدهم ؟ كيف يذكرون ربهم ويبقون موصولين به ؟ .

لقد بين الله سبحانه وتعالى لأصحاب الدعوات ، كل ذلك ، وهو يحكى

---

(١) هود : ٥٧ .
(٢) الأعراف : ٩٤ – ٩٥ .

لهم أخبار الرسل ، والأنبياء عليهم السلام ، فى كتاب الله الكريم ، سواء عن طريق الخطاب المباشر للنبى محمد ﷺ ، أو عن طريق التعقيب على أخبار الرسل عليهم السلام .

﴿ خذ العفو وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين .. وإمّا ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله ، إنه سميع عليم .. إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون .. وإخوانهم يمدونهم فى الغى ثم لا يقصرون .. وإذا لم تأتهم بآية قالوا : لولا اجتبيتها ! قل إنّما أتبع ما يوحى إلىّ من ربى .. هذا بصائر من ربكم ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون .. وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون .. واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدُو والأصال ولا تكن من الغافلين ، إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ، ويسبحونه وله يسجدون ﴾[1] .

وعالمنا المعاصر يموج بنماذج مكررة لقوم عاد الذين استكبروا فى الأرض بغير الحق ، وقالوا من أشد منا قوة :

فهناك الكثير من الأمم التى أنعم الله عليهم بالجنات والعيون والزروع والأموال والأولاد والعلم والتمكين بكل صوره المادية ، فى الجو والبر والبحر ، وقد كان ذلك كفيلا برد هذه الأمم إلى الله عز وجل ، ولكنهم فتنوا ، وتصوروا كما تصور قارون أنهم قد أوتوا ذلك كل على علم عندهم . ونسوا أن الوهاب والمنعم هو الله عز وجل ، وأنه من الواجب عليهم عبادته حق العبادة ، وإفراده وحده بالتوحيد الخالص .

إن هذه الأمم تملك كل مقومات التمكين المادى ، ولكنها ارتكست فى حمأة الشرك ، وانطلقت تعيث فى الأرض فساداً ، بسبب عدم عقلها ، وإجرامها ، وحرصها على الجحود بآيات الله وعصيان أوامره ، واتباع أوامر الطواغيت .

هذه الأمم غالبها يكفر بالله عز وجل ، ويكذّبون بلقاء الآخرة ، ويعيشون

---

(١) الأعراف : ١٩٩ - ٢٠٦ .

حياة مترفة ، ويقفون فى وجه الدعوة إلى الإسلام وقفة شرسة ، يستخدمون فيها كل إمكانياتهم المادية والعلمية لصرف الناس عن هذا الإسلام ، عن طريق التشكيك فى كونه نظاماً صالحاً لكل زمان ومكان ، وعن طريق تشويه سمعة أصحاب الدعوات ، ومحاولة النيل منهم ، بكل الطرق ، بل ومحاولة قتلهم ، وإلقائهم فى السجون والمعتقلات بلا ذنب أو جريمة ، بل وتدبير التهم الباطلة لهم ولأتباعهم ، مع حرمانهم من وظائفهم ، والتضييق عليهم فى أعمالهم .

هذه الأمم المعاصرة ، ومنهم من كان ينتسب فى يوم من الأيام إلى الإسلام ، تحرص ، حرص عاد وثمود ومدين وغيرهم ، بل أشد من هذا الحرص نلمحه فى التآمر على الإسلام وأهله ؛ يدخل فى ذلك منع مساجد الله أن يذكر فيها اسم الله ، والسعى فى خرابها .

يدخل فى ذلك مسخ برامج التعليم الدينى ، لتربية أجيال لا تعرف لها ربّا ولا ترتضى لها دينا .

يدخل فى ذلك إشاعة الفاحشة وتزيينها للناس داخل المجتمعات ، عن طريق فتح النوادى الليلية والمختلطة ، وعن طريق فتح الحانات ، وإباحة المسكرات ، وعن طريق الكلمة المقروءة والمسموعة . ويدخل فى ذلك إشاعة الأدب العارى ، وعن طريق الإذاعة المرئية والمسموعة .

ولم تقف جرائم هذه الأمم عند هذا الحدّ بل تعدتها إلى غزو الشعوب الآمنة فى عقر دارها ، واغتصاب أموالها وأولادها وأوطانها ، بل واغتصاب رجالها ونسائها وأطفالها ، وما حدث على امتداد رقعة الوطن الإسلامى خير شاهد على ما نقول .

إن هذه الأمم التى تكرس الظلم وتُقَنِّنه ، لتصد عن سبيل الله من آمن تبغيها عوجا ، بدلا من أن تصرف نعم الله عز وجل فى مصارفها المشروعة ، نجد أنها تستخدمها فى التدمير والتخريب . لقد تعطلت أجهزة الإدراك لديها ، فما عادت تنكر منكراً أو تأمر بمعروف ، بل إنها لم تستفد بما وقع للأمم السابقة .

فإذا نظرنا إلى هذه الأمم فى ضوء السنن الربانية ، سوف نصل إلى نتيجة

مؤكدة ، وهى أن عقاب الله عز وجل لابد وأن ينزل بهذه الأمم ، لأنها مرقت من دين الله عز وجل ، سوف نصل إلى نتيجة مؤكدة ، أن التدمير والعذاب سوف يحيق بهذه الأمم جزاء نكوها عن حمل الأمانة التى كلفها الله بها ، إذ لم تسرع بالتوبة والاستغفار والعودة إلى الله عودة حقيقية ، تحقيقا لقوله تعالى ﴿ وكذلك أخذ ربك إذ أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾ .

فلا يغتر مُغْتَرّ ، ولا يتصور إنسان أن الله عز وجل قد خلق الأمم وتركها يظلم بعضها بعضاً ، أو يبغى بعضها على بعض ، أو تُفسد فى الأرض نتيجة شركها بالله عز وجل ، وعدم استسلامها له سبحانه وتعالى ، دون أن يعاقبها كما عاقب غيرها من الأمم السابقة ، حاشا لله أن يحدث هذا ، حاشا لله أن تتعطل سنة من سننه الربانية ، ولكن لكل شيء أجل ، وموعد معلوم لا يتجاوزونه ، ولكن الله لا يعجل لعجلة أحد .

﴿ خلق الإنسان من عجل سأوريكم آياتى فلا تستعجلون ﴾(١) .

وأن الكافرين عليهم ألا يأمنوا على أنفسهم لأن عذاب الله قد ينزل بهم فى آية لحظة .

﴿ أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون ؟ أوأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون ؟ أفأمنوا مكر الله ؟ فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ﴾(١) .

* * *

---

(١) الأنبياء : ٣٧ .

الوثائــــــق
مــــن
القرآن والسنة وكتب التفسير

سيرة هود عليه السلام

من القرآن الكريم :

سورة الأعراف[1] :

﴿ وإلى عاد أخاهم هودا . قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره . أفلا تتقون ؟ قال الملأ الذين كفروا من قومه : إنا لنراك فى سفاهة ، وإنا لنظنك من الكاذبين . قال : يا قوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربى ، وأنا لكم ناصح أمين . أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ؟ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ، وزادكم فى الخلق بسطة ، فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون . قالوا : أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا ؟ فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . قال : قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب ، أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان ؟ فانتظروا . إنى معكم من المنتظرين . فأنجيناه والذين معه برحمة منا ، وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا ، وما كانوا مؤمنين ﴾ .

هـود[1] :

﴿ وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون يا قوم لا أسألكم عليه أجرا ، إن أجرى إلا على الذى فطرنى أفلا تعقلون . ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا

---

(١) الأعراف آية (٦٥ - ٧٢) .

(٢) هود آية (٥٠ - ٦٠) .

ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين . قالوا : يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين . إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون ، من دونه فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون ، إنى توكلت على الله ربى وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم ، فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ويستخلف ربى قوما غيركم ولا تضرونه شيئا إن ربى على كل شيء حفيظ ، ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ ، وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد ، وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ألا إن عادا كفروا ربهم ألا بعدا لعاد قوم هود ﴾ .

المؤمنــون[١] :

﴿ ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين ، فأرسلنا فيهم رسولا منهم أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ، وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ، ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون ، أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون . هيهات هيهات لما توعدون ، إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين ، إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا وما نحن له بمؤمنين ، قال رب انصرنى بما كذبون ، قال عما قليل ليصبحن نادمين ، فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء فبعدا للقوم الظالمين ، ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين ، ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون ، ثم أرسلنا رسلنا تترا كلَّ ما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضا وجعلناهم أحاديث فبعدا لقوم لا يؤمنون ﴾ .

---

(١) المؤمنون آية (٣١ - ٤٤) .

الشعـــراء[1] :

﴿ كذبت عاد المرسلين ، إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون ، إنى لكم رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعون ، وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين ، أتبنون بكل ريع آية تعبثون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون وإذا بطشتم بطشتم جبارين ، فاتقوا الله وأطيعون ، واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون ، أمدكم بأنعام وبنين ، وجنات وعيون ، إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ، قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين ، إن هذا إلا خلق الأولين ، وما نحن بمعذبين ، فكذبوه فأهلكناهم إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ .

فصلـــت[2] :

﴿ فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أولم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون ، فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون ﴾ .

الأحقـــاف[3] :

﴿ واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ، قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ، قال إنما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ولكنى أراكم قوما تجهلون ، فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم ، تدمر كل شىء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزى القوم المجرمين ،

---

(١) ١٢٣ – ١٤٠ .
(٢) ١٥ – ١٦ .
(٣) ٢١ – ٢٦ .

ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون ﴾ .

الذاريات[1] :

﴿ وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ، ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ﴾ .

القمر[2] :

﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ، كذبت عاد فكيف كان عذابى ونذر ، إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر ، تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر ، فكيف كان عذابى ونذر ﴾ .

كتب التفسير والحديث :

أورد أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى معلومات عن هود وقومه عاد نقتطف منها :

١ - « وعاد » ، هؤلاء القوم الذين وصف الله صفتهم ، وبعث إليهم هودا يدعوهم إلى توحيد الله ، واتباع ما أتاهم به من عنده .

٢ - « حدثنا به ابن حميد قال ، حدثنا سلمة ، عن ابن إسحاق . ولد عاد بن أرم بن عوص بن سالم بن نوح ، وكانت مساكنهم الشحر ، من أرض اليمن وعاد إلى بلاد حضرموت إلى عمان (١٤٨٠١) » .

٣ - « حدثنى محمد بن الحسين قال ، حدثنا أحمد بن المفضل ، قال حدثنا أسباط ، عن السدى : أن عادا قوم كانوا باليمن ، بالأحقاف (١٤٨٠٢) » .

---

(١) ٤١ - ٤٢ .
(٢) ١٧ - ٢١

٤ — « حدثنا ابن حميد قال ، حدثنا سلمة قال ، حدثنا ابن إسحاق ، عن محمد بن عبد الله بن أبى سعيد الخزاعى ، عن أبى الطفيل عامر بن وائلة قال : سمعت عليا (ابن أبى طالب) يقول لرجل من حضر موت . هل رأيت كثيبا أحمراً تخالطه مدرة حمراء . ذا أراك وسدر كثير بناحية كذا وكذا من أرض حضرموت ، هل رأيته ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ! والله إنك لتنعته نعت رجل قد رآه! قال : لا ، ولكنى قد حدثت عنه ، فقال الحضرمى : وما شأنه يا أمير المؤمنين؟ قال : فيه قبر هود صلوات الله عليه[1] (١٤٨٠٣) .

٥ — (١٤٨٠٤) — حدثنا ابن حميد قال ، حدثنا سلمة ، عن ابن إسحاق قال كانت منازل عاد وجماعتهم ، حين بعث الله فيهم هودا ، **الأحقاف** . قال : والأحقاف الرمل ، فيما بين عمان إلى حضر موت ، فاليمن كله وكانوا مع ذلك قد **فشوا فى الأرض كلها ، وقهروا أهلها بفضل قوتهم التى أتاهم الله** ، وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله : صنم يقال له « صداء » وصنم يقال له « صمود » ، وصنم يقال له « الهباء » . فبعث الله إليهم هودا ، وهو من أوسطهم . نسبا ، وأفضلهم موضعا ، فأمرهم أن يوحدوا الإله ولا يجعلوا معه إلها غيره ، وأن يكفوا عن ظلم الناس . لم يأمرهم فيما يذكر ، والله أعلم ، بغير ذلك ، فأبوا : ﴿ وقالوا من أشد منا قوة ﴾ ! .. واتبعه منهم ناس ، وهم يسير مكتتمون وكان ممن آمن به وصدقه رجل من عاد يقال له « مرثد بن سعد بن عفير » وكان يكتم إيمانه ، فلما عتوا على الله تبارك وتعالى وكذبوا نبيهم ، وأكثروا فى الأرض الفساد وتجبروا وبنوا بكل ريع آية عبثا بغير نفع ، كلمهم هود فقال : ﴿ أتبنون بكل ريع آية تعبثون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ، وإذا بطشتم بطشتم جبارين . فاتقوا الله وأطيعون ﴾ (سورة الشعراء : ١٢٨ — ١٣١) .

﴿ قالوا يا هود ما جئتنا ببينة ، وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين . إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ﴾ . ﴿ قال إنى أشهد الله

(١) أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى (٢٢٤ — ٣٧ ﻫ) جامع البيان عن تأويل آى القرآن ، مصر ١٩٥٧ ، ج ١٢ ، ص ٥٠٣ وما بعهدها .

(٢) تفسير القرآن العظيم ، ج ٢ ، ص ٢٢٤ .

واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون ﴾ .. إلى قوله : ﴿ صراط مستقيم ﴾ (سورة هود : ٥٣ - ٥٦) .

كما أورد الإمام الحافظ ابن كثير(١) :

رواية عن الطبرى عن محمد بن إسحاق ، قال فلما أبوا إلا الكفر بالله أمسك الله عنهم القطر ثلاث سنين فيما يزعمون حتى جهدهم ذلك ، قال وكان الناس إذا جهدهم أمر فى ذلك الزمان وطلبوا من الله الفرج فيه إنما يطلبونه بحرمة ومكان بيته وكان معروفا عند أهل ذلك الزمان وبه العماليق مقيمون وهم من سلالة عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح وكان سيدهم إذ ذاك رجلا يقال له معاوية بن بكر وكانت له أم من قوم عاد واسمها جلهذة ابنة الخبيرى قال فبعثت عاد وفدا قريبا من سبعين رجلا إلى الحرم ليستسقوا لهم عند الحرم فمروا بمعاوية بن بكر بظاهر مكة فنزلوا عليه فأقاموا عنده شهرا يشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان « قينتان لمعاوية » وكانوا قد وصلوا إليه فى شهر فلما طال مقامهم عنده وأخذته شفقة على قومه واستحيا منهم أن يأمرهم بالانصراف عمل شعرا يعرض لهم بالانصراف وأمر القينتين أن تغنياهم به فقال :

ألا يا قيل ويحك قم فهينم
لعل الله يسقينا غماما
فيسقى أرض عاد إن عادا
قد أمسوا لا يبينون الكلاما
من العطش الشديد ليس نرجو
به الشيخ الكبير ولا الغلاما
وقد كانت نساؤهم بخير
فقد أمست نساؤهم أيامى
وإن الوحش تأتيهم جهارا
ولا تخشى لعادى سهاما

---

(١) البداية والنهاية ، ج ١ ، ص ١٢٦ - ١٢٩ .

وأنتم ها هنا فيما اشتهيتم
نهاركم وليلكم تماما
فَقُبِّحَ وفدكم من وفد قوم
ولا لقوا التحية والسلاما

قال فعند ذلك تنبه القوم لما جاءوا له فنهضوا إلى الحرم ودعوا لقومهم فدعا داعيهم وهو قيل بن عنز فأنشأه الله سحابات ثلاثا بيضاء وسوداء وحمراء ثم ناداه مناد من السماء اختر لنفسك أو لقومك من هذا السحاب . فقال : اخترت هذه السحابة السوداء فإنها أكثر السحاب ماء فناداه مناد اخترت رمادا رمددا ، لا تبقى من عاد أحدا لا والد تترك ولا ولدا ، إلا جعلته همدا ، إلا بنى اللودية الهمدا ، قال وهو بطن من عاد يقيمون بمكة فلم يصبهم ما أصاب قومهم قال وهم من بقى من أنسالهم وذراريهم عاد الآخرة قال وساق الله السحابة السوداء فيما يذكرون التى اختارها قيل بن عنز بما فيها من النقمة إلى عاد حتى تخرج عليهم من واد يقال له المغيث فلما رأوها استبشروا وقالوا هذا عارض ممطرنا يقول ﴿ بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم . تدمر كل شيء ﴾ أى تهلك كل شيء مرت به فكان أول من أبصر ما فيها وعرف أنها ريح فيما يذكرون امرأة من عاد يقال لها هداد ، فلما تبينت ما فيها صاحت ثم صعقت فلما أفاقت قالوا ما رأيت يا هداد ؟ قالت : ريحا فيها شبه النار أمامها رجال يقودونها فسخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما كما قال الله تعالى والحسوم الدائمة فلم تدع من عاد أحدا إلا هلك ، واعتزل هود عليه السلام فيما ذكر لى ومن معه من المؤمنين فى حظيرة ما يصيبه ومن معه إلا ما تلين عليه الجلود وتلذ الأنفس وإنها لتمر على عاد بالطعن ما بين السماء والأرض وتدمغهم بالحجارة وذكر تمام القصة بطولها **وهو سياق غريب** فيه فوائد كثيرة وقد قال الله تعالى ﴿ ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ ﴾ .

وقد ورد فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد فى مسنده قريب مما أورده محمد بن إسحاق بن يسار رحمه الله ، وقال الإمام أحمد حدثنا زيد بن الحباب حدثنى أبو المنذر سلام بن سليمان النحوى حدثنا عاصم بن أبى النجود عن أبى

وائل عن الحارث البكرى قال خرجت أشكو العلاء بن الحضرمى إلى رسول الله ﷺ فمررت بالربذة فإذا بعجوز من بنى تميم منقطع بها فقالت لى يا عبد الله إن لى إلى رسول الله ﷺ حاجة هل أنت مبلغى إليه قال فحملتها فأتيت المدينة فإذا المجلس غاص بأهله وإذا راية سوداء تخفق وإذا بلال متقلد سيفا بين يدى رسول الله ﷺ فقلت ما شأن الناس ؟ قالوا : يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجها قال : فجلست فدخل منزله أو قال رحله فاستأذنت عليه فأذن لى فدخلت وسلمت فقال هل بينكم وبين تميم شىء قلت : نعم وكانت لنا الدائرة عليهم .

ومررت بعجوز من بنى تميم منقطع بها فسألتنى أن أحملها إليك وها هى بالباب فأذن لها فدخلت فقلت : يا رسول الله إن رأيت أن تجعل بيننا وبين تميم حاجزا فاجعل الدهناء فإنها كانت لنا . قال : فحميت العجوز واستوفزت وقالت : يا رسول الله فإلى أين يضطر مضطرك . قال قلت : إن مثلى مثل ما قال الأول : معزى حملت حتفها ، حملت هذه الأمة ولا أشعر أنها كانت لى خصما أعوذ بالله وبرسوله أن أكون كوافد عاد قال لى هبه « **وما وافد عاد ؟** » **هيه أعلم بالحديث منه ولكن يستعلمه قلت** : إن عاد قحطوا فبعثوا وفدا لهم يقال له قيل فمر بمعاوية بن بكر فأقام عنده شهرا يسقيه الخمر وتغنيه جاريتان يقال لهما الجرادتان فلما مضى الشهر خرج إلى جبال تهامة فقال اللهم إنك تعلم أنى لم أجىء إلى مريض فأداويه ، ولا إلى أسير فأفاديه . اللهم اسق عادا ما كانت تسقيه ، فمرت به سحابات سود فنودى منها اختر فأومأ إلى سحابة منها سوداء فنودى منها خذها رمادا رمددا ، لا تبقى من عاد أحدا قال : فما بلغنى أنه بعث الله عليهم من الريح إلا كقدر ما يجرى فى خاتمى هذا من الريح حتى هلكوا قال أبو وائل وصدق قال : وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وفدا لهم قالوا لا تكن كوافد عاد(١) .

قال ابن أبى حاتم ، حدثنا أبى حدثنا محمد بن يحيى بن الضريس حدثنا ابن فضل عن مسلم عن مجاهد عن ابن عمر قال ، قال رسول الله ﷺ : « ما فتح

(١) هكذا رواه أحمد فى السند . ورواه الترمذى عن عبد بن حميد عن زيد بن الحباب به نحوه ، ورواه النسائى من حديث سلام بن أبى المنذر عن عاصمة بن بهدلة ومن طريقه رواه ابن ماجه (البداية والنهاية ، ج ١ ، ص ١٢٧ - ١٢٨) .

الله على عاد من الريح التى أهلكوا بها إلا مثل موضع الخاتم فمرت بأهل البادية فحملتهم ومواشيهم وأموالهم بين السماء والأرض فلمّا رأى ذلك أهل الحاضرة من عاد الريح وما فيها ﴿ قالوا هذا عارض ممطرنا ﴾ فألقت أهل البادية ومواشيهم على أهل الحاضرة »[1] .

روى مسلم فى صحيحه ، حدثنا أبو الطاهر بن وهب سمعت ابن جريج يحدثنا عن عطاء بن أبى رباح عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح قال : « اللهم إنى أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرها وشر ما أرسلت به » قالت : وإذا عبَّبت السماء تغير لونه وخرج ودخل وأقبل وأدبر فإذا أمطرت سرى عنه فعرفت ذلك عائشة فسألته فقال : « لعله يا عائشة كما قال قوم عاد ﴿ فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا ﴾ » . روه الترمذى والنسائى وابن ماجة من حديث جريج[1] .

---

(١) البداية ، والنهاية ، ج ١ ، ص ١٢٩ - ١٣٠ .

سيرة صالح عليه السلام

من القرآن الكريم :

سورة الأعراف[1] :

﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحا ، قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره . قد جاءتكم بينة من ربكم ، هذه ناقة الله لكم آية ، فذروها تأكل فى أرض الله ، ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم . واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد ، وبوأكم فى الأرض ، تتخذون من سهولها قصورا ، وتنحتون الجبال بيوتا ، فاذكروا آلاء الله ، ولا تعثوا فى الأرض مفسدين . قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا – لمن آمن منهم – : أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه ؟ قالوا : إنا بما أرسل به مؤمنون ، قال الذين استكبروا : إنا بالذى آمنتم به كافرون . فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم ، وقالوا : يا صالح إئتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين . فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين . فتولى عنهم وقال : يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ، ونصحت لكم ، ولكن لا تحبون الناصحين ﴾ .

هـود[1] :

﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربى قريب مجيب . قالوا : يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب . قال : يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى

---

(١) ٧٣ – ٧٩ .

وآتانى منه رحمة فمن ينصرنى من الله إن عصيته فما تزيدوننى غير تخسير . ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب . فعقروها فقال : تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب . فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزى يومئذ إن ربك هو القوى العزيز . وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين . كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمودا كفروا ربهم ألا بعدا لثمود ﴾ .

الحجـــر(١) :

﴿ ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين . وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين . وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين . فأخذتهم الصيحة مصبحين . فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾ .

الشعـــراء(٢) :

﴿ كذبت ثمود المرسلين . إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون . إنى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين . أتتركون فى ما هاهنا آمنين . فى جنات وعيون . وزروع ونخل طلعها هضيم . وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين . فاتقوا الله وأطيعون . ولا تطيعوا أمر المسرفين . الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون . قالوا : إنما أنت من المسحرين . ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين . قال : هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم . ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم . فعقروها فأصبحوا نادمين . فأخذهم العذاب إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ .

النمـــل(٣) :

﴿ ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان

---

(١) ٨٠ – ٨٤ .
(٢) ١٤١ – ١٥٩ .
(٣) ٤٥ – ٥٣ .

يختصمون . قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون . قالوا اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون . وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يصلحون . قالوا : تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون . ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون . فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين . فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون . وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ .

فصلت(١) :

﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون . وأنجيناالذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ .

الذاريات(٢) :

﴿ وفى ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين . فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون . فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين ﴾ .

القمر(٣) :

﴿ كذبت ثمود بالنذر ، فقالوا أبشر منا واحدا نتبعه إنا إذا لفى ضلال وسعر ، أءلقى الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر . سيعلمون غدا من الكذاب الأشر . إنا مرسلو الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر ، ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر . فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر ، فكيف كان عذابى ونذر . إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر . ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ .

---

(١) ١٧ - ١٨ .
(٢) ٤٣ - ٤٥ .
(٣) ٢٣ - ٣٢ .

الشمس(١) :

﴿ كذبت ثمود بطغواها ، إذ انبعث أشقاها . فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ، ولا يخاف عقباها ﴾ .

الحاقة(٢) :

﴿ كذبت ثمود وعاد بالقارعة ، فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية . وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية . سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية . فهل ترى لهم من باقية ﴾ .

الفجر(٣) :

﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد وثمود الذين جابوا الصخر بالواد وفرعون ذى الأوتاد ، الذين طغوا فى البلاد . فأكثروا فيها الفساد . فصب عليهم ربك سوط عذاب . إن ربك لبالمرصاد ﴾ .

العنكبوت(٤) :

﴿ وعادا وثمودا وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين ﴾ .

ص(٥) :

﴿ جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب ، كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد، وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب ، إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب . وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من

---

(١) ١١ – ١٥ .
(٢) ٤ – ٨ .
(٣) ٦ – ١٤ .
(٤) ١١ – ١٧ .
(٥) ٣٨ .

فواق . وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب ، اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب ﴾ .

كتب التفسير والحديث :

الوثائق الدالة على أن رسالة صالح عليه السلام كانت إلى ثمود الذين كانوا يسكنون فيما بين الحجاز والشام إلى وادى القرى .

أورد محمد بن جرير الطبرى فى تفسيره الروايات التالية التى تشمل أحاديث لرسول الله ﷺ ، عن قوم ثمود :

قال علماء التفسير والنسب ثمود بن عاثر بن إرم بن سام بن نوح وهو أخو جديس بن عاثر وكذلك قبيلة طسم كل هؤلاء كانوا أحياء العرب العاربة قبل إبراهيم الخليل عليه السلام وكانت ثمود بعد عاد ومساكنهم مشهورة فيما بين الحجاز والشام إلى وادى القرى وما حوله وقد مر رسول الله ﷺ على ديارهم ومساكنهم وهو ذاهب إلى تبوك فى سنة تسع . قال الإمام أحمد حدثنا عبد الصمد حدثنا صخر بن جويرية عن نافع عن ابن عمر قال : لما نزل رسول الله ﷺ بالناس على تبوك نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود فاستقى الناس من الآبار التى كانت تشرب منها ثمودا فعجنوا منها ونصبوا لها القدور فأمرهم النبى ﷺ فأهرقوا القدور وعلفوا العجين الإبل ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التى كانت تشرب منها الناقة ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا وقال : « إنى أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم » . وقال أحمد أيضا حدثنا عفان حدثنا عبد العزيز بن مسلم حدثنا عبد الله بن دينار عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ وهو بالحجر : « لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم ، وأصل هذا الحديث مخرج فى الصحيحين من غير وجه .

وقال الإمام أحمد أيضا : حدثنا يزيد بن هارون المسعودى عن إسماعيل بن واسط عن محمد بن أبى كبشة الأنمارى عن أبيه قال لما كان فى غزوة تبوك تسارع الناس إلى أهل الحجر يدخلون عليهم فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فنادى فى الناس

« الصلاة جامعة » قال فأتيت رسول الله ﷺ وهو ممسك بعنزة وهو يقول : « ما تدخلون على قوم غضب الله عليهم » فناداه رجل منهم ، نعجب منهم يا رسول الله ؟ قال : « أفلا أنبئكم بأعجب من ذلك . رجل من أنفسكم ينبئكم بما كان قبلكم وبما هو كائن بعدكم فاستقيموا وسددوا فإن الله لا يعبأ بعذابكم شيئا وسيأتى قوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئا » لم يخرجه أحد من أصحاب السنن وأبو كبشة اسمه عمر بن سعد ويقال عامر بن سعد والله أعلم . وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن عبد الله بن عثمان بن خيثم عن أبى الزبير عن جابر قال لما مر رسول الله ﷺ بالحجر قال : « لا تسألوا الآيات فقد سألها قوم صالح فكانت – يعنى الناقة – ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج فعتوا عن أمر ربهم فعقروها وكانت تشرب ماءها يوما ويشربون لبنها يوما فعقروها فأخذتهم صيحة أخمد الله من تحت أديم السماء منهم إلا رجلا واحدا كان فى حرم الله » فقالوا من هو يا رسول الله قال : « أبو رغال فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه » وهذا الحديث ليس فى شيء من الكتب الستة وهو على شرط مسلم .

قال علماء التفسير : ولم يبق من ذرية ثمود أحد سوى صالح عليه السلام ومن تبعه رضى الله عنهم ، إلا أن رجلا يقال له أبو رغال كان لما وقعت النقمة بقومه مقيما إذ ذاك فى الحرم فلم يصبه شيء فلما خرج فى بعض الأيام إلى الحل جاءه حجر من السماء فقتله ، وقد تقدم فى أول القصة حديث جابر بن عبد الله فى ذلك وذكروا أن أبا رغال هذا هو والد ثقيف الذين كانوا يسكنون الطائف ، قال عبد الرزاق عن معمر : أخبرنى إسماعيل بن أمية أن النبى ﷺ مر بقبر أبى رغال فقال : « أتدرون من هذا ؟ » قالوا الله ورسوله أعلم ، قال : « هذا قبر أبى رغال ، رجل من ثمود كان فى حرم الله فمنعه حرم الله عذاب الله ، فلما خرج أصابه ما أصاب قومه فدفن هاهنا ودفن معه غصن من ذهب ، فنزل القوم فاتبدروه بأسيافهم فبحثوا عنه فاستخرجوا الغصن » وقال عبد الرزاق ، قال معمر ، قال الزهرى : أبو رغال أبو ثقيف هذا مرسل من هذا الوجه .

وقد علّق الإمام حافظ ابن كثير على هذا الحديث بقوله : « وقد يكون هذا السياق لإهلاك عاد الآخرة فإن فيما ذكره ابن إسحاق وغيره ذكره لمكة ولم تبن مكة إلا بعد إبراهيم الخليل حين أسكن فيها هاجر وابنه إسماعيل . فنزلت جرهم عندهم . وعاد الأولى قبل الخليل ومعه ذكر معاوية بن بكر وشعره وهو من الشعر المتأخر عن زمان عاد الأولى لا يشبه كلام المتقدمين . وفيه أن فى تلك السحاب شر ونار وعاد الأولى إنما أهلكوا بريح صرصر[(١)] .

هود وصالح يحجان البيت العتيق :

قال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا زمعة بن صالح عن سلمة بن وهرام عن عكرمة عن ابن عباس قال لم مرّ النبى ﷺ بوادى عسفان حين حج قال يا أبا بكر أى واد هذا . قال وادى عسفان قال : « لقد مرّ به هود وصالح عليهما السلام على بكرات خطمها الليف إزرهم العباء وأرديتهم النمار يلبون يحجون البيت العتيق »[(٢)] . إسناده حسن .

* * *

(١) البداية والنهاية ، ج ١ ، ص ١٢٨ .
(٢) البداية والنهاية ، ج ١ ، ص ١٣٨ .

سيرة شعيب عليه السلام

سورة الأعراف[1] :

﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبا ، قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، قد جاءتكم بينة من ربكم ، فأوفوا الكيل والميزان ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ، ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين . ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم ، وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين . وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا ، وهو خير الحاكمين ﴾ .

﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه : لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا . قال : أولو كنا كارهين ؟ قد افترينا على الله كذبا إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها – إلا أن يشاء الله ربنا ، وسع ربنا كل شيء علما – على الله توكلنا ، ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق ، وأنت خير الفاتحين . وقال الملأ الذين كفروا من قومه : لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون . فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين . الذين

---

(١) ٨٥ – ٩٣ ، مدين بفتح أوله وسكون ثانيه وفتح الياء المثناة من تحت وآخره نون . قال أبو زيد : مدين على بحر القلزم محاذية لتبوك على نحو ست مراحل وهى أكبر من تبوك وبها البئر التى استقى منها موسى عليه السلام لسائمة شعيب (معجم البلدان ، ج ٧ ، ص ٤١٧ – ٤١٨) ، انظر فى ظلال القرآن ، ج ٣ ، ص ١٣١٦ – ١٣٢٢ .

كما أورد ابن كثير فى تفسير القرآن العظيم ، ج ٢ ، ص ٢٣١ أنهم من سلالة مدين بن إبراهيم ، ومدين تطلق على القبيلة وعلى المدينة وهى التى بقرب معان من طريق الحجاز : قال تعالى : ﴿ ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ﴾ ، وهم أصحاب الأيكة ، انظر أيضا تفسير الطبرى ، ج ١٢ ، ص ٥٥٤ .

كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها ، الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين ، فتولى عنهم وقال : يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم ، فكيف آسى على كافرين ؟ ﴾ ...

هــود(١) :

﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبا قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إنى أراكم بخير وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط ، ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ، بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ ، قالوا يا شعيب أصلواتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد ، قال : يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقا حسنا وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ، ويا قوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد ، واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربى رحيم ودود ، قالوا : يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز ، قال : يا قوم أرهطى أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا إن ربى بما تعملون محيط ، ويا قوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا إنى معكم رقيب ، ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ، كأن لم يغنوا فيها ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود ﴾ .

الحــج(٢) :

﴿ وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم

---

(١) ٨٤ – ٩٥ .

(٢) ٤٢ – ٤٤ .

لوط ، وأصحاب مدين وكذب موسى فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير ﴾ .

الشعـــراء[1] :

﴿ كذب أصحاب الأيكة المرسلين ، إذ قال لهم شعيب ألا تتقون ، إنى لكم رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعون ، وما أسئلكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين ، أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين ، وزنوا بالقسطاس المستقيم ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ، واتقوا الذى خلقكم والجبلة الأولين ، قالوا إنما أنت من المسحرين ، وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين ، فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين ، قال ربى أعلم بما تعملون ، فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عضيم . إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ، وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ .

---

(١) ١٧٦ – ١٩١ .

أصحـــاب الأخـــدود

أولا : القرآن الكريم :

سورة البروج :

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ والسماء ذات البروج . واليوم الموعود وشاهدٍ ومشهود . قتل أصحاب الأخدود . النار ذات الوقود . إذ هم عليها قعود . وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود . وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد الذى له ملك السموات والأرض والله على كل شيء شهيد . إنّ الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير . إن بطش ربك لشديد . إنه هو يبدىء ويعيد وهو الغفور الودود . ذو العرش المجيد . فعالّ لما يريد . هل أتاك حديث الجنود فرعون وثمود . بل الذين كفروا فى تكذيب والله من ورائهم محيط . بل هو قرآن مجيد . فى لوح محفوظ ﴾ .

كتب التفسير :

تبدأ سورة البروج بقسم : ﴿ والسماء ذات البروج ، واليوم الموعود ، وشاهد ومشهود ، قتل أصحاب الأخدود .. ﴾ فتربط بين السماء وما فيها من بروج هائلة ، واليوم الموعود وأحداثه الضخام ، والحشود التى تشهده والأحداث المشهودة فيه .. تربط بين هذا كله وبين الحادث ونقمة السماء على أصحابه البغاة .

ثم تعرض المشهد المفجع فى لمحات خاطفة ، تودع المشاعر بشاعة الحادث بدون تفصيل ولا تطويل .. مع التلميح إلى عظمة العقيدة التى تعالت على فتنة

---

(١) فى ظلال القرآن ، المجلد ٦ ، ص ٣٨٧١ - ٣٨٧٦ .

الناس مع شدتها ، وانتصرت على النار وعلى الحياة ذاتها ، وارتفعت إلى الأوج الذى يشرف الإنسان فى أجياله جميعا . والتلميح إلى بشاعة الفعلة ، وما يمكن فيها من بغى وشر وتسفل ، إلى جانب ذلك الارتفاع والبراءة والتطهر من جانب المؤمنين : ﴿ النار ذات الوقود . إذ هم عليها قعود . وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ﴾ ..

بعد ذلك تجىء التعقيبات المتوالية القصيرة متضمنة تلك الأمور العظيمة فى شأن الدعوة والعقيدة والتصور الإيمانى الأصيل .

إشارة إلى ملك الله فى السماوات والأرض وشهادته وحضوره تعالى لكل ما يقع فى السموات والأرض : ﴿ الله الذى له ملك السموات والأرض . والله على كل شيء شهيد ﴾ ...

وإشارة إلى عذاب جهنم وعذاب الحريق الذى ينتظر الطغاة الفجرة السفلة . وإلى نعيم الجنة ... ذلك الفوز الكبير .. الذى ينتظر المؤمنين الذين اختاروا عقيدتهم على الحياة ، وارتفعوا على فتنة النار والحريق : ﴿ إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات – ثم لم يتوبوا – فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار . ذلك الفوز الكبير ﴾ .

وتلويح ببطش الله الشديد ، الذى يبدىء ويعيد : ﴿ إن بطش ربك لشديد . إنه هو يبدىء ويعيد ﴾ .. وهى حقيقة تتصل اتصالا مباشرا بالحياة التى أزهقت فى الحادث ، وتلقى وراء الحادث إشعاعات بعيدة .. .

وبعد ذلك بعض صفات الله تعالى . وكل صفة منها تعنى أمرا .. .

﴿ وهو الغفور الودود ﴾ الغفور للتائبين من الإثم مهما عظم وبشع . الودود لعباده الذين يختارونه على كل شيء . والود هنا هو البلسم المريح لمثل تلك القروح ! .

﴿ ذو العرش المجيد . فعال لما يريد ﴾ .. وهى صفات تصور الهيمنة المطلقة ، والقدرة المطلقة ، والإرادة المطلقة .. وكلها ذات اتصال بالحادث .. كما أنها تطلق وراءه إشعاعات بعيدة الآماد .

ثم إشارة سريعة إلى سوابق من أخذه للطغاة وهم مدججون بالسلاح .. ﴿ هل أتاك حديث الجنود فرعون وثمود ؟ ﴾ وهما مصرعان متنوعان فى طبيعتهما وآثارهما ووراءهما – مع حادث الأخدود – إشعاعات كثيرة .

وفى الختام يقرر شأن الذين كفروا وإحاطة الله بهم وهم لا يشعرون . ﴿ بل الذين كفروا فى تكذيب . والله من ورائهم محيط ﴾ .. .

يقرر حقيقة القرآن ، وثبات أصله وحياطته : ﴿ بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ ﴾ .. مما يوحى بأن ما يقرره هو القول الفصل والمرجع الأخير ، فى كل الأمور .

هذه لمحات مجملة عن إشعاعات السورة ومجالها الواسع البعيد . تمهد لاستعراض هذه الإشعاعات بالتفصيل : ﴿ والسماء ذات البروج ، واليوم الموعود ، وشاهد ومشهود ﴾ .. .

نبدأ السورة – قبل الإشارة إلى حادث الأخدود – بهذا القسم : بالسماء ذات البروج ، وهى إما أن تكون أجرام النجوم الهائلة وكأنها بروج السماء الضخمة أى قصورها المبنية ، كما قال : ﴿ والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون ﴾ .. وكما قال : ﴿ أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها ﴾ .. وإما أن تكون هى المنازل التى تنتقل فيها تلك الأجرام فى أثناء دورانها ، وهى مجالاتها التى لا تتعداها فى جريانها فى السماء . والإشارة إليها يوحى بالضخامة . وهو الظل المراد إلقاؤه فى هذا الجو .

﴿ واليوم الموعود ﴾ .. وهو يوم الفصل فى أحداث الدنيا ، وتصفية حساب الأرض وما كان فيها . وهو الموعود الذى وعد الله بمجيئة ، ووعد بالحساب والجزاء فيه ، وأمهل المتخاصمين والمتقاضين إليه . وهو اليوم العظيم الذى تتطلع إليه الخلائق ، وتترقبه لترى كيف تصير الأمور .

﴿ وشاهد ومشهود ﴾ .. فى ذلك اليوم الذى تعرض فيه الأعمال. وتعرض فيه الخلائق ، فتصبح كلها مشهودة ، ويصبح الجميع شاهدين .. ويعلم كل شيء . ويظهر مكشوفا لا يستره ساتر عن القلوب والعيون ...

وتلتقى السماء ذات البروج ، واليوم الموعود ، وشاهد ومشهود .. تلتقى جميعا فى إلقاء ظلال الاهتمام والاحتفال والاحتشاد والضخامة على الجو الذى يعرض فيه بعد ذلك حادث الأخدود .. كما توحى بالمجال الواسع الشامل الذى يوضع فيه هذا الحادث . وتوزن فيه حقيقته ويصفى فيه حسابه ... وهو أكبر من مجال الأرض ، وأبعد من مدى الحياة الدنيا وأجلها المحدود .. .

وبعد رسم هذا الجو ، وفتح هذا المجال ، تجيء الإشارة إلى الحادث فى لمسات قلائل :

﴿ قتل أصحاب الأخدود ، النار ذات الوقود . إذ هم عليها قعود . وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود . وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد . الذى له ملك السموات والأرض ، والله على كل شيء شهيد ﴾ .. .

وتبدأ الإشارة إلى الحادث بإعلان النقمة على أصحاب الأخدود : ﴿ قتل أصحاب الأخدود ﴾ .. وهى كلمة تدل على الغضب . غضب الله على الفعلة وفاعليها . كما تدل على شناعة الذنب الذى يثير غضب الحليم ، ونقمته ، ووعيده بالقتل لفاعليه .

ثم يجيء تفسير الأخدود : ﴿ النار ذات الوقود ﴾ والأخدود : الشق فى الأرض . وكان أصحابه قد شقوه وأوقدوا فيه النار حتى ملأوه نارا . فصارت النار بدلا فى التعبير من الأخدود للإيحاء بتلهب النار فيه كله وتوقدها .

قتل أصحاب الأخدود ، واستحقوا هذه النقمة وهذا الغضب ، فى الحالة التى كانوا عليها وهم يرتكبون ذلك الإثم ، ويزاولون تلك الجريمة : ﴿ إذ هم عليها قعود وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ﴾ .. وهو تعبير يصور موقفهم ومشهدهم ، وهم يوقدون النار ، ويلقون بالمؤمنين والمؤمنات فيها وهم قعود على النار ، قريبون من عملية التعذيب البشعة ، يشاهدون أطوار التعذيب . وفعل النا

فى الأجسام فى لذة وسعار ، كأنما يثبتون فى حسهم هذا المشهد البشع الشنيع ! .

وما كان للمؤمنين من ذنب عندهم ولا ثأر : ﴿ وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد . الذى له ملك السموات والأرض . والله على كل شيء شهيد ﴾ .. فهذه جريمتهم أنهم آمنوا بالله ، العزيز : القادر على ما يريد ، الحميد : المستحق للحمد فى كل حال ، والمحمود بذاته ولو لم يحمده الجهال ! وهو الحقيق بالإيمان وبالعبودية له ، وهو وحده الذى له ملك السموات والأرض وهو يشهد كل شيء وتتعلق به إرادته تعلق الحضور . ثم هو الشهيد على ما كان من أمر المؤمنين وأصحاب الأخدود .. وهذه لمسة تطمئن قلوب المؤمنين ، وتهدد العتاة المتجبرين . فالله كان شهيدا ، وكفى بالله شهيدا .

وتنتهى رواية الحادث فى هذه الآيات القصار ، التى تملأ القلب بشحنة من الكراهية لبشاعة الفعلة وفاعليها ، كما تستجيش فيه التأمل فيما وراء الحادث ووزنه عند الله وما استحقه من نقمته وغضبه . فهو أمر لم ينته بعد عند هذا الحد ، ووراءه فى حساب الله ماوراءه .

كذلك تنتهى رواية الحادث وقد ملأت القلب بالروعة . روعة الإيمان المستعلى على الفتنة ، والعقيدة المنتصرة على الحياة ، والانطلاق المتجرد من أوهاق الجسم وجاذبية الأرض . فقد كان فى مكنة المؤمنين أن ينجوا بحياتهم فى مقابل الهزيمة لإيمانهم . ولكن كم كانوا يخسرون هم أنفسهم فى الدنيا قبل الآخرة ؟ وكم كانت البشرية كلها تخسر ؟ كم كانوا يخسرون وهم يقتلون هذا المعنى الكبير : معنى زهادة الحياة بلا عقيدة ، وبشاعتها بلا حرية ، وانحطاطها حين يسيطر الطغاة على الأرواح بعد سيطرتهم على الأجساد ! إنه معنى كريم جدا ومعنى كبير جدا هذا الذى ربحوه وهم بعد فى الأرض . ربحوه وهم يجدون مس النار فتحترق أجسادهم . وينتصر هذا المعنى الكريم الذى تزكيه النار ؟ وبعد ذلك لهم عند ربهم حساب ، ولأعدائهم الطاغين حساب .. يعقب به السياق .. .

﴿ إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات – ثم لم يتوبوا – فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار . ذلك الفوز الكبير ﴾ .. .

إن الذى حدث فى الأرض وفى الحياة الدنيا ليس خاتمة الحادث وليس نهاية المطاف . فالبقية آتية هناك . والجزاء الذى يضع الأمر فى نصابه ، ويفصل فيما كان بين المؤمنين والطاغين آت . وهو مقرر مؤكد ، وواقع كما يقول عند الله :

﴿ إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ﴾ .. ومضوا فى ضلالتهم سادرين . لم يندموا على ما فعلوا ﴿ ثم لم يتوبوا ﴾ .. ﴿ فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق ﴾ . وينص على ﴿ الحريق ﴾ .. وهو مفهوم من عذاب جهنم . ولكنه ينطق به وينص عليه ليكون مقابلا للحريق فى الأخدود . وبنفس اللفظ الذى يدل على الحدث . ولكن أين حريق من حريق ؟ فى شدته أو فى مدته ! وحريق الدنيا بنار يوقدها الخلق . وحريق الآخرة بنار يوقدها الخالق ! وحريق الدنيا لحظات وتنتهى ، وحريق الآخرة آباد ، لا يعلمها إلا الله ! ومع حريق الدنيا رضى الله عن المؤمنين وانتصار لذلك المعنى الإنسانى الكريم . ومع حريق الآخرة غضب الله ، والارتكاس الهابط الذميم ! .

ويتمثل رضا الله وإنعامه . على الذين آمنوا وعملوا الصالحات فى الجنة : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ﴾ .. وهذه هى النجاة الحقيقية : ﴿ ذلك الفوز الكبير ﴾ .. والفوز : النجاة والنجاح . والنجاة من عذاب الآخرة فوز . فكيف بالجنات تجرى من تحتها الأنهار ؟ .

بهذه الخاتمة يستقر الأمر فى نصابه . وهى الخاتمة الحقيقية للموقف . فلم يكن ما وقع منه فى الأرض إلا طرفا من أطرافه ، لا يتم به تمامه .. وهذه هى الحقيقة التى يهدف إليها هذا التعقيب الأول على الحادث لتستقر فى قلوب القلة المؤمنة فى مكة ، وفى قلوب كل فئة مؤمنة تتعرض للفتنة على مدار القرون .

ثم تتوالى التعقيبات ..

﴿ إن بطش ربك لشديد ﴾ .. وإظهار حقيقة البطش وشدته فى هذا الموضع هو الذى يناسب ما مر فى الحادث من مظهر البطش الصغير الهزيل الذى يحسبه أصحابه ويحسبه الناس فى الأرض كبيرا شديدا . فالبطش الشديد هو بطش

الجبار . الذى له ملك السموات والأرض . لا بطش الضعاف المهازيل الذين يتسلطون على رقعة من الأرض محدودة فى رقعة من الزمان محدودة .. .

ويظهر التعبير العلاقة بين المخاطب – وهو الرسول ﷺ – والقائل وهو الله عز وجل وهو يقول له : ﴿ إن بطش ربك .. ﴾ ربك الذى تنتسب إلى ربوبيته ، وسندك الذى تركن إلى معونته .. ولهذه النسبة قيمتها فى هذا المجال الذى يبطش فيه الفجار بالمؤمنين ! .

﴿ إنه هو يبدىء ويعيد ﴾ .. والبدء والإعادة وإن اتجه معناهما الكلى إلى النشأة الأولى والنشأة الآخرة .. إلا أنهما حدثان دائبان فى كل لحظة من ليل أو نهار . ففى كل لحظة بدءوإنشاء، وفى كل لحظة إعادة لما بلى ومات . والكون كله فى تجدد مستمر .. وفى بلى مستمر .. وفى ظل هذه الحركة الدائبة الشاملة من البدء والإعادة يبدو حادث الأخدود ونتائجه الظاهرة مسألة عابرة فى واقع الأمر وحقيقة التقدير . فهو بدء لإعادة . أو إعادة لبدء .. فى هذه الحركة الدائبة الدائرة .. .

﴿ وهو الغفور الودود ﴾ .. والمغفرة تتصل بقوله من قبل : ﴿ ثم لم يتوبوا ﴾ .. فهى من الرحمة والفضل الفائض بلا حدود ولا قيود . وهى الباب المفتوح الذى لا يغلق فى وجه عائد تائب . ولو عظم الذنب وكبرت المعصية .. أما الود .. فيتصل بموقف المؤمنين ، الذين اختاروا ربهم على كل شيء . وهو الإيناس اللطيف الحلو الكريم . حين يرفع الله عباده الذين يؤثرونه ويحبونه .. فماذا تكون الحياة التى ضحوا بها وهى ذاهبة ؟ وماذا يكون العذاب الذى احتملوه وهو موقوت ؟ ماذا يكون هذا إلى جانب قطرة من هذا الود الحلو ؟ وإلى جانب لمحة من هذا الإيناس الحبيب ؟ .

إن عبيدا من رقيق هذه الأرض . عبيد الواحد من البشر ، ليلقون بأنفسهم إلى التهلكة لكلمة تشجيع تصدر من فمه ، أو لمحة رضاء تبدو فى وجهه .. وهو عبد وهم عبيد .. فكيف بعباد الله ، الذين يؤنسهم الله بوده الكريم الجليل ، الله ﴿ ذو العرش المجيد ﴾ العالى المهيمن الماجد الكريم ؟ ألا هانت الحياة . وهان

الألم . وهان العذاب . وهان كل غال عزيز ، فى سبيل لمحة رضا يجود بها المولى الودود ذو العرش المجيد . . .

﴿ فعال لما يريد ﴾ .. هذه صفته الكثيرة التحقق ، الدائبة العمل .. فعال لما يريد .. فهو مطلق الإرادة ، يختار ما يشاء ، ويفعل ما يريده ويختاره ، دائما أبدا ، فتلك صفته سبحانه .

يريد مرة أن ينتصر المؤمنون به فى هذه الأرض لحكمة يريدها . ويريد مرة أن ينتصر الإيمان على الفتنة وتذهب الأجسام الفانية لحكمة يريدها .. يريد مرة أن يأخذ الجبارين فى الأرض . ويريد مرة أن يمهلهم لليوم الموعود .. لحكمة تتحقق هنا وتتحقق هناك ، فى قدره المرسوم .. .

فهذا طرف من فعله لما يريد . يناسب الحادث ويناسب ما سيأتى من حديث فرعون وثمود . وتبقى حقيقة الإرادة الطليقة والقدرة المطلقة وراء الأحداث ووراء الحياة والكون تفعل فعلها فى الوجود .

﴿ فعال لما يريد ﴾ .. وهاك نموذجا من فعله لما يريد :

﴿ هل أتاك حديث الجنود : فرعون وثمود ؟ ﴾ . وهى إشارة إلى قصتين طويلتين ، ارتكانا إلى المعلوم من أمرهما للمخاطبين ، بعدما ورد ذكرهما كثيرا فى القرآن الكريم – ويسميهم الجنود – إشارة إلى قوتهم واستعدادهم .. هل أتاك حديثهم ؟ وكيف فعل ربك بهم ما يريد ؟ .

وهما حديثان مختلفان فى طبيعتهما وفى نتائجهما .. فأما حديث فرعون ، فقد أهلكه الله وجنده ونجى بنى إسرائيل ، ومكن لهم فى الأض فترة ، ليحقق بهم قدرا من قدره ، وإرادة من إرادته . وأما حديث ثمود فقد أهلكهم الله عن بكرة أبيهم وأنجى صالحا والقلة معه حيث لم يكن لهم بعد ذلك ملك ولا تمكين . إنما هى مجرد النجاة من القوم الفاسقين .

وهما نموذجان لفعل الإرادة ، وتوجه المشيئة . وصورتان من صور الدعوة إلى الله واحتمالاتها المتوقعة ، إلى جانب الاحتمال الثالث الذى وقع فى حادث

الأخدود .. وكلها يعرضها القرآن للقلة المؤمنة فى مكة . ولكل جيل من أجيال المؤمنين .

وفى الختام يجيء إيقاعان قويان جازمان . فى كل منهما تقرير ، وكلمة فصل وحكم أخير :

﴿ بل الذين كفروا فى تكذيب ، والله من ورائهم محيط ﴾ .. .

فشأن الكفار وحقيقة حالهم أنهم فى تكذيب يمسون به ويصبحون . ﴿ والله من ورائهم محيط ﴾ .. وهم غافلون عما يحيط بهم من قهر الله وعلمه . فهم أضعف من الفيران المحصورة فى الطوفان العميم ! .

﴿ بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ ﴾ .. .

والمجيد الرفيع الكريم العريق .. وهل أمجد وأرفع وأعرق من قول الله العظيم ؟ وهو فى لوح محفوظ . لا ندرك نحن طبيعته ، لأنه من أمر الغيب الذى تفرد الله بعلمه . إنما ننتفع نحن بالظل الذى يلقيه التعبير ، والإيحاء الذى يتركه فى القلوب . وهو أن هذا القرآن مصون ثابت ، قوله هو المرجع الأخير ، فى كل ما يتناوله من الأمور . يذهب كل قول ، وقوله هو المرعى المحفوظ .. .

ولقد قال القرآن قوله فى حادث الأخدود ، وفى الحقيقة التى وراءه .. وهو القول الأخير .. .

ثانيا : الحديث الشريف وكتب التراث :

١ — عن صهيب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : كان ملك فيمن كان قبلكم وكان له ساحر فلما كبر قال للملك . إنى قد كبرت فابعث لى غلاما أعلمه السحر فبعث إليه غلاما يعلمه ، فكان فى طريقه إذا سلك راهب فقعد إليه وسمع إليه وسمع كلامه فأعجبه فكان إذا أتى الساحر مر بالراهب وقعد إليه فإذا أتى

---

(١) رواه مسلم ، انظر مختصر صحيح مسلم للإمام أبى الحسين مسلم بن الحجاج القشيرى النيسابورى ، للحافظ زكى الدين عبد العظيم بن عبد القوى بن سلامة المنذرى الدمشقى ، تحقيق محمد ناصر الدين الألبانى ، ط ٣ ، المكتب الإسلامى دمشق ١٣٩٧ هـ ، ص ٥٥٦ حديث ٢٠٩٣ .

الساحر ضربه فشكى ذلك إلى الراهب ، فقال إذا خشيت الساحر فقل حبسنى أهلى وإذا خشيت أهلك فقل حبسنى الساحر . فبينما هو كذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس فقال اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل ، فأخذ حجرا فقال : اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضى الناس فرماها فقتلها ، ومضى الناس فأتى الراهب فأخبره فقال له الراهب : أى بنى أنت اليوم أفضل منى قد بلغ من أمرك ما أرى وإنك ستبتلى فإن ابتليت لا تدل على . وكان الغلام يبرىء الأكمة والأبرص ويداوى الناس من سائر الأدواء فسمع جليس للملك كان قد عمى فأتاه بهدايا كثيرة فقال ما هاهنا لك أجمع إن أنت شفيتنى قال إنى لا أشفى أحدا إنما يشفى الله فإن أنت آمنت بالله دعوت الله فشفاك فآمن بالله فشفاه الله فأتى الملك فجلس إليه ، كما كان يجلس فقال له الملك : من رد عليك بصرك . قال : ربى . قال : ولك رب غيرى ؟ قال : ربى وربك الله فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام فجىء بالغلام فقال له الملك : أى بنى قد بلغ من سحرك ما تبرىء الأكمة والأبرص ، وتفعل وتفعل . فقال : إنى لا أشفى أحدا ، إنما يشفى الله عز وجل فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب فجىء بالراهب فقيل له ارجع عن دينك فأبى فدعا بالمنشار فوضع المنشار فى مقدمة رأسه فشقه حتى وقع شقاه ثم جىء بجليس الملك فقيل له ارجع عن دينك ، فأبى ، فوضع المنشار فى مفرق رأسه فشقه حتى وقع شقاه ثم جىء بالغلام فقيل له : ارجع عن دينك ، فأبى فدفعه إلى نفر من أصحابه ، فقال : اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل فإذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه — فذهبوا به فصعدوا به الجبل فقال اللهم اكفينهم بما شئت فرجف بهم الجبل ، فسقطوا وجاء يمشى إلى الملك فقال له الملك : ما فعل أصحابك فقال كفانيهم الله . فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال اذهبوا به فاحملوه فى قرقور فتوسطوا به البحر ، فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه فذهبوا به فقال : اللهم اكفينهم بما شئت فانكفأت بهم السفينة ، فغرقوا وجاء يمشى إلى الملك . فقال له الملك : ما فعل أصحابك . فقال : كفانيهم الله . فقال للملك : إنك لست بقاتلى حتى تفعل ما آمرك به قال : وما هو قال تجمع الناس فى صعيد واحد وتصلبنى على جذع ، ثم خذ سهما من كنانتى ثم ضع السهم فى

كبد القوس ثم قل : « بسم الله رب الغلام » ، ثم ارمنى فإنك إن فعلت ذلك قتلتنى . فجمع الناس فى صعيد واحد وصلبه على جذع ثم أخذ سهما من كنانته ثم وضع السهم فى كبد القوس ثم قال : « بسم الله رب الغلام » ثم رماه فوقع السهم فى صدغه فوضع يده فى صدغه فى موضع السهم فمات فقال الناس آمنا برب الغلام آمنا برب الغلام آمنا برب الغلام . فأتى الملك فقيل له أرأيت ما كنت تحذر قال : والله قد نزل بك حذرك ، قد آمن الناس فأمر بالأخدود بأفواه السكك فخُدَّت وأضْرَمَ النيران ، وقال : من لم يرجع عن دينه فاحموه فيها أو قيل له اقتحم ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبى لها فتقاعست أن تقع فيها فقال لها الغلام : « يا أماه اصبرى فإنك على الحق »[(١)] .

٢ – وقد أورد بن كثير[(٢)] روايات أخرى تشير إلى أن دين الغلام كان الإسلام . وقد أورد محمد بن إسحاق بن يسار هذه القصة فى السيرة بسياق آخر فيها مخالفة لما تقدم فقال حدثنى يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظى : وحدثنى أيضا بعض أهل نجران عن أهلها أن أهل نجران كانوا أهل شرك يعبدون الأوثان وكان فى قرية من قراها قريبا من نجران – ونجران هى القرية العظمى التى إليها يجتمع أهل تلك البلاد – ساحر يعلم غلمان أهل نجران السحر ، فلما نزل فيمون ولم يسموه لى بالاسم الذى سماه ابن منبه ، قالوا : نزلها رجل فابتنى خيمْة من بنى نجران وبنى تلك القرية التى فيها الساحر وجعل أهل نجران يرسلون غلمانهم إلى ذلك الساحر ليعلمهم السحر فبعث ابنه عبد الله بن الثامر مع غلمان أهل نجران فكان إذا مر بصاحب الخيمة أعجبه ما يرى من عبادته وصلاحه فجعل يجلس إليه ويسمع منه حتى أسلم . فوحد الله وعبده وجعل يسأله عن شرائع الإسلام حتى إذا فقه فيه ... واستجمع أهل نجران على دين عبد الله الثامر وكان على ما جاء به عيسى بن مريم عليه السلام من الإنجيل وحكمه .

وكما أورد ابن كثير رواية تشير إلى أن قاتل الموحدين هو ذو نواس .

---

(١) كذا رواه الإمام أحمد ومسلم والنسائى والترمذى .
(٢) تفسير القرآن العظيم ، ج ٤ ، ص ٤٩١ – ٤٩٧ .

وقال ابن إسحاق : فهذا حديث محمد بن كعب القرظى ، ومعه أهل نجران عن عبد الله الثامر فالله أعلم أى ذلك كان فسار إليهم ذو نواس بجنده فدعاهم إلى اليهودية وخيرهم بين ذلك أو القتل فاختاروا القتل فحفر الأخدود فحرق بالنار وقتل بالسيف ومثل بهم حتى ماتوا قريبا من عشرين ألفا ففى ذى نواس وجنده أنزل الله عز وجل على رسوله ﷺ ﴿ قتل أصحاب الأخدود ﴾(1) .

المصادر والمراجع

– القرآن الكريم وكتب التفسير ومنها :

جامع البيان عن تأويل آى القرآن ، تأليف أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى ، دار المعرفة ، بيروت ١٣٩٢ هـ .

* تفسير القرآن العظيم ، تأليف الإمام الحافظ إسماعيل بن كثير .

* فى ظلال القرآن ، تأليف سيد قطب ، دار الشروق – بيروت .

* كتب الصحاح فى حديث رسول الله ﷺ ؛ ومنها :

* صحيح أبى عبد الله البخارى ، مطبعة المشهد الحسينى ، القاهرة .

* صحيح مسلم .

– مختصر صحيح مسلم للإمام أبى الحسن مسلم بن الحجاج القشيرى النيسابورى ، للحافظ زكى الدين عبد العظيم بن عبد القوى سلامة المنذرى ، تحقيق الألبانى ، المكتب الإسلامى .

* رياض الصالحين .

* اقتضاء الصراط المستقيم . مخالفة أصحاب الجحيم ، تأليف شيخ الإسلام ابن تيميه ، مطابع المجد التجارية ، المملكة العربية السعودية .

* علوم الحديث ومصطلحاته . تأليف د . صبحى الصالح .

* البداية والنهاية ، تأليف الإمام الحافظ إسماعيل .

* فى التاريخ فكرة ومنهاج تأليف سيد قطب .

* **الاتجاهات** الوطنية فى الأدب المعاصر ، جـ ١ ، جـ ٢ ، تأليف د . محمد محمد حسين ط ٣ ، بيروت .

* **تاريخ** الرسل والملوك ، تأليف أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى ، دار المعارف ، القاهرة (يجب أن تخضع رواياته للجرح والتعديل قبل الاعتماد عليها) .

* **معجم** البلدان ، تأليف ياقوت الحموى (يجب الاستيثاق من رواياته) .

مراجع يجب أن تخضع للجرح والتعديل :

* **الموسوعة** العربية الميسرة ، قام بتأليفها مجموعة من أساتذة الجامعات ، وأشرف على إعدادها د. محمد شفيق غربال ، القاهرة ١٩٦٥ (تحوى معلومات خاطئة عن تاريخ الرسل والأنبياء) .

* **دائرة** معارف القرن العشرين ، تأليف محمد فريد وجدى ، مطبعة الشعب ، القاهرة (تورد معلومات تشكك فى القرآن الكريم وسنة النبى محمد ﷺ) .

* **دراسات** تاريخية من القرآن الكريم فى بلاد العرب ، تأليف د. محمد بيومى مهران ،الرياض (يورد معلومات خاطئة عن دين الله وعن أنبياء الله وأخبارهم اعتمادا على التوراة المزيفة)[١] .

* **دائرة** المعارف الإسلامية ، قام بتأليفها مجموعة من المستشرقين (تحوى قدحا وتشويها مباشرا وغير مباشر لدين الإسلام ورسله عليهم السلام ورجاله) .

* **موسوعة** التاريخ والحضارة الإسلامية ، تأليف د. أحمد شلبى ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٧ م .

* **سياسة** الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين ، تأليف د. حسن صبرى

---

(١) انظر التفصيل فى رسالتنا ، أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ . المنهج الإسلامى للتاريخ ، لماذا ؟ وكيف ؟ تأليف د . جمال عبد الهادى .

الخولى (وهو يعتبر إبراهيم وداود وسليمان وغيرهم عليهم السلام يهوداً ، ويزعم أن لليهود حق فى أرض فلسطين) .

● مراجع لا يجوز الاعتماد عليها لأنها تحوى معلومات خاطئة عن بعض أحداث التاريخ الإسلامى وهى تردد فى أحوال كثيرة أقوال المستشرقين المعادية للإسلام :

* **تاريخ** العرب قبل الإسلام ، تأليف د. السيد عبد العزيز سالم ، القاهرة .

* **تاريخ** العرب ، عصر ما قبل الإسلام ، تأليف محمد مبروك نافع ، القاهرة .

* **محاضرات** فى تاريخ العرب ، تأليف د. صالح أحمد العلى ، جـ ١ ، بغداد ١٩٦٠ .

● مراجع لا يجوز الاعتماد عليها نظرا لأنها تحوى معلومات خاطئة وأكاذيب لا حصر لها عن التاريخ الإسلامى، بل إنها تطعن الإسلام طعنات نجلاء:

* **الدعوة** إلى الإسلام ، تأليف توماس أرنولد ، وترجمة د. حسن إبراهيم حسن وآخرون ، القاهرة .

* **الحضارات** السامية القديمة ، تأليف س. موسكاتى ، وترجمة د. السيد يعقوب بكر ، القاهرة .

* **تاريخ** العرب المطول ، تأليف فيليب حتّى ، الجامعة الأمريكية ، بيروت .

* **تاريخ** العرب العام ، تأليف سيديو وترجمة عادل زعيتر ، القاهرة .

* **تطور** الفكر والدين تأليف جيمس هنرى برستيد وترجمة زكى سوس ، القاهرة .

---

(١) أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ ، المنهج الإسلامى لماذا ؟ وكيف ، تأليف د . جمال عبد الهادى .

* **حضارة العرب** ، تأليف جوستاف لوبون ، وترجمة عادل زعيتر ، القاهرة .

* **سليمان الحكيم** ، تأليف توفيق الحكيم (وقع الكتاب فى حرمة الاعتداء على النبوة ، ونبى الله سليمان عليه السلام ، وعلى دين الله عز وجل) .

* **قصة الحضارة** ، تأليف ول. ديورانت ، ترجمة محمد بدران ، إدارة التأليف والنشر جامعة الدول العربية ، القاهرة .

المحتويات

الموضـــوع — الصفحة

تقديم ٥

الفصل الأول

المصادر والمراجع التى يمكن الاعتماد عليها فى دراسة وكتابة أخبار القرون الأولى من حياة الجزيرة العربية

أولا : مصادر أساسيـــة ١٣

ثانيا : المصادر الثانوية ١٥

الفصل الثانى

الجزء الأول : قوم عاد وسيرة هود عليه السلام ١٧

أين كانت تسكن عاد وهود عليه السلام ؟ ومن أين أتوا ؟ وإلى من ينتسبون ؟ ٢١

سيرة هود عليه السلام ٢٥

الزمن التقريبى لقيام دولة عاد ﴿ إرم ذات العماد ﴾ فى جنوب الجزيرة العربية وعلاقتها بدولة معين ٣٢

الجزء الثانى : قوم ثمود وسيرة صالح عليه السلام ٣٧

الزمن التقريبى لرسالة صالح عليه السلام وقيام دولة ثمود (عاد الثانية) ٤٤

الجزء الثالث : قوم مدين وسيرة شعيب عليه السلام ٤٥
الجزء الرابع : الدروس المستفادة والمعالم التى ترسيها سيرة هود وصالح وشعيب عليهم السلام فى حياة الأمة المسلمة على وجه الخصوص وفى حياة البشرية على وجه العموم ٥٣
أولا : عاد قوم هود ٥٥
ثانيا : ثمود قوم صالح ٦٣
مدين قوم شعيب ٦٧

الفصل الثالث

قوم سبأ وسيرة سليمان عليه السلام ٧٩

سيرة سليمان عليه السلام ٨٨
قصة سليمان مع الهدهد وملكة سبأ ٩٩
ثانيا : الدروس المستفادة ١٠٩
الله يهب لسليمان ملكا لا ينبغى لأحد من بعده ١١٢
واجبات الراعى حيال الرعية والصفات التى يجب أن يتصف بها القائد ١١٥
سليمان عليه السلام يوظف العلم فى خدمة دين الله عز وجل ١٢١
دولة سبأ الإسلامية ١٢٥
دولة سبأ ترتد عن الإسلام ١٢٧

الفصل الرابع

أصحاب الأخدود فى القرآن الكريم وحديث النبى محمد ﷺ

تمهيد ١٣٧
الخبر الصحيح : أصحاب الأخدود مسلمون ١٤١
معالم ترسيها أخبار أصحاب الأخدود فى حياة الأمة المسلمة ١٤٥

الفصل الخامس
أصحاب الأخدود

الله سبحانه وتعالى يرد كيد أصحاب الفيل الذين حاولوا غزو مكة
لهدم بيت الله العتيق ١٥٥
دروس وعبر ١٦٠
الخاتمة ١٦٥
الوثائق من القرآن والسنة وكتب التفسير ١٩٧
سيرة هود عليه السلام ١٩٩
سيرة صالح عليه السلام ٢٠٨
سيرة شعيب عليه السلام ٢١٥
أصحاب الأخدود ٢١٨
المصادر والمراجع ٢٣١
الفهرس ٢٣٥

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٢٢ / ٨٦

الترقيم الدولى ٦ ـ ٥٢ ـ ١٤٢٠ ـ ٩٧٧

مطابع الوفاء ـ المنصورة

شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب

ت : ٣٤٢٧٢١ - ص.ب : ٢٣٠

تلكس : ٢٤٠٠٤ DWFA UN

التاريخ :

؟

، وتاريخ

.

نية - ثلاثة

رها وحتى

ة المسلمة

(١٢٩٩ـ

لسلمة :

ونون أول

المسلم).

رسول إلى

المنصورة
ص . ب ٢٣٠
س ٣٥٩٧٧٨

نحو تأصيل إسلامي للتاريخ

الأمة المسلمة

قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم

أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ

جزيرة العرب

الجزء الثاني

سيرة ابراهيم واسماعيل وهاجر عليهم السلام
وتاريخ حرم الله الآمن

الدكتور جمال عبد الهادي محمد مسعود

الدكتورة وفاء محمد رفعت جمعة

الوفاء للطباعة والنشر

جزيرة العرب

الجزء الثاني

الطبعة الثالثة

١٤١٤هـ - ١٩٩٤م

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - المنصورة ش.م.م

الإدارة والمطابع : المنصورة ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب

ت ٣٤٢٧٧٢ / ٣٥٦٢٢٠ / ٣٥٦٢٣٠

المكتبة : أمام كلية الطب ت ٣٤٧٤٢٣ ص ب ٢٣٠ تلكس DWFA UN 24004

نحو تأصيل إسلامي للتاريخ

الأمة المسلمة

قبل بعثة محمد ﷺ

أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ

جزيرة العرب

الجزء الثاني

سيرة

ابراهيم واسمعيل وهاجر

عليهم السلام

و

تاريخ حرم الله الآمن

الدكتور جمال عبد الهادي محمد مسعود

الأستاذ المساعد بقسم التاريخ الإسلامي

كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

جامعة أم القرى (سابقا)

الدكتورة وفاء محمد رفعت جمعة

الأستاذة المساعدة بقسم التاريخ الإسلامي

، طالبات ، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

جامعة أم القرى (سابقا)

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - المنصورة . ش.م.م

بسم الله الرحمن الرحيم

أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم

﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين . إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين . ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون . أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحداً ونحن له مسلمون تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسئلون عما كانوا يعملون . وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين . قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾[١] .

---

(١) البقرة : ١٣٠ ــ ١٣٦ .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد النبى الأمين وعلى آله وصحبه والتابعين ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له القائل ﴿ إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا أولئك ما يأكلون فى بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم . أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار . ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق وإن الذين اختلفوا فى الكتاب لفى شقاق بعيد ﴾(١) .

ونشهد أن محمداً عبده ورسوله ، بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة . اللهم صلِّ وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

ما هى حقيقة الصراع الذى يجرى اليوم على امتداد الساحة الدولية ؟

أهو صراع من أجل المادة ؟ أم أنه صراع عقدى بالدرجة الأولى ؟

إذا كان هو صراع عقدى بالدرجة الأولى ، فمن هم أطرافه ؟

ولكن .. لماذا هو صراع عقدى ، بين أتباع الإسلام فى جانب ، وبين أنصار اليهودية والصليبية الذين يزعمون أن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا ونصارى ؟؟ ولماذا لا يكون هناك تقارب بين الأديان : اليهودية والمسيحية والإسلام ؟ ..

---

(١) البقرة : ١٧٤ - ١٧٦ .

أسئلة كثيرة ، وغيرها كثير ، يدور فى ذهن الدارس المسلم ، ولا يكاد يجد لها إجابات صحيحة ، فى كتابات اليهود والنصارى قديما ، وكتابات المستشرقين اليهود والنصارى ومن سار على نهجهم من أبناء العرب والمسلمين حديثا .

ولقد ترتب على ذلك :

أن غالب الأمة المسلمة قد عُمِّى عليه حقيقة الصراع الذى يستهدف الإسلام والمسلمين بالدرجة الأولى ، لتظل الأمة المسلمة فى غفلة ، ولتظل مفككة الأوصال ، ولتظل ضعيفة ، ولتجرد – وهذا هو الأهم – من السلاح الوحيد الذى يمكن أن يهيىء لها النصر فى ميدان المعركة ، مع تخلفها الفكرى والعلمى والتقنى الذى فرض عليها ، وليسهل فى النهاية الإجهاز عليها .

لقد صوروا الصراع ، للأمة المسلمة على أنه صراع على الأرض ، على موارد الثروات ، على الكرامة ، على المبادىء : « الماركسية والشيوعية والديمقراطية ، والتقدمية والقومية والوطنية .. الخ » .

وإذا فرض وارتفع صوت ليقول : يا بنى الإسلام إنه صراع عقدى ، بين أصحاب الدين الصحيح فى جانب ، وأصحاب الديانات غير الصحيحة فى جانب آخر ، أسرعوا بإخفات صوته ..

وإذا ارتفع صوت ليقول : يا قوم ، إنه صراع بين المسلمين الذين جعل الله رزقهم تحت ظل رماحهم ، وغيرهم من الملل الكافرة ، سارعوا إلى رميه بالتخلف والرجعية .

إذن فما هو وجه الحقيقة فى التساؤلات المطروحة ؟؟ ..

إن هذه التساؤلات هى موضوع دراستنا فى كتابنا هذا ، والذى يليه(١)

---

(١) انظر المؤلف أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ ، ذرية إبراهيم عليه السلام .

وسنصل فى نهايتها بإذن الله إلى بيان العديد من الحقائق ومنها :

أولا : إن الصراع الذى يجرى اليوم وغدا ، وكما كان فى الماضى ، هو صراع عقدى بالدرجة الأولى ، يستهدف الأمة المسلمة ودينها أولا ، ثم ثرواتها وخيراتها ثانيا ، ومن أجل هذا شُوِّه وزُيِّفَ وحُرِّفَ التاريخ الإسلامى .

إنه صراع بين الحق وجنده ، ممثلا فى الإسلام وأهله ، وبين الباطل وعسكره ، ممثلا فى اليهودية والصليبية وأعوانهما من الملحدين والشيوعيين .

إنها معركة العقيدة ، هذه هى المعركة التى يشنها اليهود والنصارى فى كل أرض وفى كل وقت ضد الجماعة المسلمة .

إنها معركة العقيدة هى المشبوبة بين المعسكر الإسلامى وهذين المعسكرين اللذين قد يتخاصمان فيما بينهما ، وقد تتخاصم شيع الملة الواحدة فيما بينها ، ولكنها تلتقى دائما فى المعركة ضد الإسلام والمسلمين .

إنها معركة العقيدة فى صميمها وحقيقتها ، ولكن المعسكرين العريقين فى العداوة للإسلام والمسلمين يلونانها بألوان شتى ، ويرفعان عليها أعلاما شتى فى خبث ومكر وتورية . إنهم قد جَرَّبُوا حماسة المسلمين لدينهم وعقيدتهم حين واجهوهم تحت راية العقيدة ، ومن ثم استدار الأعداء فغيروا أعلام المعركة ، لم يعلنوها حربا باسم العقيدة – على حقيقتها – خوفا من حماسة العقيدة وجيشانها ، إنما أعلنوها باسم الأرض ، الاقتصاد والسياسة والمراكز العسكرية وما إليها ، وألقوا فى روع المخدوعين الغافلين منا أن حكاية العقيدة قد صارت حكاية قديمة لا معنى لها . ولا يجوز رفع رايتها ، وخوض المعركة باسمها ، فهذه سمة المتخلفين المتعصبين ؛ بينما هم فى قرارة نفوسهم : الصهيونية العالمية والصليبية العالمية – بالإضافة إلى الشيوعية العالمية – جميعا يخوضون – المعركة أولا وقبل كل شيء لتحطيم هذه الصخرة العاتية التى نطحوها طويلا فأدمتهم جميعا .

ما تزال الأمة المسلمة تعانى من دسائس اليهود.ومكرهم ما عاناه أسلافها من هذا المكر ومن تلك الدسائس ، غير أن الأمة المسلمة لا تنتفع مع الأسف –

بتلك التوجيهات القرآنية ، وبهذا الهدى الإلهى ، الذى انتفع به أسلافها [1] فغلبوا كيد اليهود ومكرهم فى المدينة ، والدين ناشىء والجماعة المسلمة وليدة ... وما يزال اليهود - بلؤمهم ومكرهم - يضللون هذه الأمة عن دينها ، ويصرفونها عن قرآنها ، كى لا تأخذ منه أسلحتها الماضية وعدتها الواقية ، وهم آمنون ما انصرفت هذه الأمة عن موارد قوتها الحقيقية وينابيع معرفتها الصافية ... وكل من يصرف هذه الأمة عن دينها وعن قرآنها فإنما هو من عملاء يهود . سواء عرف أم لم يعرف ، أراد أو لم يرد ؛ فسيظل اليهود فى مأمن من هذه الأمة ما دامت مصروفة عن الحقيقة الواحدة المفردة التى تستمد منها وجودها وقوتها وغلبتها - حقيقة العقيدة الإيمانية والمنهج الإيمانى والشريعة الإيمانية - فهذا هو الطريق ، وهذه هى معالم الطريق [1] .

ولكن ما صلة هذا الموضوع ، موضوع الصراع الذى يجرى الآن على امتداد الساحة الدولية ، بسيرة إبراهيم عليه السلام وذريته ؟ وتاريخ الحرم الآمن وبيت الله العتيق ؟؟

الواقع أن صلة سيرة إبراهيم عليه السلام وذريته ، وتاريخ البيت العتيق وحرم الله الآمن ، بالصراع الذى يجرى على امتداد الساحة الدولية اليوم ، صلة وثيقة ، لأن تاريخ إبراهيم عليه السلام وذريته وتاريخ البيت العتيق وحرم الله الآمن ، والدين الذى دعا إليه إبراهيم عليه السلام قد حرف وزيف وشوه لصبغ هذه الهجمة التى يشنها اليهود والنصارى ضد الأمة المسلمة بالصبغة الدينية الشرعية ، فاليهود فى هجمتهم على أرض الشام واغتصابهم لأرض فلسطين لإقامة وطن يهودى عليها (مثلا) ، تمهيدا لدولة يهودية عالمية تسيطر - لا أقول على العالم الإسلامى فحسب - ولكن على العالم أجمع ، يدَّعون أنهم يفعلون ذلك لأنهم شعب الله المختار ، ولأن الله سبحانه وتعالى قد وعد جدهم إبراهيم عليه السلام بأرض فلسطين له ولذريته اليهود - كما يزعمون - من بعده ، وأنهم - أى اليهود - إنَّما ينتسبون - ليس إلى إبراهيم فحسب ولكن أيضا إلى يعقوب (إسرائيل) وموسى وداود وسليمان عليهم السلام - على اعتبار - فى زعمهم -

---

(١) فى ظلال القرآن ، المجلد الأول ، ص ١٠٨ .

أن هؤلاء أنبياء يهود .

وأعداء الإسلام – من اليهود والصليبيين – يدركون أن السد المنيع الذى يقف بينهم وبين تحقيق أطماعهم هو المسلمون – ومن هنا – جاء مخططهم لهدم الدين الإسلامى كنظام ربانى صالح لكل زمان ومكان ، ولتحقيق هذا المخطط شوه وزيف وحرف التاريخ الإسلامى .

ومن هنا يتضح لنا أنه لابد من إعادة عرض التاريخ الإسلامى ومنه تاريخ إبراهيم وذريته ، وتاريخ الحرم الآمن وبيت الله العتيق ، وتنقيته مما علق به من شوائب على يد المستشرقين مع بيان التزييف والتشويه والتحريف الذى تعرض له ذلك التاريخ وبإتمام ذلك ، وكتابة التاريخ الإسلامى الصحيح ينهار الأساس الحضارى الذى تستند عليه الهجمة اليهودية – الصليبية التى تستهدف الأمة المسلمة ودينها ، كما تتضح حقيقة الصراع الذى يجرى على امتداد الساحة الدولية فتدرك الأمة المسلمة أنها مستهدفة فى دينها وعقيدتها .

ثانيا : إن الدين الذى دعا إليه جميع الأنبياء والرسل هو الإسلام[(١)] ، وهو الدين الذى لا يقبل الله من الأولين والآخرين غيره : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾[(٢)]

ثالثاً : لم يدع نبى ولا رسول إلى يهودية أو مسيحية فليست هناك يهودية صحيحة وأخرى غير صحيحة ، ليست هناك مسيحية صحيحة ومسيحية غير صحيحة ، إنما اليهودية والمسيحية « بدعة وليست من الله تعالى »[(٣)] .

رابعا : إن إبراهيم وإسحاق ويعقوب والأسباط وموسى وداود وسليمان وعيسى عليهم السلام لم يكونوا هودا أو نصارى ، لم يدع أى منهم إلى يهودية أو نصرانية ، ولكنهم دعوا جميعا إلى الإسلام ، وإن كان : ﴿ ولكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ﴾[(٤)] . وبالتالى فلا يمكن أن يكون هنالك تقارب بين الإسلام

---

(١) انظر المؤلف أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ ، الرسالة الأولى ، دار الوفاء للطباعة والنشر .
(٢) آل عمران : ٨٥ . (٣) الجامع لأحكام القرآن ، جـ ٢ ، ص ١٣٢ . (٤) المائدة : ٤٨ .

واليهودية والنصرانية ؛ لا يمكن أن يكون هناك تقارب بين الحق والباطل .. لأن الإسلام يعتبر اليهود والنصارى كفارا ملزمين باعتناقه : ﴿ قل : يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، ألا نعبد إلا الله ﴾[٤] ، والتقارب بين الأديان دعوة يهودية ... ليست هنالك أديان سماوية ، وإنما هو دين واحد دعا إليه جميع الأنبياء والرسل ، وهو الإسلام المقهور عليه جميع الكون بما فيه من مخلوقات ، عدا الإنسان الذى ترك له دائرة الاختيار : أن يستسلم لله رب العالمين أو يمرق عن دين الله ، الذى أسلم له من فى السموات والأرض طوعا وكرها ..

وللحديث بقية .. وما توفيقنا إلا بالله .

---

(٤) آل عمران : ٦٤ .

المقدمة

نماذج للتشويه والتزييف الذى تعرض له تاريخ :

(أ) إبراهيم عليه السلام وذريته .

(ب) البيت العتيق .

(جـ) حرم الله الآمـــن .

(د) مكـــة المكرمـــة .

(هـ) مناســـك الحـــج .

على أيدى المستشرقين ومن سار على نهجهم .

المقدمة

نماذج لتشويه وتزييف تاريخ إبراهيم وذريته :

لم يتعرض تاريخ للتشويه والتزييف والتحريف مثل ما تعرض له تاريخ الأمة المسلمة ، ولم يتعرض تاريخ دين للتشويه والتزييف والتحريف مثل ما تعرض له تاريخ الدين الإسلامي كعقيدة وشريعة وكنظام للحياة صالح لكل زمان ومكان ، ولم يتعرض تاريخ إنسان للتشويه والتزييف والتحريف بعد محمد ﷺ ــ مثل ما تعرض له تاريخ إبراهيم وإسماعيل وهاجر عليهم السلام ، ولم يتعرض تاريخ بلد من البلاد للتحريف والتشويه والتزييف مثل ما تعرض له تاريخ الحرم الآمن وتاريخ مكة المكرمة وتاريخ البيت العتيق ، على أيدى المستشرقين اليهود والنصارى والملحدين يعاونهم جيش كبير من أبناء العرب والمسلمين .

لقد ترتب على ذلك أن أصبح التاريخ الذى يدرس فى دور العلم على مستوى العالم أجمع – إلا ما رحم ربى – يكتظ فى مصادره ومراجعه ومناهجه وموضوعاته بأباطيل وترهات لا حد لها . ومن هذه الأباطيل :

أولا : لا وجود للتاريخ الإسلامى ، تاريخ الدين الإسلامى ، وتاريخ الأمة الإسلامية الواقع التطبيقى لهذا الدين قبل بعثة محمد ﷺ (١) . فسيرة إبراهيم وإسماعيل وإمامة البيت العتيق موضعها مادة ما تسمى عرب قبل الإسلام أو « عرب الجاهلية » .

ثانيا : إن إبراهيم كان يهودياً(٢) ، وزعم البعض الآخر إنه كان نصرانيا .

ثالثا : إن إبراهيم هو آخر ملك من الملوك الساميين الموحدين الذين

---

(١) حضارة العرب ؛ تاريخ العرب العام ؛ العرب قبل الإسلام ، المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ، جـ ١ ، ص ١٤٦ ؛ الحضارات السامية القديمة ، ص ١٣٩ ، قصة الحضارة ، جـ ٢ ، م ١ ، ص ٣٢٤ ، الموسوعة العربية ، ص ٣ .

حكموا فى بابل وإنه قد رحل إلى فلسطين بعد سقوط حكم أسرته"(١) وذلك يعنى فى زعم مروجى الأباطيل أن إبراهيم لم يكن نبيا ولا رسولا إلى قومه المشركين ولا أن الله قد أنجاه من محاولة حرقه بالنار إلى الأرض التى بارك الله فيها للعالمين .

رابعا : إن وصول إبراهيم وإسماعيل وهاجر إلى جوار بيت الله الحرام كان مصادفة ولم يكن بتوجيه من الله سبحانه وتعالى ، بل إن بعض الدراسات الاستشراقية تنكر القصة برمتها وتعتبرها من صنع الخيال .

خامسا : التشكيك فى كون المأمور إبراهيم بذبحه ، ابنه إسماعيل (عليهما السلام) والزعم أن سياق القصة يرجح أن الذبح والفداء كانا فى فلسطين (٢) .

سادسا : إن تاريخ مكة وبناء الكعبة المشرفة ، تاريخ أسطورى (٣) أى خرافى لا أصل له .

سابعا : إن الحج عادة عربية وثنية قديمة (٤) ، ولعلها من مظاهر عبادة الشمس .

ثامنا : إن تحديد الأشهر الحرم حدث نتيجة اتفاق عرب الجاهلية فيما بينهم عليها ، وليست توقيفا من عند الله عز وجل ونسوا قوله تعالى : ﴿ إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرضَ منها أربعة حرم ﴾ (٥) وإن هذا

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ، جـ ٢ ، ص ١٧٥ ، تاريخ العرب ، عصر ما قبل الإسلام ، ص ١٢٣ ، وهو يعتمد على كتاب فيلبى ، عصر ما قبل الإسلام .

(٢) تاريخ العرب ، عصر ما قبل الإسلام ، ص ١٢٨ . مثال ذلك ما كتبه الكاتب الإنجليزى موير .

(٣) تاريخ العرب ، عصر ما قبل الإسلام ، ص ١٢٣ ، ١٢٩ ؛ الاتجاهات الوطنية ، جـ ٢ ، ص ٢٩٨ - ٢٩٩ .

(٤) الدعوة إلى الإسلام ، ص ٤٧ ؛ تاريخ العرب المطول ، ص ١٨٥ .

(٥) التوبة : ٣٦ .

التحديد العربى يشبه الهدنة الربانية التى كانت معروفة فى أوربا فى العصور الوسطى ، ويقصد الكاتب بذلك أن المسلمين قد حرموا الأشهر الحرم لتحريم النصارى لها* .

تاسعا : إن أخبار إبراهيم وإسماعيل وهاجر عليهم السلام مبنية على ما ورد فى التوراة ، وليس هناك مصادر تصدقها أو تكذبها (١) (أى أن الأخبار التى أوردها القرآن والسنة ليست معتمدة لدى الكاتب) .

عاشرا : إن إبراهيم عليه السلام أخذ فكرة التوحيد – فى زعمهم – عن إخناتون (٢) (أول نبى من أنبياء الوحدانية) .

حادى عشر : إن إبراهيم عليه السلام هو أصل اليهود وأنه قد ارتاب فى وعد الله له بأرض فلسطين .

ثانى عشر : إن إسماعيل عليه السلام وأمه قد أخرجا إلى برية بئر سبع (وليس إلى مكة المكرمة) (٣) .

ثالث عشر : إن هاجر قد اكتشفت بئر زمزم (أى أنه كان موجودا قبل وصولها) وفى هذا تشكيك فى معجزة تفجره نتيجة همزة من جناح أحد الملائكة (جبريل عليه السلام) تحت قدمى إسماعيل بناء على تكليف من الله عز وجل (٤) .

رابع عشر : إن المسلمين يقدسون زمزم (٥) ، جريا على عادة الجاهلية ، وأن ماء زمزم يميل إلى الملوحة ويؤذى الذين يشربون (٦) منه بكثرة .

---

* تاريخ العرب ، عصر ما قبل الإسلام ، ص ١٦٨ .

(١) جورجى زيدان ، العرب قبل الإسلام ، ص ٧٢ – ٧٦ .
(٢) عبد الحميد زايد ، الشرق الخالد ، ب ، ٤١٠ .
(٣) جورجى زيدان ، العرب قبل الإسلام ، ص ٧٢ ، عصر ما قبل الإسلام ، ص ٤٤ .
(٤) دائرة معارف القرن العشرين ، المجلد ٩ ، الطبعة ٣ ، ص ٣٥٤ .
(٥) تاريخ العرب المطول ، ص ١٣٤ ، الشرق الخالد ، ص ٢٩٨ .
(٦) تاريخ العرب ، عصر ما قبل الإسلام ، ص ٢٠ ، دائرة معارف القرن العشرين ، المجلد الرابع ، ص ٩٥٤ .

خامس عشر : إن الحجر الأسود يكون شاهدا يوم القيامة لمن يسجدون أمامه [1] ، ولعله صاعقة من السماء [2] ، وأن المسلمين يعبدون الحجر الأسود [3] .

سادس عشر : إن سبب رحلة إبراهيم عليه السلام وزوجه « سارة » إلى مصر فى عهد جبار من جبابرتها ، كان بسبب القحط الذى أصاب أرض فلسطين ، وأنه كان راغبا (أى إبراهيم عليه السلام) فى الإقامة فى مصر ، ولكن الوشاة أجبروه على [4] تركها ؛ وأن إبراهيم عليه السلام ، قد أصاب خيرا كثيرا من وراء عرض زوجه سارة التى أخذت إلى جبار مصر فى ذلك الوقت .

سابع عشر : كما زعم البعض الآخر أن هجرة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام إلى مكة كانت بحثا عن عصبية وعشيرة بعد أن ترك أهله وعشيرته كما زعموا [5]. وذلك غير أباطيل أخرى كثيرة أفردنا فصلا فى الرد عليها آخر هذه الرسالة .

---

(١) تاريخ العرب العام ، ص ٣٠ .
(٢) ديورانت ، قصة الحضارة ، جـ ٢ ، م ٤ ، ص ١٨ - ١٩ .
(٣) تاريخ العرب المطول ، ص ١٣٨ - ١٤٠ .
(٤) دراسات تاريخية من القرآن الكريم ، ص ١٣٤ - ١٣٥ .
(٥) نفس المرجع السابق ، ص ١٣٩ - ١٤٠ .

الفصـــل الأول

الجزء الأول

التصحيح مع شيء يسير من فقه الدعوة الإسلامية من خلال سيرة إبراهيم وإسماعيل وهاجر عليهم السلام

المرحلــة الأولى

(أ) إبراهيم عليه السلام على أرض الرافدين (دجلة والفرات)

- مولد إبراهيم عليه السلام ونشأته « بأور » جنوب الرافدين .
- إبراهيم عليه السلام مفطور على الإسلام .
- الله يرعى إبراهيم عليه السلام ويؤتيه رشده .
- نسب إبراهيم عليه السلام .
- أهل الرافدين وهم قوم إبراهيم وعشيرته يشركون بالله ويعبدون الشمس والقمر والنجوم .
- طاغية الرافدين يدعى القدرة على الإحياء والإماتة .
- إبراهيم عليه السلام يعلن كفره بآلهة قومه المدعاة ، ويعلن إسلامه لله رب العالمين .

(ب) إبراهيم عليه السلام يحاول أن يستنقذ أباه وقومه من ظلمات الشرك والجاهلية التى يعيشون فيها .

- إبراهيم عليه السلام يدعو قومه إلى توحيد الله وإفراده وحده بالعبادة .
- موقف القوم من دعوة إبراهيم عليه السلام إلى الإسلام : الرفض .
- إبراهيم عليه السلام يعلن براءته وعداوته لأبيه وقومه المشركين .
- إبراهيم عليه السلام يناظر كبير الطواغيت الذى ادعى القدرة على الإحياء والإماتة ، ويقيم عليه الحجة .

(جـ) إبراهيم عليه السلام يحطم آلهة القوم متحديا بذلك المجتمع بأسره ، ويتعرض للابتلاء

- الله سبحانه وتعالى يثبت إبراهيم عليه السلام وينجيه من النار .

(د) الخسران الذى حل بأهل الرافدين (العراق)

- التدمير والإخراج من الوطن .

المرحلة الثانية

هجرة إبراهيم ولوط عليهما السلام إلى بيت المقدس

الجـــزء الأول

سيرة إبراهيم وإسماعيل وهاجر عليهم السلام

أفرد الله سبحانه وتعالى ، آيات من كتابه الكريم ، للحديث عن سيرة نبى كريم من أولى العزم هو إبراهيم عليه السلام ، وعن سيرة نبى صادق الوعد هو إسماعيل عليه السلام . كما حفظت لنا سنة النبى محمد ﷺ بعض أنباء عن سيرة النبيين الكريمين ، وسيرة السيدة هاجر ، زوج إبراهيم ، وأم إسماعيل عليهم السلام . ومن خلال العرض القرآنى ، وعرض السنة لهذه الأنباء يمكن أن نتبين مراحل رئيسية فى حياة هؤلاء الكرام عليهم السلام .

المرحلة الأولى

(أ) إبراهيم عليه السلام على أرض الرافدين (دجلة والفرات) :

وإبراهيم الخليل عليه السلام من مواليد بابل [١] فى أرض الرافدين وقد آتاه الله رشده فى صغره ، وابتعثه رسولا واتخذه خليلا فى كبره قال تعالى : ﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين ﴾ [٢] .

وينسب إبراهيم عليه السلام إلى أبيه آذر [٣] وينتهى نسبه كما حكى الكثير من المؤرخين إلى سام بن نوح عليه السلام . أى أنه كان وقومه من سلالة المسلمين الذين نجوا من الطوفان ، الذى أهلك الله به قوم نوح الكافرين . وكان

---

(١) وهذا هو الصحيح المشهور عند أهل السير والتواريخ والأخبار (البداية والنهاية ، جـ ١ ، ص ١٣٩) ؛ والطبرى أيضا أورد رواية تشير إلى أن ميلاد إبراهيم عليه السلام كان فى بابل أرض السواد الوركاء (أور) تاريخ الرسل والملوك ، جـ ١ ، ص ٢٣٣ .

(٢) الأنبياء : ٥١ .

(٣) البداية والنهاية ، جـ ١ ، ص ١٤٢ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ٢ ، ص ١٤٩ – ١٥٢ .

قد نجح الشيطان مرة أخرى فى اجتيالهم عن دينهم وهو الإسلام الذى قام على أرض الرافدين ، أى أنهم ارتدوا عن الإسلام الذى كانوا عليه .

فى هذه المرحلة نما إبراهيم وترعرع ، وتفتحت عيناه على قوم ، أشركوا بالله عز وجل ، وعبَّدوا أنفسهم لآلهة من نحت أيديهم ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، إذ أن حكام أرض الرافدين قد ادعوا الألوهية والربوبية ، وبالتالى حق التشريع للأمة .

وإبراهيم عليه السلام ، كان كغيره من بنى آدم مفطورا على الإسلام : « مامن مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه »(١) ومأخوذ عليه العهد كبقية أبناء آدم بأن له ربٌّ متصف بكل صفات الجلال والكمال ، من الواجب توحيده وإفراده وحده بالعبادة : ﴿ وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى ﴾(٢) . ولكن إبراهيم عليه السلام ، ولد ونشأ فى قوم، بل فى بيت قد خيم عليه ظلمات الشرك ، فوالده كان ينحت الأوثان ويبيعها ، وكان يمكن لظلمات الشرك أن تطوى حياة إبراهيم عليه السلام ، ولكن الله كان قد أعانه على هذا حينما رزقه فطرة موحدة تعرف خالقها وبارئها وتكفر بالجاهلية التى حولها وتكفر بالشرك الذى يزاوله الناس فى حياتهم .

فها هو إبراهيم عليه السلام ينكر على أبيه وقومه أن يتخذوا أصناما آلهة ويصفهم بأنهم فى « ضلال مبين » . ومن المؤكد أنه قد جرى بينه وبين قومه مجادلات ومحاورات ومناظرات ، كان يمكن – وهذا من باب الاحتمال – أن تكون ذات أثر ولو باهت على نفس إبراهيم فإذا بيد الله سبحانه وتعالى تأخذ بيده ، وتوجهه إلى تأمل الآلهة المدعاة من دون الله التى يعبدها قومه ، سواء أكانت كوكبا أو شمسا ، ليصل إبراهيم عليه السلام فى النهاية إلى قناعة تامة بفساد

---

(١) حديث شريف ، انظر صحيح البخارى ، جنائز ؛ المعجم المفهرس ، جـ ٥ ، ص ١٨٠ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ٢ ، ص ٢٦١ .
(٢) الأعراف ١٧٢؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ٢ ، ص ٢٦١ – ٢٦٤ .

العقيدة التى عليها أبوه وقومه ، ويكون من الموقنين بسلامة عقيدته ويشهد فى نهاية التأمل بأنه لا إله إلا الله ، وليبرأ من الشرك والمشركين ، ويعلنها فى صراحة لا مواربة فيها - فى مواجهة مجتمع كافر يملك كل مقومات القوى المادية الظاهرة ، ويملك كل مقومات البطش والطغيان - أنه كافر بآلهته وطواغيته ؛ وأنه لا يخاف تلك الآلهة والطواغيت ، لأنه فى رعاية القوة الكبرى التى لا أمان إلا فى جوارها ، وهى قوة الله سبحانه وتعالى ؛ وليقول فى النهاية بتوجيه من الله عز وجل : ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾ (١) .

(ب) إبراهيم عليه السلام يحاول أن يستنقذ أباه وقومه من ظلمات الشرك والجاهلية التى يعيشون فيها :

وواصل إبراهيم عليه السلام محاولاته لهداية أبيه وقومه فها هو يبين لأبيه فساد عبادته ، فآلهته المدعاة ، لا تسمع ولا تبصر ولا تغنى عنه شيئا ، كما حاول إقناعه بأنه من الواجب عليه اتباعه ، لأنّ لديه من العلم الربانى الشيء الكثير - حتى يسلك طريق المهتدين ، كما نهاه عن عبادة الشيطان الذى كان للرحمن عصيا . كما خوّفه أن يصبح فى النهاية من حزب الشيطان .

ولكن الوالد أصر على كفره وشركه بالله عز وجل ، ولم يقف عند هذا الحد بل هدد ابنه وفلذة كبده بالرجم إذا لم يتوقف عن دعوته ، بل وطلب أن يفارقه : فماذا كان موقف إبراهيم الأواه الحليم من والده ؟ .

(أ) قال : ﴿ سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيا ﴾ (٢) .

ولكن هل لنفس مجتباة مصفاة كنفس إبراهيم أن تستغفر لأب أصر على شركه بالله عز وجل ، وهو يدرى أن الوشيجة التى بينه وبين أبيه قد انقطعت بسبب كفر أبيه ، لقد قال إبراهيم عليه السلام لأبيه : ﴿ سأستغفر لك ربى ﴾ ؛ فلما علم أنه عدو لله تبرأ منه : ﴿ وما كان

---

(١) الأنعام ٨٢ تفسير القرآن العظيم ، جـ ٢ ، ص ١٥٢ - ١٥٣ .

(٢) مريم ٤٧ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ١٢٣ .

استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ، فلمّا تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ، إن إبراهيم لأوّاه حليم ﴾ (١) .

(ب) قال : ﴿ وأعتزلكم وما تدعون من دون الله ﴾ (٢) فلابد من البراءة من الشرك والمشركين ؛ ﴿ إنَّا برءاؤا منكم ومما تعبدون من دون الله .. ﴾ (٣) ولابد من الكفر بالشرك والمشركين : « كفرنا بكم » ولابد من معاداتهم وبغضهم : « وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا » لأنه لا حب ولا ود ولا ولاء بين المسلم وغير المسلم . ولا عجب فى ذلك الموقف من إبراهيم عليه السلام فهو من أولى الأيدى والأبصار ومن المصطفين الأخيار .

(جـ) لما شاع أمر دعوة إبراهيم عليه السلام فى قومه ، فإذا بكبير الطواغيت (ملك بابل ؟) يدعوه لمناظرته فى ربه الذى يدعو إليه ، وكانت المناظرة التى ثبت فيها عجز كبير الطواغيت ، حينما طلب منه إبراهيم أن يأتى بالشمس من المغرب ، ﴿ فبهت الذى كفر ، والله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ (٤) .

(جـ) إبراهيم عليه السلام يحطم آلهة قومه المزعومة متحديا بذلك المجتمع بأسره ويتعرض للابتلاء :

وحينما أدى إبراهيم عليه السلام واجبه فى البلاغ كاملا ، بكل الوسائل المتاحة له ؛ أراد فى النهاية أن يلقن قومه درسا لا ينسونه ، علهم يفيقون . فها هو الحليم الأواه ، يحطم أصنامهم ، بعد أن بين بالدليل والبرهان عجزها عن أن تحمى نفسها . فضلا عن أن تحمى غيرها فقدم لهم بذلك الدليل والبرهان على فساد عقولهم ، حينما عبدوا أصناما نحتوها بأيديهم .

---

(١) التوبة ١١٤ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ٢ ، ص ٣٩٣ ، ٣٩٤ .
(٢) مريم ٤٨ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ١٢٣ ، ١٢٤ .
(٣) الممتحنة : ٤ .؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ٤ ، ص ٣٤٨ .
(٤) البقرة ٢٥٨ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ٣١٣ .

وحينما أسقط فى يد الجاهلية ، وتبين لها فساد تصوراتها وعقيدتها ، وأحست أن سلطانها قد تزلزل على يد الفتى اليافع إبراهيم عليه السلام ، لم تجد من وسيلة لاسترداد سلطانها المهزوم ، إلا بالخلاص من إبراهيم عليه السلام ؛ تصورا منها أن الله سبحانه وتعالى سوف يسلمها مصطفاه وخليله إبراهيم عليه السلام تفعل به ما تشاء ، ونسيت أنه من عادى وليا لله ، فقد آذنه سبحانه وتعالى بالحرب ، ونسيت أن الدعوة دعوة الله ، والإسلاَم دين الله ، وإذَا ما قدّرَ لنبى أو داعية أن يستشهد فسيقيض الله للدعوة من يرفع لواءها .

وقام سدنة الجاهلية بتجهيز النيران ، للخلاص – فى تصورهم – من الصوت الذى ارتفع بلا إله إلا الله فصدع بنيانهم . لقد تصورت الجاهلية أنها بهذا العمل سوف تتخلص من الداعية إلى الله ، ومن الدعوة التى تنزع السلطان من أيديهم وترده إلى الله سبحانه وتعالى .﴿ وكان الله بكل شيء محيطا ﴾[(١)] .

﴿ قالوا : حَرِّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين . قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم . وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين ﴾ [(٢)] .

ولعل من قدر الله سبحانه وتعالى ، أن تكشف لنا الدراسات التاريخية الحديثة ، عن طبيعة الخسران الذى حاق بأهل الرافدين نتيجة كفرهم بالله عز وجل ومحاولة قتل رسول الله إبراهيم عليه السلام .

(د) الخسران الذى حل بأهل الرافدين (العراق) :

هل يمكن التعرف على طبيعة الخسران الذى حاق بأهل الرافدين جزاء لهم على كفرهم بالله عز وجل ، ومحاولة قتل رسولهم إبراهيم عليه السلام ؟ لعل من قدر الله عز وجل أن تكشف لنا النصوص السومرية ، القديمة على لسان شاعر سومرى ، عن نهاية « أور » التى كان يحكمها الملك « أورنمو » فى أواسط القرن العشرين قبل الميلاد ، وهو الوقت الذى رحل فيه إبراهيم عليه السلام ولوط إلى بيت المقدس ، بعد أن نجّاه الله من محاولة قتله بالنار .

(١) النساء ١٢٦ .
(٢) الأنبياء ٦٨ – ٦٩ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ١٨٣ ، ١٨٤ .

فالنصوص السومرية تحكى لنا أن « أور » مسقط رأس إبراهيم عليه السلام قد تعرضت لهزتين عنيفتين ؛ فقد هاجمها شعبان هما شعب العيلاميين وشعب الأموريين (وهذا من باب إهلاك الظالمين بالظالمين) ، وسيطر هؤلاء المهاجمون على « أور » التى سقطت بين فكى الكماشة ، واقتسم مجدها العيلاميون والأموريون . ولقد نظم شاعر سومرى خبر دمار أور (بعد فترة من وقوعه) واعتبره دمارا لسومر كلها ، وبدأ الشاعر قصيدة بقوله : « فارق الفحل مقره وتفرق قطيعه مع الرياح » ... ... ثم عدد أسماء المدن السومرية الكبرى .. ثم أخذ ينعى مصير المدن وينعى تساقط لبنات مساكنها . وبدأها بمدينة – أور – ثم انتقل إلى وصف قرار (السماء) بدمارها وسفك دماء أهلها ... « واستمر نحيب الناس ، وامتلأت الطرق بجثث القتلى الذين حطمتهم الرماح والمقامع ، وظلوا تحت وهج الشمس حتى أذابت الشمس شحومهم ، أما من نجوا فقد ذلّوا وجاعوا حتى تخلت الأم عن ابنتها ، وهجر الأب ولده ، وفارقت الزوجة زوجها .

ونعت نينجال بدورها الدمار الذى لحق بداخل المدينة وخارجها : « وقالت : تراكم الوحل فى أنهار مدينتى ، وأصبحت كأنها جحور الثعالب ، وما عاد الماء يجرى فيها ، وهجرها عُمّالُها ، ولم يتبق غلال فى حقول بلدى وهجرها مزارعوها وأصبحت أجمات النخيل والكروم بعسلها ونبيذها (جرداء) كقمة الجبل ، ضاعت مدينتى « وتحولت دارى إلى أطلال ، وقامت مدينة غير المدينة ودار غير الدار ، يا ويلى أين أجلس وأين أقف ؟ أنا نينجال طردت من دارى ولم يعد لى مقر ، وغدوت شريدة فى مدينة غريبة » .

« ورد الشاعر على نحيب نينجال بنحيب مثله ، قائلا : مليكتى ، أصبح فؤادك كالماء ، فكيف تعيشين ؟ أيتها السيدة العادلة التى تخربت مدينتها كيف تعيشين ؟ دموعك أصبحت دموعا غريبة ، فالبلد لم تعد تذرف الدموع ... وإلى متى يا ترى ستظلين غريبة بجوار مدينتك ؟ ثم تمنى أن تؤوب إلى ديارها أوبة الفحل إلى حظيرته » (١) .

---

(١) د . عبد العزيز صالح ، الشرق الأدنى القديم ، مصر والعراق ، ط ٢ ، القاهرة ١٩٧٣ ص ٤٤٥ .

ويرى « الكاتب » أن تأليف القصيدة لا يتأخر أكثر من سبعين عاما أو ثمانين عاما بعد تدمير « أور » .

وإذا كان ما روته النصوص قد حل بأور بعد رحيل إبراهيم عليه السلام بعد نجاته من محاولة حرقه بالنار ، لأنه كان يدعو إلى توحيد الله والدخول فى الإسلام ، إذا كان ما روته النصوص صحيحا ، فهذا يبين لنا عدل الله سبحانه وتعالى : ﴿ وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ (١) . فهؤلاء القوم قد حاولوا حرق إبراهيم لأنه أراد أن يخرجهم من الظلمات إلى النور ، ولمّا نجاه الله ، أخرجوه من مسقط رأسه ، ومن بين أهله وعشيرته وأحبابه . فجاء الجزاء متناسبا مع حجم الجريمة : جريمة الشرك بالله وإخراج النبى بعد محاولة قتله لأنه يدعوهم إلى العزيز الغفَّار .

جاء الجزاء فى شكل عدوٍ سلطه الله عليهم دمَّر البلاد كلها ... سفك دماء وفزَّع الناس ، وامتلأت الطرق بجثث القتلى المسلط عليها وهج الشمس .

والذين كتب لهم النجاة من هذه المذابح ، فقد ذلوا وجاعوا ، ووصل الأمر إلى أن كل واحد كان يبحث عن النجاة لنفسه ، فتخلت الأم عن ابنتها ، وهجر الأب ولده .

الواقع أن الكلمات التى خلفها لنا الشاعر السومرى من أربعة آلاف عام تحكى ما حل بمدينته جزاء شركها بالله عز وجل ، ومحاولة قتل رسوله إبراهيم عليه السلام ، فجاء الجزاء وهو الخسران الذى حل بها ، متناسبا مع حجم الجرم الذى ارتكبته .

وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ وكأين من قرية عَتَتّ عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا وعذبناها عذابا نكرا . فذاقت وبال أمرها ، وكان عاقبة أمرها خسرا ، أعدَّ الله لهم عذابا شديدا ، فاتقوا الله يا أولى الألباب الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذِكْراً ﴾ (٢) .

(١) النحل : ٣٣ .
(٢) الطلاق ٨ - ١٠ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ٤ ، ص ٣٨٤ .

المرحلة الثانية

هجرة الخليل إبراهيم ولوط عليهما السلام إلى بيت المقدس

هاجر الخليل إبراهيم ولوط عليهما السلام إلى الأرض التى بارك الله فيها للعالمين ، وهى بيت المقدس ، ولعله يدخل فيها أرض الشام [١] : سورية وفلسطين ؛ يقول الله عز وجل : ﴿ ونجيناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين ﴾ [٢] « لقد ترك إبراهيم وطناً (هى أرض الرافدين) وعشيرة وقوما ، فَعوضه الله ببيت المقدس المبارك وطنا خيرا من وطنه ، وعوضه بابنين إسماعيل وإسحاق وأحفاد منهم يعقوب ، أهلا وعشيرة خيرا من أهله ؛ وعوضه عن قومه ، أمة مسلمة عظيمة العدد هى خير أمة أخرجت للناس ؛ وجعل من نسله أئمة وأنبياء ورسلا يهدون بأمر الله ، وأوحى الله سبحانه وتعالى إليهم فعل الخيرات ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة . فكان العوض وكان الجزاء .

---

(١) عن أبى بن كعب قال : هى الشام ، وقال قتادة : كان بأرض العراق ، فأنجاه الله إلى الشام . وكان يقال للشام أعقاب دار الهجرة ، وما نقص من الأرض يزيد فى الشام ، وما نقص من الشام زيد فى فلسطين ، وكان يقال هى أرض المحشر والمنشر وبها ينزل عيسى بن مريم عليه السلام ويهلك المسيح الدجال (تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ١٨٥) .

(٢) الأنبياء ٧١ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ١٨٤ – ١٨٥ .

الجزء الثانى

المرحلة الثالثة

(أ) إبراهيم عليه السلام وزوجه سارة فى مصر :

- جبار مصر يحاول أن يعتدى على سارة .
- الله ينجى سارة ويرد كيد الفاجر فى نحره .
- لم يكن على أرض مصر مسلم ولا مسلمة سوى إبراهيم وزوجه .
- جبار مصر يخدم سارة هاجر .
- إبراهيم عليه السلام يعود بهاجر وسارة إلى بيت المقدس .
- إبراهيم عليه السلام يبنى بهاجر ويرزق منها بإسماعيل عليه السلام
- التوجيهات التى تنشئها فى نفس المسلم أخبار هذه المرحلة .

(ب) إبراهيم وسارة يتلقيان البشرى بميلاد إسحاق ويعقوب .

الجـــزء الثانى

المرحلة الثالثة

(أ) إبراهيم عليه السلام وزوجه سارة فى مصر :

لاحظنا يد الله سبحانه وتعالى تنقل خُطَى إبراهيم عليه السلام ومن معه من المؤمنين من أرض الرافدين إلى الأرض التى بارك الله فيها للعالمين (بيت المقدس الآن) . وبعد زمن لا يعلمه إلا الله ، دخل إبراهيم عليه السلام – بتدبير من قدر الله عز وجل – إلى أرض مصر ، ولكن المصادر الإسلامية لا تعطينا سببا ظاهرا ، لهذه الرحلة ، إلا أنه قد سبق فى علم الله عز وجل أنها ستهدى إلى زوج إبراهيم ، هاجر ، التى أصبحت فيما بعد ، زوجا له وأما لإسماعيل عليه السلام .

ومعلوماتنا عن رحلة إبراهيم عليه السلام وزوجه سارة فى مصر ، مستمدة من حديث رواه أبو هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ فى صحيح البخارى ؛ ويمكن تلخيصها على النحو التالى :

وصل إبراهيم إلى مصر وكان يحكم بها جبار من الجبابرة ، وكان بصحبة إبراهيم زوجه سارة وكانت من أحسن الناس » . وقد أرسل جبار مصر من يسأل إبراهيم عليه السلام عن سارة فقال إنها أخته وهو صادق لأنها أخته فى الإسلام ، ولو قال إنها زوجه لقتله جبار مصر واحتفظ بالزوجة (١) .

« فأتى سارة ، قال : يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيرى وغيرك ، وإن هذا سألنى فأخبرته أنك أختى فلا تكذبينى » (٢) .

---

(١) صحيح أبى عبد الله البخارى ، جـ ٤ ، ص ١٧١ ، جـ ٩ ، ص ٢٨ فتح البارى جـ ٦ ، ص ٣٩٤ .

(٢) وهذا يشير إلى أهمية المعاريض ، يقول الإمام الحافظ ابن كثير : (وكأن المرادِ من هذا والله أعلم=

« فأرسل إليها جبار مصر ، فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأخِذَ ، فقال : ادعى الله لى ولا أضرك فدعت الله فأطلقه ، ثم تناولها الثانية فأخذ مثلها أو أشد ، فقال ادعى الله لى ولا أضرك ، فدعت فأطلق . فدعا بعض صحبته ، فقال إنكم لم تأتونى بإنسان إنما أتيتمونى بشيطان فأخدمها هاجر ، فأتته (أى إبراهيم عليه السلام) وهو قائم يصلى فأومأ بيده مهيأ ، قالت : رد الله كيد الكافر أو الفاجر فى نحره وأخدم هاجر (١) .

هذا الخبر التاريخى الذى رواه رسول الله محمد ﷺ عن الوحى عن الله عز وجل ، ليس خبرا تاريخيا مقصودا لذاته ، ولكن المقصود منه هو التربية ، وإعداد الفرد المسلم لبنة المجتمع المسلم ، هذا الخبر ينشيء فى النفس البشرية تصورات نتلمس بعضها على النحو التالى :

أولا : علم الله المحيط ، فهذا الخبر الذى يرويه رسول الله ﷺ عن إبراهيم عليه السلام ، الذى يفصله عنه حوالى ست وعشرون قرنا من الزمان ، جاءه عن طريق الوحى ، نقلا عن الله عز وجل الذى يقول : ﴿ فما بال القرون الأولى ؟ قال : علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى ﴾ (٢) .

ثانيا : فضل الله على إبراهيم وعلى الأمة المسلمة ، وقَدْر إبراهيم عليه السلام ، عند الله عز وجل ، فالله سبحانه وتعالى قد نقل خُطى إبراهيم عليه السلام من أرض الرافدين إلى بلاد الشام إلى مصر ، لكى تخدم زوجه سارة هاجر فتهبها له ، ثم يبنى بها ، ويرزق منها بإسماعيل الذى كان من نسله سيد الخلق محمد ﷺ . وهذا يدل على أن كل شيء قد

= أنه ليس على وجه الأرض (زوجان على الإسلام غيرى وغيرك) انظر تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ٤٠٩ .

(١) صحيح أبى عبد الله البخارى ، مكتبة ومطبعة المشهد الحسينى ، جـ ٤ ، ص ١٧١ ، جـ ٩ ، ص ٢٨ وفى صحيح الجامع الصغير ، جـ ٥ ، ص ٤٦ ، انظر أيضا جامع البيان ، جـ ٢٦ ، ص ٩٣ - ١٠٣ .

(٢) طـه : ٥١ ، ٥٢ .

خلقه الله بقدر ، وكل ميسر لما خلق له .

ثالثا : إن الله سبحانه وتعالى ، هو الحى القيوم ، القهار ، الجبار الذى يُصمد إليه فى الأمور كلها ، وهو الملجأ والملاذ لأوليائه وعباده ، إذا تكالبت عليهم قوى الشر والعدوان ، بكل ما تملك من وسائل القوة المادية والبطش ، وهم عزل من كل شيء إلا من قوة الله عز وجل ، وهم مستضعفون فى الأرض ، فها هو إبراهيم عليه السلام مجرد من كل وسائل القوى المادية التى يمكن الأخذ بها فى مواجهة أعداء - هم كل الأمة - ليس فيهم مسلم واحد ، ولكن ماذا كانت تجدى وسائل القوة المادية فى مواجهة هذا الموقف ؟ هل يقاوم إبراهيم ذهاب زوجه إلى جبار مصر ويقاتل حتى يقتل ؟ ولو حدث ذلك ، أيعد ذلك خطأ جسيم ، أو عين الصواب ، لأنه من مات دون عرضه فهو شهيد ؟ وهو موقف يجب على الدعاة وهم مستضعفون أن يتناولوه بالدرس والتحليل ففيه خير كثير . إن إبراهيم كان على يقين وهو يسمح لزوجه بالذهاب أن الله سيحفظها ويحفظه لأنه لم يكن على ظهر تلك الأرض مسلم ولا مسلمة غيرهما .

رابعا : أهمية التوجه إلى الله ، بالصلاة والدعاء ، فهذا ما فعله إبراهيم عليه السلام ، لأن الله هو المرتجى ، وهو الحافظ لعباده وأوليائه ، وهو الذى يكشف الضر ، ويدفع البلاء : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نِعْمَتَ الله عليكم إذ هَمَّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ (١) والله سبحانه وتعالى لا يمكن أن يتخلى عن عباده وأوليائه ، ولا يمكن أن يسلمهم لأعدائهم : ﴿ إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق ﴾ (٢) « من عادى لى وليا فقد آذنته

---

(١) المائدة ١١

(٢) البروج ١٠ .

بالحرب » (١) . وهو وحده سبحانه وتعالى الذى ردّ كيد الفاجر فى نحره وحمى عرض رسول الله إبراهيم عليه السلام .

خامسا : إن الذين يحاولون الدفاع عن عرض إبراهيم عليه السلام ، بنفى (٢) هذه القصة التى أوردها صحيح البخارى ، فى مواجهة الخبر الكاذب الذى أوردته التوراة المحرّفة لا يقل خطورة عن التحريف الذى أصاب الخبر فى التوراة المحرفة الموضوعة .

سادسا : « فى الحديث مشروعية أخوة الإسلام وإباحة المعاريض ، وقبول هدية المشرك ، وإجابة الدعاء بإخلاص النية ، وكفاية الرب لمن أخلص فى الدعاء بعمله الصالح ، وفيه ابتلاء للصالحين لرفع درجاتهم ، ويقال إن الله كشف لإبراهيم حتى رأى حال الملك مع سارة معاينة وأنه لم يصل منها إلى شيء . وفيه أنه من نابه أمر مهم من الكرب له أن يفزع إلى الصلاة » (٣) .

(ب) إبراهيم وسارة عليهما السلام يتلقيان البشرى بميلاد إسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب عليهما السلام :

حفظ الله سبحانه وتعالى عرض سارة زوجة إبراهيم الخليل عليهما السلام ، وأخذت سارة هاجر ، التى بنى بها إبراهيم عليه السلام بعد عودته من مصر إلى بيت المقدس ، لتنجب له ابنا كريما هو إسماعيل عليه السلام ، وتعرضت سارة زوجة إبراهيم عليه السلام لابتلاء شديد إذ أنها حرمت من الولد حتى صارت عجوزا ، وزاد الابتلاء شدة حينما شاهدت هاجر تنجب لزوجها إبراهيم طفلا كريما هو إسماعيل عليه السلام . فكان الصبر وكان الاحتساب ، وهو سمت عام لأهل هذا البيت .

---

(١) رواه البخارى .

(٢) دراسات تاريخية فى القرآن الكريم ، ص ١٣٦ .

(٣) هذا نص ما أورده الإمام الحافظ أحمد بن على بن حجر العسقلانى ، فى فتح البارى ، جـ ٦ ، ص ٣٩٤ ؛ صحيح أبى عبدالله البخارى ، جـ ٩ ، ص ٢٨ : (هاجر إبراهيم بسارة ودخل بها قرية فيها ملك من الملوك أو جبار من الجبابرة فأرسل إليه أن أرسل إلى بها فأرسل بها فقام إليها فقامت توضأ وتصلى فقالت : اللهم إن كنت آمنت بك وبرسولك فلا تسلط على الكافر فَغُطَّ حتّى رَكَضَ برجله) .

وحان الوقت الذى رحل فيه إبراهيم وزوجه هاجر وطفله إسماعيل بناء على توجيه الله عز وجل إلى البلد الحرام « مكة » حيث استودَعَ الله سبحانه وتعالى ابنَه إسماعيل وَزَوجَه هاجر ، ثم عاد إلى بيت المقدس مرة أخرى .

وكان يجاور إبراهيم ببيت المقدس ، فى قرى عمورية وسدوم من أرض الشام ، لوط عليه السلام الذى انتدبه الله عز وجل لرسالة فى تلك البلاد ، وسنعود إلى ذلك تفصيلا عند التعرض لتاريخ ذلك النبى الكريم[(١)] .

ولكن لابد أن نذكر هنا ، أن قوم لوط رفضوا دعوته للدخول فى دين الله وهو الإسلام ، وحان الوقت الذى قرر الله سبحانه وتعالى أن يهلك هؤلاء القوم الذين رفضوا إخضاع حياتهم لنظام الله عز وجل بعد أن أشركوا به سبحانه وتعالى وجاء الملائكة إلى إبراهيم عليه السلام ليخبروه ذلك الخبرُ ، وهو أن الله قد قرر إهلاك قوم لوط الذين كانوا يأتون الرجال شهوة من دون النساء .

ويحكى لنا القرآن الكريم أن رسل الله سبحانه وتعالى جاءوا إلى إبراهيم عليه السلام بالبشرى ، فسلموا عليه وأسرع إبراهيم عليه السلام – من باب إكرام الضيوف إيمانا واحتسابا – بتجهيز الطعام ، وحينما قدمه إلى أضيافه ، لاحظ أن أيديهم لا تمتد إلى الطعام ﴿ وأوجس منهم خيفة ، قالوا : لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوطٍ ﴾[(٢)] وكشفوا عن حقيقتهم ، أنهم رسل الله . وامرأته « سارة » قائمة فضحكت فبشرها الملائكة بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب .

لقد كانت سارة عقيما لا تلد ، وقد أصبحت عجوزا ففاجأتها البشرى ، وهى بشرى مضاعفة بأن سيكون لإسحاق عقب من بعده وهو يعقوب عليه السلام .

﴿ قالت : يا ويلتى : أألد وأنا عجوز ، وهذا بعلى شيخا ؟ إن هذا لشيء عجيب . قالوا : أتعجبين من أمر الله ، رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت ، إنَّه

---

(١) انظر للمؤلف أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ ، ذرية إبراهيم عليهم السلام ، دار الوفاء للطباعة والنشر ، القاهرة .

(٢) هود : ٧٠ ؛ وفى الحديث : « كان أول من أضاف الضيف إبراهيم » حديث حسن رواه ابن أبى الدنيا فى قرى الضيف عن أبى هريرة ٤٣٢٧ صحيح الجامع الصغير .

حميد مجيد ﴾ (١) .

بل إن البشرى كانت مفاجأة لإبراهيم عليه السلام ، فحينما بشروه بغلام عليم . ﴿ قال : أبشرتمونى على أن مسنى الكبر ، فبم تبشرون . قالوا : بشرناك بالحق ، فلا تكن من القانطين . قال : ومَنْ يقنط من رحمة ربه إلَّا الضالون ﴾ (٢) .

وجاء الوقت الذى أصبح فيه إسحاق نبيا وكذلك يعقوب عليهما السلام ، ومن ذريتهما أئمة يدعون إلى الخير :

﴿ واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار . إنَّا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار . وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار ﴾ (٣) .

وقد كان إسحاق نبيا مسلما ، وكذلك يعقوب « إسرائيل » نبيا مسلما ؛ وقد تعرض تاريخهما للتشويه والتزييف حتى وصل الأمر بكثير من أبناء المسلمين إلى معالجة تاريخ إسحاق ويعقوب عليهما السلام على أنهما يهوديين ، وتاريخ إبراهيم عليه السلام على أنه يهودى ، بل ويعالجون تاريخ ذريتهم أمثال موسى وداود وسليمان عليهم السلام على أنهم يهود(٤) ، وعيسى على أنه نصرانى .... إلخ . هذه الترهات التى سنفرد لها رسالة خاصة بإذن الله ، نظرا لاتصالها بقضية معاصرة ، هى اغتصاب أرض فلسطين ، أرض الإسراء والمعراج ، وأرض الإسلام والمسلمين ، وقبل ذلك لاتصالها بحقيقة الدين الواحد الذى دعا إليه جميع الأنبياء والمرسلين(٥) ، وبحقيقة الصراع الذى يجرى على امتداد الساحة الدولية فى عالمنا المعاصر .

---

(١) هود : ٧٢ - ٧٣ ؛ تفسير القرآن العظيم ، ج ٢ ، ص ٤٥١ - ٤٥٢ .
(٢) الحجر ٥٤ - ٥٦ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ٢ ، ص ٥٥٣ - ٥٥٥ .
(٣) صٓ ٤٥ - ٤٧ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ٤ ، ص ٤٠ .
(٤) انظر للمؤلف « أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ ، ذرية إبراهيم عليه السلام ، دار الوفاء للطباعة والنشر » .
(٥) انظر للمؤلف « أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ ، الإسلام دين الله فى الأرض وفى السماء ، دار الوفاء للطباعة والنشر » .

الجزء الثالث

المرحلة الرابعة

(أ) إبراهيم وإسماعيل وهاجر عليهم السلام بجوار بيت الله الحرام .

- وصول إبراهيم وزوجه هاجر وابنهما إسماعيل عليه السلام وهو طفل رضيع إلى جوار بيت الله الحرام بمكة المكرمة .
- إبراهيم عليه السلام يُنْزل هاجر وطفلها إسماعيل عليه السلام بجوار البيت العتيق .
- نفاذ المـــاء .
- هاجر عليها السلام تبحث عن الماء وتهرول بين الصفا والمروة .
- المَلَكُ يفجر زمزم تحت قدمى إسماعيل بأمر الله سبحانه وتعالى .
- جرهم ينزلون بجوار هاجر وإسماعيل دون أن يكون لهم حق على الماء (زمزم) .
- زواج إسماعيـل عليه السلام .
- وفاة هاجـــر .
- عودة إبراهيم عليه السلام وزيارته لابنه إسماعيل عليه السلام .
- إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام يرفعان القواعد من البيت العتيق

ومعلوماتنا عن هذا الرهط الكريم ، إبراهيم وإسماعيل وهاجر عليهم السلام - خلال هذه المرحلة - نستخلصها من كتاب الله تعالى « القرآن الكريم » [1] ؛ ومن الأحاديث الواردة [2] عن رسول الله ﷺ ، وما يتصل بهما من شروح

---

(١) انظر ص ٢١٧ إلى ص ٢٥٦ من بحثنا الذى بين يديك .

(٢) صحيح أبى عبدالله البخارى ، مكتبة ومطبعة المشهد الحسينى ، القاهرة ، جـ ٤ ، =

وتفاسير ومن خلال هذه المعلومات التاريخية التى تنزلت على رسولنا محمد ﷺ وحيا من الله عز وجل ، منذ أربعة عشر قرناً من الزمان ، أمكن لنا وللبشرية على مدار تاريخها أن نتعرف على :

(أ) ملامح النبوة والرسالة .

(ب) نموذج للفرد المسلم لبنة المجتمع المسلم .

(جـ) نموذج للأسرة المسلمة ، وقيامها على أكتاف الأب المسلم والأم المسلمة أو الزوج المسلم والزوجة المسلمة والابن المسلم الذين يقيمون حياتهم على نظام الله وشرعه .

(د) حقيقة الصفات التى يجب أن يتصف بها المسلم والمسلمة والأمَّة المسلمة من : إيمان بالله تعالى واستسلام له فى جميع شئون الحياة ، وإقام للصلاة وبر بالوالدين وصدق للوعد وأخذ بأسباب القوة .

(هـ) جانب من تاريخ بيت الله الحرام وتاريخ مكة المكرمة .

وفوق ذلك كله رحمة الله التى وسعت كل شيء ، وعلمه المحيط ، وقيامه على تدبير أمر السموات والأرض وأمر مخلوقاته ، وحقيقة صفة السمع والبصر ، التى يدرك بها الله عز وجل السر وما هو أخفى ، وما توسوس به النفس لنفسها . يتضح ذلك كله وغيره كثير ، من المواقف الآتية :

أولا : إن إبراهيم عليه السلام قد صحب زوجه هاجر وابنهما إسماعيل عليه السلام إلى مكة المكرمة بتوجيه من الله تعالى ، وتركهما جوار بيت الله [1] الحرام بمكة المكرمة ولم يكن بها أحد ، وكان إسماعيل طفلا رضيعا .

إبراهيم النبى المسلم ينتدبه الله سبحانه وتعالى من أرض

= ص ١٧١ – ١٧٥ ؛ فتح البارى ، جـ ٦ ، ص ٣٩٥ وما بعدها ، حديث رقم ٣٣٦٢ ، ٣٣٦٣ ، ٣٣٦٤ ، ٣٣٦٥ (انظر ص ، ص من بحثنا الذى بين يديك) .

(١) تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ١٧٦ ؛ صحيح أبى عبد الله البخارى ، جـ ٤ ، ص ١٧١ – ١٧٥ ؛ فتح البارى ، جـ ٦ ، ص ٣٩٥ وما بعدها .

الرافدين ، إلى مصر ، ليبنى بهاجر ومنها يرزق بإسماعيل فينتدبهما الله سبحانه وتعالى للإقامة بجوار بيت الله الحرام – لأنه سيكون – من سلالتهما النبى ﷺ . وفى هذا قضاء على الفواصل الإقليمية أو الحدودية ، فالأرض أرض الله يورثها لمن يشاء من عباده ، وفى هذا إهدار للعصبية المنتنة التى قال عنها رسول الله ﷺ : « دعوها فإنها منتنة » ، والتى تبرأ رسول الله محمد ﷺ من أصحابها فقال ما معناه : ليس منا من دعا إلى عصبية أو قاتل على عصبية أو مات على عصبية » .

ثانيا : إن بيت الله الحرام كان موجودا قبل وصول إبراهيم وهاجر وإسماعيل عليهم السلام ، يتضح ذلك من وصف رسول الله محمد ﷺ : « كان البيت مرتفعا من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله . وذلك بالإضافة إلى قرائن أخرى مأثورة سنقدمها عند الحديث عن تاريخ البيت العتيق إن شاء الله منها : « استقبال إبراهيم البيت بوجهه » .

ثالثا : إن مكة [1] وقت وصول إبراهيم وإسماعيل وهاجر عليهم السلام لم تكن مسكونة بأحد ، ولم يكن بها ماء ، ولم يكن بها زرع : « لم يكن بها إنس ولا شيء » أى أن مكة كمدينة معمورة يقطنها الناس بصفة دائمة لم تكن كذلك قبل وصول هاجر وإسماعيل وإبراهيم عليهم السلام .

رابعا : إن إبراهيم قد ترك هاجر وابنه الرضيع فى ذلك الوادى – بجوار بيت الله الحرام – غير المسكون وليس معهما سوى جراب به تمر وسقاء ماء ، امتثالا لأوامر الله سبحانه وتعالى .

---

(١) أى أنها لم تخرج إلى برية بئر سبع كما زعم الزاعمون اعتمادا على ما ذكرته التوراة المحرفة (انظر جورجى زيدان ، العرب قبل الإسلام ، ص ٧٤) ، كما أنه تاريخهما ليس تاريخا أسطوريا أو خرافيا ، أو أنه لا توجد مصادر عن تاريخهم سوى التوراة المزيفة ، فحديث رسول الله محمد ﷺ فيه الكفاية والبيان . وفى هذا بيان واضح لمن أراد أن ينفى القصة من أساسها مثل دائرة معارف القرن العشرين جـ ١ ، ص ٣٤٣ ، ٣٦٠ ، ٣٦٢ .

خامسا : إن هاجر عليها السلام امرأة مسلمة لله عز وجل واثقة فى ربها ، ولا عجب فى ذلك ، فإنها قد تربت على عين الله ، ثم على يدى إبراهيم عليه السلام ، هذا الإيمان والاستسلام واليقين يتجلى فى قولتها ، حينما لاحظت أن إبراهيم عليه السلام سيتركها وابنها الرضيع فى ذلك الوادى المقفر الذى ليس فيه إنس ، ولا ماء ولا زرع ، دون أن يكلمها كلمة واحدة : « يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى ، الذى ليس فيه إنس ، ولا شيء ، آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم ، قالت : إذن لا يضيعنا ... » ، وقد كان ، فلم يضيعهما الله ، ولم يضيع ذريتهما من بعدهما . ولا عجب فى هذا فالله هو الرحمن الرحيم الودود الصادق الرازق ذو القوة المتين .

واستسلمت أم إسماعيل لأمر الله ، وجعلت ترضع ابنها وتشرب من الماء حتى نفد . وعطشت وعطش ابنها ، وجعلت تنظر إليه يتلوى ، فماذا فعلت ؟ وهى على يقين من أن الله لن يضيعهما؟ لقد أخذت بالأسباب الظاهرة ، لقد انطلقت تبحث عن الماء . فصعدت أعلى الصفا علها تجد قادما من الوادى يحمل ماءاً . ثم نزلت إلى الوادى مهرولة حتى بلغت المروة ونظرت تبحث عن أحد يحمل ماءاً فلم تجد ، فعلت ذلك سبع مرات ، وفى اللحظة التى بلغ منها الإعياء مبلغا ، ويكفى للشخص غير المتصل بالله أن يصيبه اليأس والقنوط ، جاء الفرج الإلهى متمثلا فى ملك من السماء عند موضع زمزم يبحث بجناحه حتى ظهر الماء ، فشربت أم إسماعيل وأرضعت ولدها (١) وحمدت الله عز وجل ، وقد حمل لها الملك فى نفس الوقت بشارة الله عز وجل « لا تخافوا الضيعة ، فإن ها هنا بيت الله يبنى هذا الغلام وأبوه

---

(١) قال رسول الله ﷺ : « يرحم الله أم إسماعيل ، لو تركت زمزم أو قال : لو لم تغرف من الماء لكانت عينا معينا (صحيح الجامع الصغير ، ج ٦ ، ص ٣٣٩) .

وإن الله لا يضيع أهله » . وعد من الله ، والله لا يخلف وعده طال الزمن أم قصر .

سادسا : استسلام إبراهيم عليه السلام الكامل لأمر الله عز وجل ، فهو يستجيب لأمر ربه ، ويترك زوجه ، وفلذة كبده الذى رزق به على كبر فى السن ، بواد غير ذى زرع ، ليس فيه ماء ولا إنس ؛ ويتوجه إلى الله بالدعاء ، لأنه لا يملك غير ذلك ، ولأنّه على ثقة من ربه الذى عوده أن يستجيب له ويعينه ويحفظه فى نفسه وماله وعرضه لأداء ما كلفهم الله به ؛ فقد حفظه الله من كيد الجاهلية فى وطنه ، ونجاه الله من الحرق بالنار ، وقبل ذلك ثبته على الابتلاءات التى تعرض لها فى سبيل هذا الدين ، وأبدله وطنا خيرا من وطنه ، وأهلا وعشيرة خيرا من أهله وعشيرته .. كما أن الله قد حفظه فى عرضه حينما حاول جبار مصر أن يمد يده إلى سارة عليها السلام ؛ ولذلك فإن إبراهيم كان على ثقة أن الله لن يضيعه ولن يضيع زوجه وولده . ولكن مع هذا لابد من الدعاء ، لابد من التوجه إلى الله والاستعانة به فهو الذى يصمد إليه وحده فى الأمور كلها . ﴿ رب إنِّى أسكنت من ذريتى بوادٍ غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ﴾ (١) إن طلب إبراهيم عليه السلام الأول ، من الله عز وجل ، أن تستمر زوجه وابنه محافظين على الصلاة لأن الصلاة عماد الدين ، وهى الصلة بين العبد وربه ، فإذا أحزبه شيء فزع إلى الصلاة .. إنها اللحظات التى تتصل فيها الذرة الفانية بخالقها العظيم ، يمسح على قلبها ، ويثبتها ، ويهديها رشدها ، وهى – أى الصلاة – الفارق بين المؤمن والكافر ، وإذا كانت ذريته

---

(١) جامع البيان ، جـ ١٤ ، ص ٢٢٩ – ٢٣٥ ؛ صحيح أبى عبد الله البخارى ، جـ ٤ ، ص ١٧٢ – ١٧٥ .

تقيم الصلاة وتتصل دائما بالله ، فمعنى ذلك أنها فى نطاق حفظ الله ورعايته ، فإذا غاب الأب فالله موجود ؛ لهذه الأسباب وغيرها كان إبراهيم حريصا بالدرجة الأولى على أن يقيم أبناؤه الصلاة : ﴿ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى ﴾ (١) .

سابعا : إن قبلة المسلمين منذ زمن لا يعلمه إلا الله هى بيت الله الحرام وهى التى كانت يستقبلها إبراهيم عليه السلام : « استقبل بوجهه البيت » الذى ارتضاه الله سبحانه وتعالى لأمة محمد ﷺ – على مدار حياتها – : ﴿ فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره ﴾ (٢) .

ثامنا : ليس لأحد أن يدعى ملكية « زمزم » وخاصة ، أنه فى حرم الله ، وفى جوار بيت الله ؛ وليس لأحد الحق فى أن يحرم منها مسلما ، أو حتى طيرا أو حيوانا ؛ يتضح ذلك من قول أم إسماعيل للجراهمة ، حينما طلبوا الإذن بالنزول إلى جوارها : « نعم ، ولكن لا حق لكم فى الماء » (٣) .

تاسعا : إن الله سميع بصير ، قريب مجيب ، فها هو سبحانه وتعالى يسمع إلى دعاء إبراهيم عليه السلام : ﴿ ربنا فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم ﴾ ، وكانت الاستجابة : « أهل بيت من جرهم يرون طائرا عائفا بالوادى » ، وبعد البحْث والاستقصاء وصلوا ونزلوا بجوار أم إسماعيل . « فألفى ذلك أم إسماعيل وهى تحب الأنس فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم » .

عاشرا : إن للمسلمين والمسلمات فى أم إسماعيل « هاجر » عليها السلام

---

(١) طـه ١٣٢ .
(٢) البقرة ١٤٤ ، صحيح البخارى ، جـ ٤ ، ص ١٧١ – ١٧٥ .
(٣) صحيح أبى عبد الله .

أسوة حسنة لأنها نموذج لما يجب أن تكون عليه المرأة المسلمة ، ولا عجب فى ذلك ، فهى زوجة نبى من أولى العزم ، وهى أم لنبى صادق الوعد ؛ لقد كانت أم إسماعيل زوجة مطيعة لأوامر الله ثم أوامر زوجها ؛ لقد كانت أمّا أمينة على ابنها الذى تركه إبراهيم أمانة فى عنقها ، فربته تربية إسلامية وعودته الاستسلام لله عز وجل بالكلية والامتثال لأوامره كما علمته طاعة الوالدين ، فإذا ما أعلمه أبوه إبراهيم عليه السلام : ﴿ إنى أرى فى المنام أنّى أذبحك ﴾ (١) ؛ كان رد إسماعيل عليه السلام الذى ينْطوِى على الأدب الجم : ﴿ يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ﴾ (٢) ؛ وإذا بالأم المسلمة لا تجزع لأنه أمر الله ، ولا تعترض لأنه أمر من الله ، وهى مستسلمة لأمر الله ابتداء . كما أن أم إسماعيل قد ربّت ابنها على طاعة الله عز وجل ، فقد ربته على إقام الصلاة وعلى الصدق : ﴿ إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا . وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا ﴾ (٣) لقد أخذت أم إسماعيل المسئولية كاملة ، ففى الوقت الذى انشغل فيه زوجها بالدعوة إلى الله فى أرض الشام ، كانت هى تربى ابنه تربية استحق معها اصطفاء الله عز وجل له بالنبوة ، لقد ربته على حب الرماية (٤) ، لأن القوة فى الرمى ، ولابد منها فى مجتمع تحيط به قوى الجاهلية من جميع أطرافه ؛ وقبل ذلك كله ، علمته كيف يطيل الوقوف بين يدى الله عز وجل ، وكيف يتصل به .

---

(١) الصافات ١٠٢ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ٤ ، ص ١٤ – ١٥ .

(٢) الصافات ١٠٢ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ٤ ، ص ١٤ – ١٥ .

(٣) مريم ٥٤ – ٥٥ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ١٢٥ .

(٤) بدليل قول رسول الله ﷺ « ارموا بنى إسماعيل فإن أباكم كانا راميا .... » ، فتح البارى ، جـ ٦ ، ص ٤١٣ وما بعدها .

حادى عشر : عند رجوع إبراهيم عليه السلام إلى مكة ليطالع تركته ، فوجد أن الزوجة التقية قد ماتت ، وأن ابنه قد كبر ، وأنه قد تزوج ، وأنه خرج يبتغي رزقا لأهل بيته ، فسأل زوج إسماعيل عن عيشهم وهيئتهم ، فردت : « نحن بشرٍّ ، نحن فى ضيق وشدة فشكت إليه . فقال (إبراهيم عليه السلام) : فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام وقولى له يغير عتبة بابه (أى يطلق زوجته) ، وسمع إسماعيل وأطاع وطلق وتزوج بأخرى .

وعاد إبراهيم مرة أخرى ليطمئن أن ابنه قد بنى بزوجة مسلمة ستكون مستودع أشرف نطفة يخرج من سلالتها محمد ﷺ .. الزوجة الحامدة الشاكرة التى لا تكشف أسرار البيت للناس ، السيدة التى إذا شبعت حمدت الله ، وإذا جاعت صبرت ؛ والتى سترِبى أبناء إسماعيل الذين سيكون من ذرية أحدهم سيد ولد آدم ولا فخر .

وحينما طرق إبراهيم عليه السلام باب بيت إسماعيل مرة أخرى ، ردّت عليه زوجه الثانية فسألها عن معيشتهم وهيئتهم فقالت : « نحن بخير وسعة »[(١)] ، فدعا لهما وانصرف . إن إبراهيم لم يسأل عن نسبها أو حسبها أو ثروتها ، لم يقل لها من أية قبيلة أنت ؟ وما هو نسبكم فى العرب ؟ الخ ، إنما أراد أن يتعرف على دينها وأمانتها ، لأن الأمة المؤمنة خير من المشركة .. لأن الأمة المؤمنة تقود إلى الجنة والمغفرة الإلهية ، لقد جاء إبراهيم لا ليطمئن على ثروة ابنه ، ولكن ليتأكد أنه قد اقترن بفتاة كفء لابن نبى سيصبح هو أيضا بإذن الله نبى ، ومن حق الولد على والده اختيار أمه ؛ إن إبراهيم لم يجىء لمشاهدة ولده وهذا حق له ، ففى المرتين ، سافر دون أن يراه ، وقد ترك له رسالة مع زوجتيه ؛ إنما جاء ليطمئن أن ابنه قد اقترن بفتاة مسلمة

---

(١) فتح البارى جـ ٦ ، ص ٤٠٥ .

وهكذا يجب أن تكون اهتمامات الآباء حيال أبنائهم وبناتهم .

ثانى عشر : عودة إبراهيم عليه السلام إلى مكة وقيامه هو وإسماعيل عليهما السلام برفع القواعد من البيت بناء على أمر الله سبحانه وتعالى . وأثناء هذا العمل ، كان إبراهيم وإسماعيل يرددان : ﴿ ربنا تقبل منّا إنك أنت السميع العليم ﴾ (١) .. إنه طلب القبول من الله عز وجل ، ﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا ﴾ ، إنه طلب الثبات على الإسلام ؛ « اللهم يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلوبنا على دينك » (٢) . وهذا ما يجب أن يسعى المسلمون فى كل زمان ومكان إليه ، طلب القبول من الله ، وأن يثبتهم على الإسلام وأن يرزقهم ذرية مسلمة ، وسنتناول هذه المناسبة بتفصيل .

ثالث عشر : إن إسماعيل عليه السلام كان راميا ، كما أخبر بذلك حديث رسول الله ﷺ : « وإسماعيل يبرى نبلا له تحت دوحة قريبة من زمزم » ، « ارموا بنى إسماعيل فإن أباكم كان راميا »(٣) لأن القوة الرمى . وهذا يبين لنا أهمية القوة فى الإسلام ، وخاصة إذا كان المجتمع المسلم محاطا بمجتمعات جاهلية ، لا تطيق أن ترى راية للإسلام مرفوعة .

---

(١) البقرة ١٢٧ ، ١٢٨ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ١٧١ .
(٢) تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ١٨٣ .
(٣) رواه البخارى ، صحيح أبى عبد الله البخارى ، جـ ٤ ، ص ١٧١ – ١٧٥ ؛ فتح البارى ، جـ ٦ ، ص ٣٩٩ – ٤٠٥ .

الجـــزء الثالـث

المرحلة الرابعة

(ب) إبراهيم عليه السلام إمام للمسلمين

- الله يصطفى إبراهيم عليه السلام إماما للمسلمين .
- إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام يطهران البيت العتيق .
- إبراهيم وإسماعيل يدعوان الله عز وجل .
- من دعاء إبراهيم عليه السلام :

﴿ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾(١)

- الركائز التى يقوم عليها كيان الأمة المسلمة .
- الصفات التى أهلت إبراهيم عليه السلام لإمامة المسلمين .

ابتلى الله سبحانه وتعالى عبده إبراهيم عليه السلام ، ابتلاءات عديدة ، بما كلفه من الشرائع والأوامر والنواهى ، فقام إبراهيم بهن كلهن كما قال تعالى : ﴿ وإبراهيم الذى وفّى ﴾(٢) ، ولذلك فقد اختاره الله سبحانه وتعالى للناس إماماً وقدوة يقتدى به ويحتذى حذوه .

وحينما كلف الله سبحانه وتعالى إبراهيم بالإمامة ، أعطاه المنهج وبين له النظام والشريعة التى ارتضاها له وللأمة المسلمة والتى يبدو من خلالها مقومات وسمات الأمة المسلمة .

وبعد أن أتم إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام إقامة القواعد من البيت الحرام ، وتطهير البيت للطائفين والعاكفين والركع السجود ، دعا إبراهيم عليه

---

(١) البقرة ١٢٩ تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ١٨٤ .
(٢) النجم : ٣٧ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ٤ ، ص ٢٥٧ - ٢٥٨ .

السلام ربّه عز وجل أن يجعل هذا الحرم آمناً ، وأن يرزق أهله من الثمرات كما دعا إبراهيم وإسماعيل ربّهما أن يجعلهما وذريتهما مستسلمين لأمر الله ، خاضعين لنظامه وشرعه ، لا يشركون معه فى الطاعة أحدا سواه ، ولا فى العبادة غيره ، وأن يثبتهما على هذا الدين ، وأن يرسل فى أمتهم رسولا منهم (أى أهل الحرم) يتلو عليهم آيات الله ويعلمهم كتاب الله والحكمة ويزكيهم : ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ (١) . أى رسول وإمام وقائد مسلم يحكم حياته وحياة أمته بمنهج الله عز وجل ، إمام يتلو على أمته آيات الله . ويعلمها الكتاب والحكمة ويزكيها فى حياتها وحتى الممات .

إذن فالمقومات أو السمات أو الركائز ، التى يقوم عليها كيان الأمة المسلمة ، كما دعا بها إبراهيم عليه السلام ربه عز وجل : إمام مسلم من الأمة ، وكتاب الله عز وجل وسنة رسول الله ﷺ ، وأمة مسلمة تخضع حياتها لكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ .

ومهمة الإمام المسلم ، أن يتلو على الأمة ، آيات الله ، ويعلمها الكتاب والحكمة ويزكيها ؛ ولكن كيف يزكى الإمام أمته ؟

تماما كما فعل إبراهيم عليه السلام مع أمته ، لقد ربى الزوجة المسلمة ، والأم المسلمة ، والابن المسلم ، وأقام المجتمع المسلم ، بل كان حريصا كما شاهدنا على أن يظلوا على إسلامهم حتى مماتهم : ﴿ فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ .

ما هى الصفات التى أهلت إبراهيم – عليه السلام – لإمامة المسلمين ؟ :

اصطفى الله سبحانه وتعالى إبراهيم عليه السلام لإمامة المسلمين ، والله سبحانه وتعالى لا يُسأل عما يفعل ، لأنه الخالق والخالق هو الذى يأمر ﴿ ألا له الخلق والأمر ﴾(٢) ، وبالتالى فهو سبحانه : ﴿ لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾ (٣) .

---

(١) البقرة ١٢٩ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ١٨٤ .
(٢) الأعراف : ٥٤ . (٣) الأنبياء : ٢٣ .

ولكن الله سبحانه وتعالى يعمل كل شيء بتدبير وإحكام، فمن خلال الاختيار الربانى لإبراهيم عليه السلام للقيام بإمامة المسلمين، يمكن للمسلمين – كما تحقق ذلك لرسول الله محمد ﷺ أن يتبينوا الصفات والشروط التي يجب أن تتوفر فى الشخص الذى تختاره الأمة إماما لها، هذه الصفات والشروط هى: « **الإسلام** ».

فإبراهيم عليه السلام كان حنيفا مسلما ولم يكن يهوديا ولا نصرانيا. أى كان مستسلما لله عز وجل بالكلية، هذا الاستسلام نلمحه من جملة المواقف التالية:

أولا : الاستجابة لله عز وجل ﴿ إذ قال له ربُّه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ﴾ (١).

ثانيا : الرضى بقضاء الله حينما ألقى به قومه فى النار، وحينما أُخرج من بين قومه وعشيرته الذين عاش بين ظهرانيهم لفترة طويلة، فأبدله الله وطنا خيرا من وطنه وعشيرة خيرا من عشيرته.

ثالثا : ترك إبراهيم عليه السلام لولده وفلذة كبده الذى رزق به على كبر، وزوجه المطيعة الوفية بواد غير ذى زرع ليس فيه إنس ولا شيء.

رابعا : استسلامه لأمر الله حينما أمره بذبح ابنه إسماعيل عليه السلام حين بلغ معه السعى، لأنه على يقين بأنه لا يملك شيئا من أمر نفسه أو أهله أو ماله أمام أمر الله سبحانه وتعالى ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله ﴾ (٢).

ولا عجب فى ذلك فقد كان إبراهيم عليه السلام مؤهلا لهذه المهمة، مهمة إمامة المسلمين، بفضل الله عز وجل: ﴿ إن إبراهيم

---

(١) البقرة: ١٣١ ؛ تفسير القرآن العظيم، جـ ١، ص ١٨٥.
(٢) التوبة: ١١١.

كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين ، شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم . وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ﴾ (١) .

وهذا هو النموذج الذى اقتدى به الأنبياء عليهم السلام ، وهو النموذج الذى يجب أن يتأسى به الأئمة المسلمون . يعقب الله سبحانه وتعالى على هذا الدعاء الذى ألهمه عبده إبراهيم عليه السلام ؛ ﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ﴾ (٢) .

فالله سبحانه وتعالى يقول للبشرية وللكافرين : هكذا يجب أن تكون الأمة المسلمة دواما : أناس مسلمين ، إمام مسلم ونظام وشريعة ربانية ، وإن من يرغب عن هذه الملة الإسلامية ويتنكب طريق الأمة المسلمة ، طريق الهداية والحق فهو سفيه أى ظلم نفسه بسفهه وسوء تدبيره بتركه الحق إلى الضلال حيث خالف طريق من اُصْطُفِىَ فى الدنيا للهداية والرشاد منذ حداثة سنه إلى أن اتخذه الله خليلا ، وهو فى الآخرة من الصالحين السعداء ، فمن يترك طريقه ومسلكه وملته ويَتّبعْ طريق الضلالة والغى ؟ وأى سَفِه أعظم من هذا ؟ .

ثم يبين الله سبحانه وتعالى أنه قد أمر إبراهيم عليه السلام بالإسلام أى الإخلاص له والاستسلام والانقياد فأجاب إلى ذلك شرعا وقدرا : ﴿ إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ﴾ (٣) .

ووصى إبراهيم بهذه الملة وهى الإسلام لله ، أبناءه وكذا يعقوب وصى بها أبناءه : ﴿ ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ (٤) أحسنوا فى

---

(١) النحل : ١٢٠ - ١٢٢ .

(٢) البقرة : ١٣٠ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ١٨٥ .

(٣) البقرة : ١٣١ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ١٨٥ .

(٤) البقرة : ١٣٢ .

حال الحياة والزموا هذا ليرزقكم الله الوفاة عليه فإن المرء يموت غالبا على ما كان عليه ويبعث على ما مات عليه .

وحفظ يعقوب عليه السلام العهد ، عهد جده إبراهيم عليه السلام فقام بدوره يأخذ العهد على أبنائه بأن يظلّوا مسلمين حتى مماتهم ﴿ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى ؟ قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون ﴾ (١) .

﴿ تلك أمة قد خلت لها ماكسبت ولكم ما كسبتم ولا تُسْأَلون عما كانوا يعملون ﴾ (٢) أى هذا نموذج للأمة المسلمة إمام ومنهج وأمة ، أى أن السلف الماضى من آبائكم من الأنبياء والصالحين لا ينفعكم انتسابكم إليهم إذ لـم تفعلوا خيرا يعود عليكم لأن لهم أعمالهم التى عملوها ولكم أعمالكم فشتان ما بين تلك الأمة المسلمة وبينكم .

ثم يأتى بعد ذلك البيانُ الربَّانى ليبين أن اليهودية لا يقبلها الله عز وجل ، ولا النصرانية ، وإنما المقبول عنده الإسلام ، والإسلام فقط ، وهو الدين الذى كان عليه إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وموسى وعيسى والنبيون جميعا .

﴿ وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين . قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى

---

(١) البقرة : ١٣٣ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ١٨٦ ؛ جامع البيان ، جـ ١ ، ص ٥٦٢ – ٥٦٣ .

(٢) البقرة : ١٣٤ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ١٨٦ ، جامع البيان ، جـ ١ ، ص ٥٦٢ – ٥٦٣ .

وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ (١) .

هذه الأمة المسلمة صبغة ربانية أى فطرة ربانية ﴿ صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون ﴾ (٢) .

خامسا : حرص إبراهيم عليه السلام أن يظل هو وذريته مسلمين طيلة حياتهم وحتى الممات . ولهذا كان يدعو ربه ، وبهذا وصى أبناءه : ﴿ ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ (٣) .

﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ﴾ (٤) ، وذلك يعني أن إبراهيم كان حريصا أن تظل حياته وحياة ذريته مضبوطة بأوامر هذا الدين : ﴿ ربنا ليقيموا الصلاة ﴾ (٥) ، وذلك يعنى أن إبراهيم عليه السلام كان حريصا ، على أن يربى نفسه وذريته ، وأمته على الإسلام ، وعلى التوحيد ، وعلى إقام الصلاة ... وهو بذلك لا يرجو الشهرة ، ولا يرجو الثناء والحمد من الناس ؛ إنه لا يفعل ذلك نفاقا ولكن طلبا للمثوبة : ﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾ (٦) فهو يدرك جيدا أن الله يسمع ويعلم فهو حريص على أن لا يعلم الله عنه إلا كل خير ولا يسمع عنه إلا كل ما يرضيه سبحانه وتعالى .

هكذا كان إبراهيم المسلم وهكذا يجب أن يكون الإمام المسلم .

---

(١) البقرة : ١٣٥ - ١٣٦ ، جامع البيان جـ ١ ، ص ٥٦٦ - ٥٧٠ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ١٨٦ ، ١٨٧ .

(٢) البقرة : ١٣٨ ؛ جامع البيان ، جـ ١ ، ص ٥٧٠ - ٥٧٢ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ١٨٨ .

(٣) البقرة : ١٣٢ ؛ جامع البيان ، جـ ١ ، ص ٥٥٨ - ٥٦٢ .

(٤) البقرة : ١٢٨ ؛ جامع البيان ، جـ ١ ، ص ٥٤٦ - ٥٥٨ .

(٥) إبراهيم : ٣٧ ، جامع البيان ، جـ ١٤ ، ص ٥٢٩ وما بعدها .

(٦) البقرة : ١٢٧ ، جامع البيان ، جـ ١ ، ص ٥٤٦ - ٥٥٨ .

سادسا : موالاة أهل الإيمان ومعاداة أهل الكفر :

هكذا كان إبراهيم عليه السلام الإمام المسلم . لا يوالى أهل الكفر . نرى ذلك واضحا فى موقفه من أبيه الذى رفض الدخول فى دين الله « الإسلام » وفضّل دين الجاهلية على دين الله عز وجل ، ولذلك فإن إبراهيم عليه السلام قد تبرأ منه : ﴿ فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ﴾ (١) وبانقطاع وشيجة الإيمان بين إبراهيم عليه السلام وأبيه الكافر ، انقطعت وشيجة الدم ، ووشيجة النسب ، ووشيجة القومية .

نرى ذلك واضحا فى موقف إبراهيم عليه السلام من قومه ، وفى هذا قدوة ، وفى هذا أسوة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد : ﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا : لقومهم إنَّا بُرَءَاؤُا منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم ، وبدا بيننا وبينكم العداوةُ والبغضاءُ أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾ (٢) .

إنها المفاصلة الكاملة مع الكفر وأهله ، لا حب ، ولا مودة ، إن القلب المؤمن لا يحمل حبا ولا مودة لمن يحادون الله ورسوله : ﴿ لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حَادَّ الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ، أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾ (٣) .

وهكذا يجب أن يكون الأئمة المسلمون .

---

(١) التوبة : ١١٤ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ٢ ، ص ٣٩٣ وما بعدها .
(٢) الممتحنة : ٤ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ٤ ، ص ٣٤٧ - ٣٤٨ .
(٣) المجادلة : ٢٢ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ٤ ، ص ٣٢٨ - ٣٢٩ .

كما أن الخليل عليه السلام قد اتصف بصفات أخرى جعلته جديرا باختيار الله عز وجل له : منها :

١ - **العدالة :**

لقد كان إبراهيم عليه السلام يتمتع بصفة العدل . ولذلك فقد اختاره الله سبحانه وتعالى إماما للمسلمين ، وحينما طلب إبراهيم عليه السلام أن تكون الإمامة فى ذريته قال الله تعالى : ﴿ لا ينال عهدى الظالمين ﴾ (١) ، فلو كان إبراهيم عليه السلام ظالما ، ما اختاره الله سبحانه وتعالى ، لإمامة المسلمين وذلك يعنى أنه لابد وأن يكون الإمام المسلم عادلا ، وأن يتصف الإنسان المرشح للإمامة بصفة العدالة .

٢ - **الشجاعة والثبات والتضحية :**

لقد كان إبراهيم عليه السلام شجاعا منذ نعومة أظفاره ، يتضح ذلك من :

(أ) وقوفه فى وجه أفراد المجتمع بأكمله وهو فتى يدعوهم إلى عبادة الله وحده والكفر بالطاغوت ، ويسفه عباداتهم ، ويقول بصراحة المسلم : ﴿ إننى برىء مما تشركون ﴾ (٢) - ﴿ أئفكا آلهة دون الله تريدون ﴾ (٣) - إنه لم يتردد لحظة واحدة فى الدعوة إلى دين الله لا خوفا ولا ترددا ، وما أحجم مرة واحدة عن قول كلمة الحق فى مواجهة الباطل ، لأنه مكلف بالبلاغ والبلاغ الكامل .

(ب) تحطيم آلهة القوم : ﴿ فراغ عليهم ضربا باليمين ﴾ مع ما ترتب على ذلك من محاولة إحراقه بالنار فلم يجزع ولم يخف ولم يتردد أو يرتد .

---

(١) البقرة : ١٢٤ ؛ جامع البيان ، جـ ١ ، ص ٥٢٣ -٥٣٢ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ١٦٤ - ١٦٨ ، الأحكام السلطانية للقاضى الماوردى ، ص ٤ ، ٥ ، الأحكام السلطانية للقاضى أبى يعلى الحنبلى ، السياسة الشرعية لابن تيمية .

(٢) الأنعام : ١٩ .

(٣) الصافات : ٨٦ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ٤ ، ص ١٢ .

بإيجاز لقد وقف إبراهيم يدعو إلى الله فى وجه أمة برمتها كافرة بالله تعالى ، تملك جميع وسائل البطش والإرهاب ، فلم يبخل بشيء ؛ لقد انطلق يضحّى بنفسه وهى أعز شيء لدى الإنسان فى سبيل هذا الدين .

٣ – **الهجرة فى سبيل الله :**

﴿ وقال إنِّى مهاجر إلى ربى إنَّه هو العزيز الحكيم ﴾ (١) .

لقد هجر وطنه ، وأهله وعشيرته فى سبيل هذا الدين ، لقد ترك كل شيء فى سبيل هذا الدين ؛ إن حب هذا الدين قد طغى على حبه لكل شيء ففاق حبه لوطنه وعشيرته .. وهو نفس الأمر الذى دفع محمداً ﷺ وصحبه إلى الخروج من مكة إلى المدينة ، رغم أن مكة أحبُّ أرض الله إلى الله ، وأحبها إلى قلب رسول الله ، ولكنه أمرُ هذا الدين .

٤ – **الفهم والحجة التى أجراها الله على لسانه :**

﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم ﴾ (٢) ، لقد تميز إبراهيم عليه السلام بالفهم ، والقدرة على إقامة الحجة بالدليل والبرهان ، نرى هذا واضحا فى جملة المواقف التالية .. :

(أ) حينما طلب من الله سبحانه وتعالى أن يريه كيف يحيى الموتى ، سأله الله عز وجل وهو أعلم بالنفوس ، أو لم تؤمن ؟ كان الرد المهذب الذى ينطوى على الفهم والوعى : ﴿ قال بلى ولكن ليطمئن قلبى ﴾ (٣) (وهذا يبين لنا كيف يكون العبد مؤدبا بين يدى الله عز وجل) .

(ب) حينما خوفه قومه آلهتهم المُدَّعاة. كان رد إبراهيم عليه السلام : ﴿ وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ﴾ (٤) .

---

(١) العنكبوت : ٢٦ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ٤٠٩ .
(٢) الأنعام : ٨٣ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ٢ ، ص ١٥٤ .
(٣) البقرة : ٢٦٠ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ٣١٥ .
(٤) الأنعام : ٨١ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ٢ ، ص ١٥٢ – ١٥٣ .

(جـ) حينما حاجّه ملك القوم فى ربه ، وزعم أنه يحيى ويميت ، كان رد إبراهيم الذى ينطوى على الإفحام وعلى الحجة الواضحة : ﴿ فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر ﴾ (١) .

٥ - الحرص على أن تكون يد المسلمين هى العليا :

وحتى لا تمتد يد المسلم إلى من هو دونه ، دعا الله ربه أن يرزق أهله وهم أمته المسلمة من الثمرات ، لأن اليد العليا خير من اليد السفلى ، والمسلم دائما هو الأعلى ، ولا يجوز أن تمتد يده إلى كافر أو مشرك ، ولذلك فإن إمام المسلمين هو القدوة ، هو الأسوة فى ذلك ، ويعمل على أن يَقِى أمَّته ذل السؤال ، وهكذا كان إبراهيم ، وهكذا يجب أن يكون الإمام المسلم .

٦ - القنوت الدائم لله عز وجل :

« إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله » ولذلك فإن إبراهيم عليه السلام كان دائم التوجه إلى الله ، فى كل صغيرة وكبيرة ، ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ﴾ (٢) .

٧ - احتمال الشدائد والتوكل على الله :

لقد كان إبراهيم كذلك ، محتملا للشدائد رغم قسوتها وكان دائم التوكل على الله . نلمح ذلك فى موقفه من قومه منذ أن واجه تعنتهم ورفضهم لدعوته إلى الإسلام ، نلمح ذلك فى موقفه حينما تلقى التهديد والوعيد :

---

(١) البقرة : ٢٥٨ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ٣١٣ .

(٢) النحل : ١٢٠ - ١٢٢ ، « يمدح الله عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء ووالد الأنبياء ويبرئه من المشركين ومن اليهودية والنصرانية » (انظر تفسير القرآن العظيم ؛ جـ ٢ ، ص ٥٩٠) .

﴿ لأرجمنك واهجرنى مليا ﴾ (١) .

نلمح ذلك فى موقف إبراهيم عليه السلام وهو يهجر وطنه وقومه وعشيرته ، إلى أرض غير الأرض ووطن غير الوطن . إن إبراهيم عليه السلام كان صابرا محتسبا محتملا متوكلا على الله ، نلمح ذلك فى موقفه حينما أمر بأن يترك ابنه وزوجه بوادٍ غير ذى زرع عند بيت الله المحرم نلمح ذلك فى امتثاله لأمر الله وقد أمره أن يذبح ابنه وفلذة كبده بعد أن بلغ معه السعى .. لهذا كله استحق أن يخلع الله عليه صفة ﴿ إنه من عبادنا المؤمنين ﴾ (٢) - ﴿ كذلك نجزى المحسنين ﴾ (٣) ﴿ سلام على إبراهيم ﴾(٤) . سلام على إبراهيم فى الأولين والآخرين .

٨ - حرص إبراهيم على نفسه وعلى ذريته من بعده على أن لا ترتكس إلى الشرك ، وعبادة الاصنام : ﴿ واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام ﴾(٥) ولأنه يعلم أن الشيطان مسلط على ذرية آدم ، فقد دعا الله سبحانه وتعالى أن يرسل فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آيات الله ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم .

واستجاب الله لدعاء إبراهيم ، بعد حوالى خمسة وعشرين قرنا من الزمان ، فبعث فى أمته سيد ولد آدم ، وخاتم الأنبياء والمرسلين محمد* ﷺ .

---

(١) مريم : ٤٦ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ١٢٣ .
(٢) الصافات : ١١١ .
(٣) الصافات : ١١٠ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ٤ ، ص ١٤ - ١٩ .
(٤) الصافات : ١٠٩ .
(٥) إبراهيم : ٣٥ .

* وفى الحديث : « رأيت إبراهيم ليلة أسرى بى ، فقال يامحمد أقرىء أمتك السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء وأنها قيعان وغراسها لا حول ولا قوة إلا بالله » رواه الطبرانى فى الكبير ، ٣٤٥٤ صحيح الجامع الصغير .

الفصل الثانى

سيرة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام
وبعض المعالم الضرورية لحياة الأمة المسلمة

الفصل الثانى

سيرة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام
وبعض المعالم الضرورية لحياة الأمة المسلمة

ومن خلال هذا الاصطفاء الربانى لإبراهيم الخليل ، إماماً للأمة المسلمة ، يرى كاتبُ التاريخ بعض المعالم الضرورية لحياة الأمة المسلمة :

أولا : إن إمامة المسلمين محجوبة عن الظلمة الذين ظلموا أنفسهم بشركهم بالله عز وجل : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ (١) ، وظلموا غيرهم حينما بغوا فى الأرض واستعلوا فيها بغير الحق ، يتضح ذلك من قوله تعالى : ﴿ وإذ ابْتَلَى إبراهيم ربُّه بكلماتِ فأتمَّهُنّ ، قال إنّى جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين ﴾ (٢) .

ثانيا : أن الإمامة لا تعنى فقط إمامة الصلاة ، وإنَّما تعنى إمَامَةِ الأمَّة المسلمة فى مجالات الحياة كلها . وهكذا كانت إمَامةُ إبراهيم الخليل وإسماعيل عليهما السلام ، وهكذا كانت إمامة محمد ﷺ وصحبه ؛ يؤمون المسلمين فى الصلاة ، ويقودون الجيوش المجاهدة فى سبيل الله ويربُّون المجتمع المسلم ، ويستقبلون الوفود ، ويبعثون البعوث والسرايا ، ويعقدون الألوية ، ويعودون المرضى ويتبعون الجنائز ... إلى غير ذلك من واجبات الإمامة ، وهكذا يجب أن يكون الأئمة المسلمون .

ثالثا : الهدف والغاية التى يسعى الأئمة المسلمون إلى تحقيقها من وراء القيام بما يكلفهم به الله عز وجل :

---

(١) لقمان : ١٣ .

(٢) البقرة : ١٢٤ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ١٦٤ – ١٦٨ ؛ الجامع لأحكام القرآن ؛ جـ ٢ ، ص ١٠٩ .

(أ) القبول ، وإلى ذلك كله يسعى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ؛ ﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾[1] .

(ب) وأن يجعلهما مسلمين لله رب العالمين ومن ذريتهما أمة مسلمة وإلى ذلك كان يسعى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام : ﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا ﴾[2] ، وإلى ذلك كان يسعى محمد وصحبه ، وإلى ذلك يجب أن يسعى الأئمة المسلمون .

رابعا : أن الاهتمامات التى يجب أن تشغل الإمام المسلم والأمة المسلمة ، هى الإقبال على الآخرة والإعداد لها ، وذلك يستلزم العكوف على كتاب الله ، عكوف التلقى والتنفيذ ، وتعلم الحكمة ممثلة فى سنَّة النبى الكريم عليه الصلاة والسلام ، وتزكية النفوس حتى يصير الله ورسوله أحب إليهم مما سواهما . لهذا نرى الإمام المسلم إبراهيم يدعو الله عز وجل أن يبعث فى أمته رسولا منهم ، يتلو عليهم آيات الله ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم : ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم ، يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويُزكّيهم إنَّك أنت العزيز الحكيم ﴾[3]

ومن هذه الآية القرآنية تبرز الركائز التى يقوم عليها بناء الأمة المسلمة ، فتلك هى سماتها ، وتلك هى المقومات التى لا قيام للأمة بدونها :

إمام مسلم ... أمة مسلمة ... نظام وشريعة ربانية ... وحكمة نبوية.

---

(١) البقرة : ١٢٧ .

(٢) البقرة : ١٢٨ .

يقوله الإمام الحافظ ابن كثير فى تفسيره : « لقد كانا مسلمين ولكنهما سألاه الثبات » ، جـ ١ ، ص ١٨٣ .

(٣) البقرة : ١٢٩ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ١٨٤ ؛ وقد قال رسول الله ﷺ : « إنى عند الله لخاتم النبيّين وإن آدم لمنجدل فى طينته وسأنبئكم بأول ذلك دعوة أبى إبراهيم وبشارة عيسى بى ورؤيا أمِّى التى رأت وكذلك أمهات النبيّين يرين » (رواه أحمد) .

فإمام بدون نظام وشريعة ربانية وحكمة نبوية تخضع لها حياته وحياة الأمة ، لا يقيم دولة الإسلام ..

وشريعة ربانية وحكمة نبوية بدون إمام مسلم يقيمها فى حياة الأمة لا يقيم دولة الإسلام .

وإمام مسلم وشريعة ربانية وحكمة نبوية بدون أمة تخضَع حياتها لذلك النظام الربَّانى ، لا يقيم دولة إسلامية .

إذن لابد من الركائز الثلاثة :

إمام مسلم .. وأمة مسلمة .. ونظام وشريعة ربانية .. وحكمة نبوية

وحينما تلقى محمد ﷺ وصحبه هذه التوجيهات فى مدرسة الرحمن ، تلقوها وأقاموها فى حياتهم ، فقامت دولة الإسلام التى أصبحت كالمنارة التى تهتدى بها الأمم فى ظلمات حياتها .

لقد وعى محمد ﷺ وصحبه هذا الدرس التاريخى ، وعرفوا وتعلموا أن :

(أ) واجب الإمام المسلم الأول : أن يكون هو وزوجه وبنوه صورا متحركة للإسلام الذى يدعو إليه وأن يقرأ على أمته الكتاب .. ، أن يعلمها الكتاب ، أن يربيها على كتاب الله ، يعلمها الحلال والحرام ، يبين لها مالها وما عليها ، يبين لها واجباتها وحقوقها ، يبين لها معالم دينها ، وحدود ربها التى أوجب أن تقيمها .

إن واجب الإمام المسلم أن يعلم أمته الحكمة ، السنة النبوية ، ويعلمها كيفية الاستسلام لأوامر الله وشريعته ونظامه . ولكى يتحقق كل ذلك وغيره لابد وأن يكون هو صورة صادقة لما يدعو إليه ، لابد أن يكون قدوة وأسوة .

إن الإمام المسلم يجب أن يكون قدوة ، مستسلما لله عز وجل بالكلية ، مجاهدا بنفسه وماله فى سبيل نصرة دين الله عز وجل : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم

الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ﴾ (١) .

إن الإمام المسلم يجب أن تتمثل فيه القدوة ، متبرئا من الكفر وأهله والشرك وأهله ، ولا يوالى إلا أولياء الله ؛ ويعادى فى الله ، فلا يوالى ملة الكفر أبدا ، حتى ولو كانت تملك كل مقومات الحياة المادية : تماما كما فعل إبراهيم عليه السلام : ﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنَّا بُرءَاؤُا منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾ (٢) . وهكذا كان محمد وصحبه وهكذا يجب أن يكون المسلمون على مدار الزمان .

إن الإمام المسلم كما يبين لنا تاريخ إبراهيم عليه السلام ، يجب أن يشغله دواما قضية الدعوة إلى الله ، ولها يحشُد كلَّ ما مكن له به الله سبحانه وتعالى حتى يستنفذ البشريَة الضالَة من بين براثن الشيطان ، وهكذا كان محمد ﷺ وصحبه رضوان الله عليهم ، وهكذا يجب أن يكون المسلمون على مدار التاريخ .

(ب) إن من واجبات الأمة المسلمة دعوة البشرية إلى الدخول فى دين الله عز وجل ، ولن تقتنع البشرية بهذا الدين إلا إذا كانت الأمة المسلمة ، الأمة الشاهدة ، الأمة الوسط ، صورة حية لهذا الإسلام الذى تدعو إليه ، لابد لكى تقتنع البشرية الضالة بهذا الإسلام أن ترى الإسلام قائما يؤدى دوره حقيقة فى حياة الأمة المسلمة : كما أدَّاه حقيقة فى حياة أمة إبراهيم وإسماعيل ،

---

(١) التوبة : ١١١ .
(٢) الممتحنة : ٤ .

وأمة محمد ﷺ ، على عهده ، وعلى عهد الخلفاء الراشدين ، وهكذا يجب أن تكون الأمة المسلمة على مدار تاريخها .

وبالإضافة إلى ذلك فإن الأمة المسلمة وهى الأمة الوسط ، وهى الأمة الشاهدة : ﴿ وكذلك جعلناكم أمَّة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾ (١) يجب أن تكون حريصة على تلاوة كتاب ربها ، وَتعَلُّمِ الحكمة وهى سنة نبيها ﷺ ، وتزكى نفسها ، وتخضع حياتها لنظام الله وشرعه ، وذلك يستلزم منها أن تكون مجاهدة لتكون كلمة الله هى العليا .

إن الأمة المسلمة يجب أن تكون حريصة على أن يكون أبناؤها مسلمين ، وأن تعيش على الإسلام وتموت عليه . لذلك فقد وصى إبراهيم أبناءه بذلك : ﴿ ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ (٢) .

إذن فالأمة المسلمة :

أمة فريدة فى نظام حياتها ، سواء كان نظاما سياسيا ، أو اجتماعيا أو اقتصاديا أو عسكريا أو تعليميا ، أو ثقافيا أو إعلاميا . إنها أمة فريدة فى عقيدتها وشريعتها ... عقيدتها وشريعتها ربانية إسلامية : ﴿ صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون ﴾ (٣) .

وهكذا كانت أمة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب (إسرائيل) والأسباط وهم أبناء يعقوب وموسى وعيسى

---

(١) البقرة : ١٤٣ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ١٨٩ – ١٩٥ .
(٢) البقرة : ١٣١ .
(٣) البقرة : ١٣٨ .

والأنبياء والمرسلون جميعا : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ (١) .

(جـ) إن مفهوم الأمة فى ضوء التصور الإسلامى ، هى مجموع الأفراد الذين تشدهم إلى دولتهم رابطة العقيدة الإسلامية ، وهى رابطة الانتماء الاختيارى لدولة العقيدة ، لأن الدولة الإسلامية دولة عقـدية ، وليست دولة جنس معين ، أو عنصر معين ، فهى دولة مجموع المؤمنين مهما اختلفت أجناسهم وأوطانهم وألوانهم .

خامسا : إن إمامة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام للمسلمين فى الحرم الآمن لا تعنى أنهما ، كانا مالكين لبيت الله الحرام ، ولكنهما كانا سادنين ، خادمين لبيت الله الحرام ، مهمتهما تطهيرُ البيت وإعدادُه للطائفين والعاكفين والركع السجود .

ولأن الإمامة الإسلامية لا تتحقق إلا فى مجتمع آمن ، ولأن الإسلام لا يقوم إلا فى مجتمع آمن ، ولأن العبادة لله بكمالها لا تتحقق إلا فى مجتمع آمن ، فقد جعل الله الحرم آمنا ، وحفظه من المعتدين وجعله عتقا من الجبابرة ، فلم يملكه أحد قط ، بل لقد حرّم الله أن تطأ هذا الحرم الآمن ، أقدام مشركة ، أو أقدام نجسة ؛ فحينما حاول أبرهة الحبشى غزو مكة وهدم الكعبة ، أرسل الله عليهم طيرا أبابيل : ﴿ ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول ﴾ . ورغم أن قريشا المشركة كانت تعيش على أرض الحرم الآمن وتقوم على خدمة الحجيج فى ذلك الوقت ، إلا أن الله لم يجعل لها يدا فى حماية بيته الحرام .

---

(١) البقرة : ١٣٦ .

وحينما قامت قريش بترويع الآمنين فى حرم الله الآمن لأنهم آمنوا بدين محمد ﷺ ، ودين إبراهيم عليه السلام ، جاء الوقت الذى سلط الله عليهم محمداً وصحبه ، فقتلوا المشركين وطهروا حرمه الآمن من قوى البغى والعدوان ، وعاد حرم الله آمنا كما كان وكما هو كائن وكما سيكون دائما بإذن الله .

بل وحينما فسقت جرهم فى بيت الله الحرام سلط الله عليها خزاعة فأخرجتها من مكة ، وحينما فسقت خزاعة وظلمت وبغت بأرض الله الحرام سلط الله عليها من أخرجها ، وهكذا فإن مكة تنفى خبثها على مدار الزمان ، والحرم الآمن قد تكفل الله بحفظه من كل جبار لا يرعى حرمة بيته العتيق .

ورغـم ذلك الحفظ الربانى ، فقد كان إبراهيم عليه السلام حريصا أن يرفع يديه بين يدى الله عز وجل ليثبته على دينه ، ويجنبه وبنيه عبادة الأصنام ، التى اصطلى الناس بنيرانها . وعبادة الأصنام لا تعنى الأحجار فحسب ، ولكنها تعنى كل ما عبد من دون الله عز وجل ، وهكذا يجب أن يكون المسلمون حريصين : ﴿ واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام ﴾ (١) .

كما كان إبراهيم حريصا أن يرفع يديه إلى الله ، يطلب التوسعة على قومه لأن اليد العليا خير من اليد السفلى ، وحتى تكون يد المسلمين دواما هى العليا ، فلا تمتد لكافر أو مشرك .

وقبل ذلك كله ، كان إبراهيم حريصا على أن يرفع يديه إلى الله ، يطلب منه أن يعين أبناءه وذريته المسلمة على إقام الصلاة بمفهومها الشامل ، فهى عماد الدين ، من أقامها أقام الدين ، وهى ركن الإسلام ، ورأس الأمر وسنامه : ﴿ رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء ﴾ (٢) .

---

(١) إبراهيم : ٣٥ ، تفسير القرآن العظيم ، الجزء الثانى ، ص ٥٤٠ .
(٢) إبراهيم : ٤٠ ؛ تفسير القرآن العظيم ، ج ٢ ، ص ٥٤١ .

سادسا : إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب (إسرائيل) والأسباط (أبناء يعقوب ومنهم يوسف عليه السلام) وموسى وعيسى والنبيون ، لم يكونوا هودا أو نصارى ، بل كانوا مسلمين موحدين .

فالإسلام هو ملة الأنبياء قاطبة وإن تنوعت شرائعهم واختلفت مناهجهم كما قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾[1] . والآيات فى هذا كثيرة والأحاديث فمنها قوله ﷺ : « نحن معشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد » .

فمن استقام على هذه العقيدة الإسلامية فهو وريثها ، ووريث عهودها وبشاراتها ، ومن فسق عنها فقد فسق عن عهد الله ومن ثم فقد وراثته لهذا العهد وبشاراته .

وذلك يعنى أنه لا وشيجة مطلقا تربط اليهود أو النصارى بإبراهيم أو إسحاق أو يعقوب عليهم السلام حتى لو كان اليهود والنصارى من صلبهم ، فالوشيجة قد انقطعت بمجرد فسق اليهود والنصارى عن دين الله وهو الإسلام [2] ، فالعقيدة الإسلامية هى تراث القلب المؤمن لا تراث العصبية العمياء ، وأن وراثة هذا التراث لا تقوم على قرابة الدم والجنس ولكن على قرابة الإيمان والعقيدة . وبهذا يسقط ادعاء أهل الكتاب الذى يزعمون أنهم يرجعون بأصولهم إلى إبراهيم عن طريق إسحاق . ومن هنا يجب أن نفهم أنه لا صلة مطلقا بين دين إبراهيم القائم على توحيد الله (أى الإسلام) وبين العقائد المشوهة المنحرفة التى عليها أهل الكتاب و (المشركين) سواء

---

(١) الأنبياء : ٢٥ . انظر أيضا : تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ١٧٦ .

(٢) أورد الإمام الحافظ ابن كثير فى ، شرحه لقول الله تعالى : ﴿ ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون ﴾ ولا تلبسوا اليهودية والنصرانية بالإسلام وأنتم تعلمون أن دين الله الإسلام وأن اليهودية والنصرانية بدعة ليست من الله (تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ٨٤) .

كانت يهودية أو نصرانية ، وحينئذ تسقط كل دعاوى اليهود والنصارى فى اصطفائهم واجتبائهم لمجرد أنهم أبناء إبراهيم وحفدته ، وهم ورثته وخلفاؤه ، لأنهم كما قلنا قد انحرفوا عن عقيدة ودين إبراهيم وهو الإسلام .

ولنفس السبب ، سقطت دعاوى قريش فى الاستئثار بالبيت الحرام وشرف القيام عليه وعلى عمارته لأنهم فقدوا حقهم فى وراثة إمامة هذا البيت بانحرافهم عن عقيدة إبراهيم وحينئذ تسقط دعاوى كل أمة فى وراثة عقيدة إبراهيم عليه السلام إذا لم تستقم على أمر الله : ﴿ إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا ﴾[١] .

(١) آل عمران : ٦٨ .

الفصل الثالث

الجزء الأول

إبراهيم عليه السلام يؤمر بذبح ابنه إسماعيل عليه السلام

« عشنا مع آيات الله الكريم ، وهى تكشف لنا من مكنون الغيب ، أخبار إبراهيم عليه السلام منذ أربعة آلاف عام تقريبا ، وقد أنجاه الله من محاولة حرقه بالنار » .

« عندئذ استدبر إبراهيم عليه السلام مرحلة من مراحل حياته ليستقبل مرحلة ، وطوى صفحة لينشر أخرى وقال : ﴿ إنى ذاهب إلى ربى سيهدين ﴾ (١) ، هكذا « إنِّى ذاهب إلى ربى » ، هجرة مكانية ، هجرة يترك فيها كل شيء من ماضى حياته ... يترك أباه ، وقومه وأهله وبيته ووطنه وكل ما يربطه بهذه الأرض ، وبهؤلاء الناس ويدع وراءه كل شيء مسلما نفسه لربه لا يستبقى منها شيئا ، موقن أن ربه سيهديه وسيرعى خطاه ، وينقلها فى الطريق المستقيم .. إنها الهجرة الكاملة من حال إلى حال ، ومن موضع إلى موضع ، ومن أواصر شتى إلى آصرة واحدة لا يزحمها فى النفس شيء ، إنه التعبير عن التجرد والخلوص والاستسلام والطمأنينة واليقين » .

« وكان إبراهيم حتى هذه اللحظة وحيدا لا عقب له ، وهو يترك وراءه أواصر الأهل والقربى ، والصحبة والمعرفة . وكل مألوف له فى ماضى حياته ، وكل ما يشده إلى الأرض التى نشأ فيها والتى انحسم ما بينه وبين أهلها ، الذين ألقوه فى الجحيم . فاتجه إلى ربه الذى أعلن أنه ذاهب إليه ، اتجه إليه يسأله الذرية المؤمنة والخلف الصالح : ﴿ رب هب لى من الصالحين ﴾(٢) . واستجاب الله

---

(١) الصافات : ٩٩ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ٤ ، ص ١٤ – ١٩ ؛ وحيث أن أسلوب العرض للحادثه التاريخية يشكل ركيزة من ركائز المنهج الإسلامى للدراسات التاريخية ، فقد نقلنا عرض الحادثة هنا وفى مواضع أخرى من كتابنا نصا عن « فى ظلال القرآن » تأليف سيد قطب ، المجلد الخامس ص ٢٩٩٤ ـــ ٢٩٩٧ ، لأننا لا نستطيع أن نعرضها كما عرضها ذلك الكاتب رحمه الله .

(٢) الصافات : ١٠٠ .

دعاء عبده الصالح المتجرد ، الذى ترك وراءه كل شيء وجاء إليه بقلب سليم : ﴿ فبشرناه بغلام حليم ﴾(١) هو إسماعيل – وسنرى آثار حلمه الذى وصفه ربه به وهو غلام . ولنا أن نتصور فرحة إبراهيم الوحيد المفرد المهاجر المقطوع من أهله وقرابته . لنا أن نتصور فرحته بهذا الغلام ، الذى يصفه ربه بأنه حليم » .

« والآن آن لنا أن نطلع على الموقف العظيم الكريم الفريد فى حياة إبراهيم . بل فى حياة البشر أجمعين . وأن نقف من سياق القصة فى القرآن أمام المثل الموحى الذى يعرضه الله للأمة المسلمة من حياة أبيها إبراهيم عليه السلام ..» .

﴿ فلما بلغ معه السعى ، قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ﴾(٢) .

« يا لله ويالروعة الإيمان والطاعة والتسليم » .

« هذا إبراهيم الشيخ عليه السلام ، المقطوع من الأهل والقرابة . المهاجر من الأرض والوطن ، ها هو ذا يرزق فى كبره وهرمه بغلام ، طالما تطلع إليه . فلما جاءه ، جاءه غلاما ممتازا يشهد له ربه بأنه حليم . وها هو ذا يكاد يأنس به ، وصباه يتفتح ، ويبلغ معه السعى ويرافقه فى الحياة .. ها هو ذا ما يكاد يأنس ويستروح بهذا الغلام الوحيد ، حتى يرى فى منامه أنه يذبحه . ويدرك أنها إشارة من ربه بالتضحية . فماذا ؟ إنه لا يتردد ، ولا يخالجه إلا شعور الطاعة ، ولا يخطر له إلا خاطر التسليم .. نعم إنها إشارة . مجرد إشارة . وليست وحيا صريحا ، ولا أمرا مباشرا . ولكنها إشارة من ربه .. وهذا يكفى .. هذا يكفى ليلبى ويستجيب . ودون أن يعترض ودون أن يسأل ربه .. لماذا يا ربى اذبح ابنى الوحيد ؟ » .

«ولكنه لا يلبى فى انزعاج ، ولا يستسلم فى جزع . ولا يطيع فى اضطراب .. كلا إنما هو القبول والرضا والطمأنينة والهدوء . يبدو ذلك فى

---

(١) الصافات : ١٠٢ .

(٢) الصافات : ١٠١ ، « أول من فتق لسانه بالعربية المبيَّنة إسماعيل وهو ابن أربع عشرة سنة » حديث صحيح رقم ٢٥٧٨ صحيح الجامع الصغير .

كلماته لابنه وهو يعرض عليه الأمر الهائل فى هدُوء وفى اطمئنان عجيب :

﴿ قال يا بنى إنِّى أرى فى المنام أنِّى أذبحك ، فانظر ماذا ترى ﴾ .. لهى كلمات المالك لأعصابه ، المطمئن للأمر الذى يواجهه . الواثق بأنه يؤدى واجبه وهى فى الوقت ذاته كلمات المؤمن ، الذى لا يهوله الأمر فيؤديه ، فى اندفاع وعجلة ليخلص منه وينتهى ، ويستريح من ثقله على أعصابه) .

« والأمر شاق – ما فى ذلك شك – فهو لا يطلب إليه أن يرسل بابنه الوحيد إلى معركة ، ولا يطلب إليه أن يكلفه أمرا تنتهى به حياته .. إنَّما يطلب إليه أن يتولى هو بيده . يتولى ماذا ؟ يتولى ذبحه .. وهو – مع هذا – يتلقى الأمر هذا التلقى ، ويعرض على ابنه هذا العرض ، ويطلب إليه أن يتروى فى أمره ، وأن يرى فيه رأيه » ! .

« إنه لا يأخذ ابنه على غرة لينفذ إشارة ربه وينتهى إنما يعرض الأمر عليه كالذى يعرض المألوف من الأمر ، فالأمر فى حسه هكذا ، ربه يريد فليكن ما يريد على العين والرأس . وابنه ينبغى أن يعرف ، وأن يأخذ الأمر طاعة واستسلاما لا قهرا واضطرارا . لينال هو الآخر أجر الطاعة ، وليسلم هو الآخر ويتذوق حلاوة التسليم . إنه يحب لابنه أن يتذوق لذة التطوع التى ذاقها ، وأن ينال الخير الذى يراه هو أبقى من الحياة وأقنى » .

فماذا يكون من أمر الغلام ، الذى يعرض عليه الذبح ، تصديقا لرؤيا رآها أبوه ؟ .

إنه ارتقى إلى الأفق الذى ارتقى إليه من قبل أبوه .

﴿قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ﴾(1) ،.. إنه يتلقى الأمر لا فى طاعة واستسلام فحسب . ولكن فى رضا كذلك وفى يقين .. ﴿ يا أبت ﴾ .. فى مودة وقربى . فشبح الذبح لا يزعجه ولا يفزعه

---

(1) الصافات : ١٠٢ .

ولا يفقده رشده . بل لا يفقده أدبه ومودته .

﴿ افعل ما تؤمر ﴾ .. فهو يحس ما أحسه من قبل قلب أبيه . يحس أن الرؤيا إشارة . وأن الإشارة أمر . وأنها تكفى لكى يلبى وينفذ بغير لجلجة . ولا تمحل ولا ارتياب .

ثم هو الأدب مع الله ، ومعرفة حدود قدرته وطاقته فى الاحتمال والاستعانة بربه على ضعفه ونسبه الفضل إليه فى إعانته على التضحية ، ومساعدته على الطاعة : ﴿ ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ﴾ .

ولم يأخذها بطولة . ولم يأخذها شجاعة . ولم يأخذها اندفاعا إلى الخطر دون مبالاة . ولم يظهر لشخصه ظلا ولا حجما ولا وزنا .. إنما أرجع الفضل كله لله إن هو أعانه على ما يطلب إليه ، وأصبره على ما يراد به . ﴿ ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ﴾

يا للأدب مع الله ويا لروعة الإيمان . ويا لنبل الطاعة . ويالعظمة التسليم . ويخطو المشهد خطوة أخرى وراء الحوار والكلام .. يخطو إلى التنفيذ : ﴿ فلما أسلما وتله للجبين ﴾ (١) ..

ومرة أخرى يرتفع نبل الطاعة . وعظمة الإيمان . وطمأنينة الرضا وراء كل ما تعارف عليه بنو الإنسان .. إن الرجل يمضى فيكب ابنه على جبينه استعدادا . وإن الغلام يستسلم فلا يتحرك امتناعا . وقد وصل الأمر إلى أن يكون عيانا .

لقد أسلما .. فهذا هو الإسلام . هذا هو الإسلام فى حقيقته . ثقة وطاعة وطمأنينة ورضا وتسليم .. وتنفيذ .. وكلاهما لا يجد فى نفسه إلا هذه المشاعر التى لا يصنعها غير الإيمان العظيم .

إنها ليست الشجاعة والجرأة . وليس الاندفاع والحماسة . لقد يندفع المجاهد فى الميدان يقتل ويقتل . ولقد يندفع الفدائى وهو يعلم أنه قد لا يعود . ولكن هذا كله شيء والذى يصنعه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام هنا شيء

---

(١) الصافات : ١٠٣ .

آخر .. ليس هنا دم فائر ، ولا حماسة دافقة ولا اندفاع فى عجلة تخفى وراءها الخوف من الضعف والنكوص إنما هو استسلام الواعى المتعقل القاصد المريد ، العارف بما يفعل المطمئن لما يكون . لا بل هنا الرضا الهادىء المستبشر المتذوق للطاعة وطعمها الجميل .

هنا كان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام قد أديا . كانا قد أسلما . كانا قد حقَّقَا الأمر والتكليف . ولم يكن باقيا إلا أن يذبح إسماعيل ، ويسيل دمه ، وتزهق روحه .. وهذا أمر لا يعنى شيئا فى ميزان الله ، بعد ما وضع إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام فى هذا الميزان من روحهما وعزمهما ومشاعرهما كل ما أراده منهما ربهما .

كان الابتلاء قد تم ، والامتحان قد وقع . ونتائجه قد ظهرت . وغاياته قد تحققت . ولم يعد إلا الألم البدنى . وإلا الدم المسفوح . والجسد الذبيح . والله لا يريد أن يعذب عباده بالابتلاء . ولا يريد دماءهم وأجسادهم فى شيء . ومتى خلصوا له واستعدوا للأداء بكلياتهم فقد أدوا ، وقد حققوا التكليف ، وقد جازوا الامتحان بنجاح .

وعرف الله من إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام صدقهما فاعتبرهما قد أديا وحققا وصدقا :

﴿ وناديناه أن يا إبراهيم . قد صَدَّقت الرؤيا إنَّا كذلك نَجزى المحسنين إنَّ هذا لهو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم ﴾ (١) .

قد صدقت الرؤيا وحققتها فعلا . فالله لا يريد إلا الإسلام والاستسلام بحيث لا يبقى فى النفس ما تكنه عن الله أو تعزه عن أمره أو تحتفظ به دونه ، ولو كان هو الابن فلذة الكبد . ولو كانت هى النفس والحياة . وأنت – يا إبراهيم – قد فعلت . جدت بكل شيء . وبأعز شيء . وجدْتَ به فى رضا وفى هدوء وفى طمأنينة وفى يقين . فلم يبق إلا اللحم والدم . وهذا ينوب عنه ذبح . أى ذبح

---

(١) الصافات : ١٠٤ – ١٠٥ .

عظيم . قيل : إنه كبش وجده إبراهيم مهيأ بفعل ربه وإرادته ليذبحه بدلا من إسماعيل .

وقيل له : ﴿ إنا كذلك نجزى المحسنين ﴾ .. نجزيهم باختيارهم لمثل هذا البلاء . ونجزيهم بتوجيه قلوبهم ورفعها إلى مستوى الوفاء . ونجزيهم بأقدارهم وإصبارهم على الأداء . ونجزيهم كذلك باستحقاق الجزاء .

ومضت بذلك سنة النحر فى الأضحى . ذكرى لهذا الحادث العظيم الذى يرتفع منارة لحقيقة الإيمان ، وجمال الطاعة . وعظمة التسليم . والذى ترجع إليه الأمة المسلمة لتعرف فيه حقيقة أبيها إبراهيم عليه السلام ، الذى تتبع ملته ، والذى ترث نسبه وعقيدته . ولتدركُ طبيعة العقيدة التى تقوم بها أو تقوم عليها ، ولتعرف أنها الاستسلام لقدر الله فى طاعة راضية واثقة طيبة لا تسأل ربها لماذا ؟ ولا تتلجلج فى تحقيق إرادته عند أول إشارة منه وأول توجيه . ولا تستبقى لنفسها فى نفسها شيئا ، ولا تختار فيما تقدمه لربها هيئة ولا طريقة لتقديمه إلا كما يطلب هو إليها أن تقدم .

ثم لتعرف أن ربها لا يريد أن يعذبها بالابتلاء ، ولا أن يؤذيها بالبلاء إنما يريد أن تأتيه طائعة ملبية وفيّه مؤدية . مستسلمة لا تقدم بين يديه . ولا تتألى عليه ، فإذا عرف منها الصدق فى هذا أعفاها من التضحيات والآلام . واحتسبها لها وفاء وأداء . وقبل منها وفداها . وأكرمها كما أكرم أباها : ﴿ وتركنا عليه فى الآخرين ﴾ (١) .

فهو مذكورعلى توالى الأجيال والقرون ، وهو أمة ، وهو أبو الأنبياء ، وهو أبو هذه الأمة المسلمة ، وهى وارثة ملته ، وقد كتب الله لها وعليها قيادة البشرية على ملة إبراهيم . فجعلها الله له عقبا ونسبا إلى يوم الدين : ﴿ سلام على إبراهيم ﴾ (٢) ..

سلام عليه من ربه ، سلام يسجل فى كتابه الباقى ، ويرقم فى طوايا الوجود الكبير .

---

(١) الصافات : ١٠٨ .	(٢) الصافات : ١٠٩ .

﴿ كذلك نجزى المحسنين ﴾ [1] ..

كذلك نجزيهم بالبلاء .. والوفاء .. والذكر .. والإسلام .. والتكريم .

﴿ إنَّه من عبادنا المؤمنين ﴾ [2] ..

وهذا جزاء الإيمان . وتلك حقيقته فيما كشف عنه البلاء المبين . ثم يتجلى عليه ربه بفضله مرة أخرى ونعمه فيهب له إسحاق فى شيخوخته ، ويبارك إسحاق ، ويجعل إسحاق نبيا من الصالحين : ﴿ وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين . وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين ﴾ [3] .

تعليـــق :

هذا نموذج يبين لنا أهمية الأسلوب [4] ، فى عرض أحداث التاريخ الإسلامى ، فالأسلوب يشكل ركيزة من الركائز التى يقوم عليها المنهج الإسلامي لكتابة التاريخ ، والنص القرآني الذى يعالج أمر الله سبحانه وتعالى لإبراهيم عليه السلام بذبح ابنه يرسي توجيهات ومعالم هامة في حياة الأمة المسلمة ، نحاول أن نشير إلى بعض منها ، بقدر ما يفتح الله به علينا :

(أ) إن المسلم وهو يباشر الدعوة إلى دين الله عز وجل ، عليه ابتداء أن يتحمل التبعات التى تستلزمها مباشرة هذه الدعوة حتى لو كانت هذه التبعات تكلفه الخروج من وطنه ، ومن بين أهله وعشيرته : ﴿ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلّا أن يقولوا ربُّنا الله ﴾ [5] ؛ ﴿ فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ﴾ [6] .

---

(١) الصافات : ١١٠ .
(٢) الصافات : ١١١ .
(٣) الصافات : ١١٢ ، ١١٣ .
(٤) هذا العرض مأخوذ عن ظلال القرآن ، جـ ٥ ، ص ٢٩٩٤ - ٢٩٩٧ .
(٥) الحـــج ، ٤٠ .
(٦) آل عمـــران : ١٩٥ .

حتى لو كان من بين هذه التبعات أن يقدم حياته وماله فى سبيل الله ، لأنه ابتداء باع نفسه وماله لله ، وأمضى عقدا مع الله عز وجل بذلك :

﴿ إِنَّ الله اشْتَرَى مِنَ المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ﴾ .

(ب) إِنَّ الإسلام يعنى الاستسلام الكامل لله عز وجل ، فالمسلم لا يملك من أمر نفسه أو أهله أو ماله شيئا ، عند طلب الله سبحانه وتعالى له ، وهذا ما فعله إبراهيم عليه السلام ، حينما طلب الله سبحانه وتعالى منه أن يذبح ابنه ووحيده وفلذة كبده الذى رزق به على الكبر وهو إسماعيل عليه السلام – بيده هو – سمع وأطاع لأمر الله عز وجل ، لم يقل يا رب لماذا ؟ لم يقل يا رب إذن افتديه ؟ لم يقل يارب أوجد لى مخرجا ؟ .. كما أن إسماعيل عليه السلام كذلك مستسلما لأمر الله ، فحينما طلب منه أبوه إبراهيم عليه السلام أن يقدم نفسه تنفيذا لأمر الله أجاب : ﴿ يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إنْ شاء الله من الصابرين ﴾ . لم يقل : يا أبت راجع ربك ، لم يقل يا أبى افتدينى ، لم يقل : يا أبى كيف تذبح ابنك ووحيدك بيديك ، بل قال : ﴿ افعل ما تؤمر ، ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ﴾ .

(جـ) إن الشيطان مسلط على بنى آدم ، لا ينفك عنه ولا يخنث إلّا باليقظة وذكر الله ، فها هو يعرض لإبراهيم وإسماعيل وقد استسلما لأمر الله ، عند جمرة العقبة ، فضربه إبراهيم بسبع جمرات ، ثم عرض له مرة ثانية عند الجمرة الوسطى ، ومرة ثالثة عند الجمرة القصوى فضربه إبراهيم عليه السلام .

ومعنى ذلك : أن الشيطان وحزبه ، لا يكفون أبدا عن فتنة بنى آدم ، إنَّهم لا ييأسون أبدا ، وهذا يتطلب من المسلم أن يكون دواما متيقظا ، لا يفتر عن ذكر الله ، والتحصن بالله من الشيطان الرجيم .

إن الله سبحانه وتعالى رحيم بعباده ، بل هو أرحم بعباده من آبائهم وأمهاتهم ، فحينما تبيّن استسلام إبراهيم وابنه – عليهما السلام – لله عز

وجل ونجحا فى الابتلاء جاءت رحمة الله . سبحانه وتعالى ، متمثلة فى إعفاء إبراهيم – عليه السلام – من إراقة دم ابنه إسماعيل – عليه السلام – ومن هنا يجب أن يتعلق بصر المسلم دائما برحمة الله عز وجل .

إن النجاح فى الاختبار ، والثبات والصبر على الابتلاء يرفع درجات صاحبه عند الله عز وجل .

(د) ﴿ يا بني ، إنِّى أرى فى المنام أَنِّى أذبحك ، فانظر ماذا ترى ﴾ ، قال : ﴿ يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ﴾ .

﴿ إن هذا لهو البلاء المبين ﴾ .

لقد قص الله علينا هذه الحادثة ، وعلق عليها بأنها بلاء مبين ، لا لمجرد التسلية ، أو سرد الأخبار ، وإنَّما لإعطاء مثل من أمثلة الطاعة والانقياد الكامل للأوامر الربانية ، للتأسى .

فالأمر بذبح الابن : إذا قيس بمقاييس العقل والمنطق ، لابد أن يرفضاه ، ولكن إبراهيم ﴿ وإبراهيم الذى وفى ﴾ لم يفعل ذلك ، لأنه أسلم لله رب العالمين ، لأن أوامر رب العالمين لا تعرض على العقل البشرى المحدود ، وكذلك عندما عرض الأمر على ابنه كانت إجابة إسماعيل بوجوب تنفيذ الأمر الرباني ، مع ما فى هذا الأمر من تهديد لحياته . فقد تربى إسماعيل على وجوب تنفيذ أوامر الله ، وكان أبوه وأمه الأسوة الحسنة والنموذج الحى للطاعة والانقياد لأوامر الله سبحانه وتعالى .

لقد فارق أبوه إبراهيم ، الأهلَ والوطنَ ، وتبرأ منهم ، لأنهم أعداء لله . ورضيت أمه بالبقاء بوادٍ غير ذى زرع ، يهددها الموت عطشا ، وتهددها الوحدة ، رضيت بذلك لأنه أمر رباني . هكذا تربى وتعلم ، ثم نفَّذ ﴿ يا أبت ، افعل ما تؤمر .... ﴾ .

إنَّه درس لكل أسرة مسلمة ، فهذه أسرة أبى الأنبياء إبراهيم مطيعة منقادة لأوامر الله مع صعوبة تنفيذ تلك الأوامر .

لقد أعفانا رب العزة نحن ذرية إبراهيم من تلك الأوامر الصعبة . وكلفنا بأوامر هي خير لنا في ديننا ومعاشنا وعاقبة أمرنا فما بال الكثيرين يكسلون ، بل والبعض يرفضون تنفيذها .

إن رب العزة – سبحانه وتعالى – سوف يحاسب كل أب وكل أم وكل ابن قصر عن طاعة الله . ويقول لهم : لقد أطاعت أسرة إبراهيم فى المستحيل عقلا ، فلماذا عصيتم ؟؟؟ .. (وأعفيتكم من هذا المستحيل) ، لقد سقت إليكم المثل والقدوة فى تنفيذ المستحيل فما هو عذركم ؟؟ ..

الجزء الثانى

إسماعيل عليه السلام هو الذبيح
إن الذبيح كان بمكة ولم يكن بالشام

(وإسماعيل هو الذبيح . على القول الصواب عند علماء الصحابة والتابعين ، ومن بعدهم وأما القول بأنه إسحاق فباطل ، بأكثر من عشرين وجها ، وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول هذا القول إنما هو متلقى عن أهل الكتاب ، مع أنه باطل بنص كتابهم فإن فيه أن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه بكره ، وفى لفظ وحيده ، ولا شك عند أهل الكتاب مع المسلمين أن إسماعيل هو بكر أولاده ، والذى غر أصحاب هذا القول أن فى التوراة التى بأيديهم اذبح ابنك إسحق قال : وهذه الزيادة من تحريفهم وكذبهم لأنها تناقض قوله اذبح بكرك وحيدك ، ولكن اليهود حسدت بنى إسماعيل على هذا الشرف وأحبُّوا أن يكون لهم ، وأن يسوقوه إليهم ويحتازوه دون العرب ، ويأبى الله إلا أن يجعل فضله لأهله ، وكيف يسوغ أن يقال إن الذبيح إسحٰق والله تعالى قد بشر أم إسحٰق به ، وبابنه يعقوب ، فقال تعالى عن الملائكة : إنهم قالوا لإبراهيم لما أتوه بالبشرى : ﴿ لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحٰق ومن وراء إسحٰق يعقوب ﴾ فمحال أن يبشرها بأنه يكون له ولد ثم يذبحه . ولا ريب أن يعقوب داخل فى البشارة فتناول البشارة لإسحٰق ويعقوب فى اللفظ واحد وهذا ظاهر الكلام وسياقه . فإن قيل لو كان الأمر كما ذكرتموه لكان يعقوب مجرورا عطفا على إسحق فكانت القراءة ومن وراء إسحٰق يعقوب أى ويعقوب من وراء إسحٰق قيل لا يمنع الرفع أن يكون يعقوب مبشرا به لأن البشارة قول مخصوص وهى أول خبر سار صادق وقوله تعالى ومن وراء إسحٰق يعقوب جملة متضمنة لهذه القيود فتكون بشارة بل حقيقة البشارة

---

(١) « زاد المعاد فى هدى خير العباد » ، جـ ١ ، ص ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ٤ ، ص ١٤ – ١٩ .

هى الجملة الخبرية . ولما كانت البشارة قولا ، كان موضع هذه الجملة نصبا على الحكاية بالقول . كأن المعنى ، وقلنا لها من وراء إسحق يعقوب ، والقائل إذا قال : بشرت فلانا بقدوم أخيه وثقله فى أثره ، لم يعقل منه إلا بشارة بالأمرين جميعا هذا مما لايستريب ذوقهم فيه البتة ، ثم يضعف الجر أمر آخر وهو ضعف قولك مررت بزيد ومن بعده عمرو لأن العاطف يقوم مقام حرف الجر فلا يفصل بينه وبين المجرور كما لا يفصل بين حرف الجر والمجرور ويدل عليه أيضا أن الله سبحانه لما ذكر قصة إبراهيم وابنه الذبيح فى سورة الصافات قال : ﴿ فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين . إن هذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم وتركنا عليه فى الآخرين سلام على إبراهيم كذلك نجزى المحسنين إنه من عبادنا المؤمنين ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ وبشرناه بإسحق ﴾ نبيا من الصالحين فهذه بشارة من الله تعالى له شكرا على صبره على ما أمر به وهذا ظاهر جدا فى أن المبشر به غير الأول بل هو كالنص فيه فإن قيل ، فالبشارة الثانية وقعت على نبوته أى لما صبر الأب على ما أمر به وأسلم الولد لأمر الله جازاه الله على ذلك بأن أعطاه النبوة قيل البشارة وقعت على المجموع على ذاته ووجوده وأن يكون نبيا ، ولهذا نصب نبيا على الحال المقدر أى مقدرا نبوته فلا يمكن إخراج البشارة أن تقع على الأصل ثم تخص بالحال ، التابعة الجارية مجرى الفضلة ، هذا محال من الكلام . بل إذا وقعت البشارة على نبوته فوقوعها على وجوده أولى وأحرى وأيضا فلا ريب أن الذبيح كان بمكة ولذلك جعلت القرابين يوم النحر بها ، كما جعل السعى بين الصفا والمروة ورمى الجمار تذكيرا لشأن إسماعيل وأمه ، وإقامة لذكر الله ، ومعلوم أن إسماعيل وأمه هما اللذان كانا بمكة دون إسحق ، وأمه ولهذا اتصل مكان الذبح وزمانه بالبيت الحرام الذى اشترك فى بنائه إبراهيم وإسماعيل ، وكان النحر بمكة من تمام حج البيت الذى كان على يد إبراهيم وابنه إسماعيل ، زمانا ومكانا ولو كان الذبح بالشام كما يزعم أهل الكتاب ومن تلقى عنهم لكانت القرابين والنحر بالشام لا بمكة وأيضا فإن الله سبحانه سمى الذبيح حليما لأنه لا أحلم ممن أسلم نفسه للذبح طاعة لربه ولما ذكر إسحق سماه « عليما » فقال تعالى : ﴿ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون ﴾ إلى أن قال : ﴿ قالوا

لا تخف وبشروه بغلام عليم ﴾ وهذا إسحق بلا ريب لأنه من امرأته وهى المبشرة به وأما إسماعيل فمن السرية وأيضا فإنهما بشرا به على الكبر واليأس من الولد وهذا بخلاف إسماعيل فإنه ولد قبل ذلك وأيضا فإن الله سبحانه وتعالى أجرى العادة البشرية أن بكر الأولاد أحب إلى الوالدين ممن بعده وإبراهيم عليه السلام لما سأل ربه الولد ووهبه له تعلقت شعبة من قلبه بمحبته والله تعالى قد اتخذه خليلا والخلة منصب يقتضى توحيد المحبوب بالمحبة وأن لا يشارك بينه وبين غيره فيها فلما أخذ الولد شعبة من قلب الوالد ، جاءت غيرة الخلة تنتزعها من قلب الخليل ، فأمره بذبح المحبوب فلما أقدم على ذبحه وكانت محبة الله أعظم عنده من محبة الولد خلصت الخلة حينئذ من شوائب المشاركة فلم يبق فى الذبح مصلحة إذ كانت المصلحة إنما هى فى العزم وتوطين النفس فيه فقد حصل المقصود فنسخ الأمر وفدى الذبيح وصَدَّق الخليل الرؤيا وحصل مراد الرب ومعلوم أن هذا الامتحان والاختبار إنما حصل عند أول مولود ولم يكن ليحصل فى المولود الآخر دون الأول بل لم يحصل عند المولود الآخر من مزاحمة الخلة ما يقتضى الأمر بذبحه وهذا في غاية الظهور وأيضا فإن سارة امرأة الخليل ﷺ غارت من هاجر وابنها أشد الغيرة فإنها كانت جارية فلما ولد إسماعيل وأحبه أبوه اشتدت غيرة سارة فأمر الله سبحانه أن يبعد عنها هاجر وابنها ويسكنها فى أرض مكة ليبرد عن سارة حرارة الغيرة وهذا من رحمته ورأفته فكيف يأمره سبحانه بعد هذا أن يذبح ابنها ويدع ابن الجارية بحالة هذا مع رحمة الله لها وإبعاد الضرر عنها وجبره لها فكيف يأمر بعد هذا بذبح ابنها دون ابن الجارية بل حكمته البالغة اقتضت أن يأمر بذبح ولد السرية فحينئذٍ يرق قلب الست على ولدها وتتبدل قسوة الغيرة رحمة ويظهر لها بركة هذه الجارية وولدها وأن الله لا يضيع بيتا ، هذه وابنها ، منهم ويرى عباده جبره بعد الكسر ولطفه بعد الشدة وأن عاقبة صبر هاجر وابنها على البعد والوحدة والغربة والتسليم إلى ذبح الولد آلت إلى ما آلت إليه من جعل آثارهما ومواطىء أقدامهما مناسك لعباده المؤمنين ومتعبدات لهم إلى يوم القيامة وهذه سننه تعالى

فيمن يريد رفعه من خلقه أن يمن عليه بعد استضعافه وذله وانكساره قال تعالى : ﴿ ونريد أن نمُنَّ على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ﴾ وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم[1]

---

(١) نظراً لأهمية هذا الموضوع ، فقد أوردنا ما قاله الإمام ابن قيم الجوزية فى كتابه « زاد المعاد » ، جـ ١ ، ص ١٥ - ١٧ ، نصا دون تصرف حتى تَعُمّ الفائدة وليدرك المشتغلون بالتاريخ أن ما يزعمونه من أن الذبيح هو إسحاق عليه السلام وإن ذلك كان فى فلسطين ، لا أصل له ، وأنهم بهذا الزعم يرددون ما يزعم اليهود ، وأنهم لو كلفوا أنفسهم الرجوع إلى كتابات السلف الصالح ، لأدركوا أنهم أخطأوا خطأ كبيراً بإيراد هذه المزاعم (عصر ما قبل الإسلام ، ص ١٢٧) .

الجـــزء الثالث

رسالة إسماعيل عليه السلام فى قومه

﴿ واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا ﴾ (١) .

وهنا يذكر القرآن الكريم إسماعيل أبا العرب وينوّه عن صفاته بأنه كان صادق الوعد ، وصدق الوعد صفة كل نبى ، وكل صالح ، فلابد أن هذه الصفة كانت بارزة فى إسماعيل بدرجة تستدعى إبرازها والتنويه بها بشكل خاص . وهو رسول ، فلابد أنه كانت له دعوة فى قومه ولابد وأنه استجاب بعض القوم لدعوته ؛ فقد كان فى العرب موحدين قبيل الرسالة المحمدية ، فالأرجح أنهم بقية الموحدين من أتباع إسماعيل .

ويذكر القرآن الكريم أيضا من أركان الدين الذى دعا إليه إسماعيل عليه السلام – وهو الإسلام – الصلاة والزكاة .

والصلاة والزكاة ركنان من أركان الإسلام الذى كان عليه إسماعيل ، وإبراهيم عليهمـا السـلام : والذى دعا إليه محمد ﷺ ....﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ (٢) .

---

(١) مريم : ٥٤ – ٥٥ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣، ص ١٢٥ – ١٢٦ . وقد ثبت فى صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل »

(٢) البقرة : ١٣٦ ؛ مسلمون أى مطيعون خاضعون كما قال تعالى : ﴿ وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون ﴾ والإسلام هو ملة الأنبياء قاطبة وإن اختلفت مناهجهم كما قال تعالى ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ والآيات فى هذا كثيرة ، والأحاديث فمنها قوله ﷺ : « نحن معشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد » انظر تفسير القرآن العظيم . جـ ١ ، ص ١٨٦ .

والصلاة هى الركن الأعظم فى الإسلام ، ولذلك فإن إبراهيم عليه السلام كان يدعو :

﴿ رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ﴾[1] ، وكان يدعو الله سبحانه وتعالى أن يوفق ابنه وأهله وأمته لإقام الصلاة : ﴿ ربنا ليقيموا الصلاة ﴾[2] . لماذا ؟ لأن للصلاة فى الإسلام منزلة ، لا تعدلها منزلة أية عبادة أخرى :

فهى عماد الدين الذى لا يقوم الدين إلا به قال رسول الله ﷺ : « رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد فى سبيل الله »

وهى آخر وصية وصى بها رسول الله ﷺ أمته عند مفارقته الدنيا ، جعل يقول – وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة – : « الصلاة الصلاة ، وما ملكت أيمانكم » .

وهى آخر ما ينقض من الدين ، فإن ضاعت ضاع الدين كله . قال رسول الله ﷺ : « لتنقضن عرى الإسلام عروة عروة فكلما انتقضت عروة تشبث الناس بالتى تليها ، فأولهن نقضا الحكم ، وآخرهن الصلاة »[3] .

والمتتبع لآيات القرآن الكريم يرى أن الله سبحانه وتعالى يذكر الصلاة ويقرنها بالذكر تارة : ﴿ قد أفلح من تزكى ، وذكر اسم ربه فصلى ﴾[4] ، وتارة يقرنها بالزكاة : ﴿ وأقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ﴾[5]، ومرة بالصبر : ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾[6] ، وطورا بالنسك ﴿ فصلّ لربك وانحر ﴾[7] .

وأحيانا يفتتح بها أعمال البر ويختتمها بها ، كما فى سورة المعارج ، وفى أول سورة المؤمنين : ﴿ قد أفلح المؤمنون . الذين هم فى صلاتهم خاشعون ﴾ .

---

(١) إبراهيم : ٤٠ . (٢) إبراهيم : ٣٧ . (٣) رواه ابن حبان من حديث أبي أمامة .
(٤) الأعلى : ١٤ – ١٥ .
(٥) البقرة : ١١٠ .
(٦) البقرة : ٤٥ .
(٧) الكوثر : ٢ .

وقد بلغ من عناية الإسلام بالصلاة ، أن أمر بالمحافظة عليها فى الحضر والسفر ، والأمن والخوف . وقد شدد النكير على من يفرط فيها وهدد الذين يضيعونها ، فقال جل شأنه : ﴿ فويل للمصلين ، الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ (١) .

ولهذا كله كان إسماعيل عليه السلام : يأمر أهله بالصلاة والزكاة ، ومن قبل سأل إبراهيم عليه السلام ربه : ﴿ رب اجعلنى مقيم الصلاة ، ومن ذريتى ، ربنا وتقبل دعاء ﴾ (٢) .

---

(١) الماعون : ٤ ، ٥ .
(٢) إبراهيم : ٤٠ .

الفصـــل الرابع

تاريخ الأمة المسلمة فى حرم الله الآمن
وما حوله منذ عهد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام
وحتى قبيل بعثة محمد ﷺ

لاحظنا من خلال العرض القرآنى والسنة النبوية لتاريخ إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وتاريخ بيت الله العتيق وحرمه الآمن [1] ، أن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام كانا إمامين للأمة المسلمة التى سكنت حرم الله الآمن ، كما أنهما كانا سادنين لبيت الله العتيق .

وذلك يعنى أن بيت الله العتيق الذى جعله الله دواما عتقا من الجبابرة ، لم يملكه أحد ، على مدار تاريخه الطويل ، وسيظل كذلك حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

وقد لاحظنا أيضا ، أن القبائل العربية ومنها الجراهمة التى سكنت إلى جوار بيت الله العتيق ، سواء أسلمت أم لم تسلم فى بداية أمرها – لم يكن لها سلطان على البيت ولم يكن لها حق فى مياه زمزم .

ولكن بأى دين كانت تدين الأمة التى سكنت حرم الله الآمن على عهد **إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ؟؟** .

من المؤكد أنهم كانوا مسلمين موحدين لأنه من غير المتصور – فى ظل التصور الإسلامى – أن يقبلَ إبراهيم عليه السلام وابنه وزوجه أن يعيشوا جوار أناس مشركين ، وإبراهيم عليه السلام هو الذى وقف فى وجه أمة برمتها لشركها بالله عز وجل ، وفاصلها وهجرها بعد أن دعاها إلى توحيد الله وإفراده وحده

---

(١) انظر ص ١٩ وما بعدها من رسالتنا هذه .

بالعبادة وكان فى هؤلاء القوم الذين فاصلهم أباه وقومه وعشيرته .

وليس من المتصور أن يقوم إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام والأئمة المسلمون من بعدهما بتطهير البيت لغير المسلمين ، وليس من المتصور أن الطائفين والعاكفين والركع السجود فى بيت الله العتيق ليسوا مسلمين ، وليس من المتصور أن يطلب إبراهيم عليه السلام من الله أن تقيم ذريته الصلاة وهم ليسوا مسلمين .

وليس من المتصور أن إبراهيم عليه السلام يسمح لابنه إسماعيل أن يقترن بفتاة غير مسلمة وهو الرسول الكريم ؟؟ .

كما أن الله سبحانه وتعالى قد ذكر فى كتابه الكريم أنه قد جعله للناس إماما ، والناس الذين كان إبراهيم إماما لهم لابد وأن يكونوا مسلمين ، ولهذا كله يمكن افتراض أن الجراهمة على عهد إبراهيم وإسماعيل كانوا مسلمين .

وبالإضافة إلى ما سبق ، فإن إسماعيل عليه السلام كان رسولا نبيا : ﴿ واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبيا . وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا [١] ﴾ وكل رسول كان يرسل إلى قومه خاصة ، فمن المؤكد أنه قد استجاب له من استجاب ، أى أنه كان هنالك مسلمين سواء من الجراهمة أو ممن أتى بعدهم أو عاصرهم من القبائل العربية التى كانت تحط رحالها إلى جوار بيت الله الحرام على عهد إسماعيل عليه السلام ومن تبعه . والغالب أن أهل الحرم كانوا مسلمين على عهد إسماعيل أيضا لأنه يستحيل أن يقبل ابن النبى الكريم أو يسمح بنزول مشركين بحرم الله الآمن وهو الذى أراده الله سبحانه وتعالى أن يقوم على قاعدة التوحيد : ﴿ وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بى شيئا وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود ﴾ [٢] .

---

(١) مريم : ٥٤ - ٥٥ .

(٢) الحج : ٢٦ يقول الإمام الحافظ ابن كثير فى تفسير هذه الآية الكريمة : « هذا فيه تقريع وتوبيخ لمن عبد غير الله وأشرك به من قريش فى البقعة التى أسست من أول يوم على توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له تفسير القرآن العظيم جـ ٣ ص ٢١٥ .

كما أن الذين كانوا يحجون قبل عهد إبراهيم وبعد عهد إبراهيم عليه السلام حجا صحيحا ، هل يمكن أن يكونوا غير مسلمين ؟؟ إن النصوص القرآنية والأحاديث التى جمعناها تأبى إلا أن يكونوا مسلمين .

ولكن من المؤكد على الجانب الآخر ، أن سكان الحرم بعد عهد إسماعيل عليه السلام وأولاده بفترة – طويلة أو قصيرة – قد نجح الشيطان فى اجتيالهم – لا نقول كلهم – بل غالبيتهم عن دينهم وهو الإسلام يشهد بذلك نمط الحياة الجاهلية التى كانوا يعيشونها قبل بعثة محمد ﷺ كما وضّح ذلك القرآن الكريم وأحاديث النبى محمد ﷺ .

من هم ولد إسماعيل ؟ ، وهل ظلت إمامة البيت لهم ، أم غلبوا على أمرهم ؟ .

يذكر ابن كثير فى كتابه البداية والنهاية ، أن إسماعيل عليه السلام قد تزوج بنت مضاض بن عمرو الجرهمى وجاءته بالبنين الاثنى عشر يذكر منهم نابت . ويذكر أيضا أن جميع عرب الحجاز على اختلاف قبائلهم يرجعون فى أنسابهم إلى ولدى إسماعيل عليه السلام : نابت وقيذر ونابت هو ابن أخت الجراهمة . ثم تغلبت جرهم على البيت طمعا فى ابن أختهم فحكموا بمكة وما والاها عوضا عن بنى إسماعيل مدة طويلة (١) .

والمصادر الإسلامية الموثقة لا تسمح لنا بكتابة أحداث تاريخ متسلسل بعد عهد إسماعيل عليه السلام وذريته وحتى قبيل بعثة محمد ﷺ :

ولذلك سنحاول بقدر الإمكان أن نتلمس بعض الأخبار الواردة فى كتب التاريخ المعتمدة ومنها :

أن الجراهمة من سكان الحرم وهم أخوال أبناء إسماعيل عليه السلام ، قد صار إليهم أمر البيت غصبا بعد نابت بن إسماعيل (٢) . وبمضِّى الزمان ، نجح الشيطان

---

(١) البداية والنهاية ، جـ ٢ ، ص ١٨٤ – ١٨٥ ، وهذه المعلومات لا نملك من الوثائق ما يكذبها أو يصدقها . فيما يتصل بالفترة فيما بعد إسماعيل عليه السلام .

(٢) البداية والنهاية ، جـ ٢ ، ص ١٨٥

فى اجتيالهم عن دينهم – لا أقول كلهم – وإنما يمكن افتراض أن الغالبية منهم قد حدث لها ذلك ، وطغت واستحلت حرمة البيت ، وظلموا من دخل به ، وأكلوا مال الكعبة . وظهر منهم الفسق والفساد حتى أنهم كانوا يأتون الفاحشة فى جوف الكعبة ، وبهذا نسوا عهدهم مع ربهم وعهدهم مع أنبيائهم ، بل ونسوا الأساس الذى أقيم عليه بيت الله العتيق وحرم الله الآمن – وهو التوحيد – .

ولكن القوم من سكان الحرم لم يحرموا رجالا راشدين ، يذكرونهم ويحضُّونهم على التوبة ، فها هو مضاضى بن عمرو بن حارث يقوم فى قومه خطيبا ومذكرا :

(يا قوم ابقوا على أنفسكم وراقبوا الله فى حرمه وأمنه فقد رأيتم وسمعتم من هلك من صدر هذه الأمم قبلكم قوم هود وقوم صالح وشعيب فلا تفعلوا وتواصلوا وتواصوا بالمعروف وانهوا عن المنكر ولا تستخفوا بحرم الله تعالى وبيته الحرام ، ولا يغرنكم ما أنتم فيه من الأمن والقوة فيه ، وإياكم والإلحاد فيه بالظلم فإنه بوار وأيم الله لقد علمتم أنه ما سكنه أحد قط فظلم فيه وألحد إلا قطع الله عز وجل دابرهم . واستأصل شأفتهم ، وبدل أرضهم غيرهم ، فاحذروا البغى فإنه لا بقاء لأهله قد رأيتم وسمعتم من سكنه قبلكم من طسم وجديس والعماليق ممن كانوا أطول منكم أعمارا وأشد قوة ، وأكثر رجالا وأموالا ، وأولادا فلما استخفوا بحرم الله وألحدوا فيه بالظلم أخرجهم الله منها بالأنواع الشتى فمنهم من أخرج بالذر ، ومنهم من أخرج بالجدب ، ومنهم من أخرج بالسيف ، وقد سكنتم مساكنهم ، وورثتم الأرض من بعدهم ، فوقروا حرم الله وعظموا بيته الحرام وتنزهوا عنه وعما فيه ولا تظلموا من دخله وجاء معظما لحرماته وآخر جاء بايعا لسلعته أو مرتغبا فى جواركم ، فإنكم إن فعلتم ذلك تخوفت أن تخرجوا من حرم الله خروج ذل ، وصغار حتى لا يقدر أحد فيكم أن يصل إلى الحرم ولا إلى زيارة البيت الذى هو لكم حرز وأمن والطير والوحوش تأمن فيه (١) .

فقال له قائل منهم ، يرد عليه يقال له : مجذع من الذى يخرجنا منه ؟ ألسنا أعز العرب وأكثرهم رجالا وسلاحا فقال له مضاض بن عمرو : إذا جاء الأمر

(١) أخبار مكة ص ٨٧ ، ٩١ ، ٩٢ .

بطل ما تقولون فلم يقصروا عن شيء مما كانوا يصنعون ، فلما رأى مضاض بن عمرو بن الحارث بن مضاض ما تعمل جرهم فى الحرم وما تسرق من مال الكعبة سرا وعلانية ، عمد إلى غزالين كانا فى الكعبة من ذهب وأسياف قلعية فدفنها فى موضع بئر زمزم وكان ماء زمزم قد نضب وذهب لمّا أحدث جرهم فى الحرم ما أحدثت غبى مكان البئر ودرس . فقام مضاض بن عمرو وبعض ولده فى ليلة مظلمة فحفر فى موضع بئر زمزم وأعمق ثم دفن فيه الأسياف والغزالين .

وهكذا صم القوم آذانهم عن نصيحة أخيهم ، واستمروا يعيثون فى الأرض فسادا فكان لابد أن يجرى عليهم ما يجرى على غيرهم ، إمضاء لسنن الله الثابتة فى حياة الأمم والشعوب : ﴿ وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ .

لقد سلط الله على قبائل الجراهمة قبائل خزاعة [1] ، فقاتلتهم وأخرجتهم حوالى القرن الثانى الميلادى ، ولا شك أن العقاب الربانى جاء متناسبا مع حجم الجرم الذى ارتكبوه وانتهاكهم لحرمة بيت الله العتيق وحرم الله الآمن الذى جعله الله آمنا إلى يوم القيامة . وقد حفظ لنا الشعر العربى[2] بعض هذه الأخبار .

فلما حازت خزاعة أمر مكة ، وصاروا أهلها جاءهم بنو إسماعيل وكانوا قد اعتزلوا حرب جرهم وخزاعة فلم يدخلوا فى ذلك ، فسألوهم السكن معهم فأذنوا لهم ثم جاء الوقت الذى تزوج فيه قصى بن كلاب حبى ابنة حليل بن حبشية بن سلول بن كعب بن عمرو بن ربيعة الخزاعى فولدت له بنيه الأربعة

(١) الذين كانوا قد نزلوا حول الحرم من ذرية عمرو بن عامر الذى خرج من اليمن لأجل ما توقع من تدمير الله للدولة السبأية بعد أن حذر قومه من العواقب الوخيمة والانتقام الربانى الذى سينزل بهم نتيجة كفرهم بالله عز وجل والخزاعيون من القبائل العربية التى كانت تسكن جنوب الجزيرة العربية على عهد الدولة السبأية (٦٥٠ ق . م - ١١٥ م) والذين تفرقوا فى شمال وجنوب الجزيرة بعد انهيار سد مأرب وتدمير الحضارة السبأية بسيل العرم الذى عاقب الله أهل سبأ بسبب كفرهم : ﴿ لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور . فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور ﴾ البداية والنهاية ، جـ ١ ، ص ١٨٥ ، معجم البلدان ، المجلد الثامن ، ص ١٣٤ - ١٤٢ ، تاريخ مكة ، ص ٩٢ - ٩٤ .

(٢) سيرة النبى ﷺ لابن هشام ؛ ج ١ ، ص ١٢٦ - ١٢٧ .

عبد الدار وعبد مناف وعبد العزى وعبدا . ثم صار البيت إليه ، بعد خزاعة التى امتدت خدمتها للبيت العتيق حوالى ثلاثمائة عام .

وتذكر المصادر أن الخزاعيين كانوا قوم سوء لأن الشرك قد فشا فيهم ، ومظهر ذلك نلمحه من خلال ما فعله رئيسهم عمرو بن لحى لعنه الله الذى ابتدع أشياء فى الدين لقومه – غير بها دين إبراهيم عليه السلام . فاتبعه بذلك العرب فضلوا بذلك ضلالا بعيدا بينا فظيعا شنيعا . وقد ورد حديث عن رسول الله ﷺ أنه قد رأى عمرو بن لحى فى النار وأنه أول من سيب السوائب (١) .

وقد علق ابن كثير على رجوع سدانة البيت إلى قصى بن كلاب بقوله : فرجع الحق إلى نصابه ، ورد شارد العدل بعد إيابه ، واستقرت بقريش الدار ، وقضت من خزاعة المراد والأوطار ، وتسلمت البيت العتيق لكن بما أحدثت خزاعة من عبادة الأوثان ونصبها إياها حول الكعبة ونحرهم لها وتضرعهم عندها واستنصارهم بها وطلبهم الرزق منها وأنزل قصى قبائل قريش أباطح مكة وأنزل طائفة منهم ظواهرها فكان يقال قريش البطاح وقريش الظواهر .

وكان لقصى (٢) بعد وفاته أبناء أكبرهم عبد الدار الذى تولى خدمة بيت الله الحرام بعد وفاة والده ، وبعد وفاة عبد الدار ، صار الأمر فى أبنائه وأبناء أخيه عبد مناف . فكانت السقاية والرفادة لعبد شمس بن عبد مناف ، وكانت الحجابة واللواء والندوة لبنى عبد الدار . وانتقلت السقاية والرفادة بعد ذلك إلى هاشم ابن عبد مناف (ولد عام ٤٦٤ م وتوفى ٥١٠ م) الذى تزوج سلمى بنت عامر الخزرجية فولدت له شيبة وبعد وفاة هاشم انتقلت الرفادة والسقاية إلى أخيه المطلب (ت ٥٢٠ م) الذى ذهب إلى المدينة لإحضار ابن أخيه شيبة (عبد المطلب) من عند أخواله . وبعد وفاة عبد المطلب تولى ابن أخيه عبد المطلب جد رسول الله ﷺ السقاية والرفادة .

أما الحجابة فقد ظلت فى أيدى بنى عبد الدار حتى وصلت إلى طلحة بن

---

(١) البداية والنهاية : جـ ٢ ، ص ١٨٩ ، « أول من غير دين إبراهيم عمرو بن لحىّ بن قمعه بن خندق أبو خزاعة » ، حديث صحيح رقم ٢٥٧٧ صحيح الجامع الصغير .

(٢) البداية والنهاية ، جـ ٢ ، ص ٢١٠ ، سيرة ابن هشام ، جـ ١ ، ص ١٤٠ .

أبى طلحة بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار على عهد رسول الله ﷺ .

وقد ولد لعبد المطلب عشرة نفر وست نسوة منهم العباس وحمزه وعبد الله وأبو طالب واسمه عبد مناف والزبير والحارث وأبو لهب واسمه عبد العزى ، وصفية وأم حكيم البيضاء وعاتكة وأميمة وأروى وبرة .

وأم عبد الله وأبى طالب والزبير وجميع النساء إلا صفية فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم بن تعظة بن مرة بن كعب بن مرة بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النَضْر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر ابن نزار بن معد بن عدنان . فولد لعبدالله محمد رسول الله ﷺ ، سيد ولد آدم وأمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب ابن لؤى .

فمحمد ﷺ أشرف ولد آدم حسبا وأفضلهم نسبا من قبل أبيه وأمه صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين .

وقد روى عن رسول الله ﷺ : « إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشا من كنانة ، واصطفى هاشما من قريش ، واصطفانى من بنى هاشم (١) .

تعليق :

وهكذا تؤكد لنا أحداث التاريخ أن مكة تنفى خبثها ، وأن لله فى حياة الأمم سنن لا تتبدل ولا تتغير منها :

أن الله سبحانه وتعالى يمكن في الأرض للمؤمنين الموحدين :

﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليُمَكِّنَنَّ لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليُبَدِّلَنَّهُم من

---

(١) رواه الأوزاعى عن شداد بن عمار عن وائلة بن الأسقع ، البداية والنهاية ؛ جـ ٢ ، ص ٢١٠ ، سلسلة الأحاديث الصحيحة ، جـ ٤ ، ص ٢ ، حديث رقم ٣٠٢ ، رواه مسلم .

بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ﴾[١] .

وقد مكن الله فى أرض الحرم الآمن لإبراهيم وذريته وللجراهمة .

والتمكين له تبعات ، وصاحبه مطالب بواجبات :

﴿ الذين إنْ مَكَّنَّاهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ﴾[٢].

وقام إبراهيم وذريته والمسلمون من الجراهمة بواجباتهم ابتغاء مرضات الله – ولكن جاء الوقت الذى قصر فيه ذُرّيةُ المُمَكَّنِـمم فى أرض الحرم الآمن عن القيام بواجباتهم ، فتركوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وتركوا التواصى بالحق والتواصى بالصبر ، وظلموا أنفسهم بالشرك بالله ، وظلموا غيرهم بغيا فى الأرض واستكباراً ؛ لقد استحلوا حرمة البيت العتيق ، وظلموا من دخله ، وأكلوا مال الكعبة ، وظهر منهم الفسق والفساد حتى أنهم كانوا يأتون الفاحشة فى جوف الكعبة كما أورد الأزرقى فى « تاريخ مكة » . وكانوا يصدون عن بيت الله العتيق وحرمه الآمن . وبهذا نسوا عهدهم مع ربهم وعهدهم مع أنبيائهم ، والأساس الذى أقيم عليه بيت الله العتيق وحرم الله الآمن .

وهنا كان لابد وأن يتحقق فيهم سنة أخرى من سنن الله الكونية فى حياة الأمم والشعوب :

﴿ وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا وعذَّبناها عذابا نكرا ، فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا . أعد الله لهم عذابا شديداً[٣] ﴾ فسلط الله الخزاعيين ليخرجوا الجراهمة من حرم الله بعد ألف سنة من الإقامة أو يزيد :

﴿ وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾[٤].

وجاء الخزاعيون وقد مكن لهم فى حرم الله الآمن ، ودار الزمان دورته ،

---

(١) النور : ٥٥ .

(٢) الحج : ٤١ . (٣) الطلاق : ٨ – ١٠ . (٤) محمد : ٣٣ .

ونسى الخزاعيون سيرة الذين ظلموا وفسقوا فى حرم الله الآمن ، فكان على الله أن يخرجهم وأن يستبدل قوما غيرهم ، فالله لا يحابى أحدا ، ولا يعطل حكمه من أجل قرابة أو نسب ، وإن شاء فعل ، ولكن الله عادل ، عنده معايير وضوابط لا تختل . فلله الحمد والمنة .

حينما فسق الخزاعيون ، سلط الله عليهم القرشيين الذين انتزعوا منهم ولاية بيت الله الحرام والحرم الآمن ؛ ودار الزمان دورته وأشرك القرشيون من أبناء إسماعيل ، وفسقوا وظلموا ، بل وقعدوا فى طريق الذين يريدون توحيد الله سبحانه وتعالى ، وصدق فيهم وعد الله : ﴿ لاينال عهدى الظالمين ﴾[1] . فكان لابد أن يُسَلَّطَ عليهم ؛ لقد سلط الله عليهم أنصار التوحيد ، محمداً وصحبه ، فأخرجوا المشركين من بيت الله الحرام ، وطهروا الحرم الآمن من أدران الشرك ، وارتفع نداء لا إله إلا الله ، محمد رسول الله على كل ربوع الحرم الآمن ، بل على الأرض كلها .

هذه سننٍ ربانية فى حياة الأمم لا تتعطل أبدا ، يجب أن تتملاها البشرية ، وليحذر المسلمون أن يسلكوا مسالك الفاسقين أو أن يسلكوا مسالك الظالمين ، وإلَّا نزل بهم وحاق بهم ما حاق بغيرهم من عذاب أليم .

والعاقل من اتعظ بغيره :

﴿ إنّ فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهوشهيد ﴾[2].

---

(١) البقرة : ١٢٤ . (٢) ق : ٣٧ .

الفصـــل الخامـس
الجزء الأول
تاريخ وحضارة البيت العتيق وحرم الله الآمن ومكة المكرمة منذ أقدم الدهور

يرتبط تاريخ البيت العتيق بالحرم الآمن ويرتبط تاريخ مكة المكرمة بحرم الله الآمن ، وهذا التاريخ يرتبط ارتباطا وثيقا بتاريخ الأنبياء والرسل والبشرية بداية بآدم عليه السلام ومرورا بإبراهيم وإسماعيل . ونهاية بمحمد ﷺ وإلى يوم الدين .

وليس أمام البشرية من مصادر تَستقى منها معلومات صحيحة عن تاريخ هذا البلد الحرام ، إلا القرآن الكريم والسنة النبوية وكتب التراث المحققة . والجوانب التى سنقوم بمعالجتها فى تاريخ الحرم الآمن ومكة والبيت العتيق هى :

(أ) تسمية مكة :

مكة (١) أو بكة بيت الله الحرام . وقيل إنها سميت كذلك لأنها لا يفجر بها أحد إلا بكت عنقه (٢) .

وقيل بكة موضع البيت وما حول البيت مكة وإن قال البعض إن مكة الحرم كله .

ومن أسمائها رحم ، وصلاح والقادس لأنها تطهر من الذنوب ، والمقدسة والحاطمة لأنها تحطم من استخف بها ، والباسّة لأنها تبُسّ

---

(١) سميت كذلك لأنها تمك من ظلم فيها ، أى تهلكه وتنقصه .

(٢) والبك دق العنق . وقيل سميت كذلك لأنها كانت تدق رقاب الجبابرة إذا لحدوا فيها . قال عبد الله بن الزبير : لم يقصدها جبار قط بسوء إلا وقصمه الله عز وجل (معجم البلدان ، المجلد الثامن ، ص ١٣٤ ؛ تفسير القرطبى جـ ٤ ، ص ١٣٨ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ٣٨٣ .

الملحدين أى تحطهم . وقيل تخرجهم كما دَللنا على ذلك من خلال استعراض تاريخها . ومن أسمائها النسناسة التى لا تقر ظلما ولا بغيا ، ولا يبغى بها أحد إلا أخرجته . .

وأول بيت وضع للناس ببكة كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا ﴾ (١) . وسمى البيت بالعتيق لأنه عتق من الجبابرة ، لم ولن يملكه أحد .

وقد سمَّى الله تعالى مكة فى كتابه الكريم بأسماء أخرى منها :

* أم القرى : ﴿ ولتنذر أم القرى ومن حولها ﴾ .
* البلد الأمين : ﴿ والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين ﴾ .
* البلد : ﴿ لا أقسم بهذا البلد وأنت حل بهذا البلد ﴾ .

(ب) فضائل مكة وخواصها :

لماذا اختار الله سبحانه وتعالى مكة وفضلها على سائر الأماكن ؟؟ :

« إذا تأمل الإنسان أحوال الخلق ، يرى هذا الاختيار والتخصيص فيه دالا على ربوبية الله تعالى ووحدانيته ، وكمال حكمته وعلمه وقدرته ، وأنه الله الذى لا إله إلا هو ، فلا شريك له يخلق كخلقه ، ويختار كاختياره ، ويدبر كتدبيره فهذا الاختيار والتدبير والتخصيص المشهود أثره فى هذا العالم من أعظم آيات ربوبيته ، وأكبر شواهد وحدانيته وصفات كماله وصدق رسله .

ومن هذا اختياره سبحانه وتعالى من الأماكن والبلاد خيرها وأشرفها ، وهى البلد الحرام (٢) . فإنه سبحانه اختاره لنبيه ، وجعله مناسك لعباده ،

---

(١) روى أن أباذر الغفارى سأل رسول الله ﷺ : أى مسجد وضع أولا ؟ قال المسجد الحرام ؟ قلت : ثم أى ؟ قال : « المسجد الأقصى ، وقلت كم بينهما ؟ قال : أربعون عاماً ، قلت : ثم أى ؟ قال : حيث أدركتك الصلاة فصلى فكلها مسجد » أخرجه البخارى ومسلم وأحمد ، تفسير القرآن العظيم ؛ جـ ١ ، ٣٨٣ .

(٢) وفى الصحيحين « إن هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة .

وأوجب عليهم الإتيان إليه من القرب ومن البعد ، من كل فج عميق ، فلا يدخلونه إلا متواضعين متخشعين متذللين كاشفى رؤوسهم متجردين عن لباس أهل الدنيا . وجعله حرما آمنا لا يسفك فيه دم ولا تعضد به شجرة ولا ينفر له صيد ولا يختلى خلاه ولا يلتقط لقطته للتمليك بل للتعريف . ليس إلا وجعل قصده مكفرا لما سلف من الذنوب ، ماحيا للأوزار ، حاطا للخطايا ، كما فى الصحيحين عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من أتى هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه ، ولم يرضى لقاصده من الثواب دون الجنة » ؛ ففى السنن من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « تابعوا بين الحج والعمرة ، فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفى الكيرُ خبَث الحديد وليس للحِّج المبرور ثواب دون الجنة » . وفى الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما ، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة » . فلو لم يكن البلد الأمين خير بلاد الله وأحبَّها إليه ومختاره من البلاد لما جعل عرصاتها مناسك لعباده ، فرض عليهم قصدها ، وجعل ذلك من آكد فروض الإسلام وأقسم به فى كتابه العزيز فى موضعين منه فقال تعالى : ﴿ وهذا البلد الأمين ﴾ . وقال تعالى : ﴿ لا أقسم بهذا البلد ﴾ وليس على وجه الأرض بقعة يجب على كل قادر السعى إليها والطواف بالبيت الذى فيها ، غيرها . وليس على وجه الأرض موضع يشرع تقبيله ، واستلامه ، وتحط الخطايا والأوزار فيه ، غير الحجر الأسود ، والركن اليمانى . وثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم : « أن الصلاة فى المسجد الحرام بمائة ألف صلاة » . ففى النسائى والمسند بإسناد صحيح عن عبد الله بن الزبير عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام ، وصلاة فى المسجد الحرام أفضل من صلاة فى مسجدى هذا بمائة صلاة » ورواه ابن حبان فى صحيحه وهذا صريح فى أن المسجد الحرام أفضل بقاع الأرض على الإطلاق ولذلك كان شد الرحال إليه فرضا ولغيره مما يستحب ولا يجب ، وفى المسند والترمذى والنسائى عن عبد الله بن عدى بن الحمراء أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو واقف على راحلته بالجزورة من مكة يقول : « والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله ولولا أنى أُخرجت

منك لما خرجت » . قال الترمذى : هذا حديث صحيح .بل ومن خصائصها كونها قبلة لأهل الأرض كلهم ، فليس على وجه الأرض قبلة غيرها ومن خواصها ؛ أيضا أنه يحرم استقبالها واستدبارها عندَ قضاء الحاجة دون سائر بقاع الأرض ، وأصح المذاهب فى هذه المسألة أنه لا فرق فى ذلك من القضاء والبنيان لبضعة عشر دليلا ، من خواصها أيضا أن المسجد الحرام أول مسجد وضع فى الأرض كما فى الصحيحين عن أبى ذر قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أول مسجد وضع فى الأرض قال : « المسجد الحرام ، قلت : ثم أى ؟ قال : المسجد الأقصى . قلت : كم بينهما ؟ قال : أربعون عاما » . وقد أشكل هذا الحديث على من لم يعرف المراد به فقال معلوم أن سليمان بن داود الذى بنى المسجد الأقصى وبينه وبين إبراهيم أكثر من ألف عام وهذا من جهل هذا القائل فإن سليمان إنما كان له من المسجد الأقصى تجديده لا تأسيسه والذى أسسه هو يعقوب بن إسحق صلى الله عليهما وسلم بعد بناء إبراهيم الكعبة (١) بهذا المقدار ومما يدل على تفضيلها أن الله تعالى أخبر أنها أم القرى ، فالقرى كلها تبع لها ، وفرع عليها . وهى أصل القرى فيجب أن لا يكون لها فى القرى عديل . فهى كما أخبر النبى ﷺ عن الفاتحة أنها أم القرآن ، ولهذا لم يكن لها فى الكتب الإلهية عديل . ومن خصائصها أنها لا يجوز دخولها لغير أصحاب الحوائج المتكررة ، إلا بإحرام . وهذه خاصية لا يشاركها فيها شيء من البلاد . وهذه المسألة تلقاها الناس عن ابن عباس رضى الله عنهما . وقد روى عن ابن عباس بإسناد لا يحتج به مرفوعا لا يدخل أحد مكة إلا بإحرام من أهلها ، ومن غير أهلها . ذكره أبو أحمد بن عدى . ولكن الحجاج بن أرطأة فى الطريق وآخر قبله من الضعفاء ، وللفقهاء فى المسألة ثلاثة أقوال : النفى ، والإثبات ، والفرق بين من هو داخل المواقيت ومن هو قبلها ، فمن قبلها لا يجاوزها إلا بإحرام ، ومن هو داخلها ، فحكمه حكم أهل مكة .

---

(١) أورد الإمام القرطبى فى تفسيره بأن آدم عليه السلام هو الذى بنى المسجد الأقصى بعد بنائه للبيت العتيق بأربعين عاما . وأن يعقوب عليه السلام قد أقام قواعده وتجديده فقط بعد أن رفع جده إبراهيم عليه السلام القواعد من البيت العتيق الجامع لأحكام القرآن ، جـ ٢ ، ص ١٢٠ ؛ جـ ٤ ، ص ١٣٨ ، فتح البارى ، جـ ٦ ، ص ٤٠٨ – ٤٠٩ .

وهو قول أبى حنيفة والقولان الأولان للشافعى وأحمد . ومن خواصه أنه يعاقب فيه على الهم بالسيئات وإن لم يفعلها قال تعالى : ﴿ ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب إليم ﴾ (١) . فتأمل كيف عدى فعل الإرادة ههنا بالباء ولا يقال أردت بكذا إلا لما ضمنه معنى فعل ، بِهَمَّ فإنه يقال هممت بكذا . فتوعد الله من هم بأن يظلم فيه بأن يذيقه العذاب الأليم . ومن هذا تضاعف مقادير السيئات فيه لا كمياتها ، فإن السيئة جزاؤها سيئة ، لكن سيئة كبيرة وجزاؤها مثلها وصغيرة جزاؤها مثلها . فالسيئة فى حرم الله وبلده وعلى بساطه آكد وأعظم منها فى طرف من أطراف الأرض ولهذا ليس من عصى الملك على بساط ملكه كمن عصاه فى الموضع البعيد من داره وبساطه . فهذا فصل النزاع فى تضعيف السيئات والله أعلم . وقد ظهر سر هذا التفضيل والاختصاص فى انجذاب الأفئدة وهوى القلوب وانعطافها ومحبتها لهذا البلد الأمين فجذبه للقلوب أعظم من جذب المغناطيس للحديد . ولهذا أخبر سبحانه أنه مثابة للناس ، أى يثوبون إليه ، على تعاقب الأعوام ، من جميع الأقطار ولا يقضون منه وطرا بل كلما ازدادوا له زيارة ازدادوا له اشتياقا .

لا يرجع الطرف عنها حين ينظرها ... حتى يعود إليها الطرف مشتاقا

فلله كم لها من قتيل وسليب وجريح . وكم أنفق فى حبها ، من الأموال والأرواح ، ورضى المحب ، بمفارقة فلذ الأكباد ، والأهل والأحباب ، والأوطان ، مقدما بين يديه أنواع المخاوف والمتالف والمعاطف والمشاق ، وهو يستلذ ذلك كله ، ويستطيبه ، ويراه لو ظهر سلطان المحبة فى قلبه أطيب من نعم المتحلية وترفهم ولذاتهم .

وليس محبّا من يعد شقاؤه ... عذابا إذا ما كان يرضى حبيبه

وهذا كله سر إضافته إليه سبحانه وتعالى . بقوله ﴿ وطهر بيتى ﴾ فاقتضت هذه الإضافة الخاصة من هذا الإجلال والتعظيم والمحبة ما اقتضته كما اقتضت إضافته لعبده ورسوله إلى نفسه ما اقتضت من ذلك ، وكذلك إضافته

---

(١) الحج : ٢٥ .

عباده المؤمنين إليه كستهم من الجلال والمحبة والوقار ما كستهم ، فكل ما أضافه الرب تعالى إلى نفسه ، فله من المزية والاختصاص على غيره ما أوجبَ له الاصطفاء والاجتباء ثم يكسوه بهذه الإضافة تفضيلا آخر وتخصيصا ، وجلالة زيادة على ما له قبل الإضافة ولم يوفق لفهم هذا المعنى من سوى بين الأعيان والأفعال والأزمان والأماكن وزعم أنه لا مزية لشيء منها على شيء ، وإنما هو مجرد الترجيح بلا مرجح وهذا القول باطل بأكثر من أربعين وجها ويكفى تصور هذا المذهب الباطل فى فساده ، فإن مذهبا يقتضى أن يكون ذوات الرسل ، كذوات أعدائهم فى الحقيقة ، وإنما التفضيل بأمر ، لا يرجع إلى اختصاص الذوات بصفات ومزايا لا تكون لغيرها . وكذلك نفس البقاع واحدة بالذات ليس لبقعة على بقعة مزية البتة ، وإنما هو لما يقع فيها من الأعمال الصالحة ، فلا مزية لبقعة البيت والمسجد الحرام ومنى وعرفة والمشاعر على أى بقعة سميتها من الأرض ، وإنما التفضيل باعتبار أمر خارج عن البقعة لا يعود إليها ، ولا إلى وصف قائم بها والله سبحانه وتعالى قد أورد هذا القول الباطل بقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا جاءتهم آية قالوا لن نؤمنَ حتى نؤتَى مثل ما أُوتى رسل الله ﴾ قال الله تعالى : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ أى ليس كل أحد أهلا ولا صالحا لتحمل رسالته بل لها محال مخصوصة لا تليق إلا بها ولا تصلح إلا لها والله أعلم . بهذه المحال منكم ولو كانت الذوات متساوية ، كما قال هؤلاء ، لم يكن فى ذلك رد عليهم . وكذلك قوله تعالى : ﴿ وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء مَنَّ الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين ﴾ أى هو سبحانه أعلم بمن يشكره على نعمه ، فيختصه بفضله ويمنى عليه ممن لا يشكره . فليس كل محل يصلح لشكره واحتمال منته والتخصيص بكرامته فذوات ما اختاره واصطفاه من الأعيان والأماكن والأشخاص وغيرها مشتملة على صفات وأمور قائمة بها ليست فى غيرها ، ولأجلها ، اصطفاها الله وهو سبحانه الذى فضلها بتلك الصفات ، وخصها بالاختيار فهذا خلقه وهذا اختياره ﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ﴾ . وما أبين بطلان رأى يقتضى بأن مكان البيت الحرام مساو لسائر الأمكنة وذات التفضيل فى ذلك بأمور خارجة عن الذات والصفات القائمة بها ، وهذه الأقاويل وأمثالها من الجنايات التى جناها المتكلمون على الشريعة ، ونسبوها إليها وهى بريئة

منها ، وليس معهم أكثر من اشتراك الذوات ، فى أمر عام مع اختلافها فى صفاتها النفسية ، وما سوى الله تعالى بين ذات المسك وذات البول أبدا ، ولا بين ذات الماء وذات النار ، أبدا . والتفاوت البين بين الأمكنة الشريفة ، وأضدادها ، والذوات الفاضلة ، وأضدادها أعظم من هذا التفاوت بكثير فبين ذات موسى عليه السلام ، وفرعون من التفاوت أعظم ، ما بين المسك والرجيع ، وكذلك التفاوت بين نفس الكعبة وبين بيت السلطان ، أعظم من هذا التفاوت أيضا بكثير فكيف يجعل البقعتان سواء فى الحقيقة والتفضيل باعتبار ما يقع هناك من العبادات والأذكار والدعوات . ولم نقصد استيفاء الرد على هذا المذهب المردود والمرذول وإنما قصدنا تصويره وإلى اللبيب العادل العاقل التحاكم أولا يعبأ الله وعباده بغيره شيئا والله سبحانه لا يخصص شيئا ولا يفضله ويرجحه إلا لمعنى يقتضى تخصيصه وتفضيله . نعم هو معطى ذلك المرجح وواهبه فهو الذى خلقه ثم اختاره بعد خلقه ﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ﴾ (١) .

(جـ) من الذى بنى بيت الله العتيق ؟ ومتى ؟

﴿ إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين ﴾ (٢) .

يقول القرطبى : وقد روى أن أول من بنى البيت آدم عليه السلام (وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : أمر الله تعالى الملائكة ببناء بيت فى الأرض وأن يطوفوا به . وكان هذا قبل خلق آدم ، ثم إن آدم بنى منه ما بنى وطاف به ، ثم الأنبياء بعده . ثم استتم بناءه إبراهيم عليه السلام) (٣) .

والأرجح أن بيت الله العتيق يرتبط بآدم عليه السلام على اعتبار أنه أول الناس وأبو البشر ، أى أن بيت الله الحرام وبالتالى مكة يرجع تاريخهما إلى زمن بعيد لا يعلمه إلا الله عز وجل ، وإن كانت مكة كأم للقرى قد سكنها أقوام

---

(١) زاد المعاد فى هدى خير العباد ، جـ ١ ، ص ٧ – ١٠ .

(٢) آل عمران : ٩٦ .

(٣) تفسير القرطبى ، جـ ٤ ، ص ١٣٨ ؛ فتح البارى ، جـ ٦ ، ص ٤٠٦ – ٤٠٩ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ٣٨٣ .

وأقاموا بها ، فذلك لا يعرف ، قبل وصول هاجر وإسماعيل وإبراهيم عليهم السلام (١٨٩٢ ق . م) وهم أول من سكنها قبل تفجر بئر زمزم ، وبعدها انضم إليهم الجراهمة الذين تزوج منهم إسماعيل عليه السلام .

وقد ورد أن نوحا وهودا وصالحاً وموسى ويونس[(١)] عليهم السلام قد حجوا إلى البيت العتيق ، وهذه الأخبار من السنة تؤكد أيضا أن البيت العتيق كان موجودا منذ زمن بعيد يعلمه الله عز وجل ، وكان يحج إليه المسلمون وعلى رأسهم الأنبياء . يتضح ذلك من أحاديث النبى ﷺ وخاصة الحديث الذى ورد فى صحيح البخارى والذى يصف حالة البيت العتيق عند وصول إبراهيم وإسماعيل وهاجر عليهم السلام :

(وكان البيت مرتفعا من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله) والذى يذكر أن إبراهيم عليه السلام قد استقبل البيت يدعو الله قبل ترك

---

(١) حديث الحافظ أبو يعلى الطبرانى الذى قال : حدثنا سفيان بن وكيع حدثنا أبى عن زمعة هو ابن أبى صالح عن سلمة بن وهرام عن عكرمة عن ابن عباس قال حج رسول الله ﷺ فلمّا أتى وادى عسفان قال : « يا أبا بكر أىّ واد هذا قال : هذا وادى عسفان قال : لقد مر بهذا الوادى نوح وهود وإبراهيم على بكرات لهم حمر خطمهم الليف أزرهم العباء وأرديتهم النّمار يلبّون يحجون البيت العتيق . قال ابن كثير فيه غرابة (البداية والنهاية ، جـ ١ ، ١١٩) ويقوى هذا الحديث ما أورده الإمام أحمد قال : حدثنا وكيع حدثنا زمعة بن صالح عن سلمة بن وهرام عن عكرمة عن ابن عباس قال : لما مر النبى ﷺ بوادى عسفان حين حج قال : « يا أبا بكر أى واد هذا ؟ قال : وادى عسفان قال : لقد مر به هود وصالح عليهما السلام على بكرات خطمها الليف أزرهم العباء وأرديتهم النّمار ، يلبون يحجون البيت العتيق (إسناده حسن ، البداية والنهاية ، جـ ١ ، ص ١٣٨) قال الإمام أحمد : حدثنا هشام حدثنا داود بن أبى هند عن أبى العالية عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ مر بوادى الأزرق فقال : أى واد هذا ؟ قالوا : وادى الأزرق – قال كأنى أنظر إلى موسى وهو هابط الثنية وله جؤار إلى الله عز وجل بالتلبية حتى أتى على ثنية هرشاء . فقال أى ثنية هذه ؟ قالوا : هذه ثنية هرشاء قال كأنى انظر إلى يونس بن متى على ناقة حمراء عليه جبة من صوف خطام ناقتة خلبة ، قال هشيم يعنى ليفا وهو يلبى أخرجه مسلم من حديث داود بن أبى هندبه (البداية والنهاية ، جـ ١ ، ص ٣١٦ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ١٧٢ ؛ وفى رواية : « أما إبراهيم ، فانظروا إلى صاحبكم ، وأما موسى فجعد آدم ، كأنى انظر إليه انحدر فى الوادى يلبِّى على جمل مخطوم بُخلبة » أى حبل من ليف . رواه أحمد فى مسنده ، حديث صحيح الجامع الصغير ، رقم ٥٧٨/١٣٥٤ .

زوجه هاجر وابنهما إسماعيل بجوار بيت الله الحرام . والذى يذكر أيضا أن الملك جبريل ، الذى كلف من الله بتفجير المياه من تحت قدمى إسماعيل عليه السلام ، قال لأم إسماعيل عليهما السلام : (هنا بيت الله الحرام) .

والذى يذكر أيضا أن إبراهيم عليه السلام قد أشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها محددا لابنه مكان البيت الذى سيرفعون قواعده (صحيح أبى عبد الله البخارى ، جـ ٤ ، ص ١٧٢ - ١٧٥) .

ولهذا فقد ذهب الإمام ابن كثير فى تفسير آية : ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ﴾ ، وآية : ﴿ وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ﴾ ما يؤكد أن قواعد البيت كانت موجودة قبل إبراهيم عليه السلام ؛ فقال : (وفى هذا السياق ما يدل على أن قواعد البيت كانت مبنية قبل إبراهيم وإنما هُدى إبراهيم إليها وبوىء لها) [١] .

---

(١) تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ١٧٩ .

الجزء الثانى

الأساس الذى يقوم عليه بيت الله العتيق
وحرم الله الآمن

ما هى حدود حرم الله الآمن ؟

بين الله سبحانه وتعالى لعبده إبراهيم عليه السلام ، حدود حرم الله الآمن عن طريق جبريل عليه السلام ، وللحرم المكى حدود تحيط بمكة ، وقد نُصِبَتْ عليها أعلام فى جهات خمس :

فحده من جهة الشمال « التنعيم » وبينه وبين مكة (٦) كيلو مترات ، وحده من جهة الجنوب « أضاه » بينها وبين مكة (١٢) كيلو مترا ، وحده من جهة الشرق « الجعرّانة » بينها وبين مكة (١٦) كيلو مترا ، وحده من جهة الشمال الشرقى « وادى نخلة » بينه وبين مكة (١٤) كيلو مترا ، وحده من جهة الغرب « الشميسى » (كانت تسمى الحديبية وهى التى وقعت عندها بيعة الرضوان) بينها وبين مكة (٢٢) كيلو مترا .

قال محب الدين الطبرى : عن الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، قال : نصب إبراهيم أنصاب الحرم يريه جبريل عليه السلام ، ثم لم تحرك حتى كان قصى ، فجددها .

ثم لم تحرَّك حتى كان النبى ﷺ ، فبعث عام الفتح ، تميم بن أسيد الخزاعى فجددها . ثم لم تحرك حتى كان عمر ، فبعث أربعة من قريش مخرمة بن نوفل ، وسعيد بن يربوع ، وحويطب بن عبد العزى ، وأزهر بن عوف ، فجددها ، ثم جددها معاوية ، ثم أمر عبد الملك بتجديدها (١) .

وما زال الناس يعرفون حدود الحرم بالتواتر ، جيل بعد جيل حتى الآن .

هل هنالك حرم آخر غير الحرم المكى ؟؟

« ليس فى الدنيا حرم ، لا بيت المقدس ، ولا غيره إلا هذان الحرمان « مكة

(١) السيد سابق ، فقه السنة ، دار الكتاب العربى ، بيروت ، جـ ١ ، ص ٦٨٩ .

والمدينة » ولا يسمى غيرهما حرما كما يسمى الجهّال فيقولون : حرم المقدس وحرم الخليل ، فإن هذين وغيرهما ليس بحرم باتفاق المسلمين »[1] .

الأماكن التى يحتويها حرم الله الآمن :

يقول الله تعالى : ﴿ أو لم يروا أنّا جعلنا حرما آمنا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حولهم أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون ﴾[2] .

وحرم الله الآمن يضم بين جوانبه :

مكة المكرمة أو بكة :

﴿ إنَّ أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً ﴾ [3] ومن الثابت أن موقع مكة لم يسكن بصفة دائمة قبل وصول إبراهيم وهاجر وإسماعيل عليهم السلام كما جاء فى الحديث عن إبراهيم عليه السلام حينما ترك زوجه وابنه (عند البيت عند دوحة فوق زمزم فى أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس بها ماء) [4] .

ومكة يتوسطها المسجد الحرام :

﴿ إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ، ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم ﴾ [5] .

والمسجد الحرام يضم بين جوانحه :

البيت العتيق :

﴿ وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بى شيئا ، وطَهِّرْ بيتى

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ، المجلد ٢٦ ، ص ١١٧ .

(٢) العنكبوت ٦٧ ؛ جامع البيان ، جـ ٢١ ، ص ١٣ – ١٤ .

(٣) آل عمـــران : ٩٦ .

(٤) صحيح أبي عبد الله البخارى ، جـ ٤ ، ص ١٧٢ – ١٧٥ ، فتح البارى ، جـ ٦ ، ص ٣٩٥ – ٤٠٧ .

(٥) الحـــج : ٢٥ .

للطائفين والقائمين والركع السجود . وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق . ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير . ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق ﴾[1] .

والنص القرآنى يؤكد لنا أن الله سبحانه وتعالى هو الذى أرشد إبراهيم عليه السلام إلى مكان البيت وسلمه له وأذن له فى بنائه .

والبيت العتيق هو أول بيت بنى فى الأرض ، كما ثبت فى الصحيحين عن أبى ذر قلت : يا رسول الله ، أى مسجد وضع أول ؟ قال : « المسجد الحرام » . قلت : ثم أى ، قال : « بيت المقدس» . قلت : كم بينهما ، قال : « أربعون عام » .

والبيت العتيق عبارة عن بناء مربع الشكل قائم وسط المسجد الحرام ، ويتكون من غرفة واحدة يرتفع سقفها عن سطح الأرض نحو خمسة عشر مترا ، وفى ضلع الكعبة الشرقى باب يوصل إلى جوفها ، ويرتفع عن سطح الأرض بنحو مترين . ويوجد الحجر الأسود فى ركن الكعبة الجنوبى - الشرقى من الخارج ، وهو يرتفع عن الأرض نحو متر ونصف . ويصلى المسلمون بداخلها متجهين إلى أى من جهاتها الأربع .

ويقال : إن ركن الحجر الأسود والركن اليمانى على أساس القواعد التى رفعها إبراهيم عليه السلام .

والحجر الأسود[2] قد نزل من الجنة ، والدليل ما ورد فى حديث محمد ﷺ : « نزل الحجر الأسود من الجنة ، وهو أشد بياضا من اللبن ، فسودته

---

(١) الحج : ٢٥ - ٢٩ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ٢١٥ - ٢١٨ .

(٢) « لو ما مس الحجر من أنجاس الجاهلية ما مسه ذو عاهة إلا شفى وما على الأرض شيء من الجنة غيره » حديث صحيح ٥٢١٠ صحيح الجامع الصغير ، وفى حديث : « ليأتينى هذا الحجر يوم القيامة له عينان يبصر بهما ولسان ينطق به يشهد على من استلمه حق » ٥٢٢٢ صحيح الجامع الصغير .

خطايا ابن آدم »(1) ، وقد ورد فى الحديث الذى رواه الترمذى فى سننه عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما : « إن الركن والمقام ياقوتتان من ياقوت الجنة ، طمس الله نورهما ، ولو لم يطمس نورهما لأضاءا ما بين المشرق والمغرب »(2) .

قال ابن عمر رضى الله عنهما : (استقبل رسول الله - ﷺ - الحجر واستلمه ، ثم وضع شفتيه يبكى طويلا ، فإذا عمر يبكى طويلا . فقال : « يا عمر ، هنا تسكب العبرات »)(3) .

وعن ابن عباس : أن عمر أكب على الركن (المراد هنا : الحجر الأسود) فقال : إنِّى لأعلم أنك حَجَرٌ ، ولو لم أر حبيبى ﷺ قَبَّلَكَ واستلمك ما استلمتك ، ولا قبلتك(4) ، ﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ﴾ .

وروى البخارى ، ومسلم ، وأبو داود عن عمر رضى الله عنه أنه جاء إلى الحجر فقبله : فقال : (إنِّى أعلم أنك حجر لا تضر ، ولا تنفع ، ولولا إنى رأيت رسول الله - ﷺ - يقبلك ما قبلتك) .

تعليـــق :

وهكذا يتضح لنا أن المسلمين لا يعبدون الحجر الأسود ولا يسجدون أمامه وإنَّما هم يقبلونه ويستلمونه اقتداء برسول الله ﷺ ، وهم يعلمون أنه حجر لا يضر ولا ينفع ، فالقيام بتقبيل الحجر واستلامه متابعة لسنة ، وإن لم يوقف على علل معلومة وأسباب معقولة ، فهى قربى إلَى الله مأخوذة عن رسول الله الذى قال : « خذوا عنى مناسككم » .

---

(1) صحيح الجامع الصغير ، جـ ٦ ، ص ٢٧ ؛ حديث رقم ٦٦٣٢ .
(2) قال الترمذى موقوفا : والمقام هو مقام إبراهيم عليه السلام .
(3) رواه الحاكم ، وقال : صحيح الإسناد (انظر : فقه السنة ، جـ ١ ، ص ٦٩٨ - ٦٩٩) .
(4) رواه أحمد وغيره بألفاظ مختلفة متقاربة .

والأصل فى العبادة الاتباع ، فالمسلم يستقبل الحجر ويقبله لأن رسول الله ﷺ قد فعل ذلك .

بئــر زمــزم :

وقد أنبع الله ماءه لإسماعيل وأمه وللناس عندما نزلت أم إسماعيل وإسماعيل عليهما السلام إلى جوار بيت الله العتيق . وقد روى لنا رسول الله محمد - ﷺ - تلك القصة التى وردت فى صحيح البخارى : (فلما أشرفت (أى أم إسماعيل) على المروة سمعت صوتا ، فقالت : صه - تريد نفسها - ثم تسمعت فسمعت أيضا ، فقالت : قد أسمعت إن كان عندك غواث ، فإذا هى بالملك عند موضع زمزم ، فبحث بعقبه أو قال : بجناحه حتى ظهر الماء [(1)] فجعلت تحوضه ، وتقول بيدها : هكذا - تغترف من الماء فى سقائها ، وهو يفور بعدما تغترف) .

قال ابن عباس رضى الله عنهما ، قال رسول الله ﷺ : « رحم الله أم إسماعيل ، لو تركت زمزم - أو قال : لو لم تغترف من الماء - لكانت زمزم عينا معينا » قال : فشربت ، وأرضعت ولدها ، فقال لها الملك : لا تخافوا الضيعة ، فإن ها هنا بيت الله يبتنى هذا الغلام وأبوه ، وإن الله لا يضيع أهله ، وكان البيت مثل الرابية ، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله » .

وقد روى السيوطى فى الجامع الصغير حديثا هذا نصه : (ماء زمزم لما شرب له : فإن شربته ، تستشفى به ، شفاك الله ، وإن شربته مستعيذا أعاذك الله ، وإن شربته ، تقطع ظمأك قطعه الله ، وإن شربته ، ليشبعك ، أشبعك الله وهى همزة جبريل ، وسقيا إسماعيل) . [(2)] .

---

(١) صحيح ابى عبد الله البخارى ، جـ ٤ ، ص ١٧٢ - ١٧٥ ، وفى هذا رد على أعداء الإسلام الذين يزعمون أن زمزم كانت موجودة قبل وصول هاجر ، وأن هاجر هى التى اكتشفتها (تاريخ العرب العام ، ص ٣٠) .

(٢) المعجم المفهرس ، جـ ٤ ، ص ٢٧ ، رواه الترمذي باب الحج ، ورواه أحمد بن حنبل ، كما أورده الألباني فى صحيح الجامع الصغير ، جـ ٥ ، ص ١١٦ بلفظه (ماء زمزم لما شرب له) ، انظر أيضا : تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ١٧٠ - ١٧١ .

مقام إبراهيم عليه السلام :

﴿ إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا ﴾ (١) .

عن جابر رضى الله عنه : أن النبى ﷺ حين قدم مكة طاف بالبيت سبعا ، وأتى المقام فقرأ : ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ (٢) ، فصلى خلف المقام ، ثم أتى الحجر فاستلمه . رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح .

والمراد بالمقام الحجر الذى كان إبراهيم عليه السلام يقوم عليه لبناء الكعبة . لما ارتفع الجدار أتاه إسماعيل عليه السلام به ليقوم فوقه ويناوله الحجارة فيصفها بيده ، لرفع الجدار ، وكلما كمل ناحية انتقل إلى الناحية الأخرى يطوف حول الكعبة ، وهو واقف عليه . كلما فرغ من جدار نقله إلى الناحية التى تليها وهكذا حتى تم جدران الكعبة . وكانت آثار قدميه ظاهرة فيه ، ولم يزل هذا معروفا تعرفه العرب في جاهليتها ولهذا قال أبو طالب في قصيدته اللامية المعروفة :

وموطىء إبراهيم فى الصخرة رطبة   على قدميه حافيا غير ناعل

وقد أدرك المسلمون ذلك فيه أيضا كما قال عبد الله بن وهب أخبرنى يونس بن يزيد عن ابن شهاب أن أنس بن مالك حدثهم ، قال : رأيت المقام فيه أصابعه عليه السلام وأخمص قدميه غير أنه أذهبه مسح الناس بأيديهم .

وقد تكلفت هذه الأمة شيئا مما تكلفته الأمم قبلها . وقد ذكر من رأى أثر عقبه وأصابعه فيه ، فما زالت هذه الأمة يمسحونه حتى اخلولق وانمحى .

وقد كان هذا المقام ملصقا بجدار الكعبة قديما ، ومكانه معروف اليوم إلى جانب الباب مما يلى الحجر ، يمين الداخل من الباب ، فى البقعة المنفصلة هناك .

وكان الخليل عليه السلام لما فرغ من بناء البيت وضعه إلى جدار الكعبة ،

---

(١) آل عمران : ٩٧ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ٣٨٣ - ٣٨٤ .
(٢) البقرة : ١٢٥ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ١٦٨ - ١٧١ .

أو أنه انتهى عنده البناء فتركه هناك . ولهذا – والله أعلم – أمر بالصلاة هناك عند الفراغ من الطواف . وثابت أن يكون عند مقام إبراهيم حيث انتهى بناء الكعبة وإنما أخره عن جدار الكعبة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، أحد الأئمة المهديين والخلفاء الراشدين ، الذين أمرنا باتباعهم ، وهو أحد الرجلين اللذين قال فيهما رسول الله ﷺ : « اقتدوا باللذين من بعدى أبو بكر وعمر » . وهو الذى نزل القرآن بوفاقه فى الصلاة عنده ، ولهذا لم ينكر ذلك أحد من الصحابة رضى الله عنهم أجمعين »(١) .

الحجـــــر :

وهو جزء من الكعبة ، كما ورد بذلك الحديث عن رسول الله ﷺ لعائشة « صلّى فى الحجر ، فإن قومك استقصروا (أى تركوا منه جزءا وهو الحجر) من بناء البيت حين بنوه » .

وكانت قريش قد بنت البيت قبل مبعث رسول الله ﷺ بخمس سنين ، وأبت أن تُدْخِل فى بنيانها من كَسْبها إلّا طيبا ، لم يدخل فيها مهر بغى ولا بيع ربِا ، ولا مظلمة أحد من الناس (٢) .

ولم تزل على بناء قريش حتى احترقت فى أول إمَارة عبد الله بن الزبير ، فحينئذ نقضها ابْنُ الزبير إلى الأرض ، وبناها على قواعد إبراهيم عليه السلام ، وأدخل فيها الحجر ، وجعل لها بابا شرقيا وبابا غربيا غير ملصقين بالأرض كما سمع ذلك من خالته عائشة أم المؤمنين عن رسول الله ﷺ ولم تزل كذلك مدة إمارته حتى قتله الحجاج ، فردها إلى ما كانت عليه بأمر عبد الملك بن مروان له بذلك كما قال مسلم بن الحجاج فى صحيحه (٣) .

---

(١) تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ١٧٠ .
(٢) تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ١٨٠ .
(٣) تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ١٨١ .

الصفا والمـــروة :

وقد ورد ذكرهما فى قوله تعالى :

﴿ إنَّ الصفَا والمروَةَ من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أنْ يطَّوَّفَ بهمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فإن الله شاكر عليم ﴾(١) .

كما ورد تعريف لها فى حديث لرسول الله ﷺ ، يتحدث فيه عن هاجر والدة إسماعيل عليه السلام وهى تبحث عن الماء :

« فوجدت الصفا أقرب جبل فى الأرض يليها فقامت عليه ، ثم استقبلت الوادى تنظر : هل ترى أحدا ؟ . فلم تر أحدا ، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادى رفعت طرف ذراعها ثم سعت سعى الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادى ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحدا ، فلم تر أحدا ؟ . . ففعلت ذلك سبع مرات . قال ابن عباس : قال النبى ﷺ: فذلك سعى الناس بينهما » (٢) .

كما وَجَّهَ رسول الله ﷺ المسلمينَ للسعى بينهما بقوله : « اسعوا فَإِنَّ الله كتب عليكم السعى » (٣) .

ولكن هل البيت الآن على الهيئة ، التى أقام قواعدها ، إبراهيم عليه السلام ؟

البيت الآن ليس على الهيئة التى كان عليها أيام إبراهيم عليه السلام ، والدليل . قول رسول الله ﷺ : « لولا أن قَوْمَكَ حَديثُو عَهْدٍ بجاهلية ، لأنفقت كنز الكعبة فِىَ سبيل الله ، ولجعلت بابها بالأرض ، ولأدخلت فيها من الحجر » (٤).

---

(١) البقرة : ١٥٨ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ١٩٨ وما بعدها .
(٢) صحيح أبى عبد الله البخارى ، جـ ٤ ، ص ١٧٢ – ١٧٥ .
(٣) تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ١٩٩ .
(٤) صحيح الجامع الصغير ، جـ ٥ ، ص ٧٦ – ٧٧ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ١٨٠ .

« لولا أن الناس حديثو عهدهم بالكفر ، وليس عندى من النفقة ما يقوى على بنيانه ، لكنت أدخلت فيه من الحجر خمسة أذرع ، ولجعلت لها بابا يدخل الناس منه ، وبابا يخرج منه » (١) .

ومن هذا نخلص أن شكل البيت كما بناه إبراهيم عليه السلام كان على الهيئة التالية : بناء مربع الشكل ، يدخل فيه منطقة الحجر الحالية ، وكان له بابان : بابا شرقيا ، لدخول الناس ، وآخر غربي ، لخروج الناس منه ، وكانت أرضية البيت بمستوى الأرض ، وهو الأساس الذى بنى عليه إبراهيم عليه السلام .

وهذا ما عبر عنه حديث رسول الله ﷺ التالى :

« يا عائشة لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية ، لأمرت بالبيت فهدم ، فأدخلت فيه ما أخرج منه ، وألزقته بالأرض ، وجعلت له بابين : بابا شرقيا ، وبابا غربيا ، فبلغت به أساس إبراهيم » (٢) .

والحديث الرابع :

« يا عائشة لولا أن قومك حديثو عهد بشرك وليس عندى من النفقة ما يقوى على بنائه) ، (لأنفقت كنز الكعبة فى سبيل الله ، ولهدمت الكعبة ، فألْزَقْتُها بالأرض ، (ثم لَبَنَيْتُها على أساس إبراهيم) ، وجعلتُ لها بابين : بابا شرقيا (يدخل الناس منه) وبابا غربيا (يخرجون منه) ، (وألزقتُهَا بالأرض) ، وزدت فيها خمسة أذرع من الحجر ، (وفى رواية : ولأدخلت فيها الحجر) ، فإن قريشا اقتصرتها حيثَ بَنَتْ الكعبة (فإن بدا لقومك من بعدَى أن يبنوه فهلمى لأرِيكِ ما تركوا منه ، فأراها قريبا من سبعة أذرع) » (٣) .

وفى رواية عنها قالت : سألت رسول الله ﷺ عن الجدر (أى الحجر) ، أمن البيت هو ؟ قال : نعم ، قلت : فلم لم يدخلوه فى البيت ؟ قال : إن قومك

---

(١) المصدر السابق ، جـ ٥ ، ص ٧٥ .
(٢) صحيح الجامع الصغير ، وزيادته (الفتح الكبير) ، جـ ٦ ، ص ٢٩٢ – ٢٩٣ .
(٣) سلسلة الأحاديث الصحيحة ، المجلد الأول الجزء الأول ص ٦٨ – ٦٩ ، حديث رقم ٤٣ .

قصرت بهم النفقة ، قلت : فما شأن بابه مرتفعا ؟ قال : فعل ذلك قومك ليدخلوا من شاءوا ، ويمنعوا من شاءوا (وفى رواية : تعزوا أن لا يدخلها إلّا من أرادوا ، فكان الرجل إذا أراد أن يدخلها يدعونه يرتقى حتى إذا كاد أن يدخل دفعوه فسقط) ، ولولا أن قومك حديث عهدهم فى الجاهلية ، فأخاف أن تنكر قلوبهم ، لنظرت أن أدخل الجدر فى البيت ، وأن ألزق بابه بالأرض) . فلما ملك ابن الزبير هدمها ، وجعل لها بابين (وفى رواية : فذلك الذى حمل ابن الزبير حين هدمه وبناه وأدخل فيه الحجر ، وقد رأيت أساس إبراهيم عليه السلام أحجارا متلاحمة كأسنمة الإبل متلاحكة (١) .

وذهب الألبانى إلى أن من فقه الحديث :

الأول : أن الكعبة المشرفة بحاجة الآن إلى الإصلاحات التى تضمنها الحديث لزوال السبب الذى من أجله ترك رسول الله ﷺ ذلك ، وهو أن تنفر قلوب من كان حديث عهد بشرك فى عهده ﷺ ، وقد نقل ابن بطال عن بعض العلماء أن النفرة التى خشيها رسول الله ﷺ ، أن ينسبوه إلى الانفراد بالفخر دونهم .

ويمكن حصر تلك الإصلاحات فيما يلى :

١ – توسيع الكعبة وبناؤها على أساس إبراهيم عليه الصلاة والسلام وذلك بضم نحو سبعة أذرع من الحجر .

٢ – تسوية أرضها بأرض الحرم .

٣ – فتح باب آخر لها من الجهة الغربية .

٤ – جعل البابين منخفضين مع الأرض لتنظيم وتيسير الدخول إليها والخروج منها لكل من شاء (٢) .

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة ، المجلد الأول ، ص ٦٨ – ٧٠ ، وقد رواه البخارى ، ومسلم ، وأبو نعيم في المستخرج ، والنسائى ، والترمذى وصححه ، والدارمي ، وابن ماجه ، ومالك والأزرقي في أخبار مكة ، وأحمد .

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة ، جـ ١ من المجلد الأول ، ص ٧١ – ٧٢ .

الثانى : أن القيام بالإصلاح إذا ترتبت عليه مفسدة أكبر منه وجب تأجيله ، ومنه أخذ الفقهاء قاعدتهم المشهورة : دفع المفسدة قبل جلب المصلحة .

مكة فى حماية الله سبحانه وتعالى :

ومكة فى حماية الله سبحانه وتعالى ، ولذلك فإن الدجال لا يستطيع دخولها ، كما ورد فى حديث محمد ﷺ عن فتنة الدجال : « وأنه لا يبقى شيء فى الأرض إلا وطئه وظهر عليه ، إلا مكة والمدينة لا يأتيهما من نقب من أنقابهما إلا لقيته الملائكة بالسيوف صلتة » (١) .

وقال رسول الله ﷺ بعد فتح مكة :

« لا تغزى مكة بعد اليوم إلى يوم القيامة » (٢) .

كما أن رسول الله ﷺ بين أيضا فضل مكة فى قوله : « الوزن وزن أهل مكة ، والمكيال مكيال أهل المدينة » (٣) .

كما ورد فى فضل البيت أحاديث منها : « من طاف فى هذا البيت أسبوعا فأحصاه كان كعتق رقبة ، لا يضع قدما ، ولا يرفع أخرى إلا حط الله عنه بها خطيئة ، وكتب له بها حسنة » (٤) .

« من حلف فليحلف برب الكعبة » (٥) . وهذا دليل على فضل بيت الله تعالى .

« من قطع سدرة صوب الله رأسه فى النار (يعنى من سدر الحرم) » (٦) .

---

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته ، جـ ٦ ، ص ٢٧٥ .
(٢) المصدر السابق ، ص ١٦٣ .
(٣) صحيح الجامع الصغير وزيادته ، جـ ٦ ، ص ١١٦ .
(٤) صحيح الجامع الصغير ، جـ ٥ ، ص ٣٢٠ .
(٥) المصدر السابق ، ص ٢٨٤ .
(٦) سلسلة الأحاديث الصحيحة ، المجلد الثانى ، ص ١٧٣ ؛ حديث ٦١٤ .

وفى الصحيحين ، واللفظ لمسلم ، عن ابن عباس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة : « لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية ، وإذا استنفرتم فانفروا » . وقال يوم فتح مكة : « إنَّ هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلى ، ولم يحل لى إلَّا فى ساعة من نهار ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، لا يعضد شوكه ولا ينفر صيده ، ولا يلتقط لقطته إلَّا من عرفها ، ولا يختلى خلاها » ، فقال العباس : يا رسول الله إلا الأذْخُر فإنَّه لقينهم ولبيوتهم ، فقال : « إلَّا الأذخُر » . ولهما عن أبى هريرة مثله أو نحوه ، ولهما واللفظ لمسلم أيضا عن أبى شريح العدوى أنه قال : لعمرو بن سعيد وهو يبعث البعوث إلى مكة : إئذَن لى أيها الأمير أن أحدثك قولا قام به رسول الله ﷺ الغد من يوم الفتح ، سمعته أذناى ووعاه قلبى وأبصرته عيناى حين تكلم به ، إنه حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال : « إن مكة حرمها الله ، ولم يحرمها الناس ، فلا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر ، أن يسفك بها دما . أو يعضد بها شجرة ، فإنْ أحد ترخص بقتال رسول الله ﷺ فيها ، فقولوا له : إن الله أذن لنبيه ، ولم يأذن لكم ، وإنَّما أذن لى فيها ساعة من نهار ، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ، فليبلغ الشاهد الغائب » . فقيل لأبى شريح : ما قال لك عمرو ؟ قال : أنا أعلم بذلك منك يا أبا شريح ، إن الحرم لا يعيذ عاصيا ولا فارا بدم ، ولا فارا بجزية .

وعن جابر رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يحل لأحد أن يحمل السلاح بمكة » رواه مسلم (١) .

منى (وبها : العقبة – الجمرة الوسطى – الجمرة الصغرى) .

المزدلفة (وبها المشعر الحرام) .

عرفـــة (وهى خارج الحرم) .

وقد وردت أسماء بعض هذه المواقع فى القرآن الكريم ، والبعض الآخر فى الحديث الشريف .

---

(١) تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ٣٨٤ .

فقد وردت تسمية المشعر الحرام فى قوله تعالى :

﴿ ليس عليكم جناحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً من رَبِّكُم ، فإِذَا أَفَضْتُم مِنْ عَرَفَاتٍ ، فاذكروا الله عند المشعر الحرام ، واذكروه كما هداكم ، وإن كُنْتُم من قبله لمن الضالين ﴾ (١) .

يقول الحافظ ابن كثير :

«عرفات موضع الوقوف فى الحج (وإن كانت خارج منطقة الحرم) ، وهى عمدة أفعال الحج . ولهذا روى الإمام أحمد وأهل السنن بإسناد صحيح عن الثورى عن بكير عن عطاء عن عبد الرحمن بن يعمر الديلى قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الحج عرفات - ثلاثا - فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك . وأيام منى ثلاثة ﴿ فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه ، ومن تأخر فلا إثم عليه ﴾» .

وروى الإمام أحمد عن الشعبى عن عروة بن مضرس بن حارثة بن لآم الطائى قال : أتيت رسول الله ﷺ بالمزدلفة حين خرج إلى الصلاة فقلت : يا رسول الله ، إنِّى جئت من جبل طيء ، أكللت راحلتى ، وأتعبت نفسى ، والله ما تركت من جبل إلا وقفت عليه ، فهل لى من حج ؟ فقال رسول الله ﷺ : « من شهد صلاتنا هذه ، فوقف حتى ندفع ، وقد وقف بعرفة قبل ذلك ليلا أو نهارا ، فقد تم حجه ، وقضى تفثه » (٢) .

وفى حديث لجابر (٣) عبد الله الطويل : « فلم يزل واقفا بعرفة حتى غربت الشمس ، وبدت الصفرة قليلا حتى غاب القرص ، وأردف أسامة خلفه ، ودفع رسول الله ﷺ وقد شنق للقصواء الزمام حتى أن رأسها ليصيب مورك رحله ، ويقول بيده اليمنى : « أيها الناس ، السكينة السكينة » كلما أتى جبلا من الجبال

---

(١) البقرة : ١٩٨ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ٢٤٠ .
(٢) رواه أحمد وأهل السنن ، وصححه الترمذى ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ٢٤١ .
(٣) فى صحيح مسلم ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ٢٤١ .

أرخى لها قليلا حتى تصعد ، حتى أتى المزدلفة ، فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ، ولم يُسبح بينهما شيء ، ثم اضطجع حتى طلع الفجر ، فصلى الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامة ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام ، فاستقبل القبلة ، فدعا الله وكبره وهلله ، ووحده ، فلم يزل واقفا حتى أسفر جدا ، فدفع قبل أن تطلع الشمس (١) .

وفى الحديث وردت روايات نعرف منها بقية مواقع المناسك ، داخل الحرم :

فحينما دعا إبراهيم عليه السلام : ﴿ ربنا وأرنا مناسكنا ﴾ فأتاه جبريل ، فأتى به **البيت** فقال : ارفع القواعد . فرفع القواعد ، وأتم البنيان ، ثم أخذ بيده ، فأخرجه ، فانطلق به إلى **الصفا** ، قال : هذا من شعائر الله . ثم انطلق به إلى **المروة** ، فقال : وهذا من شعائر الله . ثم انطلق به نحو **منى** ، فلما كان من **العقبة** إذا إبليس قائم عند الشجرة ، فقال : كبر وارْمِهِ ، فكبر ورماه ، ثم انطلق إبليس فقام عند **الجمرة الوسطى** ، فلما جاز به جبريل وإبراهيم قال له : كبر وارْمِهِ ، فكبر ورماه . فذهب الخبيث إبليس ، وكان الخبيث أراد أن يدخل في الحرم شيئا ، فلم يستطع ، فأخذ بيد إبراهيم حتى أتى به **المشعر الحرام** ، فقال : هذا المشعر الحرام ، فأخذ بيد إبراهيم حتى أتى به **عرفات** ، قال : قد عرفت ما أريتك ؟ قالها ثلاث مرات ، قال : نعم (٢) .

وروى الإمام أحمد أن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما أمر إبراهيم عليه السلام بالمناسك عرض له الشيطان عند **المسعى** فسبقه إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى **جمرة العقبة** ، فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ، ثم عرض له عند **الجمرة الوسطى** فرماه بسبع حصيات ، ثـم تله للجبين وعلى إسماعيل عليه الصلاة والسلام قميص أبيض فقال له : يا أبت ، إنّه ليس لي ثوب تكفننى فيه غيره ، فاخلعه حتى تكفننى فيه فعالجه فنودى من خلفه :

---

(١) فى صحيح مسلم ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ٢٤١ .
(٢) تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ١٨٣ – ١٨٤ .

﴿ أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ﴾ ، فالتفت إبراهيم فإذا بكبش أبيض أقرن أعين . قال ابن عباس : لقد رأيتنا نتتبَّعُ ذلك الضرب من الكباش [١] .

---

(١) تفسير القرآن العظيم ، جـ ٤ ، ص ١٥ ؛ هذا هو تاريخ حرم الله الآمن ، وبيت الله العتيق ، والكعبة المشرفة ، يا أساتذة التاريخ ، يامن تحسبون على الأمة الإسلامية (انظر محمد مبروك نافع ، عصر ما قبل الإسلام ، ١٢٣ ، ١٢٩ ، ١٣٠) .

الجزء الثالث

الله سبحانه وتعالى هو الذى حرم مكة

يقول الله سبحانه وتعالى ﴿ إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرّمها وله كل شيء وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾ (١) .

أى أن مكة صارت حراما شرعا ، وقدرا بتحريم الله لها ، كما ثبت فى الصحيحين ، عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة : « إن هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السموات والأرض ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة لا يعضَدُ شوكه ، ولا يُنَفَّر صيده ، ولا يلتقط لُقْطَتَه ، إلا من عرَّفها ، ولا يختلى خلاها » (٢) .

وهذا فضل من الله ونعمة ، وذلك ما يؤكده الله سبحانه وتعالى فى مواضع شتى من كتاب الله عز وجل (٣) ، وهذا التحريم لهذا البلد من قبل الله تعالى لا يتعارض مع ما ورد فى حديث محمد ﷺ : « أن إبراهيم حرم مكة ودعا لأهلها (٤) .... الخ الحديث » .

فإبراهيم* لا يحرم ولا يحلل إلا بإذن وتوجيه من الله ، فالمعنى هنا ، أن إبراهيم عليه السلام قد حرّمها لتحريم الله لها ، والله أعلم أو كما قال الإمام الحافظ ابن كثير : (إن إبراهيم عليه السلام حرمها لأن إبراهيم بلغ عن الله حكمه

---

(١) النمل : ٩١ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ، جـ ٢ ، ص ٣٥٤ ، نفس المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ١٧٣ وما بعدها ، ص ٣٨٢ - ٣٨٤ .

(٣) سورة البقرة : ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٩١ ، ١٩٦ . التوبة : ٣٨ . الإسراء : ١ ، الحج : ٣٥ .

(٤) عن عبدالله بن زيد بن عاصم رضى الله عنه (انظر مختصر صحيح مسلم ، ص ٢٠٣ ، حديث ٧٧٣) .

* وفى هذا المعنى قال رسول الله ﷺ : « اللهم إن إبراهيم حرّم مكة فجعلها حراما ، وإنى حرمت المدينة ما بين مأزميها (أى طرفيها) أن لا يراق فيه دم ، ولا يحمل فيها سلاح لقتال ، ولا يخبط فيها شجرة إلا لعلف ، اللهم بارك لنا ..... إلى آخر الحديث » رقم ١٢٨٢ صحيح الجامع الصغير .

فيها وتحريمه إياها وأنها لم تزل حراما عند الله قبل بناء إبراهيم عليه السلام لها (تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ١٧٤) .

ففيه يأمن الإنسان ، وفيه يأمن الطير والحيوان ، بل وفيه يأمن النبات (١) ، وفيه تصان الأمانات وتصان الحرمات ، والله يخلق ما يشاء ويختار . بل وذهب الإمام الحافظ ابن كثير إلى أن لا يجوز حمل السلاح بمكة استناداً إلى حديث رسول الله ﷺ فى صحيح مسلم : « لا يحل لأحد أن يحمل بمكة السلاح (تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ١٧٤ ، ٣٨٤) .

ولا عجب فى ذلك ، فهذه البقعة من الأرض هى موضع بيت الله العتيق ، بيت الخالق العظيم الجبار القهار ، مالك الملك ، ذى الجلال والإكرام ومن المؤكد أنه قد سبق فى علم الله عز وجل ، ما سيعترى الأرض من ظلمات الظُلْم ، ظلم الإنسان لأخيه الإنسان ، بصورة لا تحدث فى عالم الحيوان ، فجعل الله البيت الحرام ملاذا وأمنا وطمأنينة ، يهرع إليه الإنسان ، فيسكب بين يدى الله العبرات مستنجدا ومستغيثا من ظلم الإنسان لأخيه الإنسان .

هذا الحرم الآمن ، يحوى بيت الله العتيق ، الذى جعله الله قبلة للمسلمين . وأوجب على المسلمين أن يتوجهوا إليه كل يوم فى صلواتهم على الأقل كل يوم وليلة خمس مرات ، تماما كما كان يفعل أبوهم إبراهيم عليه السلام ، وكما كان يفعل إسماعيل عليه السلام .

﴿ قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها ، فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره ﴾ (٢) .

ولمّا كان هذا الحرم الآمن .... لمَّا كان هذا البلد الأمين ..... لمّا كان بيت الله العتيق .... حراما لأنَّه بيت الله الواحد الصمد ، الذى جعله الله عتقا من الجبابرة ، فليس لأحد سلطان عليه ، لأن المالك هو الله سبحانه وتعالى ،

---

(١) ففى الحديث عن رسول الله ﷺ : « من قطع سدرة صوب الله رأسه فى النار » (يعنى من سدر الحرم) سلسلة الأحاديث الصحيحة ، المجلد الثانى ، ص ١٧٣ ، حديث ٦١٤ .

(٢) البقرة : ١٤٤ .

الذى وضع النظام والشريعة التى يسير عليها أمر البيت ، ولذلك كان من رحمة الله سبحانه وتعالى أن يحدد :

من هم الذين يسمح لهم بدخول بيت الله العتيق وحرمه الآمن ، من هم الذين يمنعون ، ما هى الهيئة التى يكون عليها من يدخلون إلى حرم الله الآمن ، وكيف يتعبدون إليه فى بيته وفى حرمه .

ولمّا كان الله سبحانه وتعالى ، قد أوجب حجه واعتماره لمن استطاع إليه سبيلا ؛

فقد حدد سبحانه وتعالى ، كيف يتعبد العبد إلى ربه داخل بيته ، وماذا يفعل العبد ليصح حجه ، وماذا يفعل لتصحَّ عمرته ، ولمّا كان ذلك هو بيت الله العتيق وحرمه الآمن ، وأن الذى يقصده . إنما يطلب القبول والأجر من الله ، فإنه سبحانه وتعالى لم يجعل لأحد عليه سلطانا ، وهذا هو التحرر الحقيقى ، وهي اللحظة التى يصبح فيها الإنسان المسلم عبدا لله ، لله فقط ، حينما يتحرر من نير العبودية لغير الله عز وجل .

ولما كان ذلك بيت الله العتيق ، فليس لأحد أن يحول بين الناس وبينه ، لأن الله جعله للناس ، سواءاً المقيم فيه ، والطارىء عليه . لا يمنع عنه أحد ولا يملكه أحد : ﴿ والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ﴾ (٢) ، هكذا أراد الله سبحانه وتعالى لبيته العتيق وحرمه الآمن ، وهكذا كان وسيكون على مدار تاريخ البشرية ، بإذن الله .

ولمّا كان بيت الله العتيق وحرمه ، هو مكان للعبادة بمفهومها الشامل ، ولذلك فإن كل ما يجرى فيه مقنن ومشرع من الله عز وجل . كما أنه سبحانه وتعالى قد جعل له إماما من المسلمين هو إبراهيم عليه السلام وأوجب الله عليه ، وعلى كل إمام مسلم ، يلى هذا البيت أن يقيم هذا البيت على التوحيد ، وأن ينفى عنه الشرك ، وأن يحميه من عدوان المعتدين الذين يصدون عنه ،

---

(١) الحج : ٢٥ .

ويغيرون الأساس الذى قام عليه ، ويتوعد من يريد اعوجاجا فى هذا المنهج المستقيم بالعذاب الأليم ﴿ إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس سواءً العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم . وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بى شيئا وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود ، وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ﴾ (١) .

ولقد كان هذا المنهج الذى شرعه الله فى بيته الحرام سابقا لكل المحاولات البشرية فى إيجاد منطقة حرام ، يلقى الناس فيها السلام ، ويأمن فيها المتخاصمون ، وتحقن فيها الدماء .

---

(١) الحج : ٢٥ - ٢٧ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ٢ ، ص ٢١٣ - ٢١٥ .

الفصل الســادس

الجـــزء الأول

إبراهيم عليه السلام يؤذن فى الناس بالحج

« ثم أمر الله إبراهيم عليه السلام - بانى البيت - إذا فرغ من إقامته ، على الأساس الذى كلف به أن يؤذن فى الناس بالحج ، وأن يدعوهم إلى بيت الله الحرام ، ووعده أن يلبى الناس دعوته ، فيتقاطرون على البيت من كل فج ، رجالا ، يسعون على أقدامهم . ﴿ وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ﴾ (١) .

وما يزال وعد الله يتحقق منذ إبراهيم - عليه السلام - إلى اليوم والغد ، وما تزال أفئدة من الناس تهوى إلى البيت الحرام ، وترف إلى رؤيته والطواف به ... الغنى القادر الذى يجد الظهر يركبه ووسيلة الركوب المختلفة تنقله ، والفقير المعدم الذى لا يجد إلا قدميه . وعشرات الألوف من هؤلاء يتقاطرون من فجاج الأرض البعيدة تلبية لدعوة الله التى أذن بها إبراهيم - عليه السلام - منذ آلاف الأعوام ...

ويقف السياق عند بعض معالم الحج وغاياته :

﴿ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير . ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق ﴾ (٢) .

والمنافع التى يشهدها الحجيج كثيرة . فالحج موسم ومؤتمر . الحج موسم

---

(١) الحج : ٢٧ ، كل ضامر جهده السير من الجهد والجوع ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ٢١٥ - ٢١٦ .

(٢) الحج ٢٨ - ٢٩ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ٢١٦ - ٢١٧ .

تجارة وموسم عبادة . والحج مؤتمر اجتماع وتعارف ، ومؤتمر تنسيق وتعاون . وهو الفريضة التى تلتقى فيها الدنيا والآخرة كما تلتقى فيها ذكريات العقيدة البعيدة والقريبة .. أصحاب السلع والتجارة يجدون فى موسم الحج سوقا رائجة ، حيث تجبى إلى البلد الحرام ثمرات كل شيء ..... من أطراف الأرض ، ويقدم الحجيج من كل فج ومن كل قطر ، ومعهم من خيرات بلادهم ما تفرق فى أرجاء الأرض فى شتى المواسم ، يجتمع كله فى البلد الحرام فى موسم واحد . فهو موسم تجارة ومعرض إنتاج ، وسوق عالمية تقام فى كل عام .

وهو موسم عبادة تصفو فيه الأرواح ، وهى تستشعر قربها من الله فى بيته الحرام . وهى ترف حول هذا البيت وتستروح الذكريات التى تحوم عليه وترف كالأطياف من قريب ومن بعيد ...

طيف إبراهيم الخليل – عليه السلام – وهو يودع البيت فلذة كبده إسماعيل وأمه ويتوجه بقلبه الخافق الواجف إلى ربه ﴿ ربنا إنّى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ﴾[1] ...

وطيف هاجر ، وهى تستروح الماء لنفسها ولطفلها الرضيع فى تلك الحرة الملتهبة حول البيت ، وهى تهرول بين الصفا والمروة وقد نهكها العطش ، وهدها الجهد . وأضناها الإشفاق على الطفل .. ثم ترجع فى الجولة السابعة وقد حطمها اليأس لتجد النبع يتدفق بين يدى الطفل الرضيع الوضيىء . وإذا هى زمزم . ينبوع الرحمة فى صحراء اليأس والجدب .

وطيف إبراهيم عليه السلام وهو يرى الرؤيا ، فلا يتردد فى التضحية بفلذة كبده ، ويمضى فى الطاعة المؤمنة إلى ذلك الأفق البعيد : ﴿ قال يا بنى إنِّى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ﴾[2] فتجيبه الطاعة الراضية فى إسماعيل – عليه السلام – ﴿ قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله

---

(١) إبراهيم : ٣٧ .

(٢) الصافات : ١٠٢ .

من الصابرين ﴾ (١) .. وإذا رحمة الله تتجلى فى الفداء ﴿ وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنَّا كذلك نجزى المحسنين . إن هذا لهو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم ﴾ (٢) ...

وطيف إبراهيم وإسماعيل – عليهما السلام – يرفعان القواعد من البيت فى إنابة وخشوع ﴿ ربنا تقبل منَّا إنَّك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ﴾(٣) ...

وتظَلُّ هذه الأطياف وتلك الذكريات ترف وتتابع ، حتى يلوح طيف عبد المطلب وهو ينذر دم ابنه العاشر إن رزقه الله عشرة أبناء . وإذا هو عبد الله . وإذا عبد المطلب حريصا على الوفاء بالنذر . وإذا قومه من حوله يعرضون عليه فكرة الفداء . وإذا هو يدير القداح حول الكعبة ، ويضاعف الفداء ، والقدح في كل مرة يخرج على عبد الله ، حتى يبلغ الفداء مائة ناقة بعد عشر هى الدية المعروفة ، فقبل منه الفداء ، فينحر مائة وينجو عبد الله . ينجو ليودع فى رحم آمنة أطهر نطفة وأكرم خلق الله على الله – محمد رسول الله ﷺ ثم يموت . فكأنما فداه الله من الذبح لهذا القصد العظيم الكريم الكبير .

ثم تتواكب الأطياف والذكريات . من محمد رسول الله ﷺ وهو يدرج فى طفولته وصباه فوق هذا الثرى ، حول هذا البيت ... وهو يرفع الحجر الأسود بيديه الكريمتين فيضعه موضعه ليطفىء الفتنة التى كادت تنشب بين القبائل وهو يصلى ... وهو يطوف .... وهو يخطب ... وهو يعتكف ... وإن خطواته عليه الصلاة والسلام لتنبض حية فى الخاطر ، وتتمثل شاخصة فى الضمير ، يكاد الحاج هناك يلمحها وهو مستغرق فى تلك الذكريات ... وخطوات الحشد من صحابته الكرام ، وأطيافهم ، ترف ، وتدف ، فوق هذا الثرى ، حول ذلك البيت ، تكاد تسمعها الآذان وتكاد تراها الأبصار .

---

(١) الصافات : ١٠٢
(٢) الصافات : ١٠٣ – ١٠٥ .
(٣) البقرة : ١٢٨ .

والحج بعد ذلك كله مؤتمر جامع للمسلمين قاطبة . مؤتمر يجدون فيه أصلهم العريق الضارب فى أعماق الزمن منذ أبيهم إبراهيم الخليل ﴿ ملة أبيكم إبراهيم هو سمّاكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم ﴾[1] .. ويجدون محورهم الذى يشدهم جميعاً إليه . هذه القبلة التى يتوجهون إليها جميعاً ويلتقون عليها جميعاً ويجدون رايتهم التى يفيئون إليها . راية العقيدة الواحدة التى تتوارى فى ظلها فوارق الأجناس والألوان والأوطان .. ويجدون قوتهم التى قد ينسونها حيناً . قوة التجمع والتوحيد والترابط الذى يضم الملايين . الملايين التى لا يقف لها أحد ، لو فاءت إلى رايتها الواحدة التى لا تتعدد ... راية العقيدة والتوحيد .

وهو مؤتمر للتعارف والتشاور وتنسيق الخطط وتوحيد القوى . وتبادل المنافع والسلع والمعارف والتجارب . وتنظيم ذلك العالم الإسلامى الواحد الكامل المتكامل مرة فى كل عام . فى ظل الله . بالقرب من بيت الله . وفى ظلال الطاعات البعيدة والقريبة ، والذكريات الغائبة والحاضرة . فى أنسب مكان ، وأنسب جو ، وأنسب زمان ...

فذلك إذ يقول الله سبحانه : ﴿ ليشهدوا منافع لهم ﴾ ... كل جيل بحسب ظروفه وحاجاته وتجاربه ومقتضياته ، وذلك بعض ما أراده الله بالحج يوم أن فرضه على المسلمين ، وأمر إبراهيم عليه السلام – أن يؤذن به فى الناس .

– ويمضى السياق يشير إلى بعض مناسك الحج وشعائره وأهدافها –

﴿ ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ﴾[2] .. وهذه كناية عن نحر الذبائح فى أيام العيد وأيام التشريق الثلاثة بعده . والقرآن يقدم ذكر الله المصاحب لنحر الذبائح ، لأن الجو جو عبادة ، ولأن المقصود من النحر هو التقرب إلى الله . ومن ثم فإن أظهر ما يبرز فى عملية

---

(١) الحج : ٧٨ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ٢٣٦ – ٢٣٧ .

(٢) الحج : ٢٨ ؛ عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : « ما العمل فى أيام أفضل منها فى هذه » قالوا ولا الجهاد فى سبيل الله ؟ قال : ولا الجهاد فى سبيل الله إلا رجل يخرج ويخاطر بنفسه وماله فلم يرجع شيء رواه أحمد وأبوداود والترمذى ، تفسير القرآن العظيم ،جـ ٣ ، ص ٢١٦ ، ٢١٧ .

النحر هو ذكر اسم الله على الذبيحة . وكأنما هو الهدف المقصود من النحر لا النحر ذاته .

والنحر ذكرى لفداء إسماعيل – عليه السلام – فهو ذكرى لآية من آيات الله وطاعة من طاعات عبديه إبراهيم وإسماعيل – عليهما السلام – فوق ما هو صدقة وقربى لله بإطعام الفقراء . وبهيمة الأنعام هى الإبل والبقر والغنم والمعز .

﴿ فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ﴾ (١) ..

والأمر بالأكل من الذبيحة يوم النحر هو أمر للإباحة أو للاستحباب . أما الأمر بإطعام البائس والفقير منها فهو أمر للوجوب ، ولعل المقصود من أكل صاحبها منها أن يشعر الفقراء أنها طيبة كريمة .

وبالنحر ينتهى الإحرام فيحل للحاج ، حلق شعره ، أو تقصيره ، ونتف شعر الإبط ، وقص الأظافر والاستحمام . مما كان ممنوعا عليه فى فترة الإحرام . وهو الذى يقول عنه ﴿ ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم ﴾(٢) التى نذروها من الذبائح غير الهدى الذى هو من أركان الحج ﴿ وليطوفوا بالبيت العتيق ﴾ (٣) .... طواف الإفاضة بعد الوقوف بعرفات ، وبه تنتهى شعائر الحج . وهو غير طواف الوداع .

والبيت العتيق هو المسجد الحرام ، أعفاه الله فلم يغلب عليه جبار وأعفاه الله من البلى والدثور ، فما يزال معمورا منذ إبراهيم – عليه السلام – ولن يزال .

تلك قصة بناء البيت الحرام ، وذلك أساسه الذى قام عليه ... بيت أمر الله خليله إبراهيم – عليه السلام – بإقامته على التوحيد ، وتطهيره من الشرك وأمره أن يؤذن فى الناس بالحج إليه . ليذكروا اسم الله – لا أسماء الآلهة المدعاة – على ما رزقهم من بهيمة الأنعام . ويأكلوا منها ويطعموا البائس الفقير على اسم الله دون سواه .. فهو بيت حرام ، حرمات الله فيه مصونة – وأولها عقيدة التوحيد ،

---

(١) الحج : ٢٨ .
(٢) الحج : ٢٩ .
(٣) الحج : ٢٩ .

وفتح أبوابه للطائفين والقائمين والركع السجود - إلى جانب حرمة الدماء ، وحرمة العهود والمواثيق وحرمة الهدنة والسلام .

﴿ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه وأحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور . حنفاء لله غير مشركين به ، ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق﴾[1] . . .

وتعظيم حرمات الله ، يتبعه التحرج من المساس بها . وذلك خير عند الله . خير فى عالم الضمير والمشاعر ، وخير فى عالم الحياة والواقع . فالضمير الذى يتحرج ، هو الضمير الذى يتطهر ، والحياة التي ترعى فيها حرمات الله هى الحياة التى يأمن فيها البشر من البغى والاعتداء ، ويجدون فيها مثابة أمن ، وواحة سلام ، ومنطقة اطمئنان »[2] .

---

(١) الحج : ٣٠ - ٣١ .
(٢) فى ظلال القرآن ، المجلد الرابع ، ص ٢٤١٥ .

الجــزء الثانى

معالم يرسيها نسك الحج فى حياة الأمة المسلمة

١ - والحج بمناسكه رمز على استسلام الإنسان لله إذا بلغه أمر الله بواسطة رسوله ، إذ ينفذ الأمر بصرف النظر عن المعنى العملى لهذا الأمر . وما الطواف ، والوقوف ، والسعى ، والحلق ، والتقصير وغيرها من أعمال الحج ، إلا رمز استسلام المسلم لأمر الله دون نقاش .

وهو رمز على ارتباط هذه الأمة بأبيها إبراهيم عليه السلام حيث تحيي شعائره ، وتطوف بالبيت الذى بناه .

وهو رمز على وحدة الأمة الإسلامية ، بصرف النظر عن الأجناس والألوان والأوطان ، فوحدة المسلمين نابعة من عقيدتهم ودينهم وشريعتهم .

٢ - والحج مظهر عملى لكثير من قواعد الإسلام :

فهو المظهر العملى للأخوة الإسلامية حيث يحس الإنسان بشكل عملى أنه أخ لكل مسلم فى العالم .

وهو المظهر العملى للمساواة بين الشعوب إذا دخلت فى الإسلام .

وهو المظهر العملى لقوله تعالى : ﴿ وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ﴾ . فبه يتم أعظم تعارف بين شعوب العالم .

وهو المظهر العملى لخضوع المسلمين جميعا لسلطة سياسة واحدة[١] ...

٣ - والحج مدرسة يرتفع بها المسلم إلى آفاق أرقى وأعلى

يتعلم بها على بذل الجهد مع الصبر « لكن أفضل الجهاد حج مبرور »

ويتعلم بها أن يعيش فى عبادة دائمة .

---

(١) سعيد حوى ، الإسلام ، جـ ١ ، ص ١٧٦ - ١٨٠ .

ويتعلم بها أن يكون لطيفا مع المؤمنين رحبا بهم .

ويتعلم بها كبح عواطفه ، وإلجام نزواته .

ويتعلم بها دروسا من الاخشيشان والقسوة .

ويتعلم بها دروس العبودية لله .

ويتعلم بها كيف ينفق فى سبيل الله دون مقابل .

ويتعلم بها كيف يعظم ما عظمه الله ، وكيف يحقر ما حقره الله .

ويتعلم بها أن يعادى من عادى الله ، وأن يوالى من والى الله .

٤ – والحج يحيى فى نفس الإنسان مشاعر كثيرة

يحيى فيه مشاعر العطف على المسلمين ، والانتصار لمأساتهم ، ومشاعر الجيل الإسلامى الأول الذى عاش هنا . وحياة الاضطهاد من أجل العقيدة التى عاناها .

ومشاعر الولاء لله والرسول والمؤمنين .

ومشاعر التوجه الخالص لله .

ومشاعر التجرد عن الدنيا ، والإقبال على الآخرة .

ومشاعر العزم على فتح صفحة جديدة مع الله .

٥ – وفى كل فعل من أفعال الحج عظات ومعان ، إذا تحسسها الإنسان ولدت معه مفاهيم ربانية أكثر ، وسلوكا إسلاميا أجود ، وتأسيا برسول الله أعلى

مجمع الناس عرفات قبل طواف الركن ، حيث يجتمع فى يومه كل من نوى الحج ، ليبدأ كل الناس منطلقهم منه دفعة واحدة لتعظيم البيت ، ثم يزدلفون منه نحو البيت إلى مزدلفة ، وقد تابوا وأنابوا وأقبلوا على البيت بنفوس أطهر وأكثر شفافية .

ومن مزدلفة ينطلقون إلى منى ، ليرموا الجمار قبل أن يطوفوا معلنين أن عدو الله هو عدوهم ، ويذبحون لله شكرا على أن أباح لهم بهيمة الأنعام ، ويحلقون استعدادا للطواف بنفوس نظيفة ، وثياب نظيفة ، ومنظر حسن .

ثم يطوفون بالبيت العتيق معظمين له ، لتعظيم الله إياه ﴿ ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب ﴾ ثم يسعون بين الصفا والمروة فعل أمهم الصالحة ، يوم ابتدأ أمر التمهيد لبناء بيت الله .

ويخرج الإنسان من هذه الرحلة وقد ولد من جديد ، ويرجع مرة ثانية ليرمى الجمار معلنا الشيطان بالعداء أولا وآخرا .

٦ – والحج عودة بالمسلمين إلى مراكز الإسلام الأولى ، دين إبراهيم ومحمد عليهما السلام وجميع الأنبياء والمرسلين . فتقوى فى المسلم رابطته بهذه المراكز ، على أنها وطنه الروحى ، وقبلته الوحيدة ، ووجهة جسمه ، ومنطلق تطلعاته وآماله ، فيرجع منه وقد تغيرت كثير من معالم صورة الحياة لديه . فبعد أن كان ارتباطه بمراكز الإسلام نظريا ، أصبح حقيقة وواقعا ، وحسا وعملا . وفى النصوص التالية إشارات لمن تأمل :

أولا : « قلت لابن عباس يزعم قومك أنه ﷺ سعى بين الصفا والمروة وأنه سنة . قال : صدقوا أن إبراهيم لما أمر بالمناسك اعترض له الشيطان ، فسابقه فسبقه إبراهيم ، ثم ذهب به جبريل إلى جمرة العقبة ، فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ، ثم عرض له عند الجمرة الوسطى ، فرماه بسبع ثم تله للجبين ، وعلى إسماعيل قميص أبيض قال . يا أبت إنه ليس لى ثوب تكفننى فيه غيره ، فاخلعه حتى تكفننى فيه ، فعالجه ليخلعه ، فنودى من خلفه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ، فالتفت إبراهيم فإذا هو بكبش أبيض ، أقرن ، أعين ، قال ابن عباس : لقد رأيتُنا نتتبع ذلك الضرب من الكباش . قال . ثم ذهب به جبريل إلى الجمرة القصوى فعرض له الشيطان فرماه بسبع حتى ذهب ، ثم ذهب به جبريل إلى منى . قال : هذا منى مناخ الناس ، ثم أتى به جمعا قال : هذا المشعر الحرام ، ثم ذهب به إلى عرفة هل تدرى لم سميت عرفة ؟ قلت لا ، قال : إن جبريل قال لإبراهيم هل عرفت ؟ قال نعم فمن ثم سميت عرفة . هل تدرى لم كانت التلبية ؟ قلت وكيف كانت ؟ قال إن إبراهيم لما أمر أن يؤذن فى الناس

بالحج . خفضت له الجبال رؤوسها ، ورفعت له القرى فأذن بالناس بالحج) [(١)] .

ثانيا : روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص :

طوفوا بهذا البيت ، واستلموا هذا الحجر ، فإنهما كانا حجرين أهبطا من الجنة ، فرفع أحدهما ، وسيرفع الآخر ، فإن لم يكن كما قلت ، فمن مر بقبرى فليقل هذا قبر عبد الله بن عمرو الكذاب .

ثالثا : روى عن ابن عمر[(٢)] :

« أن النبى ﷺ أتاه فى مسجد منى رجل من الأنصار ، ورجل من ثقيف ، فقالا : يا رسول الله جئنا نسألك فقال : إن شئتما أخبرتكما بما جئتما تسألانى عنه . وإن شئتما أمسك وتسألانى فقالا : أخبرنا يا رسول الله . فقال : للأنصارى – جئتنى تسألنى عن مخرجك من بيتك تؤم المسجد الحرام ومالك فيه ، وعن ركعتيك بعد الطواف ومالك فيهما ، وعن طوافك بين الصفا والمروة ومالك فيه ، وعن وقوفك عشية عرفة ومالك فيه ، وعن رميك الجمار ومالك فيه ، وعن نحرك ومالك فيه ، وعن حلقك رأسك ومالك فيه ، وعن طوافك بالبيت بعد ذلك ومالك فيه . فقال : والذى بعثك بالحق لَعن هذا جئت أسالك قال : فإنك إذا خرجت من بيتك تؤم البيت الحرام لا تضع ناقتك خفا ولا ترفعه إلا كتب الله لك به حسنة ، ومحا عنك خطيئة ، وأما ركعتاك بعد الطواف كعتق رقبة من بنى إسماعيل ، وأما طوافك بين الصفا والمروة كعتق سبعين رقبة ، وأما وقوفك عشية عرفة فإن الله تعالى يهبط إلى سماء الدنيا فيباهى بكم الملائكة . يقول عبادى جاءونى شعثاً وغبرا من كل فج عميق يرجون جنتى . فلو كانت ذنوبكم كعدد الرمل أو كقطر المطر ، وزبد البحر لغفرتها . أفيضوا عبادى مغفورا لكم وعمن شفعتم له . وأما رميك الجمار فلك بكل حصاة رميتها تكفير كبيرة من الموبقات . وأما نحرك فمدخور لك عند ربك . وأما حلاقك رأسك فلك

---

(١) رواه الإمام أحمد والطبرانى فى الكبير عن أبى الطفيل ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ٤ ، ص ١٥ .

(٢) رواه الطبرانى فى الكبير ، صحيح الجامع الصغير وزيادته ، حديث رقم ١٣٧٣ – ٥٨٨ ، وهو حديث حسن .

بكل شعرة حلقتها حسنة وتمحى عنك خطيئة . وأما طوافك بالبيت بعد ذلك فإنك تطوف ولا ذنب لك يأتى ملك حتى يضع يديه بين كتفيك فيقول : اعمل فيما يستقبل فقد غفر لك ما مضى » (١) .

رابعا : « عن ابن مسعود رفعه : « تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الذنوب كما ينفى الكير خبث الحديد والذهب والفضة ، وليس لحجة مبرورة ثواب إلا الجنة وما من مؤمن يظل يومه محرما إلا غابت الشمس بذنوبه » (٢) .

خامسا : « عن أبى هريرة رفعه – العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما ، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة » .

وفى رواية « من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه » (٣) .

« وعن أبى هريرة رفعه : – الحجاج والعمار وفد الله إن دعوه أجابهم وإن استغفروه غفر لهم » .

وبعد – فالحج إحياء لأخلد ذكريات ربانية عرفها البشر ، ذكرى الأسرة التى لا تبالى فى الله بشيء ، ذكرى الولد الذى يقدم نفسه قربانا لله ، ذكرى الوالد الذى يقدم ابنه قربانا لله ، ذكرى الأم التى تثق برعاية الله ثقة لا حد لها ، وتطيعه وتطيع سيدها طاعة لا حد لها ، ذكرى التوكل الكامل ، ذكرى العودة الفاتحة إلى البيت الذى أخرج من جواره المستضعفون .

والحج ميزان يعرف به المهتمون بأمر المسلمين ، حال المسلمين ، فالأمة الإسلامية بما فيها من قوة أو خير ، من ضعف أو جهل ، من ذلة أو فقر من عزة أو غنى ، بما فيها من كل شيء ، لا تعرف كما تعرف فى الحج .

والحج معول الهدم الأول ، فى كل حاجز يوضع بين أبناء هذه الأمة ، حاجز القومية ، والوطنية ، والمال والجاه ، والسلطان ، كل هذا يزول بضربة واحدة

---

(١) رواه البَزار والطبرانى فى الكبير عن ابن عمر .
(٢) رواه الترمذى والنسائى بلفظه .
(٣) للستة إلا أبو داود .

من معول الحج العظيم .

والحج قبل هذا وبعده ، طريق من طرق الخلاص من براثن الشيطان ، إلى معية الرحمن . فالمسلم الذى يرمى الجمرة قبل طوافه بالبيت ، ثم يطوف بالبيت[1] ، ثم يرجع ليرمى . لاشك أنه تحقق لو تأمل بقوله تعالى ﴿ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم ﴾ .

---

(١) وفى الحديث عن رسول الله ﷺ : « من طاف بالبيت سبعا وصلى ركعتين كان كعتق رقبة » حديث صحيح ٦٢٥٥ صحيح الجامع الصغير ، وفى رواية أخرى « من طاف بهذا البيت أسبوعاً فأحصاه كان كعتق رقبة لا يضع قدما ولا يدفع أخرى إلا حط الله بها عنه خطيئة ، وكتب له حسنة » حديث صحيح رقم ٦٢٥٦ صحيح الجامع الصغير .

الجــزء الثالث

الحـــج

الحج عبادة مقننة مشروعة وليست عادة عربية قديمة[1] أخذها محمد ﷺ وجعلها ركنا من أركان الإسلام الخمس .

حكمه : الحج فريضة على كل مسلم ومسلمة استطاع إليه سبيلا لقوله تعالى : ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ، ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين ﴾ [2] . وقول رسول الله ﷺ : « بنى الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصوم رمضان » [3] .

وهو فرض مرة فى العمر لقوله ﷺ : « الحج مرة ، فمن زاد فهو تطوع » [4] . غير أنه يستحب تكراره كل خمسة أعوام ، لقوله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل « إن عبدا صححت له جسمه ، ووسعت عليه فى المعيشة يمضى عليه خمسة أعوام لا يفد إلى لمحروم » [5] .

---

(١) وقد افترى هذه المزاعم المستشرقون اليهود والنصارى ووافقهم عليه الكثير من أبناء العرب والمسلمين . انظر ، تاريخ العرب المطول ، ص ١٨٥ ، الدعوة إلى الإسلام ، ص ٤٧ ، تاريخ التمدن الإسلامى ، ص ٣٨ ؛ ونحن مضطرون إلى إفراد جزء من رسالتنا هذه لموضوع الحج فى مواجهة كتب التاريخ التى زيفت وشوهت هذا الركن من أركان الإسلام .

(٢) آل عمران : ٩٦ .

(٣) متفق عليه .

(٤) رواه أبو داود وأحمد والحاكم وصححه . هذا الجزء منقول عن منهاج المسلم ط ٨ ، ١٣٩٦ ، ص ٢٧٤ .

(٥) ابن حبان فى صحيحه والبيهقي وتكلم فى سنده .

أما العمرة فهى سنة واجبة لقوله تعالى : ﴿ وأتموا الحج والعمرة لله ﴾(١) . وقول رسول الله ﷺ : « حج عن أبيك واعتمر » (٢) . لمن سأله . إن أبى شيخ كبير لا يستطيع الحج ولا العمرة ولا الظعن .

حكمتهمـــا :

من الحكمة فى الحج والعمرة ، تطهير النفس من آثار الذنوب لتصبح أهلا لكرامة الله تعالى فى الدار الآخرة ، لقوله ﷺ : « من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق ، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » (٣) .

شروط وجوبهمـا :

ويشترط لوجب الحج والعمرة على المسلم الشروط الآتية : الإسلام والعقل والبلوغ والاستطاعة .

الترغيب فى الحج والعمرة والترهيب من تركهما :

وقد رغب الشارع العظيم فى هاتين العبادتين العظيمتين وحث على فعلهما ، ودعا إلى ذلك بأساليب متنوعة ، وأضرب من البيان مختلفة . من ذلك قوله ﷺ « أفضل الأعمال ، إيمان بالله ورسوله ، ثم جهاد فى سبيله ، ثم حج مبرور » (٤) . وقوله ﷺ : « الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة » (٥) . وقوله : « جهاد الكبير والضعيف والمرأة الحج المبرور » . وقوله : « العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما ، والحج المبرور ، ليس له جزاء إلا الجنة » (٦) .

كما رهب الشارع من ترك الحج والعمرة ، وحذر من التقاعس عن فعلهما بما لا مزيد عليه ، فقال : « من لم تحبسه حاجة ظاهرة أو مرض حابس أو منع

---

(١) البقرة : ١٩٦ .
(٢) رواه أصحاب السنن وصححه الترمذى .
(٣) متفق عليه .
(٤) متفق عليه .
(٥) متفق عليه .
(٦) البخـارى .

من سلطان جائر ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا أونصرانيا » (١) .

وقال على رضى الله عنه : من ملك زادا وراحلة تبلغه إلى بيت الله الحرام ولم يحج ، فلا عليه أن يموت يهوديا أو نصرانيا ، وذلك لقوله تعالى ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غني عن العالمين ﴾(٢) . وقال عمر رضى الله عنه : (لقد هممت أن أبعث رجالاً إلى هذه الأمصار ، فينظروا كل من كانت له جدة ولم يحج فيضربوا عليه الجزية ما هم بمسلمين ، ما هم بمسلمين)(٣) .

أركان الحج والعمرة :

والحج أربعة أركان ، وهى الإحرام ، والطواف ، والسعى والوقوف بعرفة ، فلو سقط منها ركن لبطل الحج .

وللعمرة ثلاثة أركان ، وهى الإحرام والطواف والسعى فلا تتم إلا بها .

الركن الأول :

والركن الأول من أركان الحج والعمرة **الإحرام** وهو نية الدخول فى النسك ، الحج أو العمرة المقارنة للتجرد والتلبية وله واجبات وسنن ومحظورات ، وهى :

(أ) الواجبات :

المراد من الواجبات الأعمال التى لو ترك أحدها لوجب على تاركه دم أو صيام عشرة أيام إن عجز عن الدم ، وواجبات الإحرام ثلاثة ، وهى :

١ – الإحرام من الميقات .
٢ – التجرد من المخيط .
٣ – التلبية .

---

(١) أحمد وأبو يعلى والبيهقي وإن كان ضعيفا ، فإن له متابعات حسن بها كما قال الشوكاني .
(٢) الترمذى ، ووصفه بالغرابة وهو غير مرفوع والموقوف أصح .
(٣) رواه البيهقي وسعيد في سننه .

(ب) **السـنن :**

وهى الأعمال التى لو تركها المحرم لا يجب عليه فيها دم ، ولكن يفوته بتركها أجر كبير وهى :

١ - الاغتسال للإحرام .
٢ - الإحرام فى رداء وإزار أبيضين نظيفين .
٣ - وقوع الإحرام عقب نافلة أو فريضة .
٤ - تقليم الأظافر ، وقص الشارب ونتف الإبط ، وحلق العانة .
٥ - تكرار التلبية وتجديدها .
٦ - الدعاء والصلاة على النبى ﷺ عقب التلبية .

(جـ) **المحظـورات :**

هى الأعمال الممنوعة والتى لو فعلها المحرم لوجب عليه فيها فدية دم أو صيام أو إطعام ، وتلك الأعمال هى :

١ - تغطية الرأس بأى غطاء كان .
٢ - حلق الشعر أو قصه وإن قل ، وسواء كان شعر رأسه أو غيره .
٣ - قلم الأظافر ، وسواء كان فى اليدين أو الرجلين .
٤ - مس الطيب .
٥ - لبس المخيط مطلقا .
٦ - قتل صيد البر .
٧ - مقدمات الجماع من قبلة وغيرها .
٨ - عقد النكاح أو خطبة .
٩ - الجمـاع .

حكم هذه المحظورات ، الخمس الأولى من فعل واحدا منها وجبت عليه فدية ، وهى صيام ثلاثة أيام ، أو إطعام ستة مساكين لكل مسكين مدا من بر ، أو ذبح شاة ، لقوله تعالى ﴿ فمن كان منكم مريضا أو به أذى

من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك ﴾ [١] . وأما قتل الصيد ففيه جزاؤه بمثله من النعم [٢] ، لقوله تعالى ﴿ فجزاء مثل [٣] ما قتل من النعم ﴾ . وأما مقدمات الجماع فإن على فاعلها دما ، وهو ذبح شاة ، وأما الجماع يفسد الحج بالمرة ، غير أنه يجب الاستمرار فيه حتى يتم وعلى صاحبه بدنة - أى بعير - فإن لم يجد صام عشرة أيام ، وعليه مع ذلك القضاء من عام آخر لما روى الإمام مالك فى الموطأ أن عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب وأبا هريرة سئلوا عن رجل أصاب أهله وهو محرم بالحج ؟ فقالوا ينفذان ويمضيان لوجههما حتى يقضيا حجهما ، ثم عليهما حج قابل والهدى .

وأما عقد النكاح وخطبته وسائر الذنوب كالغيبة والنميمة وكل ما يدخل تحت لفظ الفسوق ففيه التوبة والاستغفار ، إذ لم يرد عن الشارع وضع كفارة له سوى التوبة والاستغفار .

الركن الثانى وهو الطواف :

الطواف ، هو الدوران حول البيت سبعة أشواط ، وله شروط وسنن وآداب تتوقف حقيقته عليها ، وهى :

(أ) **شروطه** ، وهى :

١ - النية عند الشروع فيه ، إذ الأعمال بالنيات ، فكان لابد للطائف من نية طواف وهى عزم القلب على الطواف تعبدا لله تعالى ، وطاعة له عز وجل .

٢ - الطهارة من الخبث والحدث ، لخبر ، الطواف حول البيت مثل الصلاة .

---

(١) البقرة : ١٩٦ .

(٢) النعم ، الإبل والبقر والغنم .

(٣) مما عرفت مثليه بقضاء الصحابة ، النعامة حكم فيها ببدنة ، وحمار الوحش وبقر الوحش والضبع والإبل حكم فيها ببقرة ، والغزال بشاة ، والأرنب بعناق ، والحمام بشاة ، وإن لم يوجد للحيوان مثل قوم بدراهم وتصدق بقيمته ، وإن لم يستطع صام عن كل مد يوما .

٣ – ستر العورة ، إذ الطواف كالصلاة ، لقوله ﷺ : « الطواف حول البيت مثل الصلاة إلا أنكم تتكلمون فيه ، فمن تكلم فلا يتكلم إلا بخير » (١) . وعليه فمن طاف بغير نية أو طاف وهو محدث أو عليه نجاسة أو طاف وهو مكشوف العورة فطوافه فاسد وعليه إعادته .

٤ – أن يكون الطواف بالبيت داخل المسجد ولو بعد من البيت .

٥ – أن يكون البيت على يسار الطائف .

٦ – أن يكون الطواف سبعة أشواط ، وأن يبدأ بالحجر الأسود ويختمه به لفعل الرسول ﷺ ذلك كما ورد فى الصحيح .

٧ – أن يوالى بين الأشواط ، فلا يفصل بينهما لغير ضرورة ولو فصل بينها وترك الموالاة لغير ضرورة بطل طوافه ووجبت إعادته .

(ب) سننــه ، وهى :

١ – الرمل ، وهو سنة للرجال القادرين دون النساء (٢) ، وحقيقته أن يسارع الطائف فى مشيه مع تقارب خطاه . ولا يسن إلا فى طواف القدوم ، وفى الأشواط الثلاثة الأولى منه فقط .

٢ – الاضطباع ، وهو كشف الضبع (٣) أى الكتف الأيمن ، ولا يسن إلا فى طواف القدوم خاصة ، وللرجال دون النساء ، ويكون فى الأشواط السبعة عامة .

٣ – تقبيل الحجر الأسود عند بدء الطواف إن أمكن وإلا اكتفى بلمسه باليد أو الإشارة عند تعذر ذلك . لفعله عليه الصلاة والسلام ذلك .

---

(١) الترمذى .

(٢) روى مسلم عن ابن عمر ، أن النبى ﷺ رمل من الحجر الأسود ثلاثا ومشى أربعا .

(٣) روى أحمد أن النبى ﷺ وأصحابه اعتمروا من الجعرانة فاضطبعوا فجعلوا أرديتهم تحت آباطهم وقذفوها على عواتقهم اليسرى .

٤ – قول بسم الله ، والله أكبر . اللهم إيمانا بك وتصديقا بكتابك ، ووفاء بعهدك ، واتباعا لسنة نبيك محمد ﷺ عند بدء الشوط الأول .

٥ – الدعاء أثناء الطواف وهو غير محدد ولا معين بل يدعو كل طائف بما يفتح الله عليه غير أنه يسن ختم كل شوط بقول : ﴿ ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ﴾ .

٦ – استلام الركن اليمانى باليد ، وتقبيل الحجر الأسود كلما مر بهما أثناء طوافه لفعله ﷺ ذلك كما ورد فى الصحيح .

٧ – الدعاء بالملتزم عند الفراغ من الطواف . والملتزم هو المكان ما بين باب البيت والحجر الأسود ، لفعل ابن عباس رضى الله عنهما ذلك .

٨ – صلاة ركعتين بعد الفراغ من الطواف خلف مقام إبراهيم يقرأ فيهما بالكافرون والإخلاص بعد الفاتحة ، لقوله تعالى ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ (١) .

٩ – الشرب من ماء زمزم والتضلع منه بعد الفراغ من صلاة الركعتين .

١٠ – الرجوع لاستلام الحجر الأسود قبل الخروج إلى المسعى « تنبيه » أدلة جميع ما تقدم عمل الرسول ﷺ المبين فى حجة الوداع .

(جـ) **آدابـــه ، وهى :**

١ – أن يكون الطواف فى خشوع واستحضار قلب ، وشعور بعظمة الله عز وجل ، وفى خوف منه تعالى ، ورغبة فيما لديه .

٢ – أن لا يتكلم الطائف لغير ضرورة ، وإن تكلم تكلم بخير فقط ، لقوله ﷺ :« فمن تكلم فلا يتكلم إلا بخير » .

٣ – أن لا يؤذى أحدا بقول أو فعل ، إذ أذية المسلم محرمة ولا سيما فى بيت الله تعالى .

---

(١) البقرة : ١٢٥ .

٤ – أن يكثر من الذكر والدعاء والصلاة على النبى ﷺ .

الركن الثالث ، السعــى :

السعى ، هو المشى بين الصفا والمروة ذهابا وإيابا بنية التعبد ، وهو ركن الحج والعمرة ، لقوله تعالى : ﴿ إن الصفا والمروة من شعائر الله ﴾ (١) . وقوله ﷺ : « اسعوا فإن الله كتب عليكم السعى » (٢) . وله شروط وسنن وآداب ، وهى :

(أ) شروط السعى ، وهى :

١ – النية ، لقوله ﷺ « إنما الأعمال بالنيات » . فكان لابد من نية التعبد بالسعى طاعة لله وامتثالا لأمره .

٢ – الترتيب بينه وبين الطواف ، بأن يقدم الطوّاف على السعى .

٣ – الموالاة بين أشواطه ، غير أن الفصل اليسير لا يضر ولاسيما إذا كان لضرورة .

٤ – إكمال العد سبعة أشواط ، فلو نقص شوط أو بعض الشوط لم يجزىء ، إذ حقيقته متوقفة على تمام أشواطه .

٥ – وقوعه بعد طواف صحيح ، سواء كان الطواف واجبا أو سنة غير أن الأولى ، أن يكون بعد طواف واجب كطواف القدوم ، أو ركن كطواف الإفاضة .

(ب) ســنن الســعى ، وهى :

١ – الخبب ، وهى سرعة المشى بين الميلين الأخضرين الموضوعين على حافتى الوادى القديم الذى خبت فيه « هاجر » أم إسماعيل عليهما السلام ، وهو سنة للرجال القادرين دون الضعفة والنساء (٣) .

---

(١) البقرة : ١٥٨ .

(٢) ابن ماجة وأحمد والشافعي وقال في الفتح هو حسن لكثرة طرقه .

(٣) روى الشافعي أن عائشة رضي الله عنها رأت نساء يسعين – يسرعن . فقالت أما لكن فينا أسوة ؟ ليس عليكن سعي . أى خبب وسرعة مشي .

٢ – الوقوف على الصفا والمروة للدعاء فوقهما .
٣ – الدعاء على كل من الصفا والمروة فى كل شوط من الأشواط السبعة .
٤ – قول الله أكبر ثلاثا عند الرقى على كل من الصفا والمروة فى كل شوط وكذا قول لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد وهو على كل شيء قدير . لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده .
٥ – الموالاة بينه وبين الطواف ، بحيث لا يفصل بينهما بدون عذر شرعى .

(جـ) **آداب السـعى ، وهى :**

١ – الخروج إليه من باب الصفا تاليا قول الله تعالى : ﴿ إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطّوف بهما ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم ﴾[1] .
٢ – أن يكون الساعى متطهرا .
٣ – أن يسعى ماشيا إن قدر على ذلك بدون مشقة .
٤ – أن يكثر من الذكر[2] ، والدعاء ، وأن يشتغل بهما دون غيرهما .
٥ – أن يغض بصره عن المحارم ، وأن يكف لسانه عن المآثم .
٦ – أن لا يؤذى أحدا من الساعين أو غيرهم من المارة بأى أذى قول أو فعل .
٧ – استحضاره فى نفسه ذله وفقره وحاجته إلى الله تعالى فى هداية قلبه ، وتزكية نفسه ، وإصلاح حاله .

---

(١) البقرة : ١٥٨ .
(٢) لما روى الترمذى وصححه أنه ﷺ قال : « إنما جعل رمي الجمار والسعي بين الصفا والمروة لإقامة ذكر الله تعالى » .

الركن الرابع ، وهو الوقوف بعرفة :

الوقوف بعرفة ، هو الركن الرابع من أركان الحج ، لقوله ﷺ : « الحج عرفة » [1] . وحقيقته الحضور بالمكان المسمى عرفات ، لحظة فأكثر بنية الوقوف من بعد ظهر يوم تاسع الحجة إلى فجر اليوم العاشر منه . وله واجبات وسنن يتم بها وهى :

(أ) الواجبـــات ، وهى :

١ – الحضور بعرفة يوم تاسع الحجة بعد الزوال إلى غروب الشمس .

٢ – المبيت بمزدلفة بعد الإفاضة من عرفات ليلة عاشر الحجة .

٣ – رمى جمار العقبة يوم النحر .

٤ – الحلق أو التقصير بعد رمى جمرة العقبة يوم النحر .

٥ – المبيت بمنى ثلاث ليال ، وهى ليالى الحادى عشر ، والثانى عشر ، والثالث عشر ، أو ليلتين لمن تعجل وهما ليلة الحادى عشر والثاني عشر .

٦ – رمى الجمرات الثلاث بعد زوال كل يوم من أيام التشريق الثلاثة أو الاثنين .

« **تنبيه** » أدلة هذه الواجبات عمله ﷺ وقد قال : « لتأخذوا عني مناسككم » [2] .

وقال ﷺ : « حجوا كما رأيتمونى أحج » [3] . وقال عليه الصلاة والسلام : « قفوا على مشاعركم فإنكم على إرث من إرث أبيكم إبراهيم » [4] .

---

(١) أحمد والترمذى وهو صحيح .

(٢) مسلم .

(٣) في الصحيح .

(٤) الترمذى وصححه .

(ب) **السـنن ، وهى :**

١ - الخروج إلى (منى) يوم التروية - وهو ثامن الحجة والمبيت بها ليلة التاسع - وعدم الخروج منها إلا بعد طلوع الشمس ، لصلاة خمس صلوات بها .

٢ - وجوده بعد الزوال (بنمرة) وصلاته الظهر والعصر قصرا ، وجمعا مع الإمام .

٣ - إتيانه لموقف (عرفات) بعد أدائه لصلاة الظهر والعصر مع الإمام والاستمرار بالموقف ذاكرا داعيا حتى غروب الشمس .

٤ - تأخير صلاة المغرب إلى أن ينزل بجمع (المزدلفة) فيصلى المغرب والعشاء بها جمع تأخير .

٥ - الوقوف مستقبل القبلة ذاكرا داعيا عند المشعر الحرام (جبل قزح) حتى الإسفار البين .

٦ - الترتيب بين رمى جمرة (العقبة) والنحر والحلق وطواف الزيارة (الإفاضة) .

٧ - أداء طواف الزيارة فى يوم النحر قبل الغروب .

(جـ) **الآداب ، وهـى :**

١ - التوجه من (منى) صباح التاسع إلى (نمرة) بطريق (ضب) لفعله ﷺ ذلك .

٢ - الاغتسال بعد الزوال للوقوف (بعرفة) وهو مشروع حتى للحائض والنفساء .

٣ - الوقوف بموقف رسول الله ﷺ عند الصخرة فى أسفل جبل الرحمة الذى يتوسط (عرفة) .

٤ - الذكر والدعاء والإكثار منهما وهو مستقبل القبلة بالموقف حتى تغرب الشمس .

٥ – كون الإفاضة من (عرفة) على طريق لا على طريق (ضب) الذى أتى منه ، لأن من هديه أن يأتى من طريق ويرجع من طريق آخر .

٦ – السكينة فى السير وعدم الإسراع فيه ، لقوله ﷺ : « يا أيها الناس[١] عليكم بالسكينة ، فإن البر ليس بالإيضاع » . والإيضاع هو الإسراع .

٧ – الإكثار من التلبية[٢] فى طريقه إلى (منى) و (عرفات) و (مزدلفة ومنى) إلى أن يشرع فى رمى جمرة العقبة .

٨ – التقاط سبع حصيات من (مزدلفة) لرمى جمرة العقبة .

٩ – الدفع من (مزدلفة) بعد الإسفار وقبل طلوع الشمس .

١٠ – الإسراع فى السير ببطن محسر ، وتحريك الدابة أو دفع السيارة قدر رمية حجر إن لم يخش ضررا .

١١ – رمى جمرة العقبة بين طلوع الشمس والزوال .

١٢ – قول (الله أكبر) مع كل حصاة يرميها .

١٣ – مباشرة ذبح الهدى أو شهوده حال نحره أو ذبحه وقول ، « اللهم هذا منك وإليك ، اللهم تقبل منى ، كما تقبلت من إبراهيم خليلك ، بعد أن يقول (بسم الله والله أكبر) الواجب قولهما .

١٤ – الأكل من الهدى ، إذ كان ﷺ يأكل من كبد أضحيته أو هديه .

١٥ – المشى إلى رمى الجمرات الثلاث أيام التشريق .

١٦ – قول الله أكبر مع كل حصاة . وقول اللهم اجعله حجا مبرورا وسعيا مشكورا ، وذنبا مغفورا .

١٧ – الوقوف للدعاء مستقبل القبلة بعد رمى الجمرة الأولى والثانية دون

---

(١) البخارى .

(٢) كل هذه الآداب ثابتة في السنة الصحيحة فما من مسألة إلا ولها مأخذها من قول الرسول ﷺ أو فعله .

الثالثة ، لأنه لا دعاء يستحب عندها ، إذ كان ﷺ يرميها وينصرف .

١٨ – رمى جمرة العقبة من بطن الوادى مستقبلا لها جاعلا البيت عن يساره ، و (منى) عن يمينه .

١٩ – قول المنصرف من مكة ، آيبون (١) تائبون ، عابدون لربنا حامدون ، صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، إذ كان ﷺ يقول ذلك عند انصرافه منها .

---

(١) بعد أن يقول لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد وهو على كل شيء قدير . والرد الفقهى مأخوذ عن منهاج المسلم تأليف أبى بكر جابر الجزائرى ، ط ٨ ، دار الفكر بيروت ١٢٩٦ .

الفصـــل السابع

دراسة نقدية
لبعض المراجع التى تناولت :

- تاريخ إبراهيم وإسماعيل وهاجر عليهم السلام .
- تاريـــخ الأمة المسلمـــة .
- تاريخ الحرم الآمن وبيت الله العتيق ومكة المكرمة .
- تاريخ الاغتصاب اليهودى لأرض الإسلام فى فلسطين .

الجـــزء الأول

(أ) الكتاب الأول :

دراسات تاريخية من القرآن الكريم فى بلاد العرب ، تأليف د . محمد بيومى مهران (أستاذ التاريخ القديم - كلية الآداب جامعة الإسكندرية) .

(ب) الكتاب الثانى :

دائرة معارف القرن العشرين ، تأليف محمد فريد وجدى .

الجزء الثانى

(ج) الكتاب الثالث :

سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين فى النصف الثانى من القرن العشرين ، تأليف د. حسن صبرى الخولى .

الفصل السابع

الجزء الأول

(أ) الكتاب الأول

« دراسات تاريخية من القرآن الكريم فى بلاد العرب »

شبهات
حول تاريخ إبراهيم وإسماعيل وهاجر عليهم
السلام ، وتاريخ الحرم الآمن وبيت الله
العتيق ومكة المكرمة ، والرد عليها

سؤال : تحدث الأستاذ الدكتور محمد بيومى مهران فى كتابه « دراسات تاريخية من القرآن الكريم فى بلاد العرب » ، جـ ١ ، ص ١١٥ عن إبراهيم عليه السلام بقوله (وأول من أعطى المسلمين اسمهم) . واستند فى قوله على آية ٧٨ من سورة الحج [١] . فما رأيكم ؟

الرد : بالرجوع إلى نص الآية ﴿وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم ، هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير﴾ .

وقد فسر الإمام الحافظ ابن كثير ﴿هو سماكم المسلمين من قبل﴾ بقوله قال مجاهد : (الله سماكم المسلمين من قبل فى الكتب المتقدمة وفى الذكر ..) ، وكذا قال غيره (قلت) وهذا هو الصواب ، واستند فى ذلك

---

(١) تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ٢٣٦ .

على حديث لمحمد رسول الله ﷺ منه « فادعوا بدعوة الله التى سماكم بها المسلمين المؤمنين عباد الله » .

يؤكد هذا المعنى الذى ذهب إليه ابن كثير ، ما تجلى لنا واضحا من خلال دراستنا [١] (إن الدين عند الله الإسلام) وأن الدين الإسلامى قبل آدم ، وأن آدم كان مسلما وكذلك نوح ، وكان هناك عشرة قرون بين آدم ونوح كانت على الإسلام ، وكل هؤلاء يسبقون إبراهيم عليه السلام بزمن لا يعلمه إلا الله ، أى أن المسلمين والإسلام كانوا موجودين قبل إبراهيم بزمن طويل لا يعلمه إلا الله ، وليس إبراهيم عليه السلام هو أول المسلمين ، وليس هو أول من أعطى المسلمين اسمهم كما أورد المؤلف فى كتابه « دراسات تاريخية من القرآن الكريم » وما ذهب إليه المؤلف هو قول ضعيف نقده جل المفسرين[٢] .

سؤال : ورد فى كتاب « دراسات تاريخية من القرآن الكريم ، جـ ١ ، ص ١١٥ ، عن إبراهيم عليه السلام : (أنه جاعل مكة أقدس بقاع الأرض قاطبة) واستند فى قوله على آية ٩٦ سورة آل عمران . فما رأيكم ؟ .

الـــرد : يقول الله تعالى ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين ﴾ .

ونص الآية وتفسيرها لا يعين أبدا على المعنى الذى ذهب إليه الأستاذ الدكتور لأن الله هو واهب البركة وواهب القداسة وهذا من مقتضى توحيد الربوبية . فالله هو الذى اصطفى إبراهيم عليه السلام واتخذه خليلا ، وهو الذى جعل حرما آمنا مباركا ، وليس إبراهيم [٣] . (ارجع إلى تفسير القرآن العظيم جـ ١ ،

---

(١) أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ ، الرسالة الأولى ، دار الوفاء للطباعة والنشر ، القاهرة ١٤٠٥ هـ ؛ وقد رواه النسائى عند تفسيره هذه الآية .

(٢) لأنه يعنى إسقاط وجود الإسلام والمسلمين قبل إبراهيم عليه السلام ، وهذا باطل .

(٣) خاصة وأن الله سبحانه وتعالى قد حرم مكة يوم خلق السموات والأرض ، كما وإن مكة هى الموضع الذى وضع فيه أول مسجد فى الأرض ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا ﴾ ؛ وأول الناس هو آدم عليه السلام ومن ذريته إبراهيم عليه السلام .

ص ٣٨٣ ؛ وصفوة التفاسير ، جـ ١ ، ص ٢١٨ – ٢١٩) .

سؤال : ورد فى كتاب دراسات تاريخية من القرآن ، جـ ١ ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ : (وفى الواقع رغم وجود البيوت الحرام فى بلاد العرب كبيت الأقيصر وبيت ذى الخلصة وبيت صنعاء .... فإن واحدا من هذه البيوتات لم يجتمع له ما اجتمع لبيت مكة ، ذلك لأن مكة كانت ملتقى القوافل بين الجنوب والشمال .... ولم تكن فيها سيادة قاهرة على تلك القبائل .... فمكة إذن بمثابة عبادة وتجارة ، وليست حوزة ملك يستبد بها صاحب العرش ولا يبالى من عداه ، وهى إن لم تكن كذلك من أقدم أزمانها ، فقد صارت إلى هذه الحالة بعد عهد جرهم والعماليق ..... أضف إلى ذلك أن مكة كانت عربية لجميع العرب ، ولم تكن كسرية أو قيصرية ... الخ) .

ما رأيكم فى هذا القول فى ضوء رسالتكم عن مكة والحرم الآمن ؟؟

الـــرد : **أولا** – التحريم والتحليل بأمر الله سبحانه وتعالى ﴿ ألا له الخلق والأمر ﴾ .

ثانيا – إن الله سبحانه وتعالى لم يحرم سوى مكة المكرمة ، والرسول محمد ﷺ حرم المدينة بأمر الله ، لأن الرسول ﷺ ﴿ وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى ، علمه شديد القوى ﴾ .

ثالثا – عدم جواز تحريم مناطق لم يجعلها الله حراما ، ويدخل فى ذلك عدم جواز القول بالحرم الإبراهيمى أو الحرم الجامعى .

رابعا – إن مكة وحرم الله الآمن وبيته العتيق قد حرمها الله سبحانه وتعالى يوم خلق السموات والأرض [1] . بل ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين ﴾ .

---

(١) بدليل حديث الرسول محمد ﷺ الوارد في الصحيحين ، إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة . (انظر السيرة النبوية ، جـ ١ ، دار المعرفة لبنان ١٣٩٦ هـ ، ص ٢٧١ . تفسير القرآن العظيم ، جـ ٢ ، ص ٣٥٤ .

خامسا – إن مكة ليست للعرب خاصة ولكنها لجميع المسلمين هكذا كانت وهكذا ستكون إن شاء الله ، وإن كانت هنالك فترات كان يتردد عليها ويعيش فيها المشركون ، وإنما هى ليست لهم فى الأصل .

سادسا – يجب على الكاتب أن يصحح العبارات الواردة فى كتابه ، والتى تتعارض مع الحق الذى بينه الله عز وجل .

سؤال : ورد فى كتاب دراسات تاريخية من القرآن (ص ٢٠٩) ما يأتى : (وقد عملت قريش على توفير الأمن فى منطقة مكة .... ولعل هذا هو السبب فى أن تسن قريش الأشهر الحرم فى موسم الحج ، حتى يأمن الناس) . أفيدونا أفادكم الله فى ضوء دراستكم عن هذا الموضوع .

الـــرد : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿ إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة ، واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ (١) .

أورد الإمام الحافظ ابن كثير فى تفسير القرآن العظيم التفسير (٢) التالى :

(قال الإمام أحمد حدثنا إسماعيل أخبرنا أيوب أخبرنا محمد بن سيرين عن أبى بكرة أن النبى ﷺ خطب فى حجته فقال : « ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ثلاثة متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان ثم قال : « أى يوم هذا ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، قال :« أليس يوم النحر ؟ » قلنا بلى . ثم قال : « أى شهر هذا ؟ » قلنا الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه . قال : « أليس ذا الحجة ؟ » قلنا بلى ، ثم قال : « أى بلد هذا ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه . قال : « أليست البلدة ؟ » قلنا

---

(١) التوبة : ٣٦ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ، جـ ٢ ، ص ٣٥٣ .

بلى ، قال : « فإن دماءكم وأموالكم – وأحسبه قال – وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا . وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ، ألا لا ترجعوا بعدى ضلالا يضرب بعضكم رقاب بعض ، ألا هل بلغت ؟ ألا ليبلغ الشاهد منكم الغائب ، فلعل من يبلغه يكون أوعى له من بعض من سمعه » . ورواه البخارى فى التفسير وغيره . ومسلم من حديث أيوب .... الخ » . وذلك يعنى أن تحريم الأشهر الأربع وتحديدها أمر توقيفى من الله عز وجل ، وليس من وضع قريش ، ولذلك نرى أن يحذف الكاتب هذه العبارة ويبدلها برأى الشارع العظيم الذى يملك حق التحليل والتحريم .

سؤال : ورد فى كتاب « دراسات تاريخية من القرآن » ، جـ ١ ، ص ١٩٨ – ١٩٩ ، كلام ، فيما يراه الكاتب مشكلة تحديد الأشهر الحرم ؛

ناقش الكاتب (ما يراه مشكلة تحديد الأشهر الحرم فى ضوء ما قاله المستشرق اليهودى فلهاوزن ووصل إلى أن : « الأشهر ذو القعدة وذو الحجة والمحرم » هى أشهر الحج فيما قبل الإسلام ، أما رجب ، فقد كان المكيون فيما يرى البعض يحتفلون فيه بعيد دينى ، ربما كان خاصا بقبائل مضر أو قبائل الحجاز أو بعضها ، وربما كان هذا أصل حرمته ، حتى يتمكن القوم من الذهاب والإياب ، وأداء المناسك فى ظل هدنة دينية مقدسة . انتهى كلام الكاتب ..... أفيدونا أفادكم الله ؟

الــرد : هل الكاتب هنا يريد أن يذهب إلى ما ذهب إليه غيره من المستشرقين اليهود والنصارى من أن محمدا ﷺ جاء فوجد العرب ، عرب الجاهلية ، قد اتفقوا فيما بينهم على تحريم هذه الأشهر الأربع ، فأقرهم على ذلك ؟ فإذا كان يقصد ذلك ، فالأمر جد خطير ، لأن ذلك يعنى أن الرسول محمد ﷺ قد أقر أمرا من أمور الجاهلية وجعله من الشرع فى الإسلام ، أى أن الإسلام من اختراع محمد ﷺ . ولا أظن أن الكاتب يقصد ذلك ، إذن يلزم الدكتور محمد مهران تغيير النص ليقرر فيه الحقائق التالية ؛ كما تبين لنا من خلال القرآن الكريم وحديث الرسول محمد ﷺ وأقوال المفسرين :

١ – إن الله سبحانه وتعالى قد جعل أربعة أشهر حرما ، منذ خلق السموات والأرض ، وليس « قبل الإسلام » (١) .

٢ – إن الرسول محمد ﷺ الذى ﴿ وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى ﴾ ، قد حدد هذه الأشهر الحرم « ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب » .

٣ – تحذف الفقرة (أما رجب ، فقد كان المكيون فيما يرى البعض – يحتفلون فيه بعيد دينى ، ربما كان خاصا بقبائل مضر أو قبائل الحجاز أو بعضها ، وربما كان هذا أصل حرمته) . لأن الفقرة تعنى أن جعل هذا الشهر حراما هو من اختراع عقل المكيين . بينما هذا أمر توقيفى شرعى من الله عز وجل . فالله سبحانه وتعالى هو الذى حرمها (٢) .

٤ – حذف ما يراه الكاتب مشكلة تحديد الأشهر الحرم فى ضوء ما قاله فلهاوزن ، لأنه لا يجوز لمسلم أن يطلب من يهودى تفسيرا لمشكلة صورها له الخيال فى دين الله عز وجل .

سؤال : ورد فى كتاب دراسات تاريخية من القرآن ، ص ٢٠٠ – ٢٠١ كلاما بمناسبة – إحضار عمرو بن لحى لصنم من بلاد الشام إلى مكة ووضعه عند الكعبة : (فربما كانت تلك وسيلة من وسائل عمرو هذا ، لتعظيم شأن الكعبة عند أهل الشمال ، وإيناسهم بها كلما دخلوا إلى الحجاز وتقريب ما بينهم وبين شعائر البيت الحرام ، وهم جميعا حريصون على تقريب هذه الشقة ، وحماية روادها من كل قبيل ...الخ) ما أورده الكاتب ، فما رأيكم ؟

الــرد : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿ إنَّما الخمرَ والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه ﴾ ولذلك فإن أول ما فعله الرسول ﷺ يوم فتح مكة هو تحطيم أصنام الكعبة . قال البخارى : (حدثنا صدقة بن

---

(١) هذه العبارة خاطئة لأن الإسلام مفطور عليه الكون وبه أرسل جميع الرسل عليهم السلام (انظر أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ ، الرسالة الأولى ؛ دار الوفاء للطباعة ، القاهرة .

(٢) الدليل قوله تعالى : ﴿ إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم ﴾ (التوبة ٣٦) ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ٢ ، ص ٣٥٣ .

الفضل ، حدثنا ابن عيينة ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، عن أبى معمر ، عن عبد الله هو ابن مسعود – قال ، دخل رسول الله مكة يوم الفتح وحول البيت ستون وثلثمائة نصب ، فجعل يطعنها بعود فى يده ويقول : « جاء الحق وزهق الباطل . جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد » . وقد رواه مسلم (١) .

وعمرو بن لحى من أصحاب النّار كما أخبر بذلك نبينا محمد ﷺ (٢) ، لأن ما قام به عمل من أعمال الشرك بالله عز وجل .

ونأمل أن يقوم الكاتب ببيان أن هذا العمل من جانب عمرو هو انحراف عن دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، بدلا من سوق المبررات للشرك الذى كان عليه الرجل .

سؤال : ورد فى كتاب دراسات تاريخية من القرآن ، ص ٢١٠ ، العبارات التالية ، فما رأيكم فى ضوء دراستكم عن هذا الموضوع ؟؟ :

(وخطت قريش خطوة أخرى فى اجتذاب القبائل العربية إلى مكة ، فنصبت أصنام جميع القبائل عند الكعبة ..... (إلى غير ذلك)) .

(وهكذا تمضى الأيام وتزداد مكانة الكعبة عند العرب حتى تصبح آخر الأمر المفخرة القومية والحرم الإلهى عندهم ، ثم تغدو بعد حين من الدهر ، الحوار الوحيد الذى يشعر العرب عنده بشعور العروبة الموحدة عالية الرأس ، غير مستكينة لأجنبى كائنا من كان .... ولكنهم هنا – فى مكة – عند بيت الله ، فى حرم الله ، يقدسونه جميعا ، لأنه لهم جميعا ، يضمهم إليه كما يضم أوثانهم وأصنامهم وأربابهم يلوذون به ويأوون إليه ، فكلهم من معبود وعابد فى حمى الكعبة ، لأنهم فى بيت الله ، وشعورهم هنا ، بأنهم عرب لم يماثله شعور قط فى أنحاء الجزيرة العربية) .

---

(١) السيرة النبوية ، جـ ٣ ، ص ٥٧١ .

(٢) البداية والنهاية ، جـ ٢ ، ص ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، يقول محمد ﷺ : « رأيت عمرو بن عامر الخزاعى يجر قصبه فى النّار ، كان أول من سيّب السوائب » رواه البخارى ومسلم .

الـــرد : تحوى هذه العبارات عدة مسائل زعمها الكاتب :

أولا : أن نصب أصنام القبائل عند الكعبة ، جذب القبائل العربية إلى مكة .

ثانيا : الكعبة تصبح – آخر الأمر – المفخرة القومية للعرب .

ثالثا : الكعبة هى الحوار الوحيد الذى يشعر العرب عنده بشعور العروبة الموحدة .

رابعا : إن العرب عند بيت الله فى حرم الله ، يقدسونه جميعا ، لأنه لهم جميعا ، يضمهم إليه كما يضم أوثانهم وأصنامهم وأربابهم .... فكلهم من معبود وعابد فى حمى الكعبة ، لأنهم فى بيت الله .

انتهى كلام المؤلف وردنا وبالله التوفيق .

إن قلوب العباد ومن بينهم العرب – وأفئدتهم منجذبة بطبيعة خلقها وتكوينها إلى بيت الله الحرام ﴿ ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم ﴾ (إبراهيم ٣٧) . ويقول ابن قيم الجوزية فى فضل مكة : (وقد ظهر سـر هذا التفضيل والاختصاص فى انجذاب الأفئدة وهوى القلوب وانعطافها ومحبتها لهذا البلد الأمين ، فجذبه للقلوب أعظم من جذب المغناطيس للحديد) (١) .

وهذا طبيعى بالنسبة للأنبياء عموما ، والمسلم على وجه الخصوص ، لأن كل مولود مفطور على الإسلام ، كما أن المشرك لا يحرم من لحظات يتطلع إلى بارئه وخالقه ، فالعرب بطبيعة تكوينهم مفطورين على الإسلام ، وهو دين آبائهم وأجدادهم ، من عهد إبراهيم وإسماعيل ، كما أن قلوبهم متعلقة بالبيت الذى رفع قواعده إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام . وهذا الذى كان يغيظ أبرهة الحبشى المسيحى ، إذ إن تعلق العرب رغم شركهم بقبلة أبيهم إبراهيم ، هو الذى دفعه إلى محاولة غزو مكة وهدم الكعبة تصورا منه أنه بهدم قبلة المسلمين يسهل القضاء على وحدتهم .

---

(١) زاد المعاد في هدى خير العباد ، جـ ١ ، ص ٩ .

إذن فانجذاب القلوب يرجع لهذا السبب الإلهى وليس لأن قريشا نصبت أصنام العرب فى الكعبة ، وكلام الكاتب يحتاج منه أن يبدله ويغيره طبقا لما ورد فى شريعة الله . أما ما أورده الكاتب أن الكعبة أصبحت فى آخر الأمر المفخرة القومية . فالكعبة هى الحرم الإلهى منذ خلق الله السموات والأرض ، وهى منذ البداية وضعت للناس بداية بآدم عليه السلام ، ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين ﴾ .

أما كونها المفخرة القومية للعرب فهذا ما لم يرد به شرع أو حتى قول مأثور ، فالكعبة هى قبلة للمسلمين جميعا سواء كانوا عربا أو عجما أو غيرهم . وليس لأى جنس الحق فى ادعاء أنه صاحب الفضل فى ذلك ، فللهِ المنة والفضل والإحسان . كما أنها محرمة على المشركين سواء كانوا عربا أو عجما ﴿ إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ﴾ ولا يمكن السماح لمشرك أن تطأ قدمه أرض الحرم حتى لو كان عربيا .

إن هذه الكلمة « المفخرة القومية » (١) معالجة تاريخية من وجهة النظر القومية ، إنها إحياء للنعرة العصبية التى أماتها الإسلام وحذر من إحيائها أو عودتها ، (دعوها فإنها منتنة) ، بل إن رسول الله ﷺ قد تبرأ ممن يدعون إلى القومية فقال : « ليس منا من دعا إلى عصبية أو قاتل على عصبية ، أو مات على عصبية » .

ثالثا : قبل أن نتناول النقطة الثالثة بالرد أود أن أوكد ، أن العرب هم مادة الإسلام ، ومحمد من أشرف القبائل العربية نسبا ، والقرآن نزل باللغة العربية ، والعربية لغة أهل الجنة ، والذى يبغض العرب يبغض محمدا ﷺ ، – ولكن أن تتحول العروبة إلى قومية وعصبية تلهى الناس بعيدا عن إسلامهم ، وتضع إلها جديدا يؤله الناس ، فهذا ما يرفضه الشارع الحكيم كما بينا .

---

(١) أورد الدكتور بيومى مهران ، ص ١١٥ بأن إبراهيم أبو العرب . وهذا تعصب قومى فإبراهيم ليس أبا للعرب كلهم ، وليس أبا للعرب وحدهم ، والقرآن ينص على أبوته للمؤمنين بعده ﴿ ملة أبيكم إبراهيم ﴾ الحج : ٧٨ . ﴿ إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا ﴾ آل عمران : ٦٨ .

ومن الذى يقول بأن الكعبة هى الحوار الوحيد الذى يشعر العرب عنده بشعور العروبة الموحدة عالية الرأس ؟؟؟ أين الإسلام ؟؟ فهو الذى ألف الله به قلوب بنى البشر جميعا الذين أسلموا سواء أكانوا سمرا أم بيضا ، عربا أو عجما ، كون أن الإنسان المسلم يحس بعبوديته الكاملة لله وهو فى بيته العتيق ، كون أن المسلمين يشعرون بوحدتهم وحقيقة الآصرة التى تربط الأفريقى بالأوربى ، الأمريكى بالأسيوى ، فهذا لأن الله ألف بين قلوبهم ، ولأنهم مسلمون أولا وآخرا . قال تعالى : ﴿ وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم ﴾ (الأنفال ٦٣) .

وعلى الجانب الآخر حينما نقول العرب ، فالعرب لفظة تجمع تحتها العربى اليهودى والعربى النصرانى ، والعربى الدرزى والعربى النصيرى .... إلى غير ذلك .

وليس لهؤلاء جميعا أن يتواجدوا فى بيت الله الحرام أو زيارته ، إنما الذين يحق لهم ذلك هم المسلمون .

رابعا : الفقرة الأخيرة فيها مخالفات عقدية منها : أن الأصنام والأوثان والأرباب وعبادها فى حمى الكعبة لأنهم يلوذون ببيت الله الحرام ، ويأوون إليه ، لأنه لهم جميعاً .

وهذا ما لم يقل به الشارع الحكيم ، وهو مخالف لشرع الله عز وجل وعلى الكاتب أن يسرع بحذف هذه الفقرة من الكتاب .

سؤال : ورد فى كتاب دراسات تاريخية من القرآن ، ص ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٩ العبارات التالية ، فما رأيكم فيها - (ولعل السبب المباشر فى انتقال إسماعيل وأمه هاجر إلى الحجاز ، وسكناهم هناك ، يرجع إلى القصة المشهورة عن سارة التى أرادت أن تبعد إسماعيل عن أبيه

وفى موضع آخر (ذلك أن العداوة بين المرأتين بدأت حتى قبل أن ترزق هاجر بوليدها ، وذلك حين أذلتها سارة ، فهربت منها إلى الصحراء المقفرة ، ولم

تعد إليها إلا بأمر ملاك الرب الذى بشرها بأنها ستلد ابنا تدعوه إسماعيل) [1] .

ويعتمد الكاتب هنا على سفر التكوين من التوراة .

ويذكر الكاتب أن من بين أسباب رحلة إبراهيم وإسماعيل وهاجر عليهم السلام إلى الحجاز هى رغبة إبراهيم أن « يربط ولده وبكره بما ارتبط به هو من قبل (أى بعشيرته من العرب) » .

ويذكر أيضا : « وأما إسماعيل – عليه السلام – فقد كان نصف مصرى ، نصف عراقى ، وإسماعيل قد ولد فى الشام وعاش فى الحجاز ، وتزوج من يمنية أو مصرية – طبقا لرواية التوراة – وتخريجا من هذا ، فإن إسماعيل رمز العروبة كلها ، رمز لعروبة العراق ، ورمز لعروبة الشام ، ورمز لعروبة الجزيرة العربية ، ولعل هذا ما يميزه على أخيه إسحاق ، الذى اقتصرت حياته ومماته على جزء من الشام فحسب ، ولم يتصل بقرابة من دم ، أو صلة من نسب ، بغير عشيرة أمه [2] . انتهى كلام د . محمد مهران .

الـــرد – ونستعين بالله فنقول :

١ – ليس لنا رأى فى هذه المسائل إلا مانراه من توجيهات للشارع الحكيم فى هذا الشأن ، لا ندرى كيف سمح الدكتور محمد مهران لنفسه بالاعتماد على التوراة فيما يرويه من أخبار ، رغم علمه بأنها محرفة وغير موثقة المتون ؟؟؟ ولذلك فقد عنون كتابه – « دراسات تاريخية من القرآن الكريم » – فإذا كان رأى الكاتب – كما هو واضح فى كتابه – أنه لابد من الاعتماد على التوراة المحرفة كما فعل فقد كان من الواجب عليه أن يضيف « ومن التوراة » حتى ينطبق العنوان على فحوى الكتاب .

٢ – لماذا معالجة أحداث تاريخ إبراهيم وإسماعيل من وجهة النظر القومية ؟؟

ماذا يعنى إسماعيل – نصف مصرى ، نصف عراقى .... الخ ، وماذا يعنى رمزا لعروبة الجزيرة العربية ؟ ولعل هذا ما يميزه على إسحاق ؟؟ ... ما هذا ؟؟

---

(١) نفس المرجع ، ص ١٥٩ .

(٢) نفس المرجع ، ص ١٥٧ .

إن الله سبحانه وتعالى ينأى بإبراهيم عليه السلام وذريته أن يكونوا قوميين ، لقد نعتهم الله بصفة الإسلام ، وحول هذا المعنى كانت حركة إبراهيم وإسماعيل – عليهما السلام – ﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ﴾ . ولم يقولا أمة عربية أو عجمية ؟؟ . بل إن حركة إبراهيم وإسماعيل برمتها فيها معنى القضاء على الفواصل الإقليمية والقبلية ، فالله لم يجعل إبراهيم إماما للأمة المسلمة إلا لأنه كان مسلما وليس لأنه كان عربيا .

وإذا رددنا الأمر للأصول الكلية فى التصور الإسلامى نجد أن الإسلام يؤكد على معان أساسية ورئيسية يجب على المسلم أن يظهرها ويحرص عليها ، ويتحرك بها ولها ، من هذه المعانى –

وحدة الأصل البشرى ، ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيبا ﴾ .

ويقول محمد ﷺ الله : « كلكم لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى » .

ويحذر النبى ﷺ من إثارة النعرة العصبية فيقول : « ليس منا من دعا إلى عصبية أو قاتل على عصبية أو مات على عصبية ؛ دعوها فإنها منتنة » .

وبالإضافة إلى ما سبق فإن الإسلام قد آخى بين محمد العربى وسلمان الفارسى وصهيب الرومى وبلال الحبشى ، وكان ﷺ يقول : « سلمان منا آل البيت » .

وعلى الجانب المقابل نجد أن الإسلام قد قطع الوشيجة ، وشيجة النسب[١] ، التى تربط بين محمد العربى وعمه أبى لهب العربى الكافر .

---

(١) وقد روى رسول الله محمد ﷺ : « إنتسب رجلان على عهد موسى فقال أحدهما أنا فلان بن فلان حتى عدّ تسعة ، فمن أنت لا أم لك ؟ قال أنا فلان بن فلان ابن الإسلام . فأوحى الله إلى موسى أن قل لهذين المنتسبين : أمّا أنت أيها المنتسب إلى تسعة فى النار فأنت عاشرهم ، وأمّا أنت أيها المنتسب إلى اثنين فى الجنة فأنت ثالثهما فى الجنة » حديث صحيح رواه النسائى وأحمد فى مسنده والبيهقى والطبرانى فى الكبير .

بل ونزل قرآن من السماء يتوعد أبا لهب العربى بالنار ﴿ تبت يدا أبى لهب وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب ، سيصلى نارا ذات لهب ، وامرأته حمالة الحطب ، فى جيدها حبل من مسد ﴾(١) .

إن الإسلام يرفض أية وشيجة تربط بين الناس إذا انقطعت وشيجة العقيدة – فها هو يقطع العلاقة بين نوح المسلم وابنه الكافر بها – لأنه عمل غير صالح ، ﴿ يا نوح إنه ليس من أهلك ، إنه عمل غير صالح ﴾(٢) .

ويقطع العلاقة بين امرأة نوح ، ونوح المسلم ، وامرأة لوط ، ولوط النبى المسلم ﴿ وضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين ﴾(٣) .

وذلك لانقطاع رباط العقيدة بين نوح وزوجه ، ولوط وزوجه .

وتنقطع العلاقة بين زوجة فرعون المسلمة وفرعون ، لانقطاع وشيجة العقيدة .

﴿ وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابْنِ لى عندك بيتا فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ﴾(٤) .

بل إن العلاقة قد انقطعت بين إبراهيم المسلم ووالده ﴿ فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم ﴾(٥) .

إن دراسة وكتابة التاريخ وخاصة تاريخ الأنبياء المسلمين يجب أن تبتعد عن إحياء النعرة العصبية والنعرة القبلية والشعوبية ، لأنها مدمرة « دعوها فإنها منتنة » . هكذا وجهنا نبينا محمد ﷺ .

كما أن معيار المفاضلة ، عند الله عز وجل « هو التقوى » ، وليست العنصرية أو القبلية ، إن الله لا يفضل جنسا على جنس ، ولكن المفاضلة على أساس التقوى ﴿ يا أيها الناس إنَّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا

(١) سورة المسد .
(٢) هود : ٤٦ . (٣) التحريم : ١٠ . (٤) التحريم : ١١ . (٥) التوبة : ١١٤ .

وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾ [1] .

أما المفاضلة بين نبيين أخوين مسلمين على أساس العرق فهذا ما لم يشرعه الله سبحانه وتعالى . بل هو مرفوض شرعا -

لقد تحدث الله سبحانه وتعالى عن إسحاق - عليه السلام - فنعته بأنه ﴿ نبيا من الصالحين ﴾[2] وعن إسماعيل عليه السلام بأنه ﴿ كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا ﴾[3] .

وهذه شهادة من الله عز وجل وغيرها كثير مبسوط فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لهذين النبيين الكريمين حتى ولو لم يتصل أى منهما بقرابة من دم ، أو صلة نسب ، بغير عشيرة أمه[4] .

وبالإضافة إلى ماسبق . فإن رحلة إبراهيم عليه السلام لم يرد نص شرعى أو خبر مأثور عن رسول الله ﷺ يشير إلى أنها كانت لربط ولده وبكره بعشيرته من العرب؟ وزَعْمُ المؤلف أن هذا هو السبب الذى يعتبر من باب التفسير المادى للتاريخ فهجرة إبراهيم عليه السلام وزوجه وابنه لم تكن تهدف إلى إيجاد رباط قومى عشيرى ، إنَّما ـــ الحقيقة - أن رحلة إسماعيل وإبراهيم كانت موجهة من الله عز وجل إلى مكة المكرمة وحرم الله الآمن لإقامة القواعد من بيت الله العتيق ، والأذان فى الناس بالحج ، وإمامة المسلمين إلى آخر ما بينا فى رسالتنا هذه .

سؤال : ورد فى كتاب دراسات تاريخية من القرآن الفقرة التالية :

(ولعل فى تفكير إبراهيم فى إسكان زوجته المصرية وابنه إسماعيل منها فى منطقة مكة المكرمة هربا من ضرتها العجوز سارة ، لم يكن على الأرجح بمحض الصدفة ، ذلك لأن الصدفة لم يكن لها محل فى تنظيم مثل هذه الخلافات العائلية عند رؤساء العشائر الأقدمين ، وإذا كان إبراهيم قد اختار هذه المنطقة ،

---

(١) الحجرات : ١٣ . (٢) ﴿ وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين ﴾ (الصافات ١١٢) .
(٣) مريم : ٥٤ .
(٤) ثم نتساءل ، هل لدى الكاتب بيان بنسب إسحاق عليه السلام ، يؤكد زعمه ، والإجابة مؤكدة أنه لا يملك دليلا ، إلا أن يكون من التوراة المحرفة ، فكيف إذن يجزم بأن إسحاق لم يتصل بغير عشيرة أمه .

فمما لا شك فيه أنه هو شخصيا كانت له صلات قرابة وصلات حلف وذمة مع سكانها وإلا لما اختار هذا المكان القفر البعيد مأوى لزوجته وابنه) .

ويعتمد الدكتور محمد مهران فى تفسيره هذا على كتاب « حسن ظاظا ، الصهيونية العالمية وإسرائيل »[1] فما رأيكم فى ضوء دراستكم ؟

الرد : ولنا على ما أورده الكتاب ملاحظات :

أولا : كان بودنا أن يكون الاعتماد لهذه التفسيرات على القرآن الكريم ، وأقوال النبى محمد ﷺ ، نظرا لأنهما المصدرين الوحيدين الموثقين عن إبراهيم وإسماعيل وهاجر عليهم السلام ، كما أن الدكتور عنون كتابه بدراسات تاريخية من القرآن ، فكان من الواجب عليه الاعتماد على تفسير القرآن الكريم والسنة النبوية ففيهما البيان الشافى الكافى بدلا من الاعتماد على التوراة .

ثانيا : لقد تبين لنا من دراستنا فى هذه الرسالة اعتمادا على القرآن والسنة[2] :

(أ) إن إبراهيم قد أسكن زوجه هاجر المسلمة وابنه إسماعيل المسلم بجوار الحرم بتوجيه من الله عز وجل . وأن إبراهيم قد ترك ابنه وزوجه عليهما السلام بجوار البيت و « لم يكن به إنس ولا شيء » . ومعهما جراب من تمر وجراب من ماء . أى أنه لم يكن هنالك سكان ولا صلات ولا حلف ولا ذمة ، لأن الجراهمة جاءوا إلى الوادى بعد تفجر زمزم بالماء بأمر الله عز وجل ، وطلبوا من هاجر السماح لهم بالنزول إلى جوارها فسمحت لهم على أن لا يكون لهم حق فى الماء . وقد بينا ذلك بيانا شافيا صفحة ٣٦ ومابعدها من بحثنا هذا .

(ب) إن الحديث عن الأنبياء وأزواجهم وأبنائهم يجب أن يكون

---

(١) دراسات تاريخية من القرآن ، ص ١٢٢ .

(٢) جامع البيان ، جـ ١٤ ، ص ٢٢٩ - ٢٣٥ ؛ صحيح أبى عبد الله البخارى ، جـ ٤ ، ص ١٧٢ .

بأسلوب يتناسب مع كمال النبوة .

(جـ) إن إبراهيم عليه السلام لم يختر جوار البيت الحرام ليكون مأوى لزوجته وابنه ولكنه اختيار الله سبحانه وتعالى : ﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ﴾ .

(د) إن ذلك المكان (١) « القفر البعيد » كما يصفه الكاتب؛ الذى وجه إليه إبراهيم وزوجه وإسماعيل ، يجاور بيت الله العتيق الذى كان يبدو ساعة وصول إبراهيم عليه السلام وزوجه وابنه كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله .

وبهذا يتضح خطأ ما أورده الكتاب من أن إبراهيم (قد اختار هذه المنطقة « مكة المكرمة » لأنه كانت له صلات قرابة وصلات حليف وذمة مع سكانها ، وإلّا لما اختار هذا المكان القفر البعيد مأوى لزوجته) ، وعليه أن يحذف هذه الفقرة لأنها تعارض الخبر الصحيح الوارد فى السنة والقرآن الكريم الذى يقول ﴿ ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ﴾ .

سؤال : إن دراسات تاريخية من القرآن الكريم تحدثت – عن موطن الخليل وعصره وهجراته وتستعرض ما كتبه المؤرخون اليهود والنصارى ، وما أوردته التوراة المحرفة ، ص ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ٧ . فما هو رأيكم فى ضوء دراستكم ؟

الـرد : بالرجوع إلى الكتاب تجد أن الكاتب قد ذكر – أن (إبراهيم عليه السلام قد ترك ميزوبوتاميا فى عصر الغزو الأمورى والعيلامى ، وأن الاضطرابات التى حدثت هى التى اضطرته إلى الرحيل من موطنه الأصلى)(١) .

– (وهكذا ترجع هجرة إبراهيم الخليل إلى الأسباب السياسية والاقتصادية فى نفس الوقت) (٢) .

---

(١) دراسات تاريخية من القرآن ، ص ١٢٤ .

(٢) نفس المرجع ، ص ١٢٨ .

ويستند هذا على رأى الدكتور رشيد الناضورى فى كتابه « المدخل فى التطور التاريخى للفكر الدينى » ص ١٧٣ - ١٧٤ .

وإن كان الأستاذ الدكتور محمد مهران قد خلص فى النهاية إلى القول : (فالرأى عندى أن هجرة إبراهيم لم تكن لأسباب سياسية أو اقتصادية فى الدرجة الأولى ، وإنما كانت دينية) (١) .

وسياق المعنى كما عرض الكاتب الموضوع يأبى إلا أن تكون الأسباب السياسية والاقتصادية وراء هجرة إبراهيم عليه السلام من بلاد العراق ، وإن كان الكاتب قد جعلها من الأسباب التى قد تكون فى المرتبة الثانية أو الثانوية ؟؟

وهذا تفسير مادى لأحداث التاريخ وترديد لما أورده الكاتب نفسه على لسان الكتاب غير المسلمين .

بالإضافة إلى ذلك إن كتاب التطور التاريخي للفكر الدينى ، يتبنى منهج مقارنة الأديان الذى بينا فساده سابقا فى رسالتنا الأولى(٢) .

وأخيرا فإن الدكتور يذكر : « الكتب المقدسة مصادرنا الأصلية عن الخليل عليه السلام » (٣) . فلا أدرى هل التوراة والإنجيل والتلمود من بينها ؟؟ . وإذا كان ذلك محتملا لدى الكاتب ، فلنا أن نقول ، أليست هذه دراسات تاريخية من القرآن حسب عنوان مؤلفه ، ألم يكن من الأولى أن يقتصر الكاتب على الأخذ عن القرآن وحده وخاصة فيما يتصل بأخبار النبى الكريم ؟ ثم كيف سمح الكاتب لنفسه أن يطلق لفظة مقدسة على كتب غير القرآن ؟؟ .

* * *

وفى موضع آخر قدم لنا الأستاذ محمد مهران أخبارا عن رحلة إبراهيم عليه السلام من العراق إلى أرض الشام اعتمادا على التوراة رغم أن الكتاب الذى ألفه

---

(١) نفس المرجع ، ص ١٢٨ . (٢) أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ ، دار الوفاء للطباعة والنشر .
(٣) المصدر السابق ، ص ١٢٦ .

يحمل عنوان « دراسات تاريخية من القرآن » وينعى فيه على الباحثين عدم اعتمادهم على القرآن ، واعتمادهم على التوراة رغم أنها محرفة غير موثقة السند)[1] .

فقد أورد الكاتب بالنص [2] (وعلى أى حال ، فإن إبراهيم الخليل قد اختار – كما **تشير التوراة** – فى زيارته الأولى لأرض كنعان ، الطريق الشاق والموحش ، إذ كان متجولا فوق التلال نحو الجنوب .... وعندما أراد الخليل أن يستقر فى بادىء الأمر ، فضل أن يكون ذلك فوق هضبة ، ذلك لأنه – بأقواسه ومقاليعه – لم يكن فى حالة تمكنه من أن يخاطر بالصدام مع الكنعانيين ، الذين كانوا بسيوفهم وحرابهم – أكبر من ند له ، ولم يكن إبراهيم بعد مستعدا للمغامرة بعيدا عن الهضاب . وأيا ما كان الأمر ، فقد نزل إبراهيم عند شكيم فى مكان بلوطة مورة ، بين جبل عيبال وجرزيم ، وهناك بنى مذبحا للرب ، وربما قد تحرش به الكنعانيون) .

(ويقيم الخليل ما شاء الله له أن يقيم فى أرض كنعان ثم يرحل عنها صوب أرض النيل الطيبة ، بسبب مجاعة حلت بأرض كنعان ، ومصر كانت دائما وأبدا ، للبدو الكنعانيين – وبخاصة فى أوقات القحط – ملاذهم ، وغالبا منقذهم الوحيد فحيثما كانت الأرض تجف فى أوطانهم ، كانت أرض الكنانة الطيبة تقدم له المأوى والمرعى ، وكان النيل بفيضانه المنتظم يتعهد بذلك) .

وبالإضافة إلى اعتماد الكاتب على التوراة ، فقد اعتمد على

W. Keller, the Bible as History;

unger's Bible Dictionary

ولنا على ما أورده الدكتور عدة ملاحظات :

أولا : هنالك أسباب شرعية تمنعنا عن الأخذ عن التوراة ، (انظر رسالتنا الأولى أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ[3] ، وأيضاً كتابنا جزيرة العرب منذ أقدم العصور ، ص ٣٥ – ٥٦ ، وأيضا تاريخ وحضارة مصر

---

(١) المصدر السابق ، ص ٧ .
(٢) المصدر السابق ، ص ١٣٤ – ١٣٥ .
(٣) الرسالة الأولى ، دار الوفاء للطباعة والنشر ، القاهرة .

والعراق وبلاد الشام وتركيا وإيران ، ص ١٢ - ١٩) ، لأنه لا يجوز شرعا الاعتماد على التوراة المحرفة فيما يتصل بتاريخ الأنبياء ،

والرسول محمد ﷺ قد نهانا عن سؤال أهل الكتاب (نص الحديث ص ٢٠٧ من بحثنا هذا) .

ثانيا : إن الخبر الذى أورده الكاتب نقلا عن التوراة يغص بكلام (يتعارض وعقيدة المسلم ، كما أنه ينتقص من قدر نبى كريم هو من أولى العزم) .

إن التوراة تذكر أن « الرب » الذى بنى له إبراهيم ، مذبحا هو يهوه ؟؟ ... وهنا نتساءل هل بنى إبراهيم عليه السلام مذبحا لإله اليهود ؟؟ ... وهل كان إبراهيم يهودياً ؟؟ ... الحمد لله ، لقد بينا ذلك بيانا شافيا . إن إبراهيم كان مسلما موحدا وأقام وابنه إسماعيل عليهما السلام القواعد من بيت الله الحرام . أما كونه أقام مذبحا للإله يهوه فهذا ما لم يرويه خبر صحيح[1].

ثم نتساءل من الرازق ؟؟ الله ؟ أم الأم ؟ .. من الذى ينقذ ؟ الله ؟ أم غيره ؟ .. من الذى يقدم المأوى والمرعى ؟ الله ؟ أم غيره ؟ .. ومن الذى ينزل الماء ؟ النيل ؟ أم الله ؟ .. إنه الله رب العالمين . ﴿ أفرأيتم الماء الذى تشربون . أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون . لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون ﴾. ﴿ وفى السماء رزقكم وما توعدون . فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون ﴾.

ثم هل كان إبراهيم جبانا ؟ « فهو لم يكن مستعدا للمغامرة » كما زعم الكاتب لأنه لا يملك إلا الأقواس والمقاليع في مواجهة السيوف والحراب . سبحان الله (لو كان ما أوردته التوراة صحيحا ، هل نسى كتابها موقف إبراهيم

---

(١) بالرغم من أن مُؤلَّف الكاتب يحمل عنوان دراسات تاريخية من القرآن ، فالقرآن وتفسيره الصحيح لا يشكل سوى نسبة ضئيلة جدا فى صفحات المؤلف بينما تغطى أقوال التوراة وأقوال المستشرقين غالب صفحات الكتاب ، فلماذا لم يعنون الكاتب كتابه « دراسات تاريخية من القرآن والتوراة والإنجيل وكتابات المستشرقين اليهود والنصارى » .

بمفرده في مواجهة قومه الذين يملكون كل مقومات القوة المادية وقد حطم أصنامهم وسفه أحلامهم ، من الذى نجاه من كيد القوم ؟ من الذى نجاه من النار ؟ من الذى نجاه إلى الأرض التى بارك الله فيها للعالمين ؟ .. إنه الله رب العالمين ﴿ أليس الله بكاف عبده ﴾) .

ثالثا : ما أهمية هذه المعلومة التى أوردتها التوراة وخاض فيها الكتاب غير المسلمين ؟ .. ما هو العمل الذى يترتب عليها ؟ .. وخاصة أن الله قد أغنانا بكتابه وسنة نبيه عن أن نتسول أخبار رسلنا وأنبيائنا على موائد اليهود والنصارى .

وفى موضع آخر يستمر الدكتور مهران فى سرد أخبار إبراهيم فيقول : (وهكذا اعتزم إبراهيم الهجرة إلى مصر – كما يقول يوسف بن متى – ليصيب من خيراتها ، ويسمع ما يقوله أحبارها فى أمر الله ، وفي نفسه إذا علم من كلامهم ما هو خير مما عنده أن يتقبله ، أو يرى في عقيدته خير مما عندهم فيدعوهم [١] إليها) .

ولنا على هذا الزعم ملاحظة ، إن الكتاب هنا يجعل إبراهيم عليه السلام النبى المسلم الذى كان من الموقنين بسلامة دينه وعقيدته – كما هو واضح من أخباره المبسوطة فى كتاب الله – متشككا في إسلامه وعقيدته . وهذا افتراء على نبى الله ، ويتعارض مع الخبر الصحيح عن سلامة دين وعقيدة إبراهيم عليه السلام ﴿ إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ﴾[٢] .

* * *

ويستمر « كتاب دراسات تاريخية » ، فى عرضه لأخبار إبراهيم عليه السلام ورحلته إلى مصر ، ويكفى أن نشير إلى ما يأتي ، إن **الكتاب وهو يعالج** قصة محاولة الاعتداء على سارة زوج إبراهيم عليه السلام ردد أخبارا غير صحيحة

---

(١) دراسات تاريخية من القرآن ، ص ١٣٥ .

(٢) البقرة : ١٣١ .

تعارض الأخبار الواردة فى صحيح البخارى عن رسول الله ﷺ ، وهذا أمر يجب أن يراجع الكاتب نفسه فيه ، وأن يصدر نشرة يرجع فيها عما كتبه فى هذا الشأن . لأنه بعرضه يكذب أخبارا واردة فى صحيح البخارى .

فالكاتب يقول – مثلا – ، ص ١٣٧ من كتابه (إن التاريخ ما حدثنا أن الفراعين كانوا يأخذون النساء من أهليهم غصبا) .

وهذا الكلام يدحضه حديث محمد ﷺ الوارد فى صحيح البخارى ، جـ ٤ ، ص ١٧٠ ، و جـ ٩ ، ص ٢٨ (أنظر ، جزيرة العرب منذ أقدم العصور ، ص ٢٤٧ ، ورسالتنا التى بين يديك ، ص ٢٥٣) .

وإذا كانت سارة قد أخذت إلى جبار مصر ، فهل ذلك يعنى في تصور الكاتب أنها قد ذهبت برجليها ؟ وهى العفيفة الطاهرة المسلمة التقية زوجة النبى المسلم ، إن المسلم يجب أن يغضب لله ، ولا يغضب لفرعونيته على حساب إسلامه .

والكاتب الدكتور محمد مهران يصور رحلة إبراهيم وسارة إلى أرض مصر حينما كانت سارة عجوز . وهذا يدحضه ويدفعه حديث رسول الله ﷺ الذى يقول فيه : « .... إذ أتى على جبار من الجبابرة ، فقيل له : إن ها هنا رجل معه امرأة من أحسن الناس » . فسارة كما أورد الحديث كانت امرأة من أحسن الناس (١) .

والكاتب يقول أيضا ، (على أن الأمر الذى يدعو إلى العجب حقا ، ادعاء الرواة أن إبراهيم قال عن سارة : إنها أخته ، لأنه لا يوجد على ظهر الأرض غيرهما من المؤمنين ، والأعجب من ذلك أن تأتى الرواية من كبار المفسرين ، والقرآن الكريم لا يشير إلى ذلك .... الخ) ما أورده الكاتب ، ص ١٣٧ – ١٣٨ من كتابه .

---

(١) ارجع إلى ص ٢٥٣ ، من رسالتنا هذه .

والـــرد :

وردنا لا ندرى هل يقر الكاتب معنا أن الحديث والسنة النبوية هما المصدر الثانى لهذا الدين ، وأنها مكملة لأن النبى محمداً ﷺ ﴿ وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلّا وحى يوحى ، علَّمه شديد القوى ﴾ وإذا أقرنا الكاتب على ذلك ، فلماذا يدفع ويرفض أخبارا حقيقية وردت في صحيح البخارى ، وحاول أن ينال من المؤرخين والمفسرين المسلمين لأنهم قالوا بها واعتمدوا عليها ؟ .. ونسي أن الأخبار التى أوردها البخارى في هذا الشأن صحيحة مائة في المائة بإجماع أهل العلم وفيها أن إبراهيم عليه السلام قال عن سارة أنها أخته ، أى أخته في الله .. وبهذا قال المفسرون المسلمون . فما رأى الكاتب الدكتور محمد بيومى مهران ؟ إن انكار أخبار صحيحة واردة فى السنة أمر خطير .

ملاحظات أخرى على كتاب دراسات تاريخية :

ولقد قمنا بقراءة ما أورده كتاب « دراسات تاريخية من القرآن الكريم » وقد لاحظنا ما يأتي :

– عن رحلة إبراهيم عليه السلام إلى بلاد الحجاز ، أورد الكتاب كلاما عجيبا ، بعضه نقلا عن كتاب العقاد « إبراهيم أبو الأنبياء » وكتاب « إسرائيل » للمؤلف ، من هذا الكلام:

* (إن إبراهيم عليه السلام قد توجه إلى الحجاز لأنه لم يكن صاحب وطن عند بيت المقدس ، سواء أكان وطن السكن أو وطن الدعوة أو وطن المرعى)[1] .

* « المتواتر من روايات التوراة » لا أدرى هل هناك روايات متواترة للتوراة ؟ إنه لم يجد هناك مدفنا لزوجه فاشتراه من عفرون ..

* (أما الدعوة الدينية فقد كانت الرئاسة فيها للأحبار , إيل عليون) وكان

---

(١) دراسات تاريخية من القرآن ، ص ١٣٩ – ١٤٠ .

إبراهيم يقدم العشر أيضا لأولئك الأحبار) ، وهل كان إبراهيم يهوديا ؟ .. وهل يعقل أن إبراهيم الحنيف المسلم يقدم عشورا لأحبار اليهود ؟ ما هذا ؟ .

* « هناك أسباب دينية غير الأسباب الدنيوية توحي إليه أن يجرب المسير إلى الجنوب ، حيث يستطيع أن يبنى لعبادة الله هيكلا » هل هذا يعقل ؟ .. ألم يكن توجه إبراهيم عليه السلام إلى الحجاز بتوجيه من الله عز وجل ؟ .

* إن الأهمية الدينية لبيت المقدس جاءت متأخرة بعد عصر إبراهيم وموسى بزمن طويل ، حتى استولى داود (١٠٠٠ - ٩٦٠ ق . م) على المدينة المقدسة في العام الثامن من حكمه ثم اتخذها عاصمة له ثم جاء من بعده ولده سليمان (٩٦٠ - ٩٢٢ ق . م) فأقام فيها هيكله المشهور » .

وهذا الكلام الذى زعم الكاتب لا أصل له في المصادر الإسلامية الموثقة ؛ فالقرآن الكريم قد أكد لنا أن الله قد نجى إبراهيم ﴿ ونجيناه ولوطا إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين ﴾ وهي بيت المقدس ، أى أنها كانت مباركة قبل عهد إبراهيم وموسى عليهما السلام .

ولا ندرى عن أى هيكل يتحدث الكاتب ، هل الهيكل الذى تزعم التوراة أن سليمان النبي اليهودى ؟ قد بناه لإله اليهود يهوه ؟ وهو أسفل المسجد الأقصى ؟ وهذا ما لم يرد به قرآن أو سنة أو نص تاريخي صحيح فداود نبي مسلم وسليمان نبي مسلم [١] عليهما السلام ، ولم يقوما ببناء ليهوه ، وإنما قد جددا بناء المسجد الأقصى ، كما أنه من الثابت شرعيا أن داود عليه السلام حينما دخل بيت المقدس ومكَّنَ الله له لم يكن ملكا ، وإنَّما كان جنديا من جنود المسلمين ، فلما فتح الله على يديه ، مكن له وآتاه الملك والحكمة . ﴿ فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ﴾ [٢] .

---

(١) ﴿ إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ، ألا تعلوا عَليَّ وأتوني مسلمين ﴾ .
(٢) البقرة : آية ٢٥١ .

إن القول ببناء الهيكل على يد سليمان ، لا يخدم الآن إلا قضية اليهود الذين يريدون أن يهدموا المسجد الأقصى ويقيمون على أنقاضه هيكلهم المزعوم ، وساعتها سينهض من بين صفوف المسلمين من يقول دعوهم فإن كتب التاريخ قد علمتنا أن لهم هيكلا تحت المسجد الأقصى [١] .

* * *

شبهات أخرى وردت في كتاب دراسات تاريخية من القرآن ، تأليف الدكتور محمد بيومي مهران :

الشبهة الأولى : « فإبراهيم الذى خرج من العراق فارا من أهله إلى فلسطين » [٢] .

الــرد : وهنا نتساءل من الذى ألقي في النار ؟ .. أليس هو إبراهيم عليه السلام أم غيره ؟ .. ومن الذى نجّاه إلى أرض الإسراء ؟ الله ؟ أم أنه الفرار ؟ .. كثير أن يتحدث عن نبي من أولي العزم بهذه الطريقة . فالله يقول ﴿ ونجيناه ولوطا إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين ﴾ ، أى أنه لم يكن فرارا .

الشبهة الثانية : « بل إن التراث الديني اليهودى ليزخر بأدلة لا تقبل الشك ، على أن اليهود الذين رافقوا موسى إلى سيناء ، لم يكونوا كفؤا لعبء حمل التوحيد وفلسفته التجريدية [٣] ... الخ » . ولم يجدوا فيما تقدمه الديانة الجديدة ما يشبع حاجتهم إلى الاعتبارات المادية .

الــرد : إن اليهودية كفر ، وموسى لم يكن يهوديا ولكن كان حنيفا مسلما ، والذين آمنوا معه كانوا مسلمين ﴿ وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ﴾ [٤] .

---

(١) ارجع إلى كتاب قصة الحضارة ، جـ ٢ ، المجلد الأول ، ط ٣ ، ص ٣٣٤ – ٣٣٥ .
(٢) دراسات تاريخية من القرآن ، ص ١٤١ .
(٣) نفس المرجع ، ص ١٤٢ .
(٤) يونس : ٨٤ .

وقد لقي السحرة الذين أسلموا مع موسى ، ربَّهم شهداء بعد أن أسلموا بين يدى الفرعون ﴿ آمنا برب العالمين ، رب موسى وهارون ﴾ (١) .

ولا ندرى ماذا يقصد الكاتب بالفلسفة التجريدية للتوحيد ؟ .. الإسلام ليس فيه فلسفة ، لأن الاشتغال بالفلسفة اليونانية يناهض عقيدة المسلم وقد حرمها علماء السلف (٢) .

وإذا كان من الثابت شرعا أن أتباع موسى كانوا – مسلمين – فهل يمكن القول بأن الإسلام لم يشبع حاجتهم إلى الاعتبارات المادية ؟ .. نأمل أن يراجع الكاتب ما كتب ويقوم بحذف هذه العبارات طاعة لله ورسوله لأنها تتعارض والاعتقاد الصحيح .

* * *

الشبهة الثالثة : يتحدث الكتاب عن بني إسرائيل فيقول : « لدرجة أنهم ما كانوا بمستطيعى الإيمان بدعوة موسى ، إما خوفا من فرعون ، وإما خوفا من شيوخ بني إسرائيل ، وإلى هذا يشير القرآن الكريم ﴿ فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملإهم أن يفتنهم ﴾ ، باعتبار الضمير في « وملإهم » راجعا إلى قوم موسى .

الـرد : والآية إنما تؤكد أن هناك أشخاصاً « قوما » آمنوا بدعوة موسى عليه السلام ، كما يقول ابن كثير ، لأنه أراد بالذرية الأحداث والشباب وأنهم من بني إسرائيل فالمعروف أن بني إسرائيل كلهم آمنوا بموسى عليه السلام (٣) . وذلك عكس ما ذهب إليه الكاتب من تفسير آية من كتاب الله عز وجل ،

---

(١) الأعراف : ١٢١ – ١٢٢ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ٢ ، ص ٢٣٧ .
(٢) الفتاوى الكبرى ، جـ ٤ ، ص ٢٧ ، منهج الاعتدال ؛ شرح العقيدة الطحاوية ، ص ٣٣٣ ؛ تهافت الفلاسفة لأبى حامد الغزالى ؛ تلبيس إبليس لابن الجوزى البغدادى ، ص ٤٥ ومابعدها .
(٣) تفسير القرآن العظيم ، جـ ٢ ، ص ٤٢٨ .

على غير مراد الشرع الحكيم ، والأصل الرجوع إلى كتب التفسير ، أم أن كبار المفسرين مشكوك فيهم ، كما أشار الكاتب إلى ذلك صراحة ص ١٣٧ ، ١٣٨ من كتابه .

الشبهة الرابعة : وهكذا بقي بنو إسرائيل - كالعرب تماما - يعبدون الأصنام إلى ما بعد إبراهيم بمئات السنين ، ومن هنا فإن عبادة الأوثان لا تدل على انتماء العرب أو اليهود إلى إبراهيم (١) .

الــرد : إن الذين يعبدون الأوثان لا ينتمون بيقين ، من قريب أو من بعيد إلى إبراهيم عليه السلام ، سواء كانوا يهودا أو عربا . فالوشيجة التي بينهم وبينه قد انقطعت بمجرد مروقهم عن دين الله عز وجل وهو الإسلام ﴿ إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه ، وهذا النبي والذين آمنوا ﴾ .

الشبهة الخامسة : ولا ندرى ما السبب الذى دفع الأستاذ الدكتور محمد إلى إفراد فصل تحت عنوان « قصة الذبيح والتضحية البشرية » (٢) .

وبعد أن يبين أن التضحية البشرية كانت عادة لدى شعوب الشرق الأدنى القديم ، يعلق قائلا : (وهنا - فيما يبدو لى - تظهر أهمية قصة الذبيح عليه السلام ، فى التاريخ الإنسانى ، إذ كتبت عليه ضريبة الفداء ، وهى فى مفترق الطرق بين الهمجية التى كانت لا تتورع عن الذبائح البشرية ، وبين الإنسانية المهذبة التى لا تأبى الفداء بالحياة ، ولكنها تتورع عن ذبح الإنسان ، ولما كان الأنبياء هم الأسوة الحسنة التى يحتذى حذوها كافة الناس وخاصتهم ، فإن الله جلت قدرته أراد أن يجعل من خليله قدوة حسنة ومثلا أعلى ، لأرفع صور الإيمان وأجلها فى تاريخ الإنسانية ، وفى الوقت ذاته ، فإنه - جل وعلا - قد أعطى الإنسانية نفسها ، مثلا حيا فى إبراهيم وابنه إسماعيل ، تمهيدا لمنع هذه العادة البربرية ، فيأمره بذبح ولده ، ثم يفتديه ، بكبش عظيم ، ومن هنا كان ارتباط هذا الحادث ارتباطا وثيقا بظاهرة التضحية البشرية ، التى كانت تمارس فى بعض

---

(١) دراسات تاريخية من القرآن الكريم ، ص ١٤٤ .
(٢) دراسات تاريخية في القرآن ، ص ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ .

مجتمعات الشرق الأدنى القديم ، والحث على استبدال ذلك التقليد بالتضحية الحيوانية) .

« ومن عجب أن ذرية إبراهيم من إسحاق ، لم يكونوا على مستوى الدعوة ، فبقيت فيهم عادة التضحية البشرية إلى ما بعد أيام موسى) .

الــرد : ما هو وجه المقارنة والصلة بين الهمجية التى كانت لا تتورع عن الذبائح البشرية ، وبين ابتلاء الله سبحانه وتعالى لإبراهيم عليه السلام بذبح ولده وفلذة كبده ؟

وهل لو فرض وذبح إبراهيم عليه السلام ابنه امتثالا لأمر ربه واستسلاما ، فهل هذا يعتبر همجية ؟ أو ضريبة فداء ؟؟

وهل نحن أعلم أم الله ؟ وهل حينما أمر الله سبحانه وتعالى إبراهيم عليه السلام بذبح ابنه ، كان أدنى – وحاشا لله أن يكون كــذلك – وأقــل مرتبة من الإنسانية المهذبة التى تتورع عن ذبح الإنسان ؟ .

وهل كان الله سبحانه وتعالى يضرب هذا المثل ليعلم البشرية ألا تبخل بشيىء عن الله عز وجل ، وأن لا تستبقى شيئا عن الله حتى لو كانت النفس أو الولد أو المال ، أم أن قصد الشارع العظيم منع هذه العادة البربرية ؟ كما يزعم كتاب دراسات تاريخية ؟؟ وهنا نرى – وبالله التوفيق :

أولا : ما كان للكاتب أن يعقد هذه المقارنة مطلقا ، لأنها تخالف الشرع ، فلا وجه للمقارنة بين أمر الشارع الحكيم لإبراهيم بذبح ابنه ، وبين الإنسانية الهمجية التى لا تتورع عن الذبائح البشرية .

ثانيا : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ﴾ ، ومن هنا فالمؤمن قد باع نفسه وماله لله وأمضى العقد مع الله ، فحينما يندبه الله عز وجل أن يجاهد فى سبيله أو يقاتل فليس عليه إلا أن يطيع .

والإسلام يعنى الاستسلام لله عز وجل ، فى جميع جنبات الحياة ،

فحينما يطلب الله عز وجل من إنسان أن يفعل شيئا لا يملك أن يتردد . وإبراهيم عليه السلام ﴿ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ﴾ . لقد أسلم حقيقة ، ولكنه كان لابد وأن يبرهن على صدق إسلامه فكان الاختبار فى أعز شيء لديه كما بينا (ص ٦٩) .

ثالثا : إن ما وقع من استسلام إبراهيم وابنه لأمر الله يؤكد أن الهدف الربانى قد تحقق ﴿ فلما أسلما وتله للجبين ﴾ . أى أنه لم يبق إلا إراقة الدم ، والله غنى عن إراقة دماء عباده ، والدم يسد مسده أى دم حتى ولو كان دم كبش .

رابعا : إن الشارع الحكيم بهذا المثل وبهذا الإسلام يعلمنا كيفية الاستسلام لله عز وجل ، ويريد أن يبتلى نبيه ليرفع درجته .

خامسا : إن الله قد حرم قتل النفس البشرية فقال ﴿ من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ﴾ .

كما أن أحد أبناء آدم عَلَيْه كِفْل من كل نفس بشرية تقتل ، لأنه كان أول من سن القتل كما ورد بذلك الحديث الصحيح (١) .

(ب) الكتاب الثانى : دائرة معارف القرن العشرين :

سؤال : ورد فى دائرة معارف القرن العشرين ، تأليف محمد فريد وجدى « العبارات التالية عن إبراهيم عليه السلام فما رأيكم فى ضوء دراستكم ؟ .

(هذا ما نقلناه عن الكتب القديمة ، ويظهر لنا أن فى مثل هذه الروايات ضعفا بل أن أكثر أمثال هذه الروايات مخلوطة بالخرافات ، فلا يعقل أن نبيا جليلا من أولى العزم كإبراهيم يلقى بامرأته وابنه فى واد قاحل لا زرع فيه ولا ماء ،

---

(١) البداية والنهاية ، جـ ٢ ، ص ٤١ – ٤٦ .

ويلوح لنا أن إبراهيم لم يطوح بامرأته وولده إلى هذا الحد بل انتقل بامرأته الثانية إلى جهات مكة لغرض من الأغراض بدليل أنه كان زار بلاد العرب مراراً) (١) .

الـرد : إن الخبر الصحيح الوارد فى صحيح البخارى (٢) عن رسول الله ﷺ الذى ما ينطق عن الهوى ، يؤكد أن إبراهيم عليه السلام قد أُمر من الله سبحانه وتعالى أن ينزل زوجه هاجر وطفله إسماعيل بذلك الوادى القاحل (ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل ، وهى ترضعه ، حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم فى أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس بها ماء ، فوضعهما هنالك ، ووضع جرابا فيه تمر ، وسقاء فيه ماء) (٣) . فهل بعد ذلك يمكن لأحد أن يزعم أن هذه الرواية مخلوطة بالخرافات ؟ .. وأنها ضعيفة ؟

أرى أن يراجع الكاتب نفسه وكتابه لأنه يشكك فى السنة ، والتشكيك فى السنة يعتبر تشكيك فى الدين الإسلامى ، والذى يشكك فى الدين الإسلامى يجب أن يراجع نفسه ويصحح عقيدته . إن المسئول عن طبع دائرة معارف القرن العشرين يجب عليه أن يحذف هذه الفقرة أو يصححها طبقا للحديث .

دائرة معارف القرن العشرين ، تأليف محمد فريد وجدى ، المجلد الرابع ، ط ٣ ، دار المعرفة ، بيروت ١٩٧١ ، ص ٥٩٤ وما بعدها تحت لفظة « زمزم »

(يزعم الكاتب أن زمزم) حفرها إبراهيم عليه السلام لولده إسماعيل (أى أن الكاتب يتجاهل حديث رسول الله ﷺ الذى يفيد بأن بئر زمزم قد نبع نتيجة لضربة من جناح جبريل بأمر من الله عز وجل ، من تحت قدمى إسماعيل عليه السلام) .

وعن ماء زمزم الذى قال رسول الله محمد ﷺ : « أنه لما شرب له » يقول الكاتب ، ص ٥٩٥ ، وحقيقة فإنه ماء قلوى تكثر فيه الصودا والكلور والجير

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين ، المجلد الأول ، ص ٣٤٣ ، وص ٣٦٠ - ٣٦٢ .

(٢) صحيح البخارى ، جـ ٤ ، ص ١٧٢ - ١٧٥ ، جزيرة العرب منذ أقدم العصور ، جـ ١ ، ص ٢٤٩ .

(٣) انظر تفاصيل المسألة في رسالتنا التي بين يديك ، ص ١١٠ .

وحامض الكبريتيك وحمض الأزوتيك والبوتاسا ، مما يجعله شبيها بالمياه المعدنية الصحية فى تأثيرها ويفيد قليله ولا تخلو الكثرة منه من الضرر وخصوصا فى غير موسم الحج حيث تكون بئرها مهجورة : لأن أهل مَكة لا يشربون منها لملوحتها ، وفى هذه الحالة يزيد فيها الحامض الأزويتك بدرجة تجعل ماءها غير صالح للشرب .

وفى ص ٥٩٧ يقول الكاتب : (وليس الاعتقاد فى مثل ماء زمزم خاصا بالمسلمين فإن لليهود اعتقادا عظيما فى نهر الكنح وبحيرة مادن ، والنصارى يعتقدون فى نهر الأردن الذى يبعد بنحو عشرين كيلو متر إلى شرق بيت المقدس ويسمونه نهرالشريعة .. إلى غير) ذلك . وهكذا يسوى الكاتب وهو من أبناء المسلمين بين اعتقاد أهل التوحيد وبين اعتقاد أهل الشرك والكفر .

وردّنا على الكاتب ، ورد فى رسالتنا هذه ، ومنه يمكن التأكد أن المسلمين لا يقدسون ماء زمزم ولكنهم يوقنون بأن الله سبحانه وتعالى قد وضع فيه خاصية ليست لغيره ، وأن الذى أخبر بذلك هو المعصوم ﷺ الذى ما ينطق عن الهوى (انظر ص ١١٠ من كتابنا الذى بين يديك) .

الجزء الثانى : الكتاب الثالث

سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين فى النصف الأول من القرن العشرين ، تأليف د. حسن صبر الخولى ، دار المعارف ، مصر ١٩٧٣

شبهات

حول اغتصاب اليهود لأرض فلسطين « التى بارك الله فيها للعالمين » والتى كان يسكنها إبراهيم عليه السلام وذريته منذ أقدم الدهور

سؤال : ورد فى كتاب سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين (١) ، تحت عنوان : « ذرائع الصهيونية فى فلسطين » :

(يقرر الصهيونيون أن فلسطين هى الأرض التى وعدهم الله بها تأسيسا على ما جاء فى التوراة أن الله – سبحانه وتعالى – قد وعد إبراهيم – عليه السلام – وذريته من بعده أن يعطيه فلسطين لإنشاء دولة فيها « لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات » (٢) . ونحن نسلم بما جاء فى التوراة على أساس أنه كتاب مقدس من عند الله ، ولكننا لا نستطيع أن نجارى اليهود فى تفسيرهم التعسفى ، لأن الوعد الإلهى ليس موجها إلى اليهود وحدهم وإنما هو وعد لإبراهيم وذريته : إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، يتساوى فى ذلك الحق ، إسحاق جد اليهود وإسماعيل جد العرب . وعلى ذلك فالحق فى فلسطين ليس مقصورا على اليهود وإنما هو لذرية إبراهيم على الإطلاق ومن هذه الذرية العرب واليهود . وكان إسماعيل أول أولاده بعد ما طلبت منه زوجته سارة أن يدخل بجاريتها هاجر حتى يكون له منها ذرية بعد أن ظلت عقيما . وبعد أن نيف إسماعيل على الثالثة عشرة من عمره ، رزق إبراهيم من زوجته العقيم سارة بمولود هو إسحاق ، وقد كثر أبناء إسماعيل وحفدته وذراريه حتى أصبحوا عدد نجوم السماء كما وعد الله . وتكونت منهم أمة العرب التى امتدت وغطت المنطقة الرحيبة التى تعرف اليوم بالوطن العربى

(١) تكوين : ١٥ : ١٨ – ٢٠ ؛ ص ٣٣ وما بعدها .
(٢) تكوين : ١٥ : ٣ – ٥ .

الكبير . أما أبناء إسحاق فقد ذهبوا قلة . ويُعَدُّ إبراهيم أبو الأنبياء والرسل ، ومن رسالته أهلت كل رسالات السماء اليهودية والنصرانية والإسلام .

والكاتب يعتمد فى جانب مما قال على كتاب د . حسين فوزى النجار : أرض الميعاد . دراسة علمية للوعد الإلهى لبنى إسرائيل بأرض الميعاد على ضوء الكتب السماوية ، القاهرة ١٩٥٩ م ، ص ٥٩ – ٨٩ . وكتاب د . محمد حافظ غانم : مبادىء القانون الدولى العام الخ ، ص ٣٥٩ .

فما رأيكم فى ضوء دراستكم لسيرة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق – عليهم السلام – أفيدونا أفادكم الله ؟ .

الـردّ : بالرجوع إلى ما كتبه الدكتور حسن صبرى الخولى فى كتابه (١) ، يمكن تلخيص ما قاله فى المسائل التالية ، وهو يتفق فى عرضه مع الخط العام الذى عالج به المحدثون من المشتغلين بالتاريخ قضية الاغتصاب اليهودى لأرض فلسطين ، بل يردد ما زعم الكتاب أمثال :

ول . ديورانت فى قصة الحضارة ، الجزء الثانى من المجلد الأول ، ص ٣٢١ وما بعدها ، وما زعم س . موسكاتى فى كتابه الحضارات السامية القديمة ، ص ١٣٩ :

المسألة الأولى :

« إن إبراهيم – عليه السلام – كان يهوديا ، ومن رسالته – كما يزعم الكاتب – أَهَلَّتْ كل الرسالات السماوية : اليهودية والمسيحية والإسلام (٢) ؟ ..

(١) سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين في النصف الأول من القرن العشرين ، تأليف د . حسن صبري الخولي ، دار المعارف مصر ١٩٧٣ م ، وهو في الأصل رسالة دكتوراه ، أشرف عليها الأستاذ الدكتور عبد العزيز محمد الشناوى ، أستاذ كرسي التاريخ الحديث بجامعة الأزهر ، وناقشها الأستاذ الدكتور بدوى عبد اللطيف عوض ، أستاذ كرسي الدراسات الاستشراقية بجامعة الأزهر ، الأستاذ الدكتور محمد رفعت رمضان أستاذ كرسى التاريخ الحديث بجامعة القاهرة .

(٢) سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين ، ص ٣٤ .

المسألة الثانية :

إن ما ألفه اليهود وزعموا أنها توراة : « العهد القديم » ، يسلم الكاتب أنه كتاب مقدس من عند الله – عز وجل – وأنه قد أنزل على إبراهيم – عليه السلام [1] ..

المسألة الثالثة :

إن الله – عز وجل قد وعد إبراهيم – عليه السلام – وذريته من بعده (مطلقا سواء كانوا ظلمة أو عدولا) فلسطين لإنشاء دولة فيها : (لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى نهر الفرات) [2] (سفر التكوين ١٥ : ١٨ – ٢٠) .

المسألة الرابعة :

إن إسحاق نبى يهودى وهو جد اليهود [3] ..

المسألة الخامسة :

تسليم الكاتب بأن لليهود حق فى أرض فلسطين (وإن كان أقل من حق أبناء إسماعيل [4] .

وسنحرص فى الصفحات التالية ، على بيان وجه الحق فيما أورده الدكتور حسن صبرى الخولى فى كتابه ، فإن أخطأنا فمن أنفسنا ، وإن أصبنا فمن الله سبحانه وتعالى .

أولا : إبراهيم عليه السلام نبى مسلم وكذلك إسحاق عليه السلام :

إلى أى دين دعا إبراهيم وذريته وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وسليمان وعيسى عليهم السلام ؟

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٣ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٣٣ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٣٣ – ٣٤ .
(٤) المرجع السابق ، ص ٣٤ .

يقول الله تعالى بعد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم :

﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا ، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ﴾ (١)

﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين . إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين . ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون . أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلٰهك وإلٰه آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلٰهاً واحدا ونحن له مسلمون . تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تُسْألون عما كانوا يعملون . وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين . قولوا آمنا بالله ومآأنزل إلينا ومآأنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾(٢) .

إن أهل الكتاب ليرجعون بأصولهم إلى إبراهيم عن طريق إسحاق – عليهما السلام – ويعتزون بنسبهم إليه . وكذلك قريش لترجع بأصولها كذلك إلى إبراهيم عن طريق إسماعيل – عليهما السلام – وتعتز بنسبها إليه . والقرآن يسير بنا خطوة خطوة من لدن إبراهيم عليه السلام – منذ أن ابتلاه ربه واختبره واصطفاه ، وتنصيبه للناس إماما ... إلى أن نشأت الأمة المسلمة المؤمنة برسالة محمد – ﷺ – استجابة من الله لدعوة إبراهيم وإسماعيل وهما يرفعان البيت الحرام – فاستحقت وراثة هذه الأمانة دون ذرية إبراهيم جميعا ، بذلك السبب الوحيد الذى تقوم عليه وراثة العقيدة ... سبب الإيمان بالرسالة ، وحسن القيام عليها ، والاستقامة على تصورها الصحيح .

---

(١) البقرة : ١٢٧ – ١٢٨ . (٢) البقرة : ١٣٠ – ١٣٦ .

وفى ثنايا هذا العرض التاريخى يبرز السباق أن الإسلام بمعنى إسلام الوجه لله وحده – كان هو الرسالة الأولى ، وكان هو الرسالة الأخيرة ، هكذا اعتقد إبراهيم ، وهكذا اعتقد من بعده إسماعيل وإسحاق ويعقوب (وهو إسرائيل الذى ينتسبون إليه) – والأسباط ، حتى أسلموا هذه العقيدة ذاتها إلى موسى وعيسى ، ثم آلت أخيرا إلى ورثة إبراهيم من المسلمين (١) .

فمن استقام على هذه العقيدة فهو وريثها ، ووريث عهودها ، وبشاراتها . ومن فسق عنها ، ورغب بنفسه عن ملة إبراهيم ، فقد فسق عن عهد الله ، وقد فقد وراثته لهذا العهد وبشاراته ، وعندئذ تسقط كل دعاوى اليهود والنصارى في اصطفائهم ، لمجرد أنهم أبناء إبراهيم وحفدته ، وهم ورثته وخلفاؤه : لقد سقطت عنهم الوراثة عندما انحرفوا عن هذه العقيدة .

إن التصور الإسلامى يقطع الوشائج والصلات التى لا تقوم على أساس العقيدة والعمل ، ولا يعترف بقربى ولا رحم ، إذا أنبتت وشيجة العقيدة والعمل ، ويسقط جميع الروابط والاعتبارات ما لم تتصل بعروة العقيدة والعمل ، وهو يفصل بين الوالد (٢) والولد ، والزوج (٣) والزوجة إذا انقطع بينهما حبل العقيدة ... إن الأسرة ليست آباء وأبناء وأحفادا ... إنما هى هؤلاء جميعا تجمعهم عقيدة واحدة ، وإن الأمة ليست مجموعة أجيال متتابعة من جنس

---

(١) ليس هنالك دين اسمه المسيحية أو دين اسمه اليهودية دعا إليه رسول من عند الله ، ولكن هنالك دين واحد اسمه الإسلام دعا إليه رسل الله جميعا ومنهم عيسى وموسى وسليمان عليهم أفضل الصلاة وأزكى السلام (انظر رسالتنا أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ ، الرسالة الأولى ، دار الوفاء للطباعة والنشر) .

(٢) كما فصل بين نوح وابنه ، وبين إبراهيم وأبيه ﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم ﴾ (التوبة ١١٤) .

(٣) كما فصل بين نوح ولوط وزوجيهما ، وكما فصل بين آسية وزوجها فرعون ﴿ ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين . وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ﴾ . التحريم ١٠ –١١ ؛ وفى الحديث الصحيح : « انتسب رجلان على عهد موسى فقال أحدهما : أنا فلان بن فلان حتى عدّ تسعة . فمن أنت لا أم لك ؟ قال : أنا فلان بن فلان بن الإسلام فأوحى الله إلى موسى أن قل لهذين المنتسبين : أما أنت أيها المنتسب إلى تسعة فى النار فأنت عاشرهم فى النار ، أما أنت أيها المنتسب إلى اثنين فى الجنة فأنت ثالثهما فى الجنة » رواه النسائى والبيهقى وأحمد فى مسنده ، والطبرانى فى الكبير ، انظر صحيح الجامع الصغير ، حديث ١٥٠٤/٦٦١ .

معين ... إنما هى مجموعة من المؤمنين مهما اختلفت أجناسهم وأوطانهم وألوانهم ... وهذا هو التصور الإيمانى .

ثانيا : اليهود لا يرثون إبراهيم عليه السلام :

هل لمن يسمون بالإسرائيليين الآن ، أو بمعنى آخر ، هل لليهود ، الآن ، الحق فى أن يدعوا وراثة إبراهيم وإسحاق ويعقوب ... إلى غير هؤلاء من الأنبياء والرسل عليهم السلام ؟

الإجابة طبعا بالنفى ، للأسباب التالية : اليهود كفروا بالله ، ورفضوا الإقرار له بالعبودية ، كما رفضوا الاعتراف له بالألوهية والربوبية ، بل نسبوا إليه كل الصفات الذميمة فهو يندم ويجهل ويتعب ..

اليهود كفروا بأنبياء الله ، فأنكروا نبوة هود ونبوة صالح ونبوة محمد – عليهم أفضل الصلوات وأزكى التسليمات – بل إنهم نسبوا إلى بعض الأنبياء والرسل صفات ذميمة منها السكر والزنا[1] وغيرها .

اليهود رفضوا اعتناق الإسلام ، ورفضوا شريعة الله ومنهاجه ، كما أنهم حرفوا التوراة ولم يقيموها فى حياتهم .

ولذلك فليس من حق اليهود الكفار أن يدعوا وراثة الأنبياء والرسل والمسلمين ، لأن الكافر لا يرث مسلما حتى لو كان من صلبه . وبالتالى فليس من حق اليهود أن يدّعوا أنهم يرثون أرض الله (سورية وفلسطين) التى نجى الله إليها نبيه إبراهيم عليه السلام .

ثالثا : صفات بنى إسرائيل[2] ، وحقيقة المعركة بينهم وبين الأمة المسلمة :

تحدث القرآن عن بنى إسرائيل ، ومواقفهم التى يتجلى فيها العصيان

---

(١) انظر للمؤلف أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ ، ذرية إبراهيم ، دار الوفاء للطباعة القاهرة .

(٢) وإسرائيل هو يعقوب عليه السلام ، وهو نبى مسلم ، وعلى أبنائه أخذ العهد والميثاق أن يكونوا مسلمين ، فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، فمنهم من وفّى ومنهم من لم يوف ، وذلك يعنى أن من أبناء إسرائيل ، مسلمون ، ومن أبنائه غير المسلمين .

والالتواء والانحراف والنكول عن العهد والميثاق : ﴿ وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله ، وبالوالدين إحسانا وذى القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسنا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتم إلا قليلاًمنكم وأنتم معرضون . وإذا أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون .. ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون ﴾(١) .

﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون ﴾(٢) ولما كانوا يدعون بأنهم شعب الله المختار ... وأنهم وحدهم هم المهتدون .. وأنهم وحدهم الفائزون فى الآخرة ، ﴿ قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين . ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون ﴾(٣) .

﴿ أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون ﴾(٤) .

ومن هذه الآية الأولى ندرك أن ميثاق الله مع بنى إسرائيل ، ذلك الميثاق الذى أخذه عليهم فى ظل الجبل ، والذى أمروا أن يأخذوه بقوة ، وأن يذكروا ما فيه ... إن ذلك الميثاق قد تضمن القواعد الثابتة لدين الله .. هذه القواعد التى

---

(١) البقرة : ٨٣ - ٨٥ .
(٢) البقرة : ٨٧ .
(٣) البقرة : ٩٤ - ٩٥ .
(٤) البقرة : ١٠٠ .

جاء بها الإسلام أيضا فتنكروا لها . لقد تضمن ميثاقهم مع الله : ألا يعبدوا إلا الله .... الخ ما ورد فى الآية .

ومن ثم تتقرر حقيقتان : الأولى هى وحدة دين الله ، وتصديق هذا الدين لما قبله فى أصوله . والثانية : هى مقدار التعنت فى موقف اليهود من هذا الدين ، وهو يدعوهم لمثل ما عاهدوا الله عليه ، وأعطوا عليه الميثاق .

﴿ ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون ﴾[1] . أى أنهم جحدوه وتركوا العمل به ، وأنهم أبعدوه عن مجال تفكيرهم وحياتهم . ﴿ واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمَنَ اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون ﴾[1] .

﴿ ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾[3] .

﴿ وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين.بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾[4] ..

﴿ وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه بل له ما فى السموٰات والأرض كل له قانتون ﴾[5] .

---

(١) البقرة : ١٠١ .
(٢) البقرة : ١٠٢ .
(٣) البقرة : ١٠٥ .
(٤) البقرة : ١١١ .
(٥) البقرة : ١١٦ .

﴿إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ولا تُسْأل عن أصحاب الجحيم . ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم ما لك من الله من ولى ولا نصير ﴾(١) .

إنها العقيدة ، هذه هى المعركة التى يشنها اليهود والنصارى فى كل أرض وفى كل وقت ضد الجماعة المسلمة .

إنها معركة العقيدة هى المشبوبة بين المعسكر الإسلامى وهذين المعسكرين اللذين قد يتخاصمان فيما بينهما ، وقد تتخاصم شيع الملة الواحدة فيما بينها ، ولكنها تلتقى دائما فى المعركة ضد الإسلام والمسلمين .

إنها معركة العقيدة فى صميمها وحقيقتها ، ولكن المعسكرين العريقين فى العداوة للإسلام والمسلمين يلونانها بألوان شتى ، ويرفعان عليها أعلاما شتى فى خبث ومكر وتورية . إنهم قد جرَّبوا حماسة المسلمين لدينهم وعقيدتهم حين واجهوهم تحت راية العقيدة . ومن ثم استدار الأعداء فغيروا أعلام المعركة . لم يعلنوها حربا باسم العقيدة – على حقيقتها – خوفا من حماسة العقيدة وجيشانها ، إنما أعلنوها باسم الأرض ، الاقتصاد والسياسة والمراكز العسكرية وما إليها ، وألقوا فى روع المخدوعين الغافلين منا أن حكاية العقيدة قد صارت حكاية قديمة لا معنى لها . ولا يجوز رفع رايتها ، وخوض المعركة باسمها . فهذه سمة المتخلفين المتعصبين ، بينما هم فى قرارة نفوسهم : الصهيونية العالمية والصليبية العالمية – بإضافة الشيوعية العالمية – جميعا يخوضون – المعركة أولا وقبل كل شيء لتحطيم هذه الصخرة العاتية التى نطحوها طويلا فأدمتهم جميعا .

ما تزال الأمة المسلمة تعانى من دسائس اليهود ومكرهم ما عاناه أسلافها من هذا المكر ومن تلك الدسائس ، غير أن الأمة المسلمة لا تنتفع مع الأسف – بتلك التوجيهات القرآنية ، وبهذا الهدى الإلهى ، الذى انتفع به أسلافها (٢) فغلبوا

---

(١) البقرة : ١١٩ – ١٢٠ .
(٢) في ظلال القرآن ، جـ ١ ، ص ١٠٨ .

كيد اليهود ومكرهم فى المدينة ، والدين ناشىء والجماعة المسلمة وليدة .... وما يزال اليهود – بلؤمهم ومكرهم – يضللون هذه الأمة عن دينها ، ويصرفونها عن قرآنها ، كى لا تأخذ منه أسلحتها الماضية وعدتها الواقية ، وهم آمنون ما انصرفت هذه الأمة عن موارد قوتها الحقيقية وينابيع معرفتها الصافية .. وكل من يصرف هذه الأمة عن دينها وعن قرآنها فإنما هو من عملاء يهود . سواء عرف أم لم يعرف ، أراد أو لم يرد ، فسيظل اليهود فى مأمن من هذه الأمة ما دامت مصروفة عن الحقيقة الواحدة المفردة التى تستمد منها وجودها ... وقوتها وغلبتها – حقيقة العقيدة الإيمانية والمنهج الإيمانى والشريعة الإيمانية – فهذا هو الطريق ، وهذه هى معالم الطريق .

نخلص من العرض السابق إلى الحقائق التالية :

١ ـــ إن إبراهيم نبى مسلم ﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين ﴾ .

وكذلك كان إسحاق نبيا مسلما .

٢ – إن الله قد وعد إبراهيم بأن ترث ذريته المسلمة – وليس غيرها – الأرض المقدسة ، يعنى أنه ليس لليهود حق فى أرض فلسطين اعتمادا على أنهم ورثة إبراهيم ، لأن الكافر لا يرث مسلما ولو كان من صلبه .

والدليل بالإضافة إلى ما قدمنا رد الله سبحانه وتعالى على إبراهيم حينما طلب أن تكون الإمامة فى عقبه : ﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إنِّى جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين ﴾ فالإمامة محجوبة عن الظلمة والفسقة والكفرة(١) . كما أن الله سبحانه وتعالى قد حسم الأمر حينما قال : ﴿ إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين ﴾(٢) .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ، جـ ٢ ، ص ١٠٩ .

(٢) آل عمران : ٦٨ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ٣٧٢ .

واليهود لم يتبعوا إبراهيم ، والدليل على ذلك نكوهلم عن عهدهم مع ربهم ، وكفرهم بمحمد ﷺ . .

وهنالك صفات يجب أن يتصف بها الإنسان لكى يكون مؤهلا ومستحقا للإمامة منها : الإسلام والعدالة ... إلى غير ذلك مما بينا (ص ٣) ، وهذا لا يتوفر منه شيء على الإطلاق فى اليهود ، الذين كفروا بالله وكتبه ورسله ، وقتلوا الأنبياء بغير حق إلى غير ذلك مما عرف منهم ... فكيف إذن يدعون لأنفسهم حق وراثة إبراهيم – عليه السلام – النبى المسلم ؟ .

وبهذا نصل إلى نتيجة مفادها أن الله سبحانه وتعالى لا يمكن أن يكون قد وعد الذرية الظالمة من أبناء إبراهيم بالإمامة فى أرض فلسطين ، حتى لو سلمنا بأن اليهود هم من ذرية إبراهيم عليه السلام ، لأن الله يقول : ﴿ لا ينال عهدى الظالمين ﴾ .

وإنما الموعودون بالتمكين فى الأرض المقدسة والمبشرون بوراثة الأرض المقدسة هم المسلمون من ذرية إبراهيم ، وبذلك نص الحديث الصحيح المروى عن رسول الله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود حتى يقول الحجر وراءه اليهودى يامسلم هذا يهودى ورائى فاقتله »(١)

خامسا : رسالة إبراهيم عليه السلام دعوة إلى الإسلام ، وليست دعوة إلى اليهودية أو النصرانية :

أما فيما يتصل بما أورده الكاتب ، (أن من رسالة إبراهيم عليه السلام أَهلَّتْ كل رسالات السماء : اليهودية والنصرانية والإسلام (٢) ، فهو ترديد لكل ما يكاد يجمع عليه كتاب التاريخ من أبناء العرب والمسلمين فى عصرنا الحاضر .

وما ردده الكاتب وغيره يعنى أن من دعوة إبراهيم إلى الإسلام انبثقت

---

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته ، حديث رقم ٧٢٩١ – ٣٠٦٨ . وفى رواية أخرى : « لن تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود ، فيقتلهم المسلمون حتى يختبىء اليهودى وراء الحجر والشجر فيقول الحجر والشجر يامسلم ياعبدالله هذا يهودى خلفى ، فتعال فاقتله إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود » (صحيح الجامع الصغير ، حديث ٧٣٠٤ – ٣٠٧٨) .

(٢) **مثال ذلك** : ما ذكره محمد مهران فى كتابه « دراسات تاريخية من القرآن الكريم » ، (ص ٣٦٥) : « لأن اليهودية والنصرانية ديانتان سماويتان ، لا مجال لتفضيل إحداهما على الأخرى .

اليهودية وانبثقت المسيحية ، وذلك يعنى أيضا أن إبراهيم كان يهوديا ، وكان نصرانيا ، وفى نفس الوقت كان مسلما (على قدر فهمنا ، وعلى قدر ما يبدو من عبارة الكاتب ، وذلك يعنى أيضا أن ورثة إبراهيم هم المسلمون واليهود والنصارى ، أى أن للجميع حق فى أرض فلسطين ، وهذا ما سلم به الكاتب ، وإن كان يرى لأبناء إسماعيل الجزء الأكبر فى هذه الأرض نظرا لكثرتهم) .

والتصحيح اعتماد على فهم السلف الصالح لكتاب الله وسنة النبى محمد ﷺ ، هو كالتالى :

نحن - المسلمين - نؤمن برسالات سماوية ، منها رسالة إبراهيم وموسى وعيسى ، ولكن كُلَّهَا دعت إلى دين واحد هو الإسلام : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ . وإن الأنبياء الذين كان لهم شرف حمل هذه الرسالات كانوا مسلمين موحدين ، ولم يكونوا هودا أو نصارى .... ﴿ وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ .

ولما كانت الأرض المقدسة هى الأرض التى كانت الإمامة عليها لإبراهيم - عليه السلام - وذريته من الأنبياء المسلمين ، فذلك يعنى أن الذين يرثون إبراهيم - عليه السلام - هم المسلمون لإقامة حكم الله عليها ، وليس اليهود أو النصارى لأنهم كفار مشركون .

أما فيما يتصل بنسبة التوراة المحرفة إلى إبراهيم - عليه السلام - والزعم بأنه كان يهوديا فهذه شبهة قديمة قد رد الله عليها فى كتابه الكريم فى قوله تعالى :

﴿ يا أهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون . ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون . ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين . إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه ، وهذا النبى ، والذين آمنوا ، والله ولى المؤمنين ﴾(١) .

قال محمد بن إسحاق : حدثنى محمد بن أبى - مولى زيد بن ثابت -

---

(١) آل عمران ، ٦٥ - ٦٨ . تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ٣٧٢ ؛ في ظلال القرآن ، المجلد ١ ، ص ٤١١ .

حدثنى سعيد بن جبير – أو عكرمة – عن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال : اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله – ﷺ – فتنازعوا عنده . فقالت الأحبار : ما كان إبراهيم إلّا يهوديّا وقالت النصارى : ما كان إبراهيم إلّا نصرانيا . فأنزل الله تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب ، لم تحاجون فى إبراهيم .... ﴾ الآية . .

وسواء كانت هذه هى مناسبة نزول الآية أو لم تكن ، فظاهر من نصها أنها نزلت ردا على ادعاءات لأهل الكتاب ، وحجاج مع النبى ﷺ – أو مع بعضهم البعض فى حضرة الرسول – ﷺ – والهدف من هذه الادعاءات هو احتكار عهد الله مع إبراهيم عليه السلام أن يجعل فى بيته النبوة ، واحتكار الهداية والفضل كذلك . ثم – وهذا هو الأهم – تكذيب دعوى النبى – ﷺ – أنه على دين إبراهيم . وأن المسلمين هم ورثة الحنيفية الأولى – وتشكيك المسلمين فى هذه الحقيقة ، أو بث الريبة فى نفوس بعضهم على الأقل ... .

ومن ثم يندد الله بهم هذا التنديد ويكشف مراءهم الذى لا يستند إلى دليل . فإبراهيم سابق على التوراة وسابق على الإنجيل . فكيف إذن يكون يهوديا ؟ أو كيف يكون إذن نصرانيا ؟ إنها دعوى مخالفة للعقل ، تبدو مخالفتها بمجرد النظرة الأولى إلى التاريخ :

﴿ يا أهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون ﴾

ثم يمضى فى التنديد بهم ، وإسقاط قيمة ما يدلون من حجج ، وكشف تعنتهم وقلة اعتمادهم على منهج منطقى سليم فى الجدل والحوار :

﴿ ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾(١) ..

وقد جادلوا فى أمر عيسى عليه السلام كما يبدو أنهم جادلوا فى بعض الأحكام التشريعية حين دعوا إلى كتاب الله ليحكم بينهم ، ثم تولوا وهم

(١) آل عمران : ٦٦ .

معرضون ... وكان هذا وذاك فى دائرة ما يعلمون من الأمر ، أما أن يجادلوا فيما هو سابق على وجودهم ، ووجود كتبهم ... فهو الأمر الذى لا سند له ولو كان سندا شكليا .... فهو الجدل إذن لذات الجدل . وهو المراء الذى لا يسير على منهج ، وهو الغرض إذن والهوى .... ومن كان هذا حاله فهو غير جدير بالثقة فيما يقول . بل غير جدير بالاستماع أصلا لما يقول .

حتى إذا انتهى السياق من إسقاط قيمة جدلهم من أساسه ، ونزع الثقة منهم ومما يقولون ، عاد يقرر الحقيقة التى يعلمها الله . فهو سبحانه – الذى يعلم حقيقة هذا التاريخ البعيد وهو الذى يعلم كذلك حقيقة الدين الذى نزله على عبده إبراهيم ، وقوله الفصل الذى لا يبقى معه لقائل قول ، إلا أن يجادل ويمارى بلا سلطان ولا دليل :

﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلما وما كان من المشركين ﴾[1] .

فيؤكد ما قرره من قبل ضمنا من أن إبراهيم – عليه السلام – ما كان يهوديا ولا نصرانيا . وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده . ويقرر أنه كان مائلا عن كل ملة إلا الإسلام فقد كان مسلما ... مسلما بالمعنى الشامل للإسلام الذى مر تفصيله وبيانه ..

﴿ وما كان من المشركين ﴾ ..

وهذه الحقيقة متضمنة فى قوله قبلها ﴿ ولكن كان حنيفا مسلما ﴾ ... ولكن إبرازها هنا يشير إلى عدة من لطائف الإشارة والتعبير :

يشير أولا إلى أن اليهود والنصارى – الذين انتهى أمرهم إلى تلك المعتقدات المنحرفة – مشركون ... ومن ثم لا يمكن أن يكون إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا . ولكن حنيفا مسلما .

ويشير إلى أن الإسلام شيء والشرك شيء آخر ، فلا يلتقيان . الإسلام هو

---

(١) آل عمران : ٦٧ .

التوحيد المطلق بكل خصائصه ، وكل مقتضياته . ومن ثم لا يلتقى مع لون من ألوان الشرك أصلا ..

ويشير ثالثا إلى إبطال دعوى المشركين من قريش كذلك أنهم على دين إبراهيم ، وسدنة بيته فى مكة ... فهو حنيف مسلم ، وهم مشركون ﴿ وما كان من المشركين ﴾ .

وما دام أن إبراهيم – عليه السلام – كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين ، فليس لأى من اليهود أو النصارى – أو المشركين أيضا – أن يدعى وراثته ولا الولاية على دينه ، وهم بعيدون عن عقيدته ، والعقيدة هي الوشيجة الأولى التى يتلاقى عليها الناس فى الإسلام . حين لا يلتقون على نسب أو أرومة ولا جنس ولا أرض . إذا أنبتت تلك الوشيجة التى يتجمع عليها أهل الإيمان . فالإنسان فى نظر الإسلام إنسان بروحه . بالنفخة التى جعلت منه إنسانا . ومن ثم فهو يتلاقى على العقيدة أخص خصائص الروح فيه ولا يلتقى على مثل ما تلتقى عليه البهائم من الأرض والجنس والكلأ والمرعى والحد والسياج ، والولاية بين فرد وفرد ، وبين مجموعة ومجموعة ، وبين جيل من الناس وجيل ، لا ترتكن إلى وشيجة أخرى سوى وشيجة العقيدة . يتلاقى فيها المؤمن والمؤمن ، والجماعة المسلمة والجماعة المسلمة ، والجيل المسلم والأجيال المسلمة من وراء حدود الزمان والمكان ، ومن وراء فواصل الدم والنسب ، والقوم والجنس ، ويتجمعون أولياء – بالعقيدة وحدها – والله من ورائهم ولى الجميع :

﴿ إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين ﴾(١) . فالذين اتبعوا إبراهيم ـــ فى حياته ـــ وساروا على منهجه ، واحتكموا إلى سنته هم أولياؤه . ثم هذا النبى الذى يلتقى معه فى الإسلام بشهادة الله أصدق الشاهدين . ثم الذين آمنوا بهذا النبى ـــ ﷺ ـــ فالتقوا مع إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ فى المنهج والطريق .

﴿ والله ولى المؤمنين ﴾ ..

---

(١) آل عمران : ٦٨ .

فهم حزبه الذين ينتمون إليه ، ويستظلون برايته ، ويتولونه ولا يتولون أحدا غيره . وهم أسرة واحدة ، وأمة واحدة ، من وراء الأجيال والقرون ، ومن وراء المكان والأوطان ، ومن وراء القوميات والأجناس ، ومن وراء الأرومات والبيوت .

وهذه الصورة هى أرقى صورة للتجمع الإنسانى وتميزه من القطيع ، كما أنها هى الصورة الوحيدة التى تسمح بالتجمع بلا قيود . لأن القيد الواحد فيها اختيارى يمكن لكل من يشاء أن يفكه عن نفسه بإرادته الذاتية . فهو عقيدة يختارها بنفسه فينتهى الأمر ... على حين لا يملك الفرد أن يغير جنسه - إن كانت رابطة التجمع هى الجنس - ولا يملك أن يغير قومه - إن كانت رابطة التجمع هى القوم - ولا يملك أن يغير لونه - إن كانت رابطة التجمع هى اللون - ولا يملك أن يغير لغته - إن كانت رابطة التجمع هي اللغة - ولا يملك أن يغير طبقته - إن كانت رابطة التجمع هى الطبقة - بل قد لا يستطيع أن يغيرها أصلا إن كانت الطبقات وراثة كما فى الهند مثلا . ومن ثم تبقى الحواجز قائمة أبدا دون التجمع الإنسانى ، ما لم ترد إلى رابطة الفكرة والعقيدة والتصور ... الأمر المتروك للاقتناع الفردى ، والذى يملك الفرد بذاته ، بدون تغيير أصله أو لونه أو لغته أو طبقته أن يختاره ، وأن ينضم إلى الصف على أساسه .

وذلك فوق ما فيه من تكريم للإنسان ، بجعل رابطة تجمعه مسألة تتعلق بإكرام عناصره ، المميزة له من القطيع ..

والبشرية إما أن تعيش - كما يريدها الإسلام - أناسى تتجمع على زاد الروح .... وإما أن تعيش قطعانا خلف سياج الحدود الأرضية ، أو حدود الجنس واللون .... وكلها حدود مما يقام للماشية فى المرعى كى لا يختلط قطيع بقطيع ...

سادسا : ما تسمى حاليا بالتوراة ليست هى التى أنزلت على موسى النبى المسلم عليه السلام ، وإنما هى كتاب من تأليف اليهود ، لأسباب شرعية وتاريخية ، ولذلك لا يجوز أن يعتبرها الكتاب كتابا « مقدسا ولا يجوز الاعتماد على ما ورد فيها من أخبار .

ففى الحديث الصحيح : « إن بنى إسرائيل كتبوا كتابا فاتبعوه وتركوا التوارة »[(١)] .

---

(١) أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ ، الرسالة الأولى ، ص ٥٣ - ٦٣ ؛ رواه الطبرانى فى الكبير ، انظر صحيح الجامع الصغير وزيادته ، المجلد الثانى ، ص ١٩١ ، حديث ٢٠٤٠/٨٩٨ .

الخاتمـــة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على إمام المجاهدين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فما له من مضل ، ومن يضلل فلا هادى له .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ونشهد أن محمداً عبده ورسوله اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

أما بعـــد

فإن سير الأنبياء – عليهم السلام – ومنهم إبراهيم وزوجه وبنوه ، مليئة بالعظات والعبر والدروس المستفادة ، إنها مدرسة ضخمة ، دراستها ومدارستها وتربية الأمة المسلمة عليها ضرورى وهام وواجب ، لأنها دار علم ضخمة ، فيها تربى محمد وصحبه ، على عين الله – سبحانه وتعالى – بتوجيه من الوحى عليه السلام . إنه لا غنى عن دراستها وتملى ما فيها ، والوقوف عندها ، إذا أرادت الأمة المسلمة أن تعرف موقعها فى الماضى ، ودورها فى المستقبل .

وحسبنا بعض اللمحات الخاطفة من هذه الدروس ، والتوجيهات اللازمة والضرورية لحياة الأمة المسلمة :

وجوب الدعوة إلى الله :

وجوب الدعوة إلى الله – سبحانه وتعالى – وما يقتضيه ذلك من حشد لطاقات الأمة المسلمة وإمكانياتها ، وتوجيهها لعمل كل ما يؤدى إلى إقامة حكم الله فى الأرض كلها ، حتى يكون الدين كله لله سبحانه وتعالى ، وحتى يؤمر بالمعروف وينهى عن المنكر .

الداعية إلى الله يجب أن يكون صورة صادقة للإسلام :

هناك صفات معينة لابد وأن يتصف بها الداعية إلى الله عز وجل ، والتي لابد لكل راغب فى الدعوة إلى الله أن يتعرف عليها ويتمثل بها ، ويمكن أن نجملها فى كلمة الإسلام ، إن الداعية لكى يقتنع به الناس وبدعوته ، لابد وأن يكون هو صورة للإسلام الذى يدعو إليه .

دور المرأة المسلمة وصفاتها :

دور الزوجة المسلمة ، والأم المسلمة والصفات التى يجب أن تتصف بها كل منهما . نلمح هذا فى سارة زوج إبراهيم وأم إسحاق ، وهاجر زوج إبراهيم وأم إسماعيل ، نلمح هذا فى زوج إسماعيل عليه السلام .

نموذج للدعوة المضطهدة :

لقد شاهدنا نموذجا للدعوة إلى الله :

حينما تكون مضطهدة ، أتباعها قلة ، فى مواجهة مجتمع يسيطر عليه الملأ من القوم ؛ وهم أصحاب الجاه والسلطان ، الذين لا يطيقون أن يرتفع صوت بلا إله إلا الله ، أو أن ترتفع لله راية عليها لا إله إلا الله ، أو أن يقوم على أرض الله ، حكم الله .

من خلال استعراض هذا النموذج يمكن للدعاة أن يتعرفوا على أسلوب الدعوة الذى يتناسب وأحوال المجتمع الذى يعيشون فيه ، بشرط أن يكون البلاغ كاملا ، وبشرط عدم التقاعس أو التقاعد عن أداء واجب الدعوة إلى الله عز وجل .

فإبراهيم – عليه السلام – كان فتى صغيرا ﴿ سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم ﴾ ، لا يملك من مقومات القوة الظاهرة شيئا ، ورغم هذا فقد وقف في وجه المجتمع بأسره حكاما ورعية يدعوهم : ﴿ اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ .

ما تقاعس ، ما قال : أنا فتى صغير ، هذه ليست مسئوليتى .. كيف أستطيع أن أواجه مجتمعا بأسره يملك كل مقومات القوة الظاهرة لا داعي للمواجهة ، هذا لم يخطر ببال إبراهيم – عليه السلام .

لقد وقف إبراهيم كالطود الشامخ يفاصل قومه : ﴿ إِنَّا بُرَءَاؤا منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاءُ أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾ .

وبهذا النبى الكريم تأسى محمد ﷺ وصحبه ، وبهؤلاء جميعا يجب أن يتأسى المسلمون فى كل زمان ومكان .

إن موقف إبراهيم الذى جاد بنفسه على أرض الرافدين ، يجب أن يتملاه الداعون إلى الله عز وجل . ولن يكون ذلك إلا إذا عادوا إلى القرآن الكريم والسنة يتتلمذون عليها ، تتلمذ الراغب فى التعلم والعمل .

قيمة المؤمن عند الله عز وجل كبيرة :

نلمح قدر المؤمن عند الله عز وجل ، فى التمكين لإبراهيم – عليه السلام – وذريته ، ﴿ فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما ﴾ ، ملكا عظيما للفتى المطارد ، الذى أخرج من بين ظهرانى قومه ، لا يملك شيئا من متاع الدنيا ، لا يملك إلا إيمانا بالله عز وجل وكفى به فضلا كبيرا .

سمت الدولة الإسلامية :

سمت الدولة الإسلامية : إمام مسلم وأمة مسلمة ونظام وشريعة ربانية وسنة نبوية . ومن خلال استعراض سمات الدولة الإسلامية نلمح الصفات التي تؤهل المسلم لإمامة المسلمين ، ونلمح واجبات الإمام المسلم حيال نفسه ، وحيال زوجه وبنيه وحيال رعيته ، واجبه بالدرجة الأولى أن يعيش وأمته بالإسلام ، ويموتون عليه ، وأملهم بالدرجة الأولى أن يتقبل الله أعمالهم : ﴿ ربنا تقبل منا، إنَّك أنت السميع العليم ربَّنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنَّك أنت التواب الرحيم ﴾ .

الأمة الشاهدة هى الأمة المسلمة ، وليست اليهود أو النصارى :

إنّ الأمة الشاهدة : هى الأمة المسلمة : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾ ، وهى خير أمة أخرجت للناس : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ﴾ ، وليس لأحد أن يقول بغير ذلك .

وبالتالى لا يمكن أن يدعى اليهود أنهم شعب الله المختار . وأن الله قد اصطفاهم من بنى البشر لكى يكونوا سادة ، وجعل من دونهم عبيدا لهم .

فهم ملعونين أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس : ﴿ لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ﴾ .

تاريخ الأمة الإسلامية يبدأ بخلق آدم عليه السلام :

إن تاريخ الأمة الإسلامية لا يبدأ فقط ببعثة محمد ﷺ ، وإنما يرجع إلى زمن خلق آدم مسلما موحدا ، ونزوله إلى الأرض ، ليتكون منه ومن نسله أول مجتمع مسلم على الأرض .

إبراهيم عليه السلام نبى مسلم ، لم يكن يهوديا ولا نصرانيا :

إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق أنبياء مسلمون وليسوا يهودا أو نصارى ، وإن تاريخهم هو جزء من التاريخ الحقيقى للأمة المسلمة ، وليس تاريخا أسطوريا .

إبراهيم عليه السلام يدعوا إلى الله فى أرض الرافدين والشام ومصر والحجاز :

إن إبراهيم عليه السلام من أولى العزم من الرسل ، وقد حمل أمانة الدعوة إلى الله فى أرض الرافدين ، ثم فى بلاد الشام وفى مصر ثم على أرض الحجاز ، وأن هجرته إلى بلاد الشام – الأرض التى بارك الله فيها للعالمين – كان بأمر من الله الذى نجاه من قومه الذين حاولوا حرقه بالنار : ﴿ قلنا يا نار كونى بردا وسلاماً على إبراهيم . وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين . ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين ﴾ .

الله يقيم الحجة على جبّار مصر بإبراهيم وسارة عليهما السلام :

إن رحلة إبراهيم وسارة إلى مصر حين كان يحكم جبار من جبابرتها ، كان من باب إقامة الحجة على جبار مصر الذى طغى وتجبر وذلك من خلال إثبات عجزه عن الاعتداء على امرأة مجردة من كل حول وطول إلا حول الله سبحانه وتعالى وقوته ، وإثبات أن الله الذى كفر به جبار مصر موجود ، وقادر على أن يحمى عباده منه ، وينزل به بطشه وانتقامه .

الله سبحانه وتعالى يحمى عرض سارة :

ومن الثابت - الحمد لله - أن الله قد حمى عرض إبراهيم وحفظه ، وأن إبراهيم قد عاد إلى بلاد الشام ، إلى الأرض التى بارك الله فيها للعالمين ، - والتي جعلها الله لذريته المسلمة من بعده - حيث بنى بهاجر ، ورزق منها بإسماعيل جد محمد ﷺ .

إبراهيم يصحب إسماعيل وهاجر إلى جوار بيت الله العتيق بأمر من الله :

إن توجه إبراهيم بهاجر وإسماعيل إلى جوار بيت الله العتيق ، ثم تركهما هناك بواد ليس به إنس أو ماء ، وكان ذلك بأمر من الله تعالى .

الذبيح هو إسماعيل عليه السلام :

إن الغلام الذى أمر إبراهيم - عليه السلام - بذبحه كان إسماعيل - عليه السلام - وليس إسحاق ، وأن ذلك وقع بحرم الله الآمن بمكة .

إن تاريخ مكة وبناء الكعبة جزء من التاريخ الحقيقى للأمة المسلمة .

إن الحج عبادة مقننة مشروعة ، شرعها الله لأمته المسلمة على مدار تاريخها .

الله يحرم مكة ويجعل أربعة أشهر حُرُماً :

إن الله سبحانه وتعالى هو الذى جعل مكة حرما آمنا يوم خلق السموات والأرض ، وهو سبحانه وتعالى الذى جعل أربعة أشهر حرماً : ﴿ إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق السمٰوات والأرض منها أربعة

حرم ﴾ (١) . ومن المؤكد أن الله سبحانه وتعالى حينما استخلف آدم فى الأرض قد أعلمه بهذا الأمر ، وظلت الأجيال تعرف ذلك بالتواتر ، والرسل عليهم السلام يذكرون من نسى منهم ، حتى جاءت بعثة محمد ﷺ . فأعلمه الله سبحانه وتعالى بما كان .... وبهذا يتضح لنا أن جعل أربعة أشهر حرما ، وجعل منطقة حرام هى مكة ، كان أمرا توقيفيا من الله عز وجل ، ولم يكن من اختراع الناس فى الجاهلية ، فجاء محمد ﷺ فأدخلها فى نظم الإسلام - كما زعموا -

الإسلام دين الأنبياء جميعا ومنهم إبراهيم عليه السلام :

إن إبراهيم عليه السلام كان - كغيره من بنى آدم - مفطورا على الإسلام ، وآتاه الله رشده وهو غلام يافع ، ثم اصطفاه بعد ذلك برسالاته .

والتوحيد الذى كان عليه إبراهيم - عليه السلام - هو الإسلام ، والإسلام دين الله وبه أرسل الرسل ، وبه نزل الوحى على هؤلاء الأنبياء ومنهم إبراهيم - عليه السلام - وليس من اختراع العقل البشرى .

جبريل عليه السلام يفجر زمزم بأمر الله :

إن زمزم لم تكن موجودة عند وصول هاجر عليها السلام ، ولكنها تفجرت مياهها بهمزة من جناح جبريل عليه السلام ، بأمر من الله تعالى ، من تحت قدمي إسماعيل عليه السلام . « وماء زمزم لما شرب » له كما قال ﷺ .

المسلمون لا يعبدون الحجر الأسود (٢) :

إن الحجر الأسود من الجنة ، والمسلمون لا يعبدون الحجر الأسود ، ولا يسجدون أمامه وإنما يستقبلونه اقتداء برسول الله ﷺ .

فساد كل مصادر ومراجع التاريخ القديم التى لا تعتمد على الكتاب والسنة :

فساد كل مصادر ومراجع ما يسمى بالتاريخ القديم التى تتجاهل بضعة آلاف عام من التاريخ الإسلامى ، والتى زيفت وشوهت التاريخ الإسلامى

---

(١) التوبة : ٣٦ .

(٢) وفى هذا رد على ما أورده الدكتور محمد بيومى مهران : (إن الحجر الأسود قد يكون من نوع =

(بما فى ذلك تاريخ الرسل والأنبياء) ، إذ زعمت أن هناك أديان سماوية اسمها : اليهودية والمسيحية دعا إليها رسل من عند الله عز وجل ، وزعمت أن إبراهيم وذريته كانوا يهودا ونصارى ، والتى تعتمد أيضا فى مصادرها على ما ألفه كتاب اليهود قديما وأسموه بالتوراة ، (ويدخل فى ذلك ما يسمى بالعهد القديم والتلمودة) وما يسمى بدائرة المعارف الإسلامية التى ألفها المستشرقون اليهود والنصارى ، وقصة الحضارة لديورانت ، والحضارات السامية لموسكاتى ، والشرق الخالد لعبد الحميد زيد ، وحضارة مصر والشرق القديم ، والموسوعة العربية الميسرة .

عدم جواز الاعتماد على العهد القديم أو التلمود :

عدم جواز الاستشهاد بما ورد فى العهد القديم أو التلمود ، خاصة فيما يتصل بتاريخ الأنبياء والمرسلين – عليهم السلام – لأسباب كثيرة منها :

(أ) أسباب شرعية :

دليلها ما ورد فى صحيح البخارى : « حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا إبراهيم ، أخبرنا ابن شهاب عن عبيد الله أن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذى أنزل على رسول الله ﷺ أحدث ، تقرءونه محضا لم يشب ، وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا كتاب[1] الله

= النيازك (ص ١٩٤ من كتابه دراسات تاريخية من القرآن) ، ورد أيضا على إنكاره ما روى عن رسول الله ﷺ من أن الحجر الأسود كان ياقوتة بيضاء فاسود بذنوب العباد ، ص ١٩٤ من نفس الكتاب) ورد أيضا على زعم الكاتب بأن المسلمين يقدسون الحجر الأسود ، وأن تقديسه ربما قد نجم عن ارتباطه بشيء مقدس ، فهو إما يكون رمزاً للعهد الذى أخذه إبراهيم على نفسه وولده بجعل هذا البيت مثابة للناس وأمنا (ص ١٩٤ من نفس الكتاب) وهذا شيء يدعو إلى العجب ، لأن الله هو الذى جعل البيت مثابة للناس وأمنا !! وليس إبراهيم عليه السلام . ورد على قول الكاتب « بأن إبراهيم عليه السلام قد اختار له اللون الأسود لسهولة تعيينه وتحديد مكانه .

والعجيب أيضا أن المؤلف قد استشهد بمستشرق يهودي هو فلهاوزن على أن قدسية البيت لم تكن عند قريش بسبب ما فيه من أصنام ، وإنما بسبب هذا الحجر الأسود ، فهو إذن مقدس لذاته « كما زعم المؤلف ص ٢٢٧ من كتابه » .

(١) « إن بنى إسرائيل كتبوا كتابا فاتبعوه وتركوا التوراة» حديث حسن رواه الطبرانى فى الكبير ، صحيح الجامع الصغير وزيادته ، تأليف محمد ناصر الدين الألبانى ، المجلد الثانى ، ص ١٩١ ، رقم ٨٩٨/٢٠٤٠ .

وغيروه ، وكتبوا بأيديهم الكتاب ، وقالوا : هو من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا . ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم ، لا والله ما رأينا منهم رجلا يسألكم عن الذى أنزل عليكم [١] .

أسباب منهجية :

وهى عدم صمودها أمام الجرح والتعديل ، وما قدمنا من دراسة موضوعية ، لبعض ما ورد فى العهد القديم والتلمود ، يعكس اعتداء على ذات الله ورسله وملائكته وكتبه [٢] .

الأهمية العقيدية لأرض الشام وعلى الأخص بيت المقدس :

إن الله سبحانه لا يقبل من الأمة المسلمة أن تكون حية على سطح الأرض ، وهناك من يعيثون فسادا فى أرض الشام ، وخاصة أرض الإسراء والمعراج . إن الله سبحانه وتعالى ، لا يقبل ، أن ترتفع راية للشرك على أرض الإسراء والمعراج . إن الله سبحانه وتعالى لا يغفر أن تحكم أرض الإسراء والمعراج بغير شرع الله .

فبيت المقدس ، كان مقرا لإبراهيم وإسحاق ويعقوب وداود وسليمان وغيرهم من الأنبياء المسلمين على مدار التاريخ ، صحيح ، أنه فى بعض الفترات أخرج منه المرتدون من ذرية إبراهيم عليه السلام ، ولكن سرعان ما يأخذ المسلمون زمام المبادأة ، ويستعيدون الأرض المقدسة التى جعلها الله للمسلمين ، تماما كما حدث على عهد يوشع بن نون ، وكما حدث على عهد داود بن سليمان :

﴿ فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة ﴾ ..

وقد أشار القرآن الكريم إلى أهمية هذه الأرض المباركة فى قوله تعالى : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ سبحان الذى أسرى بعبدهٰ ليلا من المسجد الحرام

---

(١) صحيح أبي عبد الله البخارى ، جـ ٩ ، ص ١٣٦ .

(٢) انظر « أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ ، الرسالة الأولى ، ص ٥٣ إلى ص ٦٣ ؛ ذرية إبراهيم عليهم السلام ، دار الوفاء للطباعة والنشر .

إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا ، إنه هو السميع البصير ﴾.

وكذلك قول رسول الله ﷺ : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : مسجدى والمسجد الحرام والمسجد الأقصى » .

فى هذا المسجد الأقصى صلى رسول الله ﷺ إماما برسل الله الكرام فى ليلة الإسراء والمعراج . وحينما كلف رسول الله بالرسالة ، كان المسجد أسيرا فى أيدى طواغيت الروم ، لذلك فقد حرص ﷺ على إعطاء إشارة البدء لتطهيره والأرض كلها من رجس الشرك ورجس الوثنية .

لذلك لم يكن مصادفة أن يوجه الرسول ﷺ جيشا بقيادة مولاه زيد بن حارثة لقتال الغساسنة وجيوش الروم التى تجمعت عند مؤتة عام ٨ هـ ، وفيها استشهد زيد وعبد الله بن رواحة وجعفر بن أبى طالب .

وفى عام ٩ هـ خرج رسول الله ﷺ بنفسه على رأس جيش من المسلمين إلى تبوك ، فصالحه أهلها وجاءت الوفود من آيلة وغيرها ، وصالحوه على دفع الجزية ... كما بعث خالد بن الوليد بفريق من الجند إلى أكيدر دومه فأسر صاحبها وصالحه على الجزيـــة .

وقد واصل الرسول ﷺ جهاده للقضاء على طواغيت الأرض لتخلص الأرض ومن عليها لله الواحد القهار ... فأرسل رسالة إلى قيصر يدعوه إلى الإسلام : بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل قيصر الروم ، السلام على من اتبع الهدى أما بعد ، أسلم تسلم ، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين . وإن تتول فإن عليك إثم الأريسيين ﴿ يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾.

وبعد وفاة رسول الله ﷺ ، لم يتردد المسلمون لحظة واحدة فى تنفيذ ما أراده الله لهم وللأمة المسلمة .. لم ترهبهم عدة الروم ولا عتادهم ، ولم يخشوا الموت ... لأن لقاء الله كان أفضل إليهم من العيش أذلاء يتبعون الشرق

أو الغرب وكان شعارهم : إمَّا الشهادة فى سبيل الله أو تحقيق النصر ....

فسنير أبو بكر رضى الله عنه – جيش أسامة وكان قائدا لجيش المسلمين – ولاه رسول الله وعنده من العمر ثمانى عشرة سنة .. وكان النصر حليفه ..

وأوفد أبو بكر رضى الله عنه جيشا آخر عقد اللواء لأربعة من الأمراء فيه هم : أبو عبيدة بن الجراح ووجهته حمص ، وعمرو بن العاص ووجهته فلسطين ، ويزيد بن أبى سفيان ووجهته دمشق ، وشرحبيل بن حسنة ووجهته وادى الأردن ، على أن تكون القيادة العامة لأبى عبيدة .

وخرج جند الرحمن يقاتلون طواغيت الأرض حتى تخلص الأرض لله ، ويكون الدين لله ، ثم انضم إليهم – بعد ذلك عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وخالد بن الوليد – رضوان الله عليهم أجمعين .

وكانت معارك عديدة كتب فيها النصر للمسلمين على الكافرين من الروم وغيرهم . رغم قلة عدة المسلمين وعتادهم ، لأن معهم قوة الله تؤيدهم بعد أن آمنوا وأعدوا ما فى استطاعتهم .

وما يهمنا أن نسرده هنا هو فتح فلسطين .. بما فيها بيت المقدس على أيدى عمرو وأبى عبيدة بن الجراح – وذلك بعد هزيمة الروم وفرارهم وطلب أهلها التسليم على أن يكون ذلك فى حضور أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ... فرضى عمر بن الخطاب ، وغادر المدينة وحده ... ولم يأخذ معه من الزاد سوى قربة ماء وجراب شعير وأرز وتمر ، وأخذ عمر فى السير ليل نهار ليصل إلى القدس فى وقت قصير ، فلما دخلها أبدى من التسامح العظيم نحو أهلها ما أمنوا به على دينهم وأموالهم وعاداتهم ...

عمر بن الخطاب يتسلم القدس ... وهو على بغلة ... لا مواكب ... لا ضجة ... لا تعالى ...

إن تذكر القدس .. والأرض التى بارك الله فيها ، يعيد إلى الذاكرة سيرة المسلمين الأوائل مع أعداء الله ... لا ذلة ... لا خضوع ... لا خضوع إلا لله

الواحد القهار ... إن تذكر القدس يعيد إلى النفس ذكرى إبراهيم ويوشع بن نون وداود وسليمان وكتاب عمر إلى هرقل يطالبه فيه بإطلاق سراح قائد مسلم أسره الروم فى إحدى الوقائع :

(بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسوله ، من عبد الله عمر بن الخطاب إلى هرقل ملك الروم أطلقوا الأسير المسلم – عبد الله بن حذافة – حين وصول كتابى هذا إليكم ، فإن فعلتم ذلك رجوت من الله أن يهديكم الصراط المستقيم . وإن لم تفعلوا فإننى أبعث إليكم رجالا لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن الجهاد فى سبيل الله . والسلام على من اتبع الهدى) ..

ولم يكن أمام قيصر هرقل من سبيل إلا إطلاق الأسير مصحوبا بهدية إلى الخليفة عمر بن الخطاب ... هؤلاء هم المسلمون ، الذين كانوا يوقنون أن الإمارة أمانة ، وأنها يوم القيامة خزى وندامة .

وحينما وصل عمر إلى القدس ، كتب عمر لأهل القدس وثيقة الأمان التى عرفت « بالعهدة العمرية » ونصها :

(بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيليا من الأمان : أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم سقيمها وبريئها وسائر ملتها .

أن لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من خيرها ، ولا من صلبهم ولا من شيء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن بإيليا معهم أحد من اليهود ، وعلى أهل إيليا أن يعطوا الجزية كما تعطى أهل المدائن . وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص . فمن خرج منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيليا من الجزية . ومن أحب أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بيعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم ، فمن شاء منهم قعد ... وعليه مثل ما على أهل إيليا من الجزية ، ومن شاء سار مع الروم ، ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى

يحصدوا حصادهم ... وعلى ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية) .

« كتب سنة ١٥ للهجرة ، وشهد على ذلك خالد بن الوليد وعبد الرحمن بن عوف وعمرو بن العاص ومعاوية بن أبى سفيان » .

إن هذه المشاعر تضطرم وتتزاحم فى الصدر والرأس عند الحديث عن القدس الأسيرة . أين القدس أين مسرى رسولنا عليه السلام ؟ .. أين فلسطين الأرض التى بارك الله فيها للعالمين ؟ .. أين أرض المسلمين كلها ؟ . إنّها فى أيدى عصابات الصهيونية والصليبية العالمية ... أين أبناء المسلمين ... إنها تستصرخ الزمرة التى نذرت نفسها لله ؟ .. إنها تهيب بالرجال الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن الجهاد فى سبيل الله ؟ .. أن يجاهدوا فى سبيل الله لتحريرها .

إن النبوة والرسالة اصطفاء من الله عز وجل ، لتبليغ أوامر الله سبحانه وتعالى إلى بنى البشر عن طريق الوحى .

أى أن النبوة والرسالة ، لم تكن من اختراع العقل البشرى كما زعم فلاسفة اليونان ، وكتاب اليهود والنصارى ..

إن توحيد الله – سبحانه وتعالى – مفطور عليه بنو البشر جميعا ، بل ومخلوقات الله جميعا ، بما فى ذلك السموات والأرضين .. وليس ما زعمه كتاب اليهود والنصارى ومن سار على نهجهم من أن إخناتون هو أول الموحدين ، فهذا غير صحيح ، فالكون كله مفطور على توحيد الله ، وكذلك الإنسان ، كما أن إخناتون لم يكن موحداً بالمعنى الإسلامى ، إنما هو كان يعبد وثنا واحداً بدلاً من الأوثان المتعددة التى كان يعبدها قومه . وبالتالى ينهار الزعم القائل بأن إبراهيم قد أخذ فكرة التوحيد من الزعيم المصرى إخناتون .

إن الدين الذى دعا إليه جميع الأنبياء والمرسلون ، ومنهم إبراهيم – عليه السلام ــ وذريته هو الإسلام : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من

ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ . وإن كان لكل أمة شرعة ومنهاجاً ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ﴾ .

والإسلام هو الدين الذى لا يقبل الله من الأولين والآخرين غيره ، ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » .

ليست هنالك صلة أو رابطة بين إبراهيم النبى المسلم وبين اليهود أو النصارى ، ليست هنالك صلة أو رابطة بين إسحاق النبى المسلم وبين اليهود والنصارى ، ليست هنالك صلة أو رابطة بين يعقوب (إسرائيل) النبى المسلم وبين اليهود أو النصارى ، ليست هنالك صلة أو رابطة بين موسى النبى المسلم وبين اليهود والنصارى ، ليست هنالك صلة أو رابطة بين داود وسليمان النبيين المسلمين وبين اليهود والنصارى .

وبالتالى ليس من حق اليهود أو النصارى أن يدعوا حق وراثة هؤلاء الأنبياء ، لأن هؤلاء الأنبياء مسلمون ، واليهود والنصارى مشركون . والكافر المشرك لا يرث مسلما حتى لو كان من صلبه ومن ذريته : ﴿ إنَّ أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين ﴾ .

وبالتالى فلا يحق لمغتصبى الأرض المقدسة من اليهود فى فلسطين أن يدعوا حق وراثتهم لإبراهيم – عليه السلام إنَّما الذين يرثون الأرض المقدسة ، ليقيموا عليها حكم الإسلام إنَّما هم المسلمون .

وهنا يبرز المفتاح الصحيح لا سترجاع الحق المغتصب فى أرض الإسراء والمعراج ، إنه العقيدة إنه الإسلام ، وذلك لمواجهة اليهود الذين اغتصبوا الأرض الإسلامية ، وانتهكوا العرض الإسلامى وسرقوا الثروة الإسلامية ، وزعموا أنهم يفعلون ذلك لأنهم أصحاب الحق ، لأنهم ذرية إبراهيم عليه السلام ، وذريته من لدن إسحاق إلى سليمان عليهم السلام . وزيفوا التاريخ وشوهوه ليخدم فكرتهم الآثمة المجرمة .

هنا تبرز أهمية العقيدة ، التى تكشف زيف اليهود ، وتقول لهم : إن إبراهيم

وذريته ، وسليمان يبرأون إلى الله منكم فى الدنيا والآخرة .

وأن ما بيننا وبينكم ليس صراعا على الأرض أو الثروة ، وإنما هو صراع بين الحق والباطل ، بين الإسلام والعقائد الفاسدة ، وأنه لن يقر لنا قرار ، حتى تطهر أرض الإسراء والمعراج ، من اليهودية ومن كل مبدأ هدام ، حتى لو كانت القومية أو الوطنية ، لنقيم عليها فى النهاية حكم لا إله إلا الله .

وهكذا نرى أن أعداء الجماعة المسلمة وهم أطراف الكيد الشيطانى والتآمر العالمى من يهود وصليبيين يعاونهم جيش كبير من أبناء العرب والمسلمين لا يحاربونها فى الميدان بالسيف والرمح فحسب ، ولم يكونوا يؤلبون عليها الأعداء ليحاربوها بالسيف والرمح فحسب ... إنما كانوا يحاربونها أولا فى عقيدتها ... يحاربونها بالدس والتشكيك ، ونثر الشبهات كما يفعل المستشرقون – وتدبير المؤامرات والمناورات ، كانوا يعمدون أولا إلى عقيدتها الإيمانية التى انبثق منها كيانها ، ومنها قام وجودها ، فيعملون فيها معاول الهدم والتوهين .. ذلك أنهم كانوا يدركون كما يدركون اليوم تماما .. أن هذه الأمة لا تؤتى إلا من هذا المدخل ، ولا تهن إلا إذا وهنت عقيدتها ، ولا تهزم إلا إذا هزمت روحها ، ولا يبلغ أعداؤها منها شيئا وهى ممسكة بعروة الإيمان ، مرتكنة إلى ركنه ، سائرة على نهجه حاملة لرايته ، ممثلة لحزبه ، منتسبة إليه معتزة بهذا النسب وحده . ومن هنا يبدو أن أعدى أعداء هذه الأمة المسلمة هو الذى يلهيها عن عقيدتها الإيمانية ، ويحيد بها عن منهج الله وطريقه ، يخدعها عن حقيقة أعدائها وحقيقة أهدافهم البعيدة . إن المعركة بين الأمة المسلمة وبين أعدائها هى قبل كل شيء معركة هذه العقيدة ، وحتى حين يريد أعداؤها أن يغلبوا على الأرض والمحصولات والاقتصاد والخامات ، فإنهم يحاولون أولا أن يغلبوها على العقيدة ، لأنهم يعلمون بالتجارب الطويلة أنهم لا يبلغون مما يريدون شيئا والأمة المسلمة مستمسكة بعقيدتها ملتزمة بمنهجها ، مدركة لكيد أعدائها ... ومن ثم يبذل هؤلاء الأعداء وعملاؤهم جهد الجبارين فى خداع هذه الأمة عن حقيقة المعركة ، ليفوزوا منها بعد ذلك بكل ما يريدون من استعمار واستغلال وهم آمنون من عزمة العقيدة فى الصدور .

وكلما ارتقت وسائل الكيد لهذه العقيدة ، والتشكيك فيها ، والتوهين من عراها ، استخدم أعداؤها هذه الوسائل المترقية الجديدة ، ولكن لنفس الغاية القديمة : ﴿ ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم ﴾ فهذه هى الغاية الثابتة الدفينة ..

لهذا كان القرآن الكريم يدفع هذا السلاح المسموم أولا ... كان يأخذ الجماعة المسلمة بالتثبيت على الحق الذى عليه ، وينفى الشبهات والشكوك التى يلقيها أهل الكتاب ، ويجلّى الحقيقة الكبيرة التى يتضمنها هذا الدين ، ويقنع الجماعة المسلمة بحقيقتها وقيمتها فى هذه الأرض ، ودورها ودور العقيدة التى تحملها فى تاريخ البشرية (وهذا هو واجب المؤرخ المسلم فى مواجهة الهجمة الاستشراقية ضد الإسلام كدين ، والإسلام كواقع عملى تطبيقى فى تاريخ البشرية) .

وكان يأخذها بالتحذير من كيد الكائدين ، ويكشف لها نواياهم المستترة ، ووسائلهم القذرة وأهدافهم الخطرة ... وأحقادهم على الإسلام والمسلمين لاختصاصهم بهذا الفضل العظيم .

وكان يأخذ بتقرير حقيقة القوى وموازينها فى هذا الوجود ، فبين لها هزال أعدائها وهوانهم على الله ، وضلالهم وكفرهم بما أنزل الله إليهم من قبل ، وقتلهم الأنبياء كما بين لها أن الله معها ، وهو مالك الملك المعز المذل وحده بلا شريك ... وأنه سيأخذ الكفار بالعذاب والنكال كما أخذ المشركين .

ومن هنا فإن كتابات التاريخ الإسلامى تعكس لنا جانبا من جوانب الصراع بين العقيدة الإسلامية والعقائد المنحرفة .. وهو ليس صراعا نظريا إنما هو الجانب النظرى من المعركة الكبيرة الشاملة بين الجماعة المسلمة وكل أعدائها الذين يتربصون بها ، ويتحفزون من حولها ، ويستخدمون فى حربها كل الأسلحة وكل الوسائل وفى أولها زعزعة العقيدة ، وهى فى صميمها المعركة التى لا تزال

ناشبة إلى هذه اللحظة بين الأمة المسلمة وأعدائها . إنهم هم الملحدون المنكرون ، والصهيونية العالمية ، والصليبية العالمية .

إن على المؤرخ المسلم أن يراجع القرآن ثم أحداث التاريخ الإسلامى ، لأن مراجعة القرآن ثم أحداث التاريخ الإسلامى سوف تبين له أن الوسائل هى الوسائل كذلك ، والأهداف هى الأهداف ، ويتجلى أن هذا القرآن هو قرآن هذه الدعوة ، ومرجع هذه الأمة – اليوم وغدا – كما كان قرآنها ومرجعها بالأمس فى نشأتها الأولى ... وأنه لا يعرض عن استنصاح هذا الناصح ، واستشارة هذا المرجع فى المعركة الناشبة اليوم إلا مدخول معرض عن سلاح النصر فى المعركة ، ويخدع نفسه أو يخدع الأمة ، لخدمة أعدائها القدامى والمحدثين فى غفلة بلهاء ، أو فى خبث لئيم .

﴿ ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم ﴾ .. ﴿ يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون ﴾ .

﴿ يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون ﴾ .

﴿ قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا وأنتم شهداء ﴾[١] .

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين . وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم ﴾[٢] .

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين . بل الله مولاكم وهو خير الناصرين . سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين ﴾ .

---

(١) آل عمران : ٩٨ .

(٢) آل عمران : ١٠٠ – ١٠١ .

وثائق
سيرة إبراهيم وإسماعيل وهاجر عليهم السلام
وثائق
عن تاريخ البيت العتيق ومكة المكرمة والحرم الآمن

أولا : من القرآن الكريم وكتب التفسير :

سورة البقرة [1] :

يطالعنا القرآن الكريم فى أول سورة منه بأنباء عن إبراهيم عليه السلام ، بصورة تؤدى دورا هاما فيما شجر ويشجر بين اليهود والجماعة المسلمة فى يثرب من نزاع حاد متشعب الأطراف .

إن أهل الكتاب (وخاصة اليهود) يدعون بأنهم يرجعون بأصولهم إلى إبراهيم عن طريق إسحاق - عليهما السلام - ويعتزون بنسبتهم إليه وبوعد الله له ولذريته بالنمو والبركة ، وعهده معه ومع ذريته من بعده . ومن ثم يحتكرون لأنفسهم الهدى والقوامة على الدين ، كما يحتكرون لأنفسهم الجنة أيا كان ما يعملون .

وإن قريشا لترجع بأصولها كذلك إلى إبراهيم عن طريق إسماعيل - عليهما السلام - وتعتز بنسبتها إليه ، وتستمد منها القوامة على البيت ، وعمارة المسجد الحرام ، وتستمد كذلك سلطانها الدينى على العرب ، وفضلها وشرفها ومكانتها .

والآن يجيء الحديث عن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ، والحديث عن البيت الحرام وبنائه عمارته وشعائره .. فى جوه المناسب ، لتقرير الحقائق الخالصة

(١) ١٢٤ - ١٤١ ، الجامع لأحكام القرآن ، جـ ١ ، ص ٥٢٣ وما بعدها ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ١٦٤ وما بعدها ، في ظلال القرآن ، المجلد الأول ، ص ١١٠ - ١١٩ .

فى ادعاءات اليهود والنصارى والمشركين جميعا حول هذه النسب وهذه الصلات . ولتقرير قضية القبلة التى ينبغى أن يتجه إليها المسلمون .. كذلك تجىء المناسبة لتقرير حقيقة دين إبراهيم – وهى التوحيد الخالص – وبعد ما بينها وبين العقائد المشوهة المنحرفة التى عليها أهل الكتاب والمشركون سواء ، وقرب ما بين عقيدة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب – وهو إسرائيل الذى ينتسبون إليه – وعقيدة الجماعة المسلمة بآخر رسالة . ولتقرير وحدة دين الله ، واطراده على أيدى رسله جميعا ، ونفى فكرة احتكاره فى أيدى أمة أو جنس ، وبيان أن العقيدة تراث القلب المؤمن لا تراث العصبية العمياء . وإن وراثة هذا التراث لا تقوم على قرابة الدم والجنس ولكن على قرابة الإيمان والعقيدة . فمن آمن بهذه العقيدة ورعاها فى أى جيل ومن أى قبيل فهو أحق بها من أبناء الصلب وأقرباء العصب ! فالدين دين الله . وليس بين الله وبين أحد من عباده نسب ولا صهر !!!

هذه الحقائق التى تمثل شطرا من الخطوط الأساسية فى التصور الإسلامى يجلوها القرآن الكريم هنا فى نسق من الأداء عجيب ، وفى عرض من الترتيب والتعبير بديع .. يسير بنا خطوة خطوة من لدن إبراهيم – عليه السلام – منذ أن ابتلاه ربه واختبره فاستحق اختياره واصطفاه وتنصيبه للناس إماما .. إلى أن نشأت الأمة المسلمة المؤمنة برسالة محمد – ﷺ – استجابة من الله لدعوة إبراهيم وإسماعيل وهما يرفعان القواعد من البيت الحرام ، فاستحقت وراثة هذه الأمانة دون ذرية إبراهيم جميعا ، بذلك السبب الوحيد الذى تقوم عليه وراثة العقيدة . سبب الإيمان بالرسالة ، وحسن القيام عليها ، والاستقامة على تصورها الصحيح .

وفى ثنايا هذا العرض التاريخى يبرز السياق ، أن الإسلام بمعنى إسلام الوجه لله وحده – كان هو الرسالة الأولى ، وكان هو الرسالة الأخيرة .. هكذا اعتقد إبراهيم ، وهكذا اعتقد من بعده إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط حتى أسلموا هذه العقيدة ذاتها إلى موسى وعيسى ... ثم آلت أخيرا إلى ورثة إبراهيم من المسلمين .. فمن استقام على هذه العقيدة الواحدة فهو وريثها ، ووريث عهودها وبشاراتها ، ومن فسق عنها ورغب بنفسه عن ملة إبراهيم ، فقد فسق عن عهد الله ، وقد فقد وراثته لهذا العهد وبشاراته .

عندئذ تسقط كل دعاوى اليهود والنصارى فى اصطفائهم واجتبائهم ، لمجرد أنهم أبناء إبراهيم وحفدته ، وهم ورثته وخلفاؤه ! لقد سقطت عنهم الوراثة منذ ما انحرفوا عن هذه العقيدة .. وعندئذ تسقط كذلك كل دعاوى قريش فى الاستئثار بالبيت الحرام وشرف القيام عليه وعمارته ، لأنهم قد فقدوا حقهم فى وراثة بانى هذا البيت ورافع قواعده بانحرافهم عن عقيدته .. ثم تسقط كل دعاوى اليهود فيما يختص بالقبلة التى ينبغى أن يتجه إليها المسلمون . فالكعبة هى قبلتهم وقبلة أبيهم إبراهيم ..

كل ذلك فى نسق من العرض والأداء والتعبير عجيب ، حافل بالإشارات الموحية والوقفات العميقة الدلالة ، والإيضاح القوى التأثير . فلنأخذ فى استعراض هذا النسق العالى فى ظل هذا البيان المنير .

﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إنى جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين ﴾(1) ..

﴿ قال إنى جاعلك للناس إماما ﴾ .

﴿ قال ومن ذريتى ﴾ ..

وجاءه الرد من ربه الذى ابتلاه واصطفاه ، يقرر القاعدة الكبرى التى أسلفنا .. أن الإمامة لمن يستحقونها بالعمل وبالشعور ، وبالصلاح والإيمان ، وليست وراثة أصلاب وأنساب . فالقربى ليست وشيجة لحم ودم ، إنما هى وشيجة دين وعقيدة . ودعوى القرابة والدم والجنس والقوم إن هى إلا دعوى الجاهلية ، التى تصطدم اصطداما أساسيا بالتصور الإيمانى الصحيح .

﴿ قال لا ينال عهدى الظالمين ﴾ ..

والظلم أنواع وألوان : ظلم النفس بالشرك ، وظلم الناس بالبغى .. والإمامة الممنوعة على الظالمين تشمل كل معانى الإمامة : إمامة الرسالة وإمامة الخلافة ، وإمامة الصلاة .. وكل معنى من معانى الإمامة والقيادة . فالعدل بكل

---

(1) جامع البيان ، جـ ١ ، ص ٥٢٣ – ٥٣٢ .

معانيه هو أساس استحقاق هذه الإمامة فى أية صورة من صورها . ومن ظلم - أى لون من الظلم - فقد جرد نفسه من حق الإمامة وأسقط حقه فيها ، بكل معنى من معانيها .

وهذا الذى قيل لإبراهيم - عليه السلام - وهذا العهد بصيغته التى لا التواء فيها ولا غموض قاطع فى تنحية اليهود عن القيادة والإمامة ، بما ظلموا ، وبما فسقوا ، وبما عتوا عن أمر الله ، وبما انحرفوا عن عقيدة جدهم إبراهيم .

وهذا الذى قيل لإبراهيم - عليه السلام - وهذا العهد بصيغته التى لا التواء ولا غموض قاطع كذلك فى تنحية من يسمون أنفسهم المسلمين اليوم . بما ظلموا ، وبما فسقوا وبما بعدوا عن طريق الله ، وبما نبذوا من شريعته وراء ظهورهم .. ودعواهم الإسلام ، وهم ينحون شريعة الله ومنهجه عن الحياة ، دعوى كاذبة لا تقوم على أساس من عهد الله .

إن التصور الإسلامى يقطع الوشائج والصلات التى لا تقوم على أساس العقيدة والعمل . ولا يعترف بقربى ولا رحم إذا انبتت وشيجة العقيدة والعمل ويسقط جميع الروابط والاعتبارات ما لم تتصل بعروة العقيدة والعمل .. وهو يفصل بين جيل من الأمة الواحدة وجيل إذا خالف أحد الجيلين الآخر فى عقيدته ، بل يفصل بين الوالد والولد ، والزوج والزوج إذا انقطع بينهما حبل العقيدة . فعرب الشرك شىء وعرب الإسلام شىء آخر . ولا صلة بينهما ولا قربى ولا وشيجة . والذين آمنوا من أهل الكتاب شىء والذين انحرفوا عن دين إبراهيم وموسى وعيسى شىء آخر ، ولا صلة بينهما ولا قربى ولا وشيجة .. إن الأسرة ليست آباء وأبناء وأحفادا .. إنما هى هؤلاء حين تجمعهم عقيدة واحدة . وأن الأمة ليست مجموعة أجيال متتابعة من جنس معين .. إنما هى مجموعة من المؤمنين مهما اختلفت أجناسهم وأوطانهم وألوانهم .. وهذا هو التصور الإيمانى الذى ينبثق من خلال هذا البيان الربانى ، فى كتاب الله الكريم ..

﴿ وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود ﴾(١) ..

هذا البيت الحرام الذى قام سدنته من قريش فروعوا المؤمنين وآذوهم وفتنوهم عن دينهم حتى هاجروا من جواره .. لقد أراده الله مثابة يثوب إليها الناس جميعا ، فلا يروعهم أحد ، بل يأمنون فيه على أرواحهم وأموالهم . فهو ذاته أمن وطمأنينة وسلام .

ولقد أمروا أن يتخذوا من مقام إبراهيم مصلى – ومقام إبراهيم يشير هنا إلى البيت كله وهذا ما نختاره فى تفسيره – فاتخاذ البيت قبلة للمسلمين هو الأمر الطبيعى ، الذى لا يثير اعتراضا . وهو أول قبلة يتوجه إليها المسلمون ، ورثة إبراهيم بالإيمان والتوحيد الصحيح ، بما إنه بيت الله لا بيت أحد من الناس . وقد عهد الله – صاحب البيت – إلى عبدين من عباده الصالحين أن يقوما بتطهيره وإعداده للطائفين والعاكفين والركع والسجود – أى للحجاج الوافدين عليه ، وأهله العاكفين فيه ، والذين يصلون فيه ويركعون ويسجدون فحتى إبراهيم وإسماعيل لم يكن البيت ملكا لهما ، فيورث بالنسب عنهما ، إنما كانا سادنين له بأمر ربهما ، لإعداده لقصاده من المؤمنين .

﴿ وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم اضطره إلى عذاب النار وبئس المصير ﴾(٢) ..

ومرة أخرى يؤكد دعاء إبراهيم صفة الأمن للبيت . ومرة أخرى يؤكد معنى الوراثة للفضل والخير .. إن إبراهيم قد أفاد من عظة ربه له فى الأولى . لقد وعى منذ أن قال له ربه : ﴿ لا ينال عهدى الظالمين ﴾ .. وعى هذا الدرس ..

---

(١) جامع البيان ، جـ ١ ، ص ٥٣٢ – ٥٤١ .
(٢) جامع البيان ، جـ ١ ، ص ٥٤١ – ٥٤٦ .

فهو هنا ، فى دعائه أن يرزق الله أهل هذا البلد من الثمرات ، يحترس ويستثنى ويحدد من يعنى :

﴿ من آمن منهم بالله واليوم الآخر ﴾ .

إنه إبراهيم الأواه الحليم القانت المستقيم ، ويتأدب بالأدب الذى علمه ربه ، فيراعيه فى طلبه ودعائه .. وعندئذ يجيئه رد ربه مكملا ومبينا عن الشطر الآخر الذى سكت عنه . شطر الذين لا يؤمنون ، ومصيرهم الأليم :

﴿ قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم اضطره إلى عذاب النار وبئس المصير ﴾ ..

ثم يرسم مشهد تنفيذ إبراهيم وإسماعيل للأمر الذى تلقياه من ربهما بإعداد البيت وتطهيره للطائفين والعاكفين والركع السجود .. يرسمه مشهودا كما لو كانت الأعين تراهما اللحظة وتسمعهما فى آن :

﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾[(١)] ..

إن التعبير يبدأ بصيغة الخبر .. حكاية تحكى :

﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ﴾ .

وبينما نحن فى انتظار بقية الخبر ، إذ بالسياق يكشف لنا عنهما ، ويرينا إياهما ، كما لو كانت رؤية العين لا رؤيا الخيال . أنهما امامنا حاضران ، نكاد نسمع صوتيهما يبتهلان :

﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن

---

(١) جامع البيان ، جـ ١ ، ص ٥٤٦ – ٥٥٨ .

ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ﴾ ..

فنعمة الدعاء ، وموسيقى الدعاء ، وجو الدعاء .. كلها حاضرة كأنها تقع اللحظة حية شاخصة متحركة .. وتلك إحدى خصائص التعبير القرآنى الجميل . رد المشهد الغائب الذاهب . حاضرا يسمع ويرى ، ويتحرك ويشخص ، وتفيض منه الحياة .. إنها خصيصة « التصوير الفنى » بمعناه الصادق ، اللائق بالكتاب الخالد .

وماذا فى ثنايا الدعاء ؟ إنه أدب النبوة ، وإيمان النبوة ، وشعور النبوة بقيمة العقيدة فى هذا الوجود . وهو الآدب والإيمان والشعور الذى يريد القرآن أن يعلمه لورثة الأنبياء . وأن يعمقه فى قلوبهم ومشاعرهم بهذا الإيحاء :

﴿ ربنا تقبل منا . إنك أنت السميع العليم ﴾ ..

إنه طلب القبول .. هذه هى الغاية .. فهو عمل خالص لله . الاتجاه به فى قنوت وخشوع إلى الله . والغاية المرتجاة من ورائه هى الرضا والقبول .. والرجاء فى قبوله متعلق بأن الله سميع للدعاء . عليم بما وراءه من النية والشعور .

﴿ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ﴾ .

إنه رجاء العون من ربهما فى الهداية إلى الإسلام ، والشعور بأن قلبيهما بين أصبعين من أصابع الرحمن ، وأن الهدى هداه ، وأنه لا حول لهما ولا قوة إلا بالله ، فهما يتجهان ويرغبان ، والله المستعان .

ثم هو طابع الأمة المسلمة .. التضامن .. تضامن الأجيال فى العقيدة :
﴿ ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ﴾ .. وهى دعوة تكشف عن اهتمامات القلب المؤمن . إن أمر العقيدة هو شغله الشاغل ، وهو همه الأول . وشعور إبراهيم وإسماعيل – عليهما السلام – بقيمة النعمة التى أسبغها الله عليهما .. نعمة الإيمان .. تدفعهما إلى الحرص عليها فى عقبهما ، وإلى دعاء الله ربهما ألا يحرم ذريتهما هذا الإنعام الذى لا يكافئه إنعام .. لقد دعوا الله ربهما أن يرزق ذريتهما من الثمرات ولم ينسيا أن يدعواه ليرزقهم من الإيمان ، وأن يريهم جميعا

مناسكهم ، ويبين لهم عباداتهم ، وأن يتوب عليهم . بما أنه هو التواب الرحيم .

ثم ألا يتركهم بلا هداية فى أجيالهم البعيدة :

﴿ ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آيتـك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ ..

وكانت الاستجابة لدعوة إبراهيم وإسماعيل هى بعثة هذا الرسول الكريم بعد قرون وقرون . بعثة رسول من ذرية إبراهيم وإسماعيل ، يتلو عليهم آيات الله ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويطهرهم من الأرجاس والأدناس . إن الدعوة المستجابة تستجاب ولكنها تتحقق فى أوانها الذى يقدره الله بحكمته . غير أن الناس يستعجلون ! وغير الواصلين يملون ويقنطون .

وبعد فإن لهذا الدعاء دلالته ووزنه فيما كان يشجر بين اليهود والجماعة المسلمة من نزاع عنيف متعدد الأطراف أن إبراهيم وإسماعيل اللذين عهد الله إليهما برفع قواعد البيت وتطهيره للطائفين والعاكفين والمصلين ، وهما أصل سادنى البيت من قريش .. أنهما يقولان باللسان الصريح .: ﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ﴾ .. ﴿ ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ﴾ .. كما يقولان باللسان الصريح : ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ﴾ .. وهما بهذا يقرران وراثة الأمة المسلمة لإمامة إبراهيم ووراثتها للبيت الحرام سواء . وإذن فهو بيتها الذى تتجه إليه وهى أولى به من المشركين ، وهو أولى بها من قبله اليهود والمسيحيين !

وإذن فمن كان يربط ديانته بإبراهيم من اليهود والنصارى ، ويدعم دعاواه العريضة فى الهدى والجنة بسبب تلك الوراثة ، ومن كان يربط نسبه بإسماعيل من قريش . فليسمع أن إبراهيم حين طلب الوراثة لبنيه والإمامة ، قال له ربه : ﴿ لا ينال عهدى الظالمين ﴾ .. ولما أن دعا هو لأهل البلد بالرزق والبركة خص بدعوته : ﴿ من آمن منهم بالله واليوم الآخر ﴾ .. وحين قام هو وإسماعيل بأمر ربهما فى بناء البيت وتطهيره كانت دعوتهما : أن يكونا مسلمين لله ، وأن يجعل الله من ذريتهما أمة مسلمة ، وأن يبعث فى أهل بيته رسولا منهم .. فاستجاب الله لهما ، وأرسل من أهل البيت محمد بن عبد الله ، وحقق على يديه الأمة المسلمة

القائمة بأمر الله . الوارثة لدين الله .

وعند هذا المقطع من قصة إبراهيم ، يلتقط السياق دلالته وإيحاءه ، ليواجه بهما الذين ينازعون الأمة المسلمة الإمامة ، وينازعون الرسول - ﷺ - النبوة والرسالة ، ويجادلون فى حقيقة دين الله الأصيلة الصحيحة :

﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين . إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين . ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾[1] ..

هذه هى ملة إبراهيم .. الإسلام الخالص الصريح .. لا يرغب عنها وينصرف إلا ظالم لنفسه ، سفيه عليها ، مستهتر بها .. إبراهيم اصطفاه ربه فى الدنيا إماما ، وشهد له فى الآخرة بالصلاح .. اصطفاه ﴿ إذ قال له ربه أسلم ﴾ .. فلم يتلكأ ، ولم يرتب ولم ينحرف ، واستجاب فور تلقى الأمر .

﴿ قال : أسلمت لرب العالمين ﴾ ..

هذه هى ملة إبراهيم .. الإسلام الخالص الصريح .. ولم يكتف إبراهيم بنفسه إنما تركها فى عقبه ، وجعلها وصيته فى ذريته ، ووصى بها إبراهيم بنيه كما وصى بها يعقوب بنيه . ويعقوب هو إسرائيل الذى ينتسبون إليه ، ثم لا يلبون وصيته ووصية جده وجدهم إبراهيم .

ولقد ذكر كل من إبراهيم ويعقوب بنيه بنعمة الله عليهم فى اختياره الدين لهم : ﴿ يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين ﴾ .

فهو من اختيار الله . فلا اختيار لهم بعده ولا اتجاه . وأقل ما توجبه رعاية الله لهم ، وفضل الله عليهم ، هو الشكر على نعمة اختياره واصطفائه ، والحرص على ما اختاره لهم ، والاجتهاد فى ألا يتركوا هذه الأرض إلا وهذه الأمانة محفوظة فيهم :

---

(١) جامع البيان ، جـ ١ ، ص ٥٥٨ - ٥٦٢ .

﴿ فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ ..

وها هى ذى الفرصة سانحة ، فقد جاءهم الرسول الذى يدعوهم إلى الإسلام ، وهو ثمرة الدعوة التى دعاها أبوهم إبراهيم ..

* * *

تلك كانت وصية إبراهيم لبنيه ووصية يعقوب لبنيه .. الوصية التى كررها يعقوب فى آخر لحظة من لحظات حياته ، والتى كانت شغله الشاغل الذى لم يصرفه عنه الموت وسكراته فليسمعها بنو إسرائيل :

﴿ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلـٰهك وإلـٰه آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون ﴾[1] ..

إن هذا المشهد بين يعقوب وبنيه فى لحظة الموت والاحتضار لمشهد عظيم الدلالة ، قوى الإيحاء ، عميق التأثير .. ميت يحتضر .. فما هى القضية التى تشغل باله فى ساعة الاحتضار ؟ ما هو الشاغل الذى يعنى خاطره وهو فى سكرات الموت ؟ ما هو الأمر الجلل الذى يريد أن يطمئن عليه ويستوثق منه ؟ ما هى التركة التى يريد أن يخلفها لأبنائه ويحرص على سلامة وصولها إليهم فيسلمها لهم فى محضر ، يسجل فيه كل التفصيلات ؟ .. إنها العقيدة .. هى التركة . وهى الذخر . وهى القضية الكبرى ، وهى الشغل الشاغل ، وهى الأمر الجلل ، الذى لا تشغل عنه سكرات الموت وصرعاته :

﴿ ما تعبدون من بعدى ﴾ ..

هذا هو الأمر الذى جمعتكم من أجله . وهذه هى القضية التى أردت الاطمئنان عليها . وهذه هى الأمانة والذخر والتراث ..

---

(١) جامع البيان ، جـ ١ ، ص ٥٦٢ – ٥٦٣ .

﴿ قالوا : نعبد إلٰهك وإلٰه آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلٰهاً واحداً ونحن له مسلمون ﴾ .

إنهم يعرفون دينهم ويذكرونه . إنهم يتسلمون التراث ويصونونه . إنهم يطمئنون الوالد المحتضر ويريحونه . وكذلك ظلت وصية إبراهيم لبنيه مرعية فى أبناء يعقوب . وكذلك هم ينصون نصا صريحا على أنهم « مسلمون ». والقرآن يسأل بنى إسرائيل : ﴿ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت ﴾ .. فهذا هو الذى كان ، يشهد به الله ، ويقرره ، ويقطع به كل حجة لهم فى التمويه والتضليل ، ويقطع به كل صلة حقيقية بينهم وبين أبيهم إسرائيل !

وفى ضوء هذا التقرير يظهر الفارق الحاسم بين تلك الأمة التى خلت والجيل الذى كانت تواجهه الدعوة .. حيث لا مجال لصلة ، ولا مجال لوراثة ، ولا مجال لنسب بين السابقين واللاحقين :

﴿ تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون ﴾[1] ..

فلكل حساب ، ولكل طريق ، ولكل عنوان ، ولكل صفة .. أولئك أمة من المؤمنين فلا علاقة لها بأعقابها من الفاسقين . إن هذه الأعقاب ليست امتداد لتلك الأسلاف هؤلاء حزب وأولئك حزب . لهؤلاء راية ولأولئك راية .. والتصور الإيمانى فى هذا غير التصور الجاهلى .. فالتصور الجاهلى لا يفرق بين جيل من الأمة وجيل ، لأن الصلة هى صلة الجنس والنسب . أما التصور الإيمانى فيفرق بين جيل مؤمن وجيل فاسق ، فليسا أمة واحدة ، وليس بينهما صلة ولا قرابة .. إنهما أمتان مختلفتان فى ميزان الله ، فهما مختلفتان فى ميزان المؤمنين . إن الأمة فى التصور الإيمانى هى الجماعة التى تنتسب إلى عقيدة واحدة من كل جنس ومن كل أرض ، وليست هى الجماعة التى تنتسب إلى جنس واحد أو أرض واحدة . وهذا هو التصور اللائق بالإنسان ، الذى يستمد إنسانيته من نفخة الروح العلوية ، لا من التصاقات الطين الأرضية !

---

(١) جامع البيان ، جـ ١ ، ص ٥٦٣ – ٥٦٦ .

فى ظل هذا البيان التاريخى الحاسم ، لقصة العهد مع إبراهيم وقصة البيت الحرام كعبة المسلمين ، ولحقيقة الوراثة وحقيقة الدين ، يناقش ادعاءات أهل الكتاب المعاصرين ، ويعرض لحججهم وجدلهم ومحالهم ، فيبدو هذا كله ضعيفا شاحبا كما يبدو فيه العنت والادعاء بلا دليل . كذلك تبدو العقيدة الإسلامية عقيدة طبيعية شاملة لا ينحرف عنها المتعنتون . ﴿ وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ .

﴿ قولـوا آمنـا بالله ومـا أنـزل إلينـا ومـا أنـزل إلى إبـراهيم وإسماعيـل وإسحـاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى ومـا أوتى النبيـون من ربهم لا نفـرق بين أحـد منهم ونحن له مسلمون ﴾ ..

تلك الوحدة الكبرى بين الرسالات جميعا ، وبين الرسل جميعا ، هى قاعدة التصور الإسلامى وهى التى تجعل من الأمة المسلمة ، الأمة الوارثة لتراث العقيدة القائمة على دين الله فى الأرض ، الموصولة بهذا الأصل العريق ، السائرة فى الدرب على هدى ونور . والتى تجعل من النظام الإسلامى النظام العالمى الذى يملك الجميع الحياة فى ظله دون تعصب ولا اضطهاد . والتى تجعل من المجتمع الإسلامى مجتمعا مفتوحا للناس جميعا فى مودة وسلام .

ومن ثم يقرر السياق الحقيقة الكبيرة ، ويثبت عليها المؤمنين بهذه العقيدة . حقيقة أن هذه العقيدة هى الهدى . ومن اتبعها فقد اهتدى . ومن أعرض عنها فلن يستقر على أصل ثابت ، ومن ثم يظل فى شقاق مع الشيع المختلفة التى لا تلتقى على قرار :

﴿ فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم فى شقاق ﴾ ..

وهذه الكلمة من الله ، وهذه الشهادة منه سبحانه ، تسكب فى قلب المؤمن الاعتزاز بما هو عليه . فهو وحده المهتدى . ومن لا يؤمن بما يؤمن به فهو المشاق للحق المعادى للهدى . ولا على المؤمن من شقاق من لا يهتدى ولا يؤمن ، ولا عليه من كيده ومكره . ولا عليه من جداله ومعارضته . فالله سيتولاهم عنه ، وهو كافيه وحسبه :

﴿ فسيكفيكهم الله . وهو السميع العليم ﴾ [1] ..

إنه ليس على المؤمن إلا أن يستقيم على طريقته ، وأن يعتز بالحق المستمد مباشرة من ربه ، والعلامة التى يضعها الله على أوليائه ، فيعرفون بها فى الأرض :

﴿ صبغة الله . ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون ﴾[2] ..

صبغة الله التى شاء لها أن تكون آخر رسالاته إلى البشر . لتقوم عليها وحدة إنسانية واسعة الآفاق ، لا تعصب فيها ولا حقد ، ولا أجناس فيها ولا ألوان .

ونقف هنا عند سمة من سمات التعبير القرآنى ذات الدلالة العميقة .. إن صدر هذه الآية من كلام الله التقريرى : ﴿ صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ﴾ .. أما باقيها فهو من كلام المؤمنين . يلحقه السياق – بلا فاصل – بكلام البارىء سبحانه فى السياق وكله قرآن منزل . ولكن الشطر الأول حكاية عن قول الله ، والشطر الثانى حكاية عن قول المؤمنين . وهو تشريف عظيم أن يلحق كلام المؤمنين بكلام الله فى سياق واحد ، بحكم الصلة الوثيقة بينهم وبين ربهم ، وبحكم الاستقامة الواصلة بينه وبينهم . وأمثال هذا فى القرآن كثير . وهو ذوى مغزى كبير .

ثم تمضى الحجة الدامغة إلى نهايتها الحاسمة :

﴿ قل أتحاجوننا فى الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون ﴾[3] ..

ولا مجال للجدل فى وحدانية الله وربوبيته . فهو ربنا وربكم . ونحن محاسبون بأعمالنا ، وعليكم وزر أعمالكم . ونحن متجردون له مخلصون لا نشرك به شيئا ، ولا نرجو معه واحدا . وهذا الكلام تقرير لموقف المسلمين واعتقادهم ، وهو غير قابل للجدل والمحاجة واللجاج ..ومن ثم يضرب السياق

---

(١) جامع البيان ، جـ ١ ، ص ٥٦٨ – ٥٧٠ .
(٢) جامع البيان ، جـ ١ ، ص ٥٧٠ – ٥٧٢ .
(٣) جامع البيان ، جـ ١ ، ص ٥٧٢ .

عنه وينتقل إلى مجال آخر من مجالات الجدل يظهر أنه هو الآخر غير قابل للجاجة والمجال :

أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى ؟ وهم كانوا أسبق من موسى ، وأسبق من اليهودية والنصرانية . والله يشهد بحقيقة دينهم – وهو الإسلام كما سبق البيان :

﴿ قل أأنتم أعلم أم الله ﴾[1] ..

وهو سؤال لا جواب عليه ! وفيه من الاستنكار ما يقطع الألسنة دون الجواب عليه !

ثم إنكم لتعلمون أنهم كانوا قبل أن تكون اليهودية والنصرانية . وكانوا على الحنيفية الأولى التي لا تشرك بالله شيئا ، ولديكم كذلك شهادة في كتبكم أن سيبعث نبي في آخر الزمان دينه الحنيفية ، دين إبراهيم . ولكنكم تكتمون هذه الشهادة :

﴿ ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله ﴾..

والله مطلع على ما تخفون من الشهادة التي أئتمنتم عليها ، وما تقومون به من الجدال فيها لتعميتها وتلبيسها :

﴿ وما الله بغافل عما تعملون ﴾ ..

وحين يصل السياق إلى هذه القمة في الإفحام ، وإلى هذا الفصل في القضية وإلى بيان ما بين إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وبين اليهود المعاصرين من مفارقة تامة في كل اتجاه ... عندئذ يعيد الفاصلة التي ختم بها الحديث من قبل عن إبراهيم وذريته المسلمين :

﴿ تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون ﴾ .

---

(١) جامع البيان ، جـ ١ ، ص ٥٧٣ – ٥٧٥ .

وفيها فصل الخطاب ، ونهاية الجدل ، والكلمة الأخيرة فى تلك الدعاوى الطويلة العريضة .

آيات أخرى من القرآن الكريم فيها ذكر إبراهيم عليه السلام وشعائر الحج :

سورة البقرة [1] :

﴿ إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم ﴾ .

---

(١) ١٥٨ ، في هذه الآية بيان عن موضوع الصفا والمروة بسبب ما كان يلابس هذا الموضوع من تقاليد الجاهلية :

وهناك عدة روايات عن سبب نزول هذه الآية ، أقربها إلى المنطق النفسى المستفاد من التصور الذى أنشأه الإسلام فى نفوس المجموعة السابقة إلى الإسلام من المهاجرين والأنصار .. الرواية التى تقول : أن بعض المسلمين تحرجوا من الطواف بالصفا والمروة فى الحج والعمرة ، بسبب أنهم كانوا يسعون بين هذين الجبلين فى الجاهلية ، وأنه كان فوقهما صنمان هما أساف ونائلة . فكره المسلمون أن يطوفوا كما كانوا يطوفون فى الجاهلية .

قال البخارى : حدثنا محمد بن يوسف ، حدثنا سفيان ، عن عاصم بن سليمان قال : سألت أنسا عن الصفا والمروة قال : كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية فلما جاء الإسلام أمسكنا عنهما . فأنزل الله عز وجل : ﴿ إن الصفا والمروة من شعائر الله ﴾.. وقال الشعبى : كان أساف على الصفا ، وكانت نائلة على المروة ، وكانوا يستلمونهما فتحرجوا بعد الإسلام من الطواف بينهما ، فنزلت هذه الآية .

ولم يرد تحديد لتاريخ نزول هذه الآية . والأرجح أنها نزلت متأخرة عن الآيات الخاصة بتحويل القبلة . ومع أن مكة قد أصبحت دار حرب بالنسبة للمسلمين ، فإنه لا يبعد أن بعض المسلمين كانوا يتمكنون أفرادا من الحج ومن العمرة . وهؤلاء هم الذين تحرجوا من الطواف بين الصفا والمروة ... وكان هذا التحرج ثمرة التعليم الطويل ، ووضوح التصور الإيمانى فى نفوسهم ، هذا الوضوح الذى يجعلهم يتحرزون ويتوجسون من كل أمر كانوا يزاولونه فى الجاهلية . إذ أصبحت نفوسهم من الحساسية فى هذه الناحية بحيث تفزع من كل ما كان فى الجاهلية ، وتتوجس أن يكون منهيا عنه فى الإسلام ، والأمر الذى ظهر بوضوح في مناسبات كثيرة ..

كانت الدعوة الجديدة قد هزت أرواحهم هزا وتغلغلت فيها إلى الأعماق ، فأحدثت فيها انقلابا نفسيا وشعوريا كاملا ، حتى لينظرون بجفوة وتحرز إلى ماضيهم فى الجاهلية ، ويحسون أن هذا شطر من حياتهم قد انفصلوا عنه انفصالا كاملا ، فلم يعد منهم ، ولم يعودوا منه ، وعاد دنسا ورجسا يتحرزون فى الإلمام به !

وإن المتابع لسيرة هذه الفترة الأخيرة فى حياة القوم ليحس بقوة أثر هذه العقيدة العجيب فى تلك النفوس .

آل عمران (١) :

﴿ إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين . ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم ﴾ .

﴿ يا أهل الكتاب لما تحاجون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون ﴾ (٢) .

﴿ ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين . إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين ﴾ (٣) .

﴿ قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين . إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين ﴾ (٤) .

(٢) الأنعام (٧٤ – ٨٣) (٥) :

فى هذه السورة نرى فطرة إبراهيم عليه السلام تنكر على أبيه وقومه عبادة الأصنام ، وتؤكد له أن هذه الأجرام المشاهدة من الكواكب النيرة لا تصلح للألوهية ، ولا أن تعبد مع الله عز وجل لأنها مخلوقة مربوبة مصنوعة مُدَبَّرة ، مسخرة تطلع تارة وتأفل أخرى ، فتغيب عن هذا العالم ، والرب تعالى لا يغيب عنه شيء ، ولا تخفى عليه خافية ؛ بل هو الدائم الباقي بلا زوال ؛ ولا إله

---

(١) ٣٣ – ٣٤ ؛ يقول : الطبرى لأنهم كانوا أهل الإسلام ، جامع البيان ، جـ ٣ ، ص ٢٣٤ .

(٢) ٦٥ ؛ جامع البيان ، جـ ٣ ، ص ٣٠٤ – ٣٠٦ .

(٣) ٦٧ – ٦٨ ؛ جامع البيان ، جـ ٣ ، ص ٣٠٦ – ٣١٠ .

(٤) ٩٥ – ٩٧ ؛ يقرر الله سبحانه وتعالى هنا أن الاتجاه للكعبة هو الأصل ، فهى أول بيت وضع فى الأرض للعبادة ، انظر جامع البيان ، جـ ٤ ، ص ٦ – ٢١ .

(٥) جامع البيان ، جـ ٧ ، ص ٢٤٢ – ٢٥٩ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ٢ ، ص ١٤٩ – ١٥٣ ، فى ظلال القرآن ، المجلد الثانى ، ص ١١٣٥ – ١١٤٣ .

إلا هو ، ولا رب سواه . فبين لهم أولا عدم صلاحية الكواكب . قيل هي الزهرة ، ثم ترقى منها ، إلى القمر الذى هو أضوأ منها ، وأبهى من حسنها ، ثم ترقى إلى الشمس التى هى أشد الأجرام المشاهدة ضياء ، وسناء ، وبهاء ، فبين أنها مسخرة مسيرة مقدرة مربوبة . ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه آذر أتتخذ أصناماً آلهةً إنّى أراكَ وقومكَ فى ضلالٍ مبين . وكذلكَ نُرِى إبراهيمَ ملكوتَ السموات والأرضِ وليكونَ من الموقنين . فلما جنَّ عليه الليلُ رأى كوكباً قال هذا ربِّى فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمرَ بازغاً قال هذا ربِّى فلما أفل قال لئن لَمْ يهدنى ربى لأكوننَّ من القوم الضالِّين . فلما رأى الشمس بازغةً قال هذا ربِّى هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إنِّى برىء مما تشركون . إنِّى وجهتُ وجهىَ للذِى فطرَ السمٰوٰتِ والأرضَ حنيفا وما أنَا من المشركين . وحاجَّه قومُه قال أتحاجُّونى فى الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئا وسع ربى كل شىء علماً أفلا تتذكرون . وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافونَ أنَّكم أشركتُمْ بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً ، فأىُّ الفريقين أحقُّ بالأمنِ إنْ كُنْتُم تعلمون . الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئكَ لهم الأمنُ وهم مهتدون . وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم ﴾ .

نلمح فطرة إبراهيم السليمة تنكر ابتداء أن تكون هذه الأصنام التي يعبدها قومه آلهة (*) ... فالإله الذى يعبد والذى يتوجه إليه العباد فى السراء والضراء ، والذى خلق الناس والأحياء .. هذا الإله فى فطرة إبراهيم لا يمكن أن يكون صنما أو حجرا ... وإذا لم تكن هذه الأصنام هى التى تخلق وترزق وتسمع وتستجيب ... وهذا ظاهر من حالها للعيان ، فما هى بالتى تستحق أن تعبد ، وما هى بالتى تتخذ آلهة حتى على سبيل أن تتخذ واسطة بين الإله الحق والعباد .

وإذن فهو الضلال البين تحسه فطرة إبراهيم عليه السلام للوهلة الأولى . وهى النموذج الكامل للفطرة التى فطر الله الناس عليها ... ثم هي النموذج الكامل

(*) وقوم إبراهيم من الكلدانيين بأرض الرافدين (العراق) كانوا يعبدون الأصنام كما كانوا يعبدون الكواكب والنجوم (مصر والعراق ، ص ٣٩٥)

للفطرة وهى تواجه الضلال البين فتنكره وتستنكره ، وتجهر بكلمة الحق وتصدع ، حين يكون الأمر هو أمر العقيدة :

﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر : أتتخذ أصناماً آلهة ؟ إنِّى أراك وقومَك فى ضلال مبين ﴾ .

كلمة يقولها إبراهيم – عليه السلام – لأبيه ، وهو الأواهُ الحليمُ الرضي الخلق السمح اللين ، كما ترد أوصافه فى القرآن الكريم ، ولكنها العقيدة هنا . والعقيدة فوق رابطة الأبوة والبنوة ، وفوق مشاعر الحلم والسماحة . وإبراهيم هو القدوة التى أمر الله المسلمين من بنيه أن يتأسوا بها . والقصة تعرض لتكون أسوة ومثالا ..

وكذلك استحق إبراهيم – عليه السلام – بصفاء فطرته وخلوصها للحق أن يكشف الله لبصيرته عن الأسرار الكامنة فى الكون ، والدلائل الموحية بالهدى فى الوجود .. :

﴿وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربِّى لأكوننَّ من القوم الضالين ﴾ .

لقد باتت قضية العقيدة هى التى تشغل بالْ إبراهيم وتزحم عالمه ، وهنا يحس إبراهيم أنه فى حاجة إلى العون من ربه الحق الذى يجد توحيده مركوزا فى ضميره وفطرته ، ربه الذى يحميه ويتولى أمره :

﴿ قال لئن لم يهدني ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى فلما أفلت قال ياقوم إنِّى برىء مما تشركون . إنى وَجَّهْتُ وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين ﴾ .

وهنا يجد إبراهيم إلهه ، ولكن لا يجده فى كوكب يلمع ، ولا فى قمر يطلع ، ولا فى شمس تطلع .. وإنما يجده خالقا لكل ما تراه العين ، ويحسه الحس وتدركه العقول :

وهنا يجد إبراهيم في نفسه المفاصلة الكاملة بينه وبين قومه في كل ما يعبدون من آلهة زائفة ، ويبرأ في حسم لا مواربة فيه من وجهتهم ومنهجهم وما هم عليه من الشرك .. وهم لم يكونوا يجحدون الله البتة ، ولكنهم كانوا يشركون معه هذه الأرباب الزائفة .. وإبراهيم يتجه إلى الله وحده بلا شريك ، إلى الله فاطر السموات والأرض ..

ويحس إبراهيم بيد الله تأخذ بيده وتقود خطاه في الطريق .. ويجيء قومه ليجادلوه فيما انتهى إليه من يقين ، وفيما انشرح له صدره من توحيد ، وليخوفوه آلهتهم التي تَنَكَّر لها أن تُنْزِلَ به سوءا .. وهو يواجههم في يقينه الجازم ، وفي إيمانه الراسخ وفي رؤيته الباطنة والظاهرة لربه الحق الذى هداه :

﴿ وحاجّه قومه ، قال : أتحاجونِي في الله وقد هدان ولا أخاف ماتشركون به إلا أن يشاء ربي شيئا وسع ربي كل شيء علما أفلا تتذكرون . وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ﴾.

وكيف يخاف من وجد الله ؟ وماذا يخاف ؟ ومن ذا يخاف ؟ وكل قوة – غير قوة الله – هزيلة ، وكل سلطان – غير سلطان الله – لا يُخاف ..

﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾ .

الأنعام ٨٤ – ٩٠ :

﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلّا هدينا ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزى المحسنين . وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين . وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين . ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم . ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون.أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين . أولئك الذين هدى الله

فبهداهم اقتده قل لا أسألكم عليه أجراً إن هو إلا ذكرى للعالمين ﴾ (١) .

إبراهيم ٣٥ – ٤١ :

﴿ وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبنى (٢) وبنى أن نعبد الأصنام . رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى

---

(١) سنتناول هذه الآيات بالشرح فى رسالتنا القادمة عن ذرية إبراهيم عليه السلام (إن شاء الله) انظر تفسير القرآن العظيم ، جـ ٢ ، ص ١٥٤ – ١٥٦ .

(٢) والنموذج الكامل للإنسان الذاكر الشاكر هو أبو الأنبياء . إبراهيم الذى يظلل سمته هذه السورة ، كما تظللها النعمة وما يتعلق بها من شكران أو كفران . ومن ثم يأتى به السياق فى مشهد خاشع ، يظلله الشكر ، وتشيع فيه الضراعة ويتجاوب فيه الدعاء ، فى نغمة رخية متموجة ، ذاهبة فى السماء .

﴿ وإذ قال إبراهيم : رب اجعل هذا البلد آمنا ، واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام . رب إنهن أضللن كثيرا من الناس ، فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم . ربنا إنى أسكنت من ذريتى بوادٍ غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم ، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون . ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن ، وما يخفى على الله من شيء فى الأرض ولا فى السماء . الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربى لسميع الدعاء رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء . ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴾ ..

« إن السياق يصور إبراهيم – عليه السلام – إلى جوار بيت الله الذى بناه فى البلد الذى آل إلى قريش ، فإذا بها تكفر فيه بالله ، مرتكنة إلى البيت الذى بناه بانيه لعبادة الله . فيصوره فى هذا المشهد الضارع الخاشع الذاكر الشاكر ، ليرد الجاحدين إلى الاعتراف ، ويرد الكافرين إلى الشكر ويرد الغافلين إلى الذكر ويرد الشاردين من أبنائه إلى سيرة أبيهم يقتدون بها ويهتدون » .

ويبدأ إبراهيم دعاءه :

﴿ رب اجعل هذا البلد آمنا ﴾ ..

فنعمة الأمن نعمة ماسة بالإنسان ، عظيمة الوقع فى حسه ، متعلقة بحرصه على نفسه ، والسياق يذكرها هنا ليذكر بها سكان ذلك البلد ، الذين يستطيلون بالنعمة ولا يشكرونها وقد استجاب الله دعاء أبيهم إبراهيم فجعل البلد آمنا ، ولكنهم هم سلكوا غير طريق إبراهيم ، فكفروا النعمة ، وجعلوا لله أندادا ، وصدوا عن سبيل الله . ولقد كانت دعوة أبيهم التالية لدعوة الأمن :

﴿ واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام ﴾ ..

ويبدو فى دعوة إبراهيم الثانية تسليم إبراهيم المطلق إلى ربه ، والتجاؤه إليه فى أخص مشاعر قلبه . فهو يدعوه أن يجنبه عبادة الأصنام هو وبنيه ، يستعينه بهذا الدعاء ويستهديه ، ثم ليبرز أن هذه نعمة أخرى من نعم الله . وأنها لنعمة أن يخرج القلب من ظلمات الشرك وجهالاته إلى نور الإيمان بالله وتوحيده . فيخرج =

من التيه والحيرة والضلال والشرود ، إلى المعرفة والطمأنينة والاستقرار والهدوء . ويخرج من الدينونة المذلة لشتى الأرباب ، إلى الدينونة الكريمة العزيزة لرب العباد .. إنها لنعمة يدعو إبراهيم ربه ليحفظها عليه ، فيجنبه هو وبنيه أن يعبد الأصنام .

يدعو إبراهيم دعوته هذه لما شهده وعلمه من كثرة من ضلوا بهذه الأصنام من الناس فى جيله وفى الأجيال التى قبله ، ومن فتنوا بها ومن افتتنوا وهم خلق كثير :

﴿ رب إنهن أضللن كثيرا من الناس ﴾ ..

ثم يتابع الدعاء ... فأما من تبع طريقى فلم يفتتن بها فإنه منى ، ينتسب إلى ويلتقى معى فى الآصرة الكبرى ، آصرة العقيدة :

﴿ فمن تبعنى فإنه منى ﴾ ..

وأما من عصانى أمره إليك ...

﴿ومن عصانى فإنك غفور رحيم ﴾ ..

وفى هذا تبدو سمة إبراهيم العطوف الرحيم الأواه الحليم ، فهو لا يطلب الهلاك لمن يعصيه من نسله ويحيد عن طريقه ، ولا يستعجل لهم العذاب ، بل لا يذكر العذاب ، إنما يكلهم إلى غفران الله ورحمته . ويلقى على الجو ظلال المغفرة والرحمة ، وتحت هذا الظل يتوارى ظل المعصية ، فلا يكشف عنه إبراهيم الرحيم الحليم !

ويمضى إبراهيم فى دعائه يذكر إسكانه لبعض أبنائه بهذا الوادى المجدب المقفر المجاور للبيت المحرم ، ويذكر الوظيفة التى أسكنهم فى هذا القفر الجدب ليقوموا بها :

﴿ ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ﴾ .. لماذا ؟

﴿ ربنا ليقيموا الصلاة ﴾ ..

فهذا هو الذى من أجله أسكنهم هناك ، وهذا هو الذى من أجله يحتملون الجدب والحرمان .

﴿ فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم ﴾ ..

وفى التعبير رقة ورفرفة ، تصور القلوب رفافة مجنحة ، وهى تهوى إلى ذلك البيت وأهله فى ذلك الوادى الجديب ، إنه تعبير ندى يندى الجدب برقة القلوب ..

﴿ وارزقهم من الثمرات ﴾ ..

عن طريق تلك القلوب التى ترف عليهم من كل فج .. لماذا ؟ ليأكلوا ويطعموا ويستمتعوا ؟ نعم ! ولكن لينشأ عن ذلك ما يرجوه إبراهيم الشكور :

﴿ لعلهم يشكرون ﴾ ..

=وهكذا يبرز السياق هدف السكنى بجوار البيت الحرام .. إنه إقامة الصلاة على أصولها كاملة لله ، ويبرز هدف الدعاء برفرفة القلوب وهويها إلى أهل البيت ورزقهم من ثمرات الأرض .. إنه شكر لله المنعم الوهاب .

وفى ظل هذا الدعاء تبدو المفارقة واضحة فى موقف قريش جيدة البيت المحرم فلا صلاة قائمة لله ، ولا شكر بعد استجابة الدعاء ، وهدى القلوب والثمرات ! .

ويعقب إبراهيم على دعاء الله لذريته الساكنة بجوار بيته المحرم لتقيم الصلاة وتشكر الله ، يعقب على الدعاء بتسجيله لعلم الله الذى يطلع على ما فى قلوبهم من توجه وشكر ودعاء . فليس القصد هو المظاهرات والأدعية والتصدية والمكاء . إنما هو توجه القلب إلى الله الذى يعلم السر والجهر ولا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء :

﴿ ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن : وما يخفى على الله من شيء فى الأرض ولا فى السماء ﴾ ..

ويذكر إبراهيم نعمة الله عليه من قبل ، فيلهج لسانه بالحمد والشكر شأن العبد الصالح يذكر فيشكر :

﴿ الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق ، إن ربى لسميع الدعاء ﴾ .

وهبه الذرية على الكبر أوقع فى النفس . فالذرية امتداد .. وما أجل الإنعام به عند شعور الفرد بقرب النهاية ، وحاجته النفسية الفطرية إلى الامتداد . وإن إبراهيم ليحمد الله ، ويطمع فى رحمته :

﴿ إن ربى لسميع الدعاء ﴾ .

ويعقب على الشكر بدعاء الله أن يجعله مديما للشكر . الشكر بالعبادة والطاعة فيعلن بهذا تصميمه على العبادة وخوفه أن يعوقه عنها عائق ، أو يصرفه عنها صارف ، ويستعين الله على إنفاذ عزيمته وقبول دعائه :

﴿ رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء ﴾ ..

وفى ظل هذا الدعاء تبدو المفارقة مرة أخرى فى موقف جيرة البيت من قريش . وهذا إبراهيم يجعل عون الله له على إقامة الصلاة رجاء يرجوه ، ويدعو الله ليوفقه إليه . وهم ينأون عنها ويعرضون ، ويكذبون الرسول الذى يذكرهم بما كان إبراهيم يدعو الله أن يعينه عليه هو وبنيه من بعده !

ويختم إبراهيم دعاءه الضارع الخاشع بطلب المغفرة له ولوالديه وللمؤمنين جميعا ، يوم يقوم الحساب ، فلا ينفع إنسانا إلا عمله ، ثم مغفرة الله فى تقصيره :

﴿ ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴾ ..

وينتهى المشهد الطويل : مشهد الدعاء الخاشع الضارع . ومشهد تعداد النعم والشكر عليها .. فى إيقاع موسيقى متموج رخى .. ينتهى بعد أن يخلع على الموقف كله ظلا وديعا لطيفا ، تهفو القلوب معه إلى جوار الله ، وتذكر القلوب فيه نعم الله . ويرتسم إبراهيم أبو الأنبياء نموذجا للعبد الصالح الذاكر الشاكر ، كما ينبغى أن يكون عباد الله ، الذين وجه إليهم قبيل هذا الدعاء .. =

فإنك غفور رحيم . ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون . ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن وما يخفى على الله من شيء فى الأرض ولا فى السماء . الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربى لسميع الدعاء . رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء . ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴾ .

النحـــل (١) :

﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين . شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم . وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ﴾ .

مريم (٤١ – ٥٥) (١) :

﴿ واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا إذ قال لأبيه : يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا . يا أبت إنى قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطا سويا . يا أبت لا تعبدِ الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا . يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن

= ولا يفوتنا أن نلمح تكرار إبراهيم – عليه السلام – فى كل فقرة من فقرات دعائه الخاشع المنيب لكلمة : « ربنا » أو « رب » . فإن لهجان لسانه بذكر ربوبية الله له ولبنيه من بعده ذات مغزى .. إنه لا يذكر الله – سبحانه – بصفة الألوهية ، إنما يذكره بصفة الربوبية . فالألوهية قلما كانت موضع جدال فى معظم الجاهليات – وبخاصة فى الجاهلية العربية – إنما الذى كان دائما موضع جدل هو قضية الربوبية . قضية الدينونة فى واقع الحياة الأرضية . وهى القضية العملية الواقعية المؤثرة فى حياة الإنسان . والتى هى مفرق الطريق بين الإسلام والجاهلية وبين التوحيد والشرك فى عالم الواقع .. فإما أن يدين الناس لله فيكون ربهم وإما أن يدينوا لغير الله فيكون غيره ربهم .. وهذا هو مفرق الطريق بين التوحيد والشرك وبين الإسلام والجاهلية فى واقع الحياة . والقرآن وهو يعرض على مشركى العرب دعاء أبيهم إبراهيم والتركيز فيه على قضية الربوبية كان يلفتهم إلى ما هم فيه من مخالفة واضحة لمدلول هذا الدعاء ؛ جامع البيان ، جـ ١٤ ، ص ٢٢٧ ، ٢٣٦ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ٢ ، ص ٥٤٠ ؛ فى ظلال القرآن .

(١) ١٢٠ – ١٢٣ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ٢ ، ص ٥٩٠ – ٥٩١ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ١٢٢ – ١٢٤ .

فتكون للشيطان وليا . قال أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليا . قال : سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيا . وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيا فلّما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا . واذكر فى الكتاب موسى إنه كان مخلصا وكان رسولا نبيا . وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا ، ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا . واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا ﴾.

الأنبياء :

﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل ، وكنا به عالمين . إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لهم عاكفون ﴾ . وفي تسمية الأخشاب والأحجار باسم هذه التماثيل دليل رشده ، ولم يقل إنها آلهة ، واستنكر أن يعكفوا على عبادتها ، فكان جوابهم أو حجتهم : ﴿ قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين ﴾ ..

وهو جواب يدل على التحجر العقلي والنفسي داخل قوالب التقاليد الميتة ، في مقابل حرية الإيمان ، وانطلاقه للنظر والتدبر ، وتقويم الأشياء والأوضاع بقيمتها الحقيقية لا التقليدية . فالإيمان بالله طلاقة وتحرر من القداسات الوهمية التقليدية ، والوراثات المتحجرة التي لا تقوم على دليل :

﴿ قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين ﴾ . وعندما واجههم إبراهيم بهذه الطلاقة فى التقدير ، وبهذه الصراحة فى الحكم ، راحوا يسألون : ﴿قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين ؟ ﴾[1] .

وهذا سؤال المزعزع العقيدة الذى لا يطمئن إلى ما هو عليه ، لأنّه لم يتدبره ولم يتحقق منه ، ولكنه كذلك يعطل الفكر والروح بتأثير الوهم فهو

---

(١) الأنبياء : ٥١ – ٧٣ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ١٨١ – ١٨٥ .

لا يدرى أى الأقوال أحق ، والعبادة تقوم على اليقين ، لا على الوهم المزعزع الذى لا يستند إلى دليل ، وهذا هو التيه ، الذى يتخبط فيه ، من لا يدينون ، بعقيدة التوحيد ، الناصعة ، الواضحة ، المستقيمة في العقل والضمير . أما إبراهيم فهو متيقن ، واثق ، عارف بربه . يقولها كلمة المؤمن المطمئن لإيمانه :

﴿قال بل ربكم رب السموٰات والأرض الذى فطرهن . وأنا على ذٰلكم من الشاهدين ﴾.

فهو رب واحد ، رب الناس ورب السموات والأرض ، لا كما يعتقد المشركون أن الآلهة أرباب فى الوقت الذى يقرون أنها لا تخلق .

ثم يعلن إبراهيم لمن كان يواجههم من قومه بهذا الحوار ، أنه قد اعتزم فى شأن آلهتهم أمرا لا رجعة فيه : ﴿ وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين فجعلهم جذاذاً إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون ﴾ .

وتحولت الآلهة إلى قطع صغيرة من الحجارة والأخشاب المهشمة إلا كبيرا للأصنام فقد تركه إبراهيم لعلهم إليه يرجعون فيسألونه كيف وقعت الواقعة وهو حاضر فلم يدفع عن صغار الآلهة ؟ وعاد القوم ليروا آلهتهم جذاذا إلا ذلك الكبير ؟ ولكنهم لم يرجعوا إليه يسألونه ، ولا إلى أنفسهم يسألونها إن كانت هذه آلهة فكيف وقع لها ما وقع دون أن تدفع عن أنفسها شيئا ، وهذا كبيرها كيف لم يدفع عنها ؟ لم يسألوا أنفسهم هذا السؤال لأن الخرافة قد عطلت عقولهم ، ولأن التفكير قد غل أفكارهم عن التأمل والتدبر . فإذا هم يدعون هذا السؤال الطبيعي لينقموا على من حطم آلهتهم ، وصنع بها هذا الصنيع .

﴿ قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين ﴾ .

وعندئذ تذكر الذين سمعوا إبراهيم ينكر على أبيه ومن معه عبادة هذه التماثيل ، ويتوعدهم أن يكيد لآلهتهم بعد انصرافهم عنها ؟

﴿ قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم ﴾ .

ويبدو من هذا أن إبراهيم – عليه السلام – كان شابا صغير السن حينما آتاه

الله رشده ، فاستنكر عبادة الأصنام وحطمها هذا التحطيم .

﴿ قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون ﴾ وقد قصدوا التشهير به ، وإعلان فعلته على رؤوس الأشهاد .

﴿ قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ﴾ فهم لا يزالون يصرون على أنها آلهة وهي جذاذ مهشمة فأما إبراهيم فهو يتهكم منهم ويسخر منهم . وهو فرد وحده وهم كثير . ذلك أنه ينظر لعقله المفتوح وقلبه الواصل فلا يملك إلا أن يهزأ بهم ويسخر ، وأن يجيبهم إجابة تناسب هذا المستوى العقلي الدون :

﴿ قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون ﴾ . ويبدو أن هذا التهكم الساخر قد هزهم هزا وردهم إلى شيء من التدبير والتفكير :

﴿ فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون ﴾ .

وكانت بادرة خير أن يستشعروا ما فى موقفهم من سخف ، وما في عبادتهم لهذه التماثيل من ظلم ، ولكنها لم تكن إلا ومضة واحدة أعقبها الظلام :

﴿ ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ﴾ .

وحقا لقد كانت الأولى رجعة إلى النفوس ، وكانت الثانية نكسة على الرؤوس . ومن ثم يجيبهم بعنف وضيق على غير عادته وهو الصبور الحليم ، لأن السخف هنا يجاوز صبر الحليم :

﴿ قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم أفٍ لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ﴾ . عند ذلك أخذتهم العزة بالإثم كما تأخذ الطغاة دائماً حين يفقدون الحجة ويعوزهم الدليل ، فيلجأون إلى القوة القاسية والعذاب الغليظ :

﴿قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين ﴾ فيا لها من آلهة ينصرها عبادها ، وهي لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً . ولا تحاول لها ولعبادها نصرا :

﴿ قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ﴾، فكانت برداً وسلاماً على إبراهيم ، ﴿ وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين ﴾ .

وقد روى أن الملك المعاصر (أورنامو ؟) قد أهلك هو والملأ من قومه بعذاب من عند الله . تختلف الروايات فى تفصيلاته ، وليس لنا عليها من دليل . المهم أن قد أنجى إبراهيم من الكيد الذى أريد به وباء الكائدون له بخسارة ما بعد خسارة ﴿ فجعلناهم الأخسرين ﴾ هكذا على وجه الإطلاق دون تحديد ....

﴿ ونجيناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين ﴾ .

وهى أرض الشام التى هاجر إليها وابن أخيه لوط . فكانت مهبط الوحي فترة طويلة ، ومبعث الرسل من نسل إبراهيم ، وفيها الأرض المقدسة . والمسجد الأقصى ، وفيها بركة الخصب والرزق ، إلى جانب بركة الوحى والنبوة جيلا بعد جيل .

﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة ، وكلا جعلنا صالحين ، وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وكانوا لنا عابدين ﴾ .

لقد ترك إبراهيم - عليه السلام - وطنا وأهلا وقوما . فعوضه الله الأرض المباركة وطنا خيرا من وطنه . وعوضه بابنه إسحاق وحفيده يعقوب أهلا خيرا من أهله ، وعوض من ذريته ، أمة عظيمة العدد ، قوما خيرا من قومه . وجعل من نسله أئمة يهدون بأمر الله وأوحى إليهم أن يفعلوا الخيرات على اختلافها ، وأن يقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، وكانوا طائعين لله عابدين . فنعم العوض ، ونعم الجزاء ، ونعمت الخاتمة التى قسمها الله لإبراهيم . لقد ابتلاه بالضراء فصبر ، فكانت الخاتمة الكريمة اللائقة بصبره الجميل .

الحــج (١) :

﴿ إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم . وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بى شيئا وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق . ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير . ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق . ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه وأحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا

---

(١) ٢٥ – ٣٧ : الأساس الذى أقيم عليه المسجد الحرام يوم فوض الله إبراهيم – عليه السلام – فى بنائه ، والأذان فى الناس بالحج إليه : – ولقد كلف إبراهيم أن يقيم هذا البيت على التوحيد ، وأن ينفى عنه الشرك ، وأن يجعله للناس جميعا سواء المقيم فيه والطارىء عليه ، لا يمنع عنه أحد ، ولا يملكه أحد .. ويستطرد إلى بعض شعائر الحج وما وراءها من استجاشة القلوب للتقوى وذكر الله والاتصال به .. وينتهى إلى ضرورة حماية المسجد الحرام من عدوان المعتدين الذين يصدون عنه ويغيرون الأساس الذى قام عليه ، وبوعد الله للمدافعين بالنصر متى نهضوا بالتكاليف التى تفرضها حماية العقيدة .

﴿ إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس ، سواء العاكف فيه والباد . ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم ﴾ ..

وكان ذلك فعل المشركين من قريش : أن يصدوا الناس عن دين الله – وهو سبيله الواصل إليه ، وهو طريقه الذى شرعه للناس ، وهو نهجه الذى اختاره للعباد – وأن يمنعوا المسلمين من الحج والعمرة إلى المسجد الحرام – كما فعلوا عام الحديبية – وهو الذى جعله الله للناس منطقة أمان ودار سلام وواحة اطمئنان . يستوى فيه المقيم بمكة والطارىء عليها . فهو بيت الله الذى يتساوى فيه عباد الله ، فلا يملكه أحد منهم ، ولا يمتاز فيه أحد منهم : « سواء العاكف فيه والباد » .

ولقد كان هذا النهج الذى شرعه الله فى بيته الحرام سابقا لكل محاولات البشر فى إيجاد منطقة حرام . يلقى فيها السلام ، ويأمن فيها المتخاصمون ، وتحقن فيها الدماء ، ويجد كل أحد فيها مأواه . لا تفضلا من أحد ، ولكن حقا يتساوى فيه الجميع . =

ـــــــــــــــــــــــ

= وقد اختلفت أقوال الفقهاء فى جواز الملكية الفردية لبيوت مكة غير المسكونة بأهلها . وفى جواز كراء هذه البيوت عند من أجاز ملكيتها .. فذهب الشافعى رحمه الله – إلى أنها تملك وتورث وتؤجر محتجا بما ثبت من أن عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – اشترى من صفوان بن أمية دارا بمكة بأربعة آلاف درهم فجعلها سجنا . وذهب إسحاق بن راهويه – رحمه الله – إلى أنها لا تورث ولا تؤجر ، وقال : توفى رسول الله – ﷺ – وأبو بكر وعمر ، وما تدعى رباع مكة (جمع ربع) إلا السوائب ، ومن احتاج سكن ، ومن استغنى أسكن . وقال عبد الرزاق عن مجاهد عن أبيه عن عبد الله بن عمر – رضى الله عنهم – أنه قال : لا يحل بيع دور مكة ولا كراؤها . وقال أيضا عن ابن جريج : كان عطاء ينهى عن الكراء فى الحرم وأخبرنى أن عمر بن الخطاب كان ينهى عن تبويب دور مكة لأن ينزل الحاج فى عرصاتها ، فكان أول من بوب سهيل بن عمرو ، فأرسل إليه عمر بن الخطاب فى ذلك ، فقال : انظرنى يا أمير المؤمنين إنى كنت امرأ تاجرا ، فأردت أن أتخذ لى بابين يحبسان لى ظهرى (أى ركائبى) قال : فلك ذلك إذن . وقال عبد الرزاق عن معمر عن منصور عن مجاهد أن عمر بن الخطاب قال : يا أهل مكة لا تتخذوا لدوركم أبوابا لينزل البادى حيث يشاء .. وتوسط الإمام أحمد – رحمه الله – فقال : تملك وتورث ولا تؤجر . جمعا بين الأدلة (تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ٢١٤) .

وهكذا سبق الإسلام سبقا بعيدا بإنشاء واحة السلام ، ومنطقة الأمان ودار الإنسان المفتوحة لكل إنسان ! والقرآن الكريم يهدد من يريد اعوجاجا فى هذا النهج المستقيم بالعذاب الأليم : ﴿ ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم ﴾ .. فما بال من يريد ويفعل ؟ إن التعبير يهدد ويتوعد على مجرد الإرادة زيادة فى التحذير ، ومبالغة فى التوكيد . وذلك من دقائق التعبير .

ومن دقائق التعبير كذلك أن يحذف خبر إن فى الجملة : إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام .. فلا يذكرهم مالهم ؟ ما شأنهم ؟ ما جزاؤهم كأن مجرد ذكر هذا الوصف لهم يغنى عن كل شيء آخر فى شأنهم ، ويقرر أمرهم ومصيرهم !

ثم يرجع إلى نشأة هذا البيت الحرام ، الذى يستبد به المشركون ، يعبدون فيه الأصنام ، ويمنعون منه الموحدين بالله ، المتطهرين من الشرك .. يرجع إلى نشأته على يد إبراهيم – عليه السلام – بتوجيه ربه وإرشاده . ويرجع إلى القاعدة التى أقيم عليها وهى قاعدة التوحيد . وإلى الغرض من إقامته وهو عبادة الله الواحد وتخصيصه للطائفين به والقائمين لله فيه :

﴿ وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ألا تشرك بى شيئا ، وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود . وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم ، ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ، فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير . ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق ﴾ ..

فللتوحيد أقيم هذا البيت منذ أول لحظة . عرف الله مكانه لإبراهيم – عليه السلام – وملكه أمره ليقيمه على هذا الأساس : ﴿ ألا تشرك بى شيئا ﴾ فهو بيت الله وحده دون سواه . وليطهره به من الحجيج ، والقائمين فيه للصلاة : ﴿ وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود ﴾ فهؤلاء هم الذين أنشئ البيت لهم ، لا لمن يشركون بالله ، ويتوجهون بالعبادة إلى سواه .

قول الزور . حنفاء لله غيرمشركين[1] به ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق . ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها

---

(١) ولما كان المشركون يحرمون بعض الأنعام – كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحامى – فيجعلون لها حرمة ، وهى ليست من حرمات الله بينما هم يعتدون على حرمات الله – فإن النص يتحدث عن حل الأنعام إلا ما حرم الله منها – كالميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به : ﴿ وأحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم ﴾ . وذلك كى لا تكون هنالك حرمات إلا لله ، وألا يشرع أحد إلا بإذن الله ، ولا يحكم إلا بشريعة الله .

وبمناسبة حل الانعام يأمر باجتناب الرجس من الأوثان . وقد كان المشركون يذبحون عليها وهى رجس – والرجس دنس النفس – والشرك بالله دنس يصيب الضمير ويلوث القلوب ، ويشوب نقاءها وطهارتها كما تشوب النجاسة الثوب والمكان .

ولأن الشرك افتراء على الله وزور ، فإنه يحذر من قول الزور كافة : ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور ﴾ ..

ويغلظ النص من جريمة قول الزور إذ يقرنها إلى الشرك .. وهكذا روى الإمام أحمد – بإسناده عن فاتك الأسدى قال : صلّى رسول الله – ﷺ – الصبح فلما انصرف قام قائماً فقال : « عدلت شهادة الزور الإشراك بالله عز وجل ، ثم تلا هذه الآية .... »

إنما يريد الله من الناس أن يميلوا عن الشرك كله ، وأن يجتنبوا الزور كله ، وأن يستقيموا على التوحيد الصادق الخالص ﴿ حنفاء لله غير مشركين به ﴾ .. ثم يرسم النص مشهدا عنيفا يصور حال من تزل قدماه عن أفق التوحيد ، فيهوى إلى درك الشرك فإذا هو ضائع ذاهب بددا كأن لم يكن من قبل أبدا :

﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ﴾ ..

إنه مشهد الهوى من شاهق ﴿ فكأنما خر من السماء ﴾ وفى مثل لمح البصر يتمزق ﴿ فتخطفه الطير ﴾ أو تقذف به الريح بعيدا عن الأنظار : ﴿ أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ﴾ فى هوة ليس قرارا .

والملحوظ هو سرعة الحركة مع عنفها وتعاقب خطواتها فى اللفظ « بالفاء » وفى المنظر بسرعة الاختفاء .. على طريقة القرآن الكريم فى التعبير بالتصوير .

وهى صورة صادقة لحال من يشرك بالله ، فيهوى من أفق الإيمان السامق إلى حيث الفناء والانطواء . إذ يفقد القاعدة الثابتة التى يطمئن إليها . قاعدة التوحيد . ويفقد المستقر الآمن الذى يثوب إليه ، فتتخطفه الأهواء تخطف الجوارح ، وتتقاذفه الأوهام تقاذف الرياح . وهو لا يمسك بالعروة الوثقى ، ولا يستقر على القاعدة الثابتة ، التى تربطه بهذا الوجود الذى يعيش فيه .

ثم يعود السياق من تعظيم حرمات الله باتقائها والتحرج من المساس بها إلى تعظيم شعائر الله – وهى ذبائح الحج – باستحسانها وغلاء أثمانها ﴿ ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب . لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ، ثم محلها إلى البيت العتيق ﴾ .

ويربط بين الهدى الذى ينحره الحاج وتقوى القلوب ، إذ إن التقوى هى الغاية من مناسك الحج وشعائره . وهذه المناسك والشعائر إن هى إلا رموز تعبيرية عن التوجه إلى رب البيت وطاعته . وقد تحمل فى طياتها ذكريات قديمة من عهد إبراهيم – عليه السلام – وما تلاه . وهى ذكريات الطاعة والإنابة ، والتوجه إلى الله منذ نشأة هذه الأمة المسلمة . فهى والدعاء والصلاة سواء .

وهذه الأنعام التى تتخذ هديا ينحر فى نهاية أيام الإحرام يجوز لصاحبها الانتفاع بها . إن كان فى حاجة إليها يركبها ، أو فى حاجة إلى ألبانها يشربها ، حتى تبلغ محلها – أى مكان حلها – وهو البيت العتيق . ثم تنحر هناك ليأكل منها . ويطعم البائس الفقير .

« وقد كان المسلمون على عهد النبى – ﷺ – يغالون فى الهدى ، يختارونه سمينا غالى الثمن ، يعلنون بها عن تعظيمهم لشعائر الله ، ومدفوعين بتقوى الله . روى عبد الله بن عمر – رضى الله عنهما – قال : أهدى عمر نجيبا فأعطى بها ثلاث مائة دينار ، فأتى النبى – ﷺ – فقال : يا رسول الله إنى أهديت نجيبا ، فأعطيت بها ثلاث مائة دينار . أفأبيعها واشترى بثمنها بدنا ؟ قال : « لا انحرها إياها » .

والناقة النجيب التى جاءت هدية لعمر – رضى الله عنه – وقومت بثلاث مائة دينار لم يكن عمر – رضى الله عنه – يريد أن يضن بقيمتها ، بل كان يريد أن يبيعها فيشترى بها نوقا أو بقرا للذبح . فشاء رسول الله – ﷺ – أن يضحى بالنجيب ذاتها لنفاستها وعظم قيمتها ، ولا يستبدل بها نوقا كثيرة ، وقد تعطى لحما أكثر ، ولكنها من ناحية القيمة الشعورية أقل . والقيمة الشعورية مقصودة ﴿ فإنها من تقوى القلوب ﴾ . وهذا هو المعنى الذى لحظه رسول الله –ﷺ – وهو يقول لعمر – رضى الله عنه « انحرها إياها » هى بذاتها لا سواها !

هذه الذبائح يذكر القرآن الكريم أنها شعيرة معروفة من شتى الأمم ، إنما يوجهها الإسلام وجهتها الصحيحة حين يتوجه بها إلى الله وحده دون سواه :

﴿ ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فإلهكم إله واحد . فله أسلموا وبشر المخبتين ، الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، والصابرين على ما أصابهم ، والمقيمى الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون ﴾ ..

والإسلام يوحد المشاعر والاتجاهات ، ويتوجه بها كلها إلى الله . ومن ثم يعنى بتوجيه الشعور والعمل ، والنشاط والعبادة ، والحركة والعادة . إلى تلك الوجهة الواحدة . وبذلك تصطبغ الحياة كلها بصبغة العقيدة .

وعلى هذا الأساس حرم من الذبائح ما أهل لغير الله به ، وحتم ذكر اسم الله عليها ، حتى ليجعل ذكر اسم الله هو الغرض البارز ، وكأنما تذبح الذبيحة بقصد ذكر اسم الله . ﴿ ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ﴾ ..

من تقوى القلوب .. لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ثم مِحلها إلى البيت العتيق . ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على مارزقهم من بهيمة الأنعام فإلهكم إله واحد فله أسلموا وبشر المخبتين . الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمى الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والبدن جعلناهم لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون – لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين ﴾ .

= ويعقب بتقرير الوحدانية : « فإلهكم إله واحد » .. وبالأمر بالإسلام له وحده : ﴿ فله أسلموا ﴾ .. وليس هو إسلام الإجبار والاضطرار . إنما هو إسلام التسليم والاطمئنان : ﴿ وبشر المخبتين ، الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾ فبمجرد ذكر اسم الله يحرك الوجل فى ضمائرهم ومشاعرهم . ﴿ والصابرين على ماأصابهم ﴾ . فلا اعتراض لهم على قضاء الله فيهم . ﴿ والمقيمى الصلاة ﴾ . فهم يعبدون الله حق عبادته ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ فهم لا يضنون على الله بما فى أيديهم ..

وهكذا يربط بين العقيدة والشعائر . فهى منبثقة من العقيدة وقائمة عليها والشعائر تعبير عن هذه العقيدة ورمز لها . والمهم أن تصطبغ الحياة كلها ويصطبغ نشاطها كله بتلك الصبغة ، فتتوحد الطاقة ويتوحد الاتجاه ، ولا تتمزق النفس الإنسانية فى شتى الاتجاهات .

ويستطرد السياق فى تقرير هذا المعنى وتوكيده وهو يبين شعائر الحج بنحر البدن .

﴿ والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير ، فاذكروا اسم الله عليها صواف . فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر . كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون .. لن ينال الله لحومها ولا دماؤها . ولكن يناله التقوى منكم كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم ، وبشر المحسنين ﴾ ..

ويخص البدن بالذكر لأنها أعظم الهدى ، فيقرر أن الله أراد بها الخير لهم فجعل فيها خيرا وهى حية تركب وتحلب ، وهى ذبيحة تهدى وتطعم فجزاء ما جعلها الله خيرا لهم أن يذكروا اسم الله عليها ويتوجهوا بها إليه وهى تهيأ للنحر بصف أقدامها : ﴿ فاذكروا اسم الله عليها صواف ﴾ والإبل تنحر قائمة على ثلاث معقولة الرجل الرابعة ﴿ فإذا وجبت جنوبها ﴾ واطمأنت على الأرض بموتها أكل منها أصحابها استحبابا . وأطعموا منها الفقير القانع الذى لا يسأل والفقير المعتر الذى يتعرض للسؤال . فلهذا سخرها الله للناس ليشكروه على ما قدر لهم فيها من الخير حية وذبيحة : ﴿ كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون ﴾ ..

وهم حين يؤمرون بنحرها باسم الله ﴿ لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ﴾ فإن اللحوم والدماء لا تصل إلى الله سبحانه . إنما تصل إليه تقوى القلوب وتوجهاتها – لا كما كان مشركو قريش يلطخون أوثانهم وآلهتهم بدماء الأضحيات على طريقة الشرك المنحرفة الغليظة (انظر تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ٢١٥ – ٢٢٤ .

الشعـراء (٦٩ – ٨٩) :

﴿ واتل عليهم نبأ إبراهيم إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون . قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين . قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون . قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون . قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون . أنتم وآباؤكم الأقدمون . فإنهم عدو لى إلا رب العالمين . الذى خلقنى فهو يهدين . والذى هو يطعمني ويسقين . وإذا مرضت فهو يشفين . والذى يميتنى ثم يحيين . والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين . ربِّ هب لى حكما وألحقنى بالصالحين . واجعل لى لسان صدق فى الآخرين . واجعلنى من ورثة جنة النعيم . واغفر لأبى إنه كان من الضالين . ولا تخزنى يوم يبعثون . يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ (١) .

النمـل (٩١ – ٩٣) :

﴿ إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرمها ، وله كل شيء وأمرت أن أكون من المسلمين . وأن أتلو القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين . وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها ، وما ربك بغافل عما تعملون ﴾(٢) .

العنكبوت (١٦ – ٢٧) :

﴿ وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون . وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول إلا البلاغ المبين . أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير . قل

---

(١) تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ٣٣٧ – ٣٣٨ .

(٢) وكان أهل مكة قبل رسالة محمد يستمدون سيادتهم على العرب من عقيدة تحريم البيت . ثم لا يوحدون الله فى حرمه وأقام حياتهم كلها عليه . انظر جامع البيان ، جـ ٢٠ ، ص ٢٤ – ٢٦ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ٣٧٨ .

سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشيء النشاة الآخرة إن الله على كل شيء قدير . يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون . وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتى وأولئك لهم عذاب أليم . فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه فأنجاه الله من النار إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون . وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين . فآمن له لوط وقال إنى مهاجر إلى ربى إنه هو العزيز الحكيم . ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ﴾ (١) . ﴿ أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون ﴾ (٢) .

الصافات (٣) :

﴿ وإن من شيعته لإبراهيم . إذ جاء ربّه بقلب سليم . إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون . أئفكا آلهة دون الله تريدون . فما ظنكم برب العالمين . فنظر نظرة فى النجوم . فقال إنى سقيم . فتولوا عنه مدبرين . فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون . مالكم لا تنطقون . فراغ عليهم ضربا باليمين . فأقبلوا إليه يزفون . قال أتعبدون ما تنحتون . والله خلقكم وما تعملون . قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم . فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين . وقال إنى ذاهب إلى ربى سيهدين . رب هب لى من الصالحين . فبشرناه بغلام حليم . فلما بلغ معه السعى قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين . فلما أسلما وتله للجبين ، وناديناه أن يا إبراهيم . قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين . إن هذا لهو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم . وتركنا عليه فى الآخرين . سلام على إبراهيم .

---

(١) تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ٤٠٧ - ٤١١ .
(٢) ٦٧ ، انظر جامع البيان ، جـ ٢١ ، ص ١٣ - ١٤ .
(٣) ٨٣ - ١١٣ ؛ جامع البيان ، جـ ٢٣ ، ص ٦٩ - ٧٦ .

كذلك نجزى المحسنين . إنه من عبادنا المؤمنين . وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين . وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين ﴾ (١) .

ص : (٤٥ - ٤٨) :

﴿ واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار . وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار . واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل وكُلٌّ من الأخيار ﴾ .

المتحنة (٤ - ٦) :

﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنّا بِرَاؤا منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء بدا حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شىء ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير . ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم . لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد ﴾ (٢) .

---

(١) تفسير القرآن العظيم ، جـ ٤ ، ص ٤٠ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ، جـ ٤ ، ص ٣٤٧ - ٣٤٨ .

ثانيا : الحديث الشريف :

- إبراهيم عليه السلام فى مصر ؟
- جبار مصر يخدم إبراهيم هاجر
- إسماعيل يتربى بجوار بيت الله الحرام .
- إبراهيم (عليه السلام) يعود ليرى ابنه شابا متزوجا .
- إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام يرفعان القواعد من البيت .

١ – « عن أبى هريرة [(١)] – رضى الله عنه – عن رسول الله ﷺ . قال بينما هو (أى إبراهيم عليه السلام) ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار من الجبابرة فقيل له إن ها هنا رجلا معه امرأة من أحسن الناس فأرسل إليه يسأله عنها . فقال من هذه قال أختى ، فأتى سارة قال : يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيرى وغيرك ، وإن هذا سألنى فأخبرته إنك أختى فلا تكذبينى ، فأرسل إليها ، فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأخذ ، فقال : ادعى الله لى ولا أضرك فدعت الله فأطلقه ، ثم تناولها الثانية فأخذ مثلها أو أشد ، فقال ادعى الله لى ولا أضرك ، فدعت فأطلق ، فدعا بعض حجبته ، فقال : إنكم لم تأتونى بإنسان إنما آتيتمونى بشيطان فأخدمها هاجر ، فأتته وهو قائم يصلى فأومأ بيده مهيا ، قالت رد الله كيد الكافر أو الفاجر فى نحره وأخدم هاجر ، قال أبو هريرة ، تلك أمكم يا بنى ماء السماء » .

٢ – وقال النبى [(٢)] ﷺ : « قال إبراهيم لامرأته هذه أختى وذلك فى الله » :

* إبراهيم وهاجر ينزلون بجوار بيت الله الحرام .
* إسماعيل يصل مع أبويه طفلا رضيعا .

---

(١) صحيح أبى عبد الله البخارى ، جـ ٤ ، ص ١٧١ ، جـ ٩ ، ٢٨ ؛ جامع البيان ، جـ ٢٨ ، ص ٩٣ – ١٠٣ ؛ فتح البارى ، جـ ٦ ، ص ٣٨٨ – ٣٩٥ .

(٢) صحيح أبى عبد الله البخارى ، جـ ٩ ، ٢٨ .

* رحيل إبراهيم عليه السلام وتركه زوجه هاجر وابنه إسماعيل .
* هاجر تسعى بين الصفا والمروة بحثا عن الماء لطفلها الرضيع .
* الله سبحانه وتعالى يرسل ملكا يفجر ماء زمزم ، لتشرب الأم ويرضع الطفل .
* جرهم ينزلون بجوار البيت بعد إذن أم إسماعيل .

عن سعيد بن جبير [(١)] قال ما هكذا حدثنى ابن عباس قال : أقبل إبراهيم بإسماعيل وأمه عليهم السلام وهى ترضعه معها شنة لم يرفعه ، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل .

قال ابن عباس أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل اتخذت منطقا لتعفى أثرها على سارة ، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل ، وهى ترضعه ، حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم فى أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس بها ماء فوضعهما هنالك ، ووضع عندهما جرابا فيه تمر ، وسقاء فيه ماء ، ثم قضى إبراهيم منطلقا ، فتبعته أم إسماعيل ، فقالت يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى ، الذى ليس فيه إنس ، ولا شيء ، فقالت له ذلك مرارا وجعل لا يلتفت إليها فقالت له آلله الذى امرك بهذا ؟. قال : نعم قالت : إذن لا يضيعنا . ثم رجعت فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حتى لا يرونه استقبل بوجهه البيت ، ثم دعا بهؤلاء الكلمات ورفع يديه قال : رب إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع حتى بلغ يشكرون ، وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء ، حتى إذا نفذ ما فى السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر إليه يتلوى أو قال يتلبط فانطلقت كراهية أن تنظر إليه . فوجدت الصفا أقرب جبل فى الأرض يليها فقامت عليه ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحدا فلم تر أحدا فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادى رفعت طرف ذراعها ثم سعت سعى الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادى ، ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحدا فلم تر أحدا ، ففعلت ذلك سبع مرات قال ابن عباس : قال النبى ﷺ فذلك سعى الناس بينهما ، فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا

---

(١) جامع البيان ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ١٧٦ وما بعدها ؛ صحيح أبى عبد الله البخارى ، جـ ٤ ، ١٧٢ - ١٧٥ ؛ فتح البارى ، جـ ٦ ، ص ٣٩٥ - ٤٠٧ .

فقالت صه تريد نفسها ثم تسمعت ، فسمعت أيضا ، فقالت قد أسمعت إن كان عندك غواث ، فإذا هى بالملك عند موضع زمزم ، فبحث بعقبه أو قال بجناحه ، حتى ظهر الماء ، فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا ، وجعلت تغرف من الماء فى سقائها وهو يفور بعد ما تغرف . قال ابن عباس : قال النبى ﷺ وسلم يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم أو قال لو لم تغرف من الماء ، لكانت زمزم عينا معينا قال فشربت وأرضعت ولدها ، فقال لها الملك لا تخافوا الضيعة ، فإن هاهنا بيت الله يبنى هذا الغلام وأبوه . وإن الله لا يضيع أهله ، وكان البيت مرتفعا من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله ، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كداء فنزلوا فى أسفل مكة فرأوا طائرا عائفا فقالوا إن هذا الطائر ليدور على ماء لعهدنا بهذا الوادى وما فيه ماء ، فأرسلوا جريا أو جريين فإذا هم بالماء ، فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا قال وأم إسماعيل عند الماء ، فقالوا أتأذنين لنا أن ننزل عندك ؟ ، فقالت : نعم ولكن لاحق لكم فى الماء ، قالوا : نعم ، قال ابن عباس : قال النبى ﷺ : فألفى ذلك أم إسماعيل وهى تحب الأنس فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم ، وشب الغلام وتعلم العربية منهم ، وأنفسهم وأعجبهم حين شب ، فلما أدرك زوجوه امرأة منهم ، وماتت أم إسماعيل ، فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل يطالع تركته فلم يجد إسماعيل فسأل امرأته عنه فقالت : خرج يبتغى لنا ، ثم سألها عن عيشتهم وهيئتهم ، فقالت : نحن بشر نحن فى ضيق وشدة ، فشكت إليه وقال : فإذا جاء زوجك فأقرئى عليه السلام وقولى له يغير عتبة بابه ، فلما جاء إسماعيل كأنه أنس شيئا .. فقال : هل جاءكم من أحد ؟ ، قالت : نعم ، جاءنا شيخ كذا وكذا فسألنا عنك فأخبرته ، وسألنى كيف عيشنا فأخبرته أنا فى جهد وشدة ، قال : فهل أوصاك بشيء ؟ قالت نعم : أمرنى أن أقرأ عليك السلام ، ويقول غير عتبة بابك ، قال : ذاك أبى ، وقد أمرنى أن أفارقك الحقى بأهلك فطلقها ، وتزوج منهم أخرى ، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ، ثم أتاهم بعد فلم يجده ، فدخل على امرأته فسألها عنه ، فقالت : خرج يبتغى لنا قال : كيف أنتم ، وسألها عن عيشهم وهيئتهم ، فقالت : نحن بخير وسعة ، وأثنت على الله . فقال : ما طعامكم ؟

قالت : اللحم ، قال : فما شرابكم ؟ قالت : الماء . قال : اللهم بارك لهم فى اللحم والماء . قال : النبى ﷺ ولم يكن لهم يومئذ حب ، ولو كان لهم حب لدعا لهم فيه ، قال : فهما لا يخلو عليهما أحد بعين مكة إلالم يوافقاه ، قال : فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام ، ومريه يثبت ، عتبة بابه ، فلما جاء إسماعيل قال : هل ؟ أتاكم من أحد قالت : نعم أتانا شيخ حسن الهيئة وأثنت عليه فسألنى عنك فأخبرته فسألنى كيف عيشنا فأخبرته أنا بخير قال : فأوصاك بشىء ؟ قالت : نعم هو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك قال : ذاك أبى وأنت العتبة أمرنى أن أمسكك ثم لبث عنهم ما شاء الله ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبرى نبلا له تحت دوحة قريبا من زمزم ، فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد ، ثم قال : يا إسماعيل إن الله أمرنى بأمر قال : فاصنع ما أمرك ربك ، قال : وتعيننى ؟ قال : وأعينك ، قال : فإن الله أمرنى أن أبنى هاهنا بيتا ، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها قال : فعند ذلك رفعا القواعد من البيت ، فجعل إسماعيل يأتى بالحجارة وإبراهيم يبنى حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه وهو يبنى وإسماعيل يناوله الحجارة قال : فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم .

المصـــادر والمراجـــع

المصـادر المعتمدة :

القرآن الكريم وما يتصل به من كتب التفسير :

– جامع البيان عن تأويل آى القرآن ، (الشهير بتفسير الطبرى) ، تأليف أبي جعفر محمد بن جرير الطبرى ، مكتبة الحلبى ، القاهرة ١٣٨٨ هـ .

– الجامع لأحكام القرآن ، (الشهير بتفسير القرطبي) تأليف أبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى ، دار إحياء التراث العربى ، بيروت ١٩٦٦ م .

– تفسير القرآن العظيم ، (الشهير بتفسير ابن كثير) ، تأليف الإمام الجليل الحافظ عماد الدين أبى الفداء إسماعيل بن كثير القرشى الدمشقى (ت ٧٧٤ هـ) ، دار الفكر ، بيروت .

– فى ظلال القرآن ، تألف سيد قطب . دار الشروق بيروت ١٣٩٣ هـ .

صحيح الحديث وشروحها :

– صحيح أبى عبد الله البخارى ، تأليف أبى عبد الله البخارى ، مكتبة المشهد الحسينى ، القاهرة .

– مختصر صحيح مسلم ، للإمام أبى الحسين مسلم بن الحجاج القشيرى النيسابورى ، للحافظ زكى الدين عبد العظيم بن عبد القوى بن سلامة المنذرى الدمشقى ، تحقيق محمد ناصر الدين الألبانى ط ٣ ، المكتب الإسلامي ١٣٩٥ هـ .

– سلسلة الأحاديث الصحيحة تأليف محمد ناصر الدين الألبانى ، المكتب

الإسلامى صحيح الجامع الصغير وزيادته تأليف محمد ناصر الدين الألبانى المكتب الإسلامى .

- فتح البارى بشرح صحيح البخارى ، تأليف أحمد بن علي بن حجر العسقلانى (٧٧٣ - ٨٥٢ هـ) ، عاون فى طبعه وإخراجه محمد فؤاد عبد الباق ومحب الدين الخطيب ، دار المعرفة ، بيروت .
- مفتاح كنوز السنة ، نقله إلى العربية محمد فؤاد عبدالباق .
- المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى عن الكتب الستة وعن مسند الدارمي وموطأ مالك ، ومسند أحمد بن حنبل : ابتدأ ترتيبه وتنظيمه ونشره أ . ى . ونسنك ، و ى . ب . منسنج ، واتبع نشره ى . بروخمان ، مطبعة بريل ، ليدن ١٩٦٩ م .

مصــادر متنوعـه :

- الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، تأليف أبي الحسن على بن محمد بن حبيب البصرى ، البغدادى الماوردى (٤٥٠ هـ) ط ١ ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، القاهرة ١٣٨٠ هـ/ط ١٩٦٠ م .
- الأحكام السلطانية ، تصنيف القاضي أبي يعلى محمد بن الحسين بن خلف ابن أحمد الفراء البغدادى الحنبلي (٤٥٨ هـ) ، صححه وعلق عليه محمد حامد الفقي ، ط ١ ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، القاهرة ١٣٥٦ هـ .
- الإسلام : تأليف سعيد حوى .
- السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية لتقي الدين بن تيمية ، ط ٤ ، دار الكتاب العربى ، مصر ١٩٦٩ م .
- البداية والنهاية ، تأليف الإمام الجليل الحافظ عماد الدين أبى الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقى ، مكتبة المعارف ، بيروت .
- السيرة النبوية ، نفس المؤلف السابق الذكر ، تحقيق مصطفى عبد الواحد ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٣٩٦ هـ .

– تلبيس إبليس : لابن الجوزى البغدادى .

– زاد المعاد فى هدى خير العباد محمد خاتم النبيين وإمام المرسلين ، تأليف ابن قيم الجوزية ، القاهرة .

– شرح العقيدة الطحاوية ، للإمام الفقيه المحدث ابن أبى العز الحنفى ، شرح وحقق أحاديثه الشيخ محمد ناصر الدين الألباني وجماعة من العلماء ، ط ١ ، المكتب الإسلامي ، دمشق ١٣٩٢ هـ .

– سيرة النبى محمد ﷺ تأليف أبى محمد بن عبدالملك بن هشام بن أيوب الحميرى (ت ٢١٨ هـ) راجعه وعلق عليه محمد خليل هراس ، مكتبة الجمهورية القاهرة .

– مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية جمع وترتيب عبدالرحمن بن محمد بن قاسم مكتبة المعارف ، الرياض المغرب .

– **فقه السنة تأليف سيد سابق .**

– منهاج المسلم ، تأليف أبى بكر جابر الجزائرى ط ٨ ، دار الفكر ، بيروت ١٣٩١ هـ .

– **الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر تأليف د. محمد محمد حسين ، دار النهضة العربية ، بيروت .**

مراجع كتبها المستشرقون ومن سار على نهجهم أو تبنى أفكارهم، وهى تحوى:

تحريفا أو تشويها أو تزييفا لتاريخ إبراهيم وإسماعيل وهاجر عليهم السلام ، وتاريخ الحرم الآمن وبيت الله العتيق ومكة المكرمة ومناسك الحج .

– الموسوعة العربية الميسرة ، اشترك في تحريرها عديد من أساتذة الجامعات ، وأشرف عليها محمد شفيق غربال ، جـ ١ ، القاهرة ١٩٦٥ م .

– الحضارات السامية القديمة ، تأليف س . موسكاتى ترجمة د . السيد يعقوب بكر .

– المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ، تأليف جواد على ، العراق ١٩٧٠ م .

- العرب قبل الإسلام ، تأليف جورجى زيدان ، القاهرة .
- الدعوة إلى الإسلام ، تأليف توماس ارنولد ، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرون ، القاهرة .
- تاريخ العرب المطول ، تأليف فيليب حتى وآخرون ، بيروت .
- تاريخ التمدن الإسلامي ، تأليف جورجي زيدان ، دار الهلال ، القاهرة .
- تاريخ العرب العام ، تأليف ل . أ . سيديو ، ترجمة عادل زعيتر ، ط ٢ ، القاهرة ١٣٨٩ هـ .
- تاريخ العرب ، عصر ما قبل الإسلام ، تأليف محمد مبروك نافع ، القاهرة .
- حضارة العرب ، تأليف جوستاف لوبون ، ترجمة عادل زعيتر ، مطبعة الحلبى ، القاهرة .
- دائرة معارف القرن العشرين ، تأليف محمد فريد وجدى ، مطبعة الشعب ، القاهرة
- دائرة المعارف الإسلامية ، قام بتأليفها مجموعة من المستشرقين .
- دراسات تاريخية من القرآن الكريم « فى بلاد العرب » ، تأليف الدكتور محمد بيومي مهران ،
- سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين في النصف الأول من القرن العشرين ، تأليف د . حسن صبرى الخولي ، دار المعارف ، مصر ١٩٧٣ م .
- **عصر ما قبل الإسلام : تأليف فيلبى .**
- قصة الحضارة ، تأليف ول . ديورانت ، ترجمة محمد بدران ، إدارة التأليف والنشر ، جامعة الدول العربية ، القاهرة .
- **فى الأدب الجاهلى : طه حسين .**
- موسوعة العقاد الإسلامية ، تأليف عباس محمود العقاد ، جـ ١ ، دار الكتاب العربى ، بيروت ١٩٦١ .

- موسوعة « تاريخ العالم » أشرف على إعداده جون أ. هامرتن ، وقام بتأليفه لفيف من أساتذة الجامعات ، وقام بالترجمة بعض الأساتذة هم محمد بدران ، وعبد الحميد يونس ، ومحمد إبراهيم الدسوقى ، د . محمد عوض محمد وإبراهيم زكى خورشيد ، ط ٢ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة .
- معالم تاريخ الإنسانية التى أصدرها هـ . ج . ولز وشارك فى تأليفها مجموعة من أساتذرة الجامعات ، وقام على ترجمتها د . عبد العزيز توفيق جاويد ، ط٣ ، القاهرة ١٩٦٧ م .
- موسوعة تاريخ العالم ، التى أعدها لانجر وترجمها د . راشد البراوى ، محمد على أبو درة ، القاهرة ١٩٧١ .

المحتويـــات

الموضـــــوع	الصفحة
تمهيـــد	٧
المقدمـــة	١٣

الفصـــل الأول

الجزء الأول : سيرة إبراهيم وإسماعيل وهاجر عليهم السلام ٢١

المرحلة الأولى :

(ا) إبراهيم عليه السلام على أرض الرافدين (دجلة والفرات) .. ٢١

(ب) إبراهيم عليه السلام يحاول أن يستنقذ أباه وقومه من ظلمات الشرك والجاهلية التى يعيشون فيها ٢٣

(جـ) إبراهيم عليه السلام يحطم آلهة قومه المزعومة متحدياً بذلك المجتمع بأسره ويتعرض للابتلاء ٢٤

(د) الخسران الذى حل بأهل الرافدين (العراق) ٢٥

المرحلة الثانية :

هجرة الخليل إبراهيم ولوط عليهما السلام إلى بيت المقدس ٢٨

الجزء الثانى ٢٩

المرحلة الثالثة :

(ا) إبراهيم عليه السلام وزوجه سارة فى مصر ٣٠

(ب) إبراهيم وسارة عليهما السلام يتلقيان البشرى بميلاد إسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب عليهما السلام ٣٣

الجزء الثالث ٣٦

المرحلة الرابعة :

(ا) إبراهيم وإسماعيل وهاجر عليهم السلام بجوار بيت الله الحرام ٣٦

(ب) إبراهيم عليه السلام إمام للمسلمين ٤٥

الفصـــل الثانى

سيرة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وبعض المعالم الضرورية لحياة الأمة الإسلامية ٥٩

الفصـــل الثالث

الجزء الأول : إبراهيم عليه السلام يؤمر بذبح ابنه إسماعيل عليه السلام ٦٩

الجزء الثانى : إسماعيل عليه السلام هو الذبيح ، إن الذبيح كان بمكة ولم يكن بالشام . ٧٩

الجزء الثالث : رسالة إسماعيل عليه السلام فى قومه ٨٣

الفصـــل الرابع

تاريخ الأمة المسلمة فى حرم الله الآمن وما حوله منذ عهد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وحتى قبيل بعثة محمد ﷺ ٨٧

الفصـــل الخامس

الجزء الأول : تاريخ وحضارة البيت العتيق وحرم الله الآمن ومكة المكرمة منذ أقدم الدهور ٩٧

(ا) تسمية مكة ٩٧

(ب) فضائل مكة وخواصها ٩٨

(جـ) من الذى بنى بيت الله العتيق ؟ ومتى ؟ ١٠٣

الجزء الثانى : الأساس الذى يقوم عليه بيت الله العتيق وحرم الله الآمن ١٠٦
ما هى حدود حرم الله الآمن ؟ ١٠٦
هل هناك حرم آخر غير الحرم المكى ؟ ١٠٦
الأماكن التى يحتويها حرم الله الآمن ١٠٧

الجزء الثالث : الله سبحانه وتعالى هو الذى حرم مكة ١٢١

الفصل السادس

الجزء الأول : إبراهيم عليه السلام يؤذن فى الناس بالحج ١٢٥
الجزء الثانى : معالم يرسيها نسك الحج فى حياة الأمة الإسلامية ١٣١
الجزء الثالث : الحج ١٣٧

الفصل السابع

الجزء الأول : دراسة نقدية
(ا) الكتاب الأول : دراسات تاريخية من القرآن الكريم فى بلاد العرب ١٥٣
(ب) الكتاب الثانى : دائرة معارف القرن العشرين ، تأليف محمد فريد وجدى ١٨١

الجزء الثانى :
الكتاب الثالث : سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين فى النصف الأول من القرن العشرين ، تأليف د. حسن صبرى الخولى ، دار المعارف ، مصر ١٩٧٣ .... ١٨٣
خاتمـــة ٢٠١
وثائق سيرة إبراهيم وإسماعيل وهاجر عليهم السلام ، ووثائق عن تاريخ البيت العتيق ومكة المكرمة والحرم الآمن ٢١٧
المصـادر والمراجـع ٢٥٧

مطابع الوفاء - المنصورة
شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب
ت : ٣٤٢٧٢١ - ص.ب : ٢٣٠
تلكس : ٢٤٠٠٤ DWFA UN

رقم الإيداع بدار الكتب
١٩٨٦/١٦١٩

الترقيم الدولى
٩٧٧ - ١٤٢٠ - ٤٩ - ٦

لسماء .

يهم السلام ، وتاريخ

د الأقصى .

الله عنه .

ية الفلسطينية - ثلاثة

قدم عصورها وحتى
والعراق .
جسد الأمة المسلمة
١هـ) - (١٢٩٩ـ

لبراعم المسلمة :

وبنوه يكونون أول

ة والكون المسلم).

سلام أول رسول إلى

قرش جنيه
٩,٢٥ ج.

زيع - المنصورة ش.م.م
مد عبده المواجه لكلية الآداب
٣٥٦٢٣٠ /
٢٣٠ تلكس DWFA UN 24004

نا من :

- مكتبة الوفاء

٢٩٣٤ ، فاكس ٢٩٢١٩٩٧